

عبد الرحمن البرنوقى

الذخائر والعقبات

مُعْجَمٌ مُتَقَاتِفٌ مُجَامِعٌ

الجزء الثانى

مكتبة الثقافة الدينية
٥٢٦ ش بورسعيد - الظاهر
القاهرة/ ت: ٩٣٦٢٧٧ - ٩٢٢٦٢٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

رَضَهُ سُبْحَانَهُ فَتَسْمَعُ الْعَوْدَةَ وَالتَّوْفِيقَ

فَهُوَ الْمُسَدَّدُ إِلَى سِوَاهِ الطَّرِيقِ

« وبعد » فَإِنَّا نَفْتَحُ هَذَا الْجُزْءَ الثَّانِيَّ مِنْ « الذَّخَائِرِ وَالْعَبَقِيَّاتِ » بِصَدِّ
مِنْ عَبَقِيَّاتِهِمْ فِي أَكْثَرِ الْمَعَانِي الَّتِي أوردنا ما أوردنا مِنْ عَبَقِيَّاتِهِمْ فِيهَا ، فِي
أَبْوَابِ الْجُزْءِ الْأَوَّلِ ، وَكَانَ الْمُتَوَقَّعُ أَنْ نَفْتَحَ هَذَا الْجُزْءَ بِسَائِرِ عَبَقِيَّاتِهِمْ
فِي التَّعَاذِي ، وَفِي الْمَرَضِ ، يَبْدَأُ أَنَا قَدْ اسْتَحْسَنَّا أَنْ نُصَدِّرَ هَذَا الْجُزْءَ الثَّانِيَّ
بِطَائِفَةٍ مِنْ عَبَقِيَّاتِهِمْ فِي مَعَانِي شَيْءٍ تَنْدَرِجُ فِي الْأَبْوَابِ السَّابِقَةِ ، وَذَلِكَ
لِأَمْرَيْنِ : أَمَّا أَوْلَاهُمَا فَلَأَنَّ فِي هَذَا الصَّنِيعِ مُبَادَرَةً بِاسْتِدْرَاكِ مَا قَدْ كَانَ يَصْحُحُ
إِبْرَادُهُ هُنَاكَ ، وَأَمَّا الْآخَرُ : فَذَلِكَ لِأَنَّا لَمْ نَسْتَحْسِنْ أَنْ نَفْجَأَ الْمُتَصَفِّحَ لِهَذَا
الْجُزْءِ بِمَا عَسَى أَنْ يُفْرِغَهُ وَيَنْفِرَ مِنْهُ ، وَتَنْقَبِضَ نَفْسُهُ عَنْهُ ، عَلَى أَنْ هَذِهِ
الْعَبَقِيَّاتِ وَإِنْ جَاءَتْ فِي الْبَيْنِ وَتَصَلَّتْ بَيْنَ عَبَقِيَّاتِ الْبَابِ الثَّالِثِ غَيْرِ
أَنَّهَا جَاءَتْ كَالدُّرَّةِ الْفَرِيدَةِ تَفْصِلُ بَيْنَ ذَهَبِ الْقِلَادَةِ ؛ إِلَى مَا فِي ذَلِكَ مِنْ
اسْتِرَاحَةٍ لِلْقَارِئِ وَتَنْقُلُ بِهِ مِنْ مَعَانٍ قَدْ تَكَثَّرْنَا مِنْهَا إِلَى مَعَانٍ أُخْرَى قَدْ
يَسْتَرِيحُ إِلَى جِدَّتِهَا ؛ وَبَعْدَ أَنْ نَفْرُغَ مِنْ هَذِهِ الْعَبَقِيَّاتِ نَعْطِفُ عَلَى عَبَقِيَّاتِهِمْ
فِي التَّعَاذِي ، وَفِي الْمَرَضِ ، وَقَانَا اللَّهُ جَمِيعًا بِحُجَّتِهِ ، وَخَفَّفَ - إِذَا هُوَ قُدِّرَ
عَلَيْنَا - وَطَأَّتَهُ .

غـبـقـريـات شـتـى

تندرج في الأبواب السابقة

سمو أخلاق الخلفاء الراشدين

ومما يُؤثر في باب حسن الخلق ما حدّث به العُتبيّ^(١) في إسناد ذكره قال: دعا طلحةُ بنُ عبيد الله أبا بكر وعمر وعثمانَ رَحْمَةَ الله عليهم، فأبطأ الغلامُ - الخادم - عنه بشيءٍ أراده، فقال طلحةُ: يا غلام، فقال الغلام: كَيْبِكَ، فقال طلحةُ: لا لَيْبِكَ؛ فقال أبو بكر: ما يسُرني أني قُلْتُها وأن لي الدنيا وما فيها، وقال عمر: ما يسُرني أني قُلْتُها وأن لي نِصْفَ الدنيا، وقال عثمان: ما يسُرني أني قُلْتُها وأن لي حُمْرَ النَّعَمِ^(٢)؛ قال العُتبيّ: وصمّتَ عليها أبو محمد - هو طلحة - فلما خَرَجَوا من عِنْدِهِ باع ضَيْعَةً بِخَمْسَةِ عَشَرَ أَلْفَ دِرْهَمٍ، فَتَصَدَّقَ بِثَمَنِها ... فهل رأيتَ أو سَمِعْتَ بِمِثْلِ هذا الأدب العُلويّ الرِّبانيّ! وأنت إذا نظرت إلى هذا الحديث من أيّ أقطاره رأيتَ أدباً باسِقاً وخُلُقاً سامياً! فهذا الصِّديقُ رَضِيَ اللهُ عنه يُنكر في كِياسة وأدب قَوْلَهُ

(١) هو أبو عبد الرحمن محمد بن عبيد الله ... بن عتبة بن أبي سفيان: شاعر أديب راوية للأخبار والأدب ... تتابعت عليه مصائب في أولاده الذكور الستة في الطاعون الذي كان بالبصرة سنة ٢٢٩ هـ فرائم بمرات كثيرة منها قوله:

كَلَّ لسانِي عن وصف ما أجد وذقتُ نُكْلاً ما ذاقه أحد

ما عالج الحزنَ والحِراةَ في الاحشاء من لم يميت له ولد

وله من الأبيات السائرة:

قال عهدتك مجنوناً فقلت لها إن الشباب جنون بُروءه الكبر

(٢) النعم: الإبل خاصة والعرب تقول: خير الإبل حرها وصمها؛ لأن الحرأ

أصبر على المواجر، والصباء أحسن حين ينظر إليها

أبي محمد لغلامه : لا ليك ، ثم يحيى بعده عمر فينكر هو الآخر إنكاراً لا يحظ فيه التأدب مع الخليفة أبي بكر ، وكذلك فعل عثمان مع عمر ، وأخيراً يكفر أبو محمد عن هذه البادرة بخمسة عشر ألف درهم ... لا جرم لقد أدبهم المصطفى صلوات الله عليه ، الذي أدبه ربه فأحسن تأديبه .

طلحة بن عبيد الله

وهذا طلحة بن عبيد الله هو الصحابي الجليل أحد العشرة المبشرين بالجنة^(١) وأحد الثمانية الذين سبقوا إلى الإسلام ، وأحد الخمسة الذين أسلوا على يد أبي بكر ، وأحد الستة أصحاب الشورى^(٢) وأحد أغنياء الصحابة ، وأحد أجواد قريش ، بل كان نبي الجود ، إن كان للجود نبي ... وقد كان يقال له : طلحة الفياض ، وطلحة الجود ، وطلحة الخير ، يقال إنه فرّق في يوم سبعمائة ألف ، باع أرضاً له من عثمان بن عفان بسبعمائة فحملها إليه ، فبات ورؤسله تختلف بها في سكك المدينة حتى أسحر^(٣) وما عنده منها درهم واحد ويروى أنه وصل أعرابياً من أقاربه بشماتة ألف درهم ؛ وكان لا يدع أحداً من بني تميم عابلاً إلا كفاه ، ووثقه عياله وزوج أيامهم^(٤) وأخدم عائلهم وقضى دين غارهم ، وكان يرسل إلى السيدة عائشة إذا جاءت غلته كل

(١) وقال له سيدنا رسول الله يوم أحد : إنه قد أوجب : أي أتى بما أوجب

له الجنة .

(٢) أي الذين عهد إليهم الفاروق رضى الله عنه أن يتشاوروا ويختاروا من بينهم

خليفة بعده .

(٣) أسحر : صار في السحر ، والسحر : ما قبل انصداع الفجر

(٤) الأياح جمع أيم والأيم من النساء : التي لا زوج لها بكرة كانت أو ثيباً

ومن الرجال : الذي لا امرأة له

سنة بعشرة آلاف ... إلى آخر أنباء جوده وكرمه ؛ ولما انقضى يوم
الجمال^(١) خرج علي بن أبي طالب في ليلة ذلك اليوم ومعه قَنَسِيرٌ^(٢) ، وفي
يده مَشْعَلَةٌ من نار يتَصَفَّحُ القتلى ، حتى وقف على طاححة فقال : أَعَزُّهُ عَلِيٌّ
أَبَا مُحَمَّدٍ أَنْ أَرَاكَ مُعَفَّرًا^(٣) تحت نجوم السماء وفي بطون الأودية : شَفَيْتُ

نَفْسِي وَقَتَلْتُ مَعْشَرِي ۖ إِلَى اللَّهِ أَشْكُو عُجْرِي وَبُجْرِي^(٤) ثم تمثل^(٥)

قَتَى كَانَ يُدْنِيهِ الْغَنَى مِنْ صَدِيقِهِ إِذَا مَا هُوَ اسْتَعْنَى وَيُبْعِدُهُ الْفَقْرُ

قَتَى لَا يَعُدُّ الْمَالَ رَبًّا وَلَا تُرَى بِهِ جَفْوَةٌ إِنْ نَالَ مَالًا وَلَا كِبْرُ

قَتَى كَانَ يُهْطِي السِّيفَ فِي الرَّوْعِ حَقَّهُ

إِذَا تَوَبَّ الدَّاعِي وَتَشَقَّى بِهِ الْجُزْرُ^(٦)

وَهَوَّنَ وَجْدِي أَنِّي سَوْفَ أُغْتَدِي عَلَى إِثْرِهِ يَوْمًا وَإِنْ نَفَسَ الْعُمُرُ

وقوله قَتَى كَانَ يُدْنِيهِ الْغَنَى مِنْ صَدِيقِهِ... أَلْبَيْت : هو معنى جميل مطروق

وفيه يقول إبراهيم بن العباس الصولي في محمد بن عبد الملك الزيات :

(١) هو تلك الواقعة التي نشبت بين علي وبين عائشة ومن معها ، وكانت عائشة

تمتطي جملا فسمى ذلك اليوم يوم الجمال

(٢) هو خادم علي

(٣) معفراً : أي ملصق الوجه بالتراب ويقال للتراب : العفر . والعفر

(٤) أي ما ظهر من أمرى وما بطن ، وأصل العجر : العروق المنعقدة في الظهر

والبجر : العروق المنعقدة في البطن ، وقال الاصمعي : هو قول سائر في أمثال العرب

يقال : لقي فلان فلانا فأبته عجره وبجره

(٥) هذه الآيات لسلسلة بن يزيد بن مشجعة الجهمي أحد الصحابة يرثي أخاه لأمه

(٦) توب الداعي ، فالثوب : التلويح بالثوب مع صوت فيه استغاثة وقال عمرو

ابن العلاء : الثوب : الترجيع من ناب يثوب إذا رجع يريد : إذا رجع الداعي دعاه

بعد دعاه ، يصفه بإجابة الصريخ وقوله : وتشقى به الجزر ، يصفه بكرم الضيافة

أَسَدٌ ضَارٍ إِذَا مَا نَعْتَهُ وَأَبٌ بَرٌّ إِذَا مَا قَدَّرَا
يَعْرِفُ الْأَبْعَدَ إِنْ أَتْرَى وَلَا
يَعْرِفُ الْأَدْنَى إِذَا مَا افْتَقَرَا

ويقول الأديب أبو بكر الخوارزمي :

رَأَيْتُكَ إِنْ أَيْسَّرْتَ خَيْمَتَ عِنْدَنَا لِنَامًا وَإِنْ أَعَسَّرْتَ زُرْتَ لِمَامَا
فَمَا أَنْتَ إِلَّا الْبَدْرُ إِنْ قَلَّ ضَوْؤُهُ أَغْبَى وَإِنْ زَادَ الضِّيَاءُ أَقَامَا
وقد تقدمت أبيات لعبد الله بن الزبير الأسدی فی هذا المعنى؛ وما أبرع
أبياتا لابن المعتز يقول فيها :

إِذَا مَا أَرَادَ الْحَاسِدُونَ أَنْ هِدَامَهُ بِنَاهُ إِلَهُ غَالِبِ الْعِزِّ قَاهِرُهُ
وَمَاذَا يَرِيدُ الْحَاسِدُونَ مِنْ أَمْرِي تَزِينُهُمْ أَخْلَاقُهُ وَمَا بَرُهُ
إِذَا مَا هُوَ اسْتَغْنَى اهْتَدَى لَافْتِقَارِهِمْ

ولاهتدى يوماً إليهم مفاقرُهُ (١)

وكانوا كزرايم كوكباً ببصافه فَرَدَّ عَلَيْهِمْ وَبَلَّهْ وَمَوَاطِرُهُ (٢)

حادث تلاقى فيه الكرم بالشجاعة والمروءة

والحياء والنبل

تحدَّثَ رَجُلٌ مِنَ الْأَعْرَابِ قَالَ : نَزَلْتُ بِرَجُلٍ مِنْ طَيْمٍ ، فَتَحَرَ لِي نَاقَةٌ

(١) المفاقر : وجوه الفقر ، أو جمع فقر على غير قياس كاللمايح والمشابه

(٢) هذا البيت كما قال بعض العرب :

رَمَانِي بِأَمْرٍ كُنْتُ مِنْهُ وَوَالِدِي بَرِيئًا وَمَنْ جَالِ الطَّوِيِّ رَمَانِي
وَالجَالِ وَالجَوَالِ : الناحية ، والطوى : البئر ، يريد : رماني بما عاد عليه ،

فَأَكَلْتُ مِنْهَا ، فَلَمَّا كَانَ الْعَدُوُّ نَحَرَ أُخْرَى فَقُلْتُ : إِنَّ عِنْدَكَ مِنَ اللَّحْمِ مَا يُغْنِي عَنِّي وَيَكْفِي ، فَقَالَ : إِنْ وَاللَّهِ لَا أُطْعِمُ ضَيْفِي إِلَّا لِحْمًا عَبِيطًا ، قَالَ : وَنَعَلَ ذَلِكَ فِي الْيَوْمِ الثَّلَاثِ ، وَفِي كُلِّ ذَلِكَ آكُلُ شَيْئًا وَيَأْكُلُ الطَّائِفُ أَكْلَ جَمَاعَةٍ ، ثُمَّ نُوتِي بِاللَّبَنِ فَأَشْرَبُ شَيْئًا وَيَشْرَبُ عَامَّةَ الْوَطْبِ ، فَلَمَّا كَانَ فِي الْيَوْمِ الثَّلَاثِ ارْتَقَيْتُ غَفْلَتَهُ ، فَاضْطَجَعْتُ ، فَلَمَّا امْتَسَلًا نَوْمًا اسْتَقْتُ قَطِيعًا مِنْ إِبْرِيلِهِ ، فَأَقْبَلْتُهُ الْفَجَّ ، فَانْتَبَهَ ، وَاخْتَصَرَ عَلَيَّ الطَّرِيقَ حَتَّى وَقَفَ لِي فِي مَضِيقِي مِنْهُ ، فَأَلْقَمَ وَتَرَهُ فَوْقَ سَهْمِهِ ، ثُمَّ نَادَى بِي : لَتَطْبُ نَفْسُكَ عَنْهَا ، قُلْتُ : أَرِنِي آيَةً ، فَقَالَ : انْظُرْ إِلَى ذَلِكَ الصَّبِّ ، فَإِنِّي وَاضِعٌ سَهْمِي فِي مَغْرَزِ ذَنْبِهِ ، فَرَمَاهُ ، فَأَنْدَرَ ذَنْبَهُ ، فَقُلْتُ : زِدْنِي ، فَقَالَ : انْظُرْ إِلَى أَعْلَى فَقَارِهِ ، فَرَمَاهُ ، فَأَنْبَتَ سَهْمَهُ فِي الْمَوْضِعِ ، ثُمَّ قَالَ لِي : الثَّلَاثَةُ وَاللَّهُ فِي كَيْدِكَ ، فَقُلْتُ : شَأْنُكَ يَا بَيْلِكَ ، فَقَالَ : كَلَّا ، حَتَّى تَسُوقَهَا إِلَى حَيْثُ كَانَتْ ، قَالَ : فَلَمَّا انْتَهَيْتُ بِهَا قَالَ : فَكَّرْتُ فِيكَ فَلَمْ أَجِدْ لِي عِنْدَكَ رِزَّةً تُطَالِبُنِي بِهَا ، وَمَا أَحْسِبُ الَّذِي حَمَلَكَ عَلَى أَخْذِي لِي إِلَّا الْحَاجَةَ ، قَالَ : قُلْتُ : هُوَ وَاللَّهُ ذَاكَ ، قَالَ : فَاعْمِدْ إِلَى عَشْرِينَ مِنْ خِيَارِهَا فَخُذْهَا ، فَقُلْتُ : إِذْنًا وَاللَّهُ لَا أَقْسِلُ حَتَّى تَسْمَعَ مَدْحَكَ ، وَاللَّهُ مَا رَأَيْتُ رَجُلًا أَكْرَمَ ضِيَاةً وَلَا أَهْدَى لِسَابِيلٍ وَلَا أَرْمَى كَفَا وَلَا أَوْسَعَ صَدْرًا وَلَا أَرْغَبَ جَوْفًا وَلَا أَكْرَمَ عَفْوًا ، مِنْكَ ، قَالَ : فَاسْتَحْيَا فَصَرَفَ وَجْهَهُ عَنِّي ، ثُمَّ قَالَ : أَنْصِرْفِ بِالْقَطِيعِ مُبَارَكًا لَكَ فِيهِ ...

• قوله : عَبِيطًا : يُقَالُ : عَبَطَ فُلَانٌ نَاقَتَهُ : إِذَا نَحَرَهَا مِنْ غَيْرِ دَاءٍ وَلَا كَسْرِ ، وَهِيَ شَابَةٌ سَمِيَّةٌ ، وَالْعَبِيطُ أَيْضًا : اللَّحْمُ الطَّرِيقِيُّ غَيْرِ النُّضِيجِ ، وَالْوَطْبُ : سِقَاءُ اللَّبَنِ خَاصَّةٌ مِنَ الْجِلْدِ ، وَالْفَجَّ : الطَّرِيقُ الْوَاسِعُ بَيْنَ جَبَلَيْنِ ، وَالْجَمْعُ : جَفَاجٌ ؛ وَاخْتَصَرَ الطَّرِيقَ : سَلَكَ أَقْرَبَهُ ، وَفَوْقَ السَّهْمِ : مَشَقُّ رَأْسِهِ حَيْثُ

يقع الوتر ، وقوله : فَأَنْدَرَ ذَنْبَهُ : أى أَسْقَطَهُ ، وقد نَدَرَ الشَّيْءُ يَنْدُرُ نَدُورًا : سقط أو سقط من جوفِ شيءٍ أو من بين أشياء فظهر ، ومنه نوادرُ الكلام وهي ما شذت وخرجت عن جمهوره فظهرت . وقوله : ولا أرغب جوفًا : من الرُّغْب وهو : سَعَةُ البَطْنِ وكثرة الأكل ،

حلم وأدب وسمو خلق

رَوَى المُبَرِّدُ : أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الشَّامِ قَالَ : دَخَلْتُ الْمَدِينَةَ ، فَرَأَيْتُ رَجُلًا رَاكِبًا عَلَى بَعْلَةٍ لَمْ أَرَ أَحْسَنَ وَجْهًا وَلَا سَمْتًا وَلَا ثَوْبًا وَلَا دَابَّةً ، مِنْهُ إِذَا قَالَ قَلْبِي إِلَيْهِ ، فَسَأَلْتُ عَنْهُ فَقِيلَ لِي : هَذَا الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ، فَاثْمَلًا قَلْبِي لَهُ بُغْضًا ^(١) وَحَسَدًا عَالِيًا أَنْ يَكُونَ لَهُ ابْنٌ مِثْلُهُ إِذْ فَصِرْتُ إِلَيْهِ ^(٢) ، فَقُلْتُ لَهُ : أَنْتَ ابْنُ أَبِي طَالِبٍ ؟ فَقَالَ : أَنَا ابْنُ ابْنِهِ ، فَقُلْتُ : فَبِكِ وَيَأْبِيكَ أُسْبُهُمَا ، فَلَمَّا انْقَضَى كَلَامِي قَالَ لِي : أَحْسَبُكَ غَرِيبًا أَقَلْتُ : أَجَلُ قَالَ : فَبِلْ بِنَا فَإِنْ احْتَجَجْتَ إِلَى مَنْزِلِ أَنْزَلْنَاكَ ، أَوْ إِلَى مَالِ آسِنَاكَ ، أَوْ إِلَى حَاجَةِ عَاوَنَاكَ ، قَالَ : فَانصَرَفْتُ عَنْهُ وَوَاللَّهِ مَا عَلَى الْأَرْضِ أَحَدٌ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْهُ ... وَقَالَ رَجُلٌ لِرَجُلٍ مِنْ قَرِيشٍ : إِنِّي مَرَرْتُ بِقَوْمٍ مِنْ قَرِيشٍ يَشْتَمُونَكَ شَتْمًا رَحِيتُكَ مِنْهُ إِذَا قَالَ الْقَرَشِيُّ : أَفَسَمِعْتَنِي أَقُولُ إِلَّا خَيْرًا ؟ قَالَ : لَا ، قَالَ : لِإِبَاهِمِ فَارْحَمَ ... وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ : إِنْ الرَّجُلَ كَيْتَظَلِمُنِي فَارْحَمْهُ إِذَا قَالَ رَجُلٌ لِلشَّعْبِيِّ كَلَامًا أَقْدَعَ لَهُ فِيهِ ، فَقَالَ لَهُ الشَّعْبِيُّ : إِنْ كُنْتَ صَادِقًا فَعَفِرَ اللَّهُ لِي ، وَإِنْ كُنْتَ كَاذِبًا فَعَفِرَ اللَّهُ لَكَ ... وَيُرْوَى أَنَّهُ أَتَى مَسْجِدًا ، فَصَادَفَ فِيهِ قَوْمًا يَغْتَابُونَ ، فَأَخَذَ بَعْضَادَتِي الْبَابِ ثُمَّ تَمَثَّلَ بِقَوْلِ كَثِيرِ عَزَّةَ :

(١) لأن الرجل من أشياخ معاوية بن أبي سفيان رضى الله عنه (٢) توجهت إليه

هَنِيئًا مَرِيئًا غَيْرَ دَائٍ مُخَامِرٍ لِعِزَّةٍ مِنْ أَعْرَاضِنَا مَا اسْتَحَلَّتْ
وقال محمود الوراق :

إِنِّي شَكَرْتُ لِظَالِمِي ظُلْمِي وَغَفَرْتُ ذَاكَ لَهُ عَلَى عِلْمِي
وَرَأَيْتُهُ أَسَدَى إِلَى يَدَا لَمَّا أَبَانَ بِجَهْلِهِ حِلْمِي
رَجَعْتُ إِسَاءَتَهُ عَلَيْهِ وَإِحْسَانِي فَعَادَ مُضَاعَفَ الْجُرْمِ
وَعَدَوْتُ ذَا أَجْرٍ وَمَحْمَدَةَ وَعَدَا بِكَسْبِ الظُّلْمِ وَالْإِسْمِ
فَكَأَنَّمَا الْإِحْسَانُ كَانَ لَهُ وَأَنَا الْمِسِيُّ إِلَيْهِ فِي الْحُكْمِ
مَازَالَ يَظْلِمُنِي وَأَرْحَمُهُ حَتَّى بَكَيتُ لَهُ مِنَ الظُّلْمِ

خير ما يرزقه العبد

قال بعض الملوك لبعض وزرائه - وأراد محنته - : ما خير ما يرزقه
العبد ؟ قال : عقلٌ يعيش به ، قال : فإن عديمه ؟ قال : فادبٌ يتجلى به ،
قال : فإن عديمه ؟ قال : فمالٌ يسُتره ، قال : فإن عديمه ؟ قال : فصاعقةٌ تُريحُ
منه العبادَ والبلادَ ...

لاتزال العرب عربا

ما حافظت على زيتها

كان الأحنف بن قيس يقول : لاتزال العربُ عرباً ما لبست العمام ،
وتقلدت السيوف ، ولم تعدد الحِلْمَ ذُلاً ، ولا التواهُبَ فيما بينها ضعةً ...
« قوله : ما لبست العمام ، يريد : ما حافظت على زيتها ، وقوله : وتقلدت
السيوف ، يريد : الامتناع من الضيم ، وقوله : ولم تعدد الحِلْمَ ذُلاً ، يقول :
ما عرفت موضع الحِلْمِ ، وذلك أن الرجل إذا أغضى للسلطان ، أو أغضى

عن الجواب وهو مأثور لم يُقَلْ: حَلَمَ ، وإنما يقال : حَلُمَ ، إذا تَرَكَ أن يقول الشيء لصاحبه مُنتصرا ولا يخاف عاقبةً يَكْرَهُها . فهذا الحِلْمُ المحض ، فإذا لم يفعل ذلك ورأى أن تَرَكَ الحِلْمَ ذُلٌّ فهو خطأً وسَفَهَةٌ ؛ وقوله : ولم تَرَ التواهبَ بينها ضَعْفَةٌ ، نحو من هذا ، وهو : أن يَهَبَ الرجل من حَقَّةٍ مالا يُسْتَكْرَهُ عليه ... وكان يقال : أحيوا المعروف بإماتته ، ومعنى ذلك : أن الرجل إذا امتنَّ بمروفيه كَدَّرَه ؛ وقيل : المِنَّةُ تَهْدِمُ الصنِيعَةَ ، وقد قال قيسُ بن عاصمِ المِنْقَرِي : يا بني تميم ، اصْحَبُوا مَنْ يذكُرُ إحسانكم إليه وَيَلْسَى أياديَه إليكم ...»

توقير العالم والشريف والكبير

والترفع عن الوضع

كان زياد بن أبيه يقول : أوصيكم بثلاثة : بالعالم ، والشريف - يعني العظيم القدر - والشيخ - يريد : الذي تقدمت به السن - فوالله لأوثق بوضع سبب شريفا ، أو شابٍ وَابٍ بشيخ ، أو جاهلٍ امتَهَنَ عالما ، إلا عاقبتُ وبالغتُ ... وقال عُمارة بن عقييل بن بلال بن جرير لبني أسد ابن خزيمة :

يا أيها السائل عمداً لِأُخْبِرَه بذاتِ نفسى وأيدى الله فوق يدي
 إن تستقيم أسدُ ترشدوا إن شَقَّيْت فلا يَلْمُ لائِمٌ إلا بني أسد
 إنى رأيتكم يُعَصَى كَبيركم وتكنعون إلى ذى الفَجْرَةِ التَّكيدِ^(١)

(١) تكنعون : تخضعون ، من كنع يكنع - بالفتح فهما - كنوعا : خضع ، والفجرة اسم لكل قبيل ، من فجر الرجل ينجر فجرا وفجورا : انبعث في المعاصي ، والتكيد : اللئيم ، من التكد - بالتحريك - وهو الشوم واللؤم

فَبَاعِدَ اللهُ كُلَّ الْبُعْدِ دَارَكُمْ وَلَا شَفَاكُمْ مِنَ الْأَضْغَانِ وَالْحَسَدِ
 فرأى عصيانهم الكبير من أفتح العيب وأدله على ضغن بعضهم لبعض
 وحسد بعضهم بعضا ، والوضيع ينقلب إلى الشريف لأنه يرى مُقاولته غفرا ،
 والاجترأ عليه ربجا ، كما أن مقاوله الشريف للثيم ذل وضعة قال الشاعر :
 إِذَا أَنْتِ قَاوَلْتِ اللَّثِيمَ فَإِنَّمَا يَكُونُ عَلَيْكَ الْعَتَبُ حِينَ تُقَاوَلُهُ
 وَلَسْتَ كَمَنْ يَرْضَى بِمَا غَيْرُهُ الرِّضَا وَيَمْسَحُ رَأْسَ الذَّنْبِ وَالذَّنْبُ آكَلُهُ
 قال المبرد : وفي هذا الشعر بيتان يقدمان في باب الفتك - وفي باب الغرم
 والشجاعة والإقدام - وهما :

فَلَا تَقْرِنَنَّ أَمْرَ الصَّرِيمَةِ بِأَمْرِي إِذَا رَامَ أَمْرًا عَوَّقْتَهُ عَوَاذِلُهُ (١)
 وَقُلْ لِلْفُؤَادِ إِنِّ نَزَابِكَ نَزْوَةٌ مِنَ الرَّوْعِ : أَفْرِخْ أَكْثَرَ الرَّوْعِ بِاطِلُهُ (٢)

قال المبرد : وقد امتنع قوم من الجواب - أي من مقاوله اللثيم - تبلا
 - يريد ترفعا - وواضعهم تُنْبِي عن ذلك - أي أن مراكرهم تدل على
 أن امتناعهم ترفع - وامتنع قوم عيبا بلا اعتلال - يريد دون أن يبدوا علة لهذا
 الإعراض عن اللثام - وامتنع قوم عجزوا واعتلوا بكراهة السفه ، وبعضهم
 معتل برفعة نفسه عن خصمه ، وبعضهم كان يسب الرجل الركيك من
 العشيرة ، فيعرض ويسب سيده قومه ، وكانت الجاهلية ربما فعلته في الذحول

(١) فلا تقرن : من قرنت الشيء بالشيء : شده إليه ، وكذلك قرنته إليه ،
 والصريمة : العزيمة

(٢) إن نزابك نزوة : فالنزوة : المرة من النزو وهو الوثوب إلى فوق ، يريد :
 إن تسلط عليه الفزع والرعب فاضطرب ، وأفرخ يريد : أفرخ روعك ، ومعناه : ليخرج
 عنك رعبك ويذهب فزعك كما تفرخ البيضة إذا انفلقت عن الفرخ فخرج منها وقوله :
 أكثر الروع باطله ، يريد : ليس الأمر على ما تحاذر

- جمع دُحُل وهو: الثَّار - قال الراجز:

إِن بَجِيلاً كَلِمَا هَجَانِي مِلْتُ عَلَى الْأَعْطَاشِ أَوْ أَبَانِي
أَوْ طَلْحَةَ الْخَيْرِ قَتَى الْفِتْيَانِ أَوْلَاكَ قَوْمٌ شَأْنُهُمْ كَشَانِي
مَا نِلْتُ مِنْ أَعْرَاضِهِمْ كَفَانِي وَإِنْ سَكَتُ عَرَفُوا إِحْسَانِي
وقال أحد المحدثين :

إِنِّي إِذَا هَرَّ كَلْبٌ الْحَيَّ قَلْتُ لَهُ إِسْلَمْ وَرَبُّكَ مَخْنُوقٌ عَلَى الْجِرَرِ (١)
وفي مثل اختيار النبل لتكافأ الأعراض قول الأخطل :

شَفَى النَّفْسَ قَتَلَى مِنْ سُلَيْمٍ وَعَاسِرٍ وَلَمْ يَشْفِهَا قَتَلَى غَتَى وَلَا جَمِيرٍ
وَلَا جُشْمٍ شَرَّ الْقَبَائِلِ لِنَهَا كَبِيضِ الْقَطَا لَيْسُوا بِسُودٍ وَلَا حُمْرٍ
وَلَوْ بَنَى ذِيانَةَ بُلْتُ رِمَاحُنَا انْقَرَّتْ بِهِمْ عَيْنِي وَبَاءَ بِهِمْ وَتَرِي
وقال رجل من المحدثين وهو حمدان بن أبان اللاحقي :

أَلَيْسَ مِنَ الْكَبَائِرِ أَنْ وَغَدَاً لَّالٍ مَعْدَلٍ يَهْجُو سَدُوسَا
هَجَا عِرْضاً لَهُمْ غَضًّا جَدِيداً وَأَهْدَفَ عِرْضَ وَالِدِهِ اللَّيْسَا (٢)
وقال آخر :

اللُّؤْمُ أَكْرَمُ مِنْ وَبْرٍ وَوَالِدِهِ وَاللُّؤْمُ أَكْرَمُ مِنْ وَبْرٍ وَمَا وُلِدَا
قَوْمٌ إِذَا جَرَّ جَانِي قَوْمَهُمْ أَمِنُوا مِنْ أَوْمٍ أَحْسَا بِهِمْ أَنْ يُقْتَلُوا قَوْدَا
اللُّؤْمُ دَاءٌ لَوْ بَرٍ يُقْتَلُونَ بِهِ لَا يُقْتَلُونَ بِدَاءٍ غَيْرِهِ أَبَدَا
وقال أحد المحدثين هو - دَعْبِلُ بْنُ عَلِيٍّ الْخَزَاعِي - :

(١) الجرر: جمع جزة وهي: الجذب كالجز والاجرر

(٢) يريد . جعله هدفا يرمى ، والليس : مستعار من قولهم ثوب ليس إذا كثر

لبسه فأخلق

أما الهجاءُ فَدَقَّ عِرْضُكَ دونه والمدْحُ غنك كما عَلِمْتَ جليلُ
فأَذْهَبَ فَأَنْتَ عَتِيقُ عِرْضِكَ إِنَّه عِرْضٌ عَزَزْتَ به وَأَنْتَ ذَلِيلُ
وقال آخر :

نُبِّئْتُ كَلْبًا هَابَ رَمِي لَهُ يَنْبُحْنِي مِنْ مَوْضِعِ نَائِي (١)
لو كُنْتَ مِنْ شَيْءٍ هَجَوْنَاكَ أَوْ لَوْ بَدَّتْ لِلسَّامِعِ وَالرَّائِي (٢)
فَعَدَّ عَنْ شَتْمِي فَإِنِ امْرُؤٌ حَلَمْنِي قَلَّةٌ أَكْفَائِي
وقال دعبل أيضاً :

فلو أَنِي بُبِّئْتُ بهَا سَمِي خُوِّلْتُهُ بِنو عبيدِ المَدَانِ
صَبَرْتُ عَلَى عَدَاوَتِهِ وَلَكِنْ تَعَالَى فَأَنْظُرِي بَيْنَ ابْتِلَانِي

ووقف رجلٌ عليه مُمَقَطَعَاتٌ على الأحنفِ بن قيسِ يُسَبُّهُ ، وكان عمرو
ابن الأَهمم جعلَ له ألفَ دِرْهَمٍ على أن يُسَفَّهُ الأحنفَ ، فجعل لا يألو أن
يُسَبَّهُ سبًّا يُغْضِبُ ، والأحنفُ مُطَرِّقُ صامتٍ ، فلما رآه لا يكلمه أقبل
الرجلُ يَعْضُ إِبْهَامِيهِ ويقول : يأسوأناهُ ، والله ما يمنعه من جوابي إلا هَوَانِي
عليه ... وفعل ذلك آخرُ فأمسكَ عنه الأحنفُ ، فأكثَرَ الرجلُ ، إلى أن
أراد الأحنفُ القيامَ للغدَاءِ فأقبلَ على الرجلِ فقال : يا هذا ، إِنَّ غَدَاءَنَا قد
حَضَرَ فَانْهَضْ بنا إليه إِنَّ شَتَّ فَإِنَّكَ مُدَّ اليَوْمِ تَحْدُو بِجَمَلٍ نَقَالَ. (٣)

عِبْرَةٌ

قال المنصورُ لعمرو بن عُبيد : عِظْنِي قال : بما رأيتُ أو بما سمِعتُ ؟

(١) ينبحنى : يريد تلحقنى شتائمهُ على سبيلِ المجاز

(٢) يريد : لو أحسن بك الأعمى والبصير

(٣) الثفال من الإبل : البطيء الثقيل الذى لا يكاد ينبعث ...

قال : بما رأيت ، قال : مات عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَخَلَّفَ أَحَدَ عَشَرَ ابْنًا وَبَلَغَتْ تَرِكَتُهُ سَبْعَةَ عَشَرَ دِينَارًا ، كَفَّنَ مِنْهَا بِخَمْسَةِ ، وَاشْتَرَى مَوْضِعًا لِقَبْرِهِ بِدِينَارَيْنِ ، وَأَصَابَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْ أَوْلَادِهِ ثَمَانِيَةَ عَشَرَ قِيرَاطًا مِنْ دِينَارٍ ... وَمَاتَ هِشَامُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ تَخَلَّفَ أَحَدَ عَشَرَ ابْنًا أَصَابَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْ أَوْلَادِهِ أَلْفَ أَلْفِ دِينَارٍ ، فَرَأَيْتُ رَجُلًا مِنْ أَوْلَادِ عَمْرِ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ قَدْ حَمَلَ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ عَلَى مِائَةِ فَرَسٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَرَأَيْتُ رَجُلًا مِنْ أَوْلَادِ هِشَامِ عَلَى قَارِعَةِ الطَّرِيقِ يَسْأَلُ الصَّدَقَةَ ...

لا تشكُّ إلى غير الله

حَدَّثَ بَعْضُهُمْ قَالَ : سَمِعْتُ شُرَيْحَ الْقَاضِي وَأَنَا أَشْكُو بَعْضَ حَالِي إِلَى صَدِيقٍ لِي ، فَأَخَذَ يَدِي وَقَالَ : يَا ابْنَ أَخِي ، يَاكَ وَالشُّكُورَى إِلَى غَيْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، الصَّدِيقُ يُخْزِنُهُ ، وَالْعَدُوُّ تُشْمِتُهُ ؛ انْظُرْ إِلَى عَيْنِي هَذِهِ - وَأَشَارَ إِلَى إِحْدَى عَيْنَيْهِ - وَقَالَ : وَاللَّهِ ، مَا أَبْصَرْتُ بِهَا شَخْصًا وَلَا طَرِيقًا مُنْذُ خَمْسِ عَشْرَةِ سَنَةٍ ، وَمَا أَخْبَرْتُ بِهَا أَحَدًا إِلَى هَذِهِ الْغَايَةِ سِوَاكَ ...

نبالة ومروءة

حَدَّثَ الْعَسْجِدِيُّ قَالَ : جَاءَ رَجُلٌ إِلَى أَبِي إِسْحَاقَ الْكِسَائِيِّ لِيَلَّا فَقَالَ : مَا جَاءَ بِكَ ؟ قَالَ : رَكِبْتُ دَيْنُ ، فَقَالَ : كَمْ هُوَ ؟ قَالَ : أَرْبَعُمِائَةِ دَرَاهِمٍ ، فَأَخْرَجَ كَيْسًا فَأَعْطَاهُ ، فَلَمَّا رَجَعَ عَنْهُ بَكَى ، فَقَالَ لَهُ أَهْلُهُ : مَا يُبْكِيكَ ؟ فَقَالَ : بُكَائِي أَنْ لَمْ أُبْحَثْ عَنْ حَالِهِ وَأَلْجَأْتَهُ إِلَى الذَّلِّ ...

دعوة الله

قال أعرابي :

وإني لأغضِي مُقَلَّتِي عَلَى القَدَى وَأَلْبَسُ ثَوْبَ الصبرِ أَيْضَ أبلِجَا
 وإني لأدعو الله والأمر ضيقٌ عَلَيَّ فما يَنْفِكُكَ أَنْ يَنْفَرَجَا
 وكم من قَتِي ضاقتُ عَلَيْهِ وجوهُهُ أَصابَ لها في دَعْوَةِ اللهِ مَخْرَجَا

* * *

كلمات في السؤال

قال الأصمعي : سمعت أعرابيا يقول : فَوْتُ الحاجة خَيْرٌ من طلبها من غير أهلها... قال : وسمعت آخر يقول : عِزُّ النزاهة أشرف من سرور العائدة قال : وسمعت آخر يقول : حَمَلُ المِنَنِ أَثْقَلُ من الصبر على التَّسَدُّمِ ... وفي الحديث الشريف : والذي نفسى بيده لأن يأخذ أحدكم حَبْلَهُ ثم يندو إلى الجبل فيحطب فيبيع فأكل ويتصدق خَيْرٌ له من أن يسأل أحدا فيعطيه أو يمنعه .

كانوا يَرَوْنَ أن الملوكة لا يُسْتَحَى من مَسْأَلَتِهِمْ

ولمناسبة السؤال نورد عليك مايلي : كان كبيد بن ربيعة الشاعر المخضرم شريفاً في الجاهلية والاسلام ، وكان نَذَرَ أَنْ لا تَهَبَّ الصَّبا ^(١) إلا نَحَرَ وأطعم حتى تَنَقَّضِي ، فهَبَّت بالاسلام وهو بالكوفة ^(٢) مُقْتِرٌ مُمْلِقٌ ،

(١) الصبا : الريح التي تهب من مطلع الشمس إذا استوى الليل والنهار وتسمى القبول لأنها تستقبل الكعبة

(٢) يقال : إنه أقام بالكوفة في عهد عمر بن الخطاب ولم يزل بها حتى مات في آخر خلافة معاوية عن خمس وأربعين ومائة سنة ، رحمه الله

فَعَلِمَ بِذَلِكَ الْوَلِيدُ بْنُ عُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ - وَكَانَ وَالِيهَا لِعِمَّانَ بْنِ عَفَّانَ - وَكَانَ أَخَاهُ لِأُمِّهِ - نَخِطَبُ النَّاسَ وَقَالَ : إِنَّكُمْ قَدْ عَرَفْتُمْ نَذْرَ أَبِي عَقِيلٍ وَمَا وَكَّدَ عَلَيَّ نَفْسَهُ ، فَأَعِينُوا أَحَاكِمَ ، ثُمَّ نَزَلَ ، فَبِعِثَ إِلَيْهِ بِمِائَةِ نَاقَةٍ وَأَيَّاتٍ يَقُولُ فِيهَا :

أَرَى الْجَزَارَ بِشَحْدُ شَفَرَتَيْهِ إِذَا هَبَّتْ رِيَّاحُ أَبِي عَقِيلٍ ^(١)

أَشْمُ الْأَنْفِ أَصِيدُ عَامِرِي طَوِيلُ الْبَاعِ كَالسَّيْفِ الصَّقِيلِ ^(٢)

وَقَى ابْنُ الْجَعْفَرِيِّ بِمَا نَوَاهُ عَلَى الْعِلَاتِ وَالْمَالِ الْقَلِيلِ ^(٣)

بِنَجْرِ السُّكُومِ إِذْ سُجِبَتْ عَلَيْهِ ذُيُولُ صَبَابِجَاوَبُ بِالْأَصِيلِ ^(٤)

فَلَمَّا أَتَتْهُ قَالَ : جَزَى اللَّهُ الْأَمِيرَ خَيْرًا ، قَدْ عَرَفَ الْأَمِيرَ أَنِّي لَا أَقُولُ شِعْرًا ^(٥) وَلَكِنْ أَخْرَجَنِي يَا بُلَيْتِي ، فَخَرَجْتَ خُمَاسِيَّةً ^(٦) فَقَالَ لَهَا : أَجِيبِي الْأَمِيرَ ، فَأَقْبَلْتِ وَأَذْبَرْتِ ، وَبِعِثْتَ النَّاسَ ، فَقَضَى نَذْرَهُ ، فَبِئْسَ ذَلِكَ تَقُولُ ابْنَةُ لَيْدٍ :

إِذَا هَبَّتْ رِيَّاحُ أَبِي عَقِيلٍ دَعَوْنَا عِنْدَ هَبَّتِهَا الْوَلِيدَا

طَوِيلَ الْبَاعِ أَيْضَ عَبْشَمِيًّا أَعَانَ عَلَى مُرُوءَتِهِ لَيْدَا ^(٧)

(١) الشفرة: السكين، والشحد: التحديد بالمشحد «بكسر الميم، وهو المسن

(٢) الأصيد: الذي يرفع رأسه كبرا لا يلتفت يمينا ولا شمالا

(٣) على العلات: على كل حال أو على ما فيه من الحالات والثنون

(٤) الكوم: العظام الاسنة واحدها كوما

(٥) لانه حزم على نفسه قول الشعر منذ أسلم

(٦) خماسية: طولها خمسة أشبار، وكذلك غلام خماسي ولا يقال إذا بلغ ستة

أشبار أو سبعة: سداسي ولا سباعي

(٧) أبيض: إذا قالت العرب: فلان أبيض فالمعنى: نقاء العرض من الدنس والعيوب

لا يريدون بياض، اللون وهذا كثير في شعرهم. وعبشمي: من بني عبديشم بن عبدمناف

بأمثالِ الهضاب ، كأن ركباً عليها من بنى حامٍ قعوداً ^(١)
 أبا وهب جزاك الله خيراً نحرناها وأطعنا الثريدا
 قعد إن الكريم له معادٌ وظنى ببنٍ أروى أن يعودا
 فقال لها لييد : أحسنت يا بليتى لولا أنك سألت ا فقالت : إن الملوك
 لا يستحى من مسألتهم ا ولو كان سُوقة لم أفعل ... فقال لها : وأنتِ في
 هذا أشعرا

مثل في الرياء

عن وهب بن منبه قال : نصّب رجلٌ من بنى إسرائيل نخفاً ، فجاءت
 عصفورةٌ فنزلت عليه ، فقالت : مالى أراك منحنيا ؟ قال : لكثرة صلاتى
 انحيت ا قالت : فمالى أراك باديةً عظامك ؟ قال : لكثرة صيامى بدت
 عظامى ا قالت فمالى أرى هذا الصوف عليك ؟ قال : لزهادتى فى الدنيا ليست
 الصوف ا قالت : فما هذه التصا عندك ؟ قال : أتوكأ عليها وأفضى حوائجى ،
 قالت : فما هذه الحبّة فى يدك ؟ قال : قربانٌ إن سرتى بى مسكين ناولته
 إياه ، قالت : فإنى مسكينة ا قال : فخذها ، فدانت فقبضت على الحبّة ،
 فاذا النخ فى عنقها ، فجملت تقول : قعى قعى ا تفسيره : لأعزنى ناسكٌ مرأى
 بعدك أبدا ...

(١) بأمثال الهضاب : جمع هضبة بسكون الضاد وهو كل جبل خلق من صخرة
 واحدة أو هي كل صخرة ضخمة ، تصف ضخامة الإبل ، وقولها : كأن ركباً الخ تصف
 اسمتها السود ، وحام : أحد أولاد نبي الله نوح عليه السلام وهو فيما زعموا أبو السودان

الهم نصف الهرم

من كلمة سيدنا علي بن أبي طالب : والهمُّ نصف الهرم ، وقال حكيم :
الهمُّ يُشيدُ القلب ، ويُعمِّقُ العقل ، فلا يتولد معه رأيٌ ، ولا تصدُقُ معه
رؤية ، وقال أبو تمام :

شاب رأسي ومارأيت مشيب الرأ يس إلا من فضل شيب الفؤاد
وكذاك القلوبُ في كلُّ بُؤس ونعيم طلائعُ الاجساد
وقال أبو نواس :

وما إن شبتُ من ركبرٍ ولكن لقيتُ من الحوادث ما أشابا
وقد تقدم قول المتنبي :

والهمُّ يخترم الجسمَ نحافةً ويُشيبُ ناصيةَ الصبيِّ ويهرمُ

مثل الدنيا وآفاتها

والخوف من نهايتها

جاء في كتاب كليلة وديمثة : وَجَدْتُ مَثَلَ الدُّنْيَا وَالْمَغْرُورِ بِهَا ، مع امتلاء .
بالآفات ، مثل رجلٍ أجهَّه خَوْفٌ فَيَسِلُ هَائِجٌ إِلَى بئرٍ ، فَتَدَلَّى فِيهَا وَتَعَلَّى
بُغْصَنَيْنِ نَابَتَيْنِ عَلَى شَفِيرِ البئرِ ، فَوَقَمَتْ رِجْلَاهُ عَلَى شَيْءٍ فِي طَيِّ البئرِ ، فَنظَرَ
فَإِذَا بِحَيَاتٍ أَرْبَعٍ قَدْ أَظْلَعْنَ رُؤُوسَهُنَّ مِنْ جُحُورِهِنَّ ، وَنظَرَ إِلَى أَسْفَلِ
البئرِ فَإِذَا بِتِنِّينٍ ^(١) فَاعْرِفَاهُ نَحْوَهُ ، مُلْتَمِظٍ لَهُ لِيَتَّقِعَ فَيَأْخُذَهُ ، فَرَفَعَ بَصْرَهُ

(١) التنين : ضرب من الحيات

إلى العُصَيْنِ فإذا في أصلهما جَرْدَانُ أَسْوَدُ وَأَبْيَضُ ، وهما يَقْرِيضَانِ العُصَيْنِ
 دَائِبِينَ لَا يَفُتْرَانِ ، فبينما هو في النظرِ لأمره والاهتمام لنفسه ، إذ أَبْصَرَ
 قريباً منه كَوَارَةَ فيها عسلٌ نُحْلٌ ^(١) ؛ فذاق العَسَلَ ؛ فَشَعَلَتْهُ حلاوته وألَهَتْهُ
 لذته عن الفِكرَةِ في شيءٍ من أمرِهِ ، وأن يَلْتَمِسَ الخلاصَ لنفسِهِ ؛ ولم
 يَذْكَرْ أَنَّ رِجْلَيْهِ عَلَى حَيَاتٍ أَرْبَعٍ لَا يَدْرِي متى يَقَعُ عليهنَّ ، ولم يَذْكَرْ
 أَنَّ الجُرْذَيْنِ دَائِبَانِ فِي قِطْعِ العُصَيْنِ ؛ ومتى انْقَطَعَا رَقَعَ عَلَى التَّنِينِ . فلم يزل لاهياً
 غافلاً مشغولاً بتلك الحلاوة حتى سَقَطَ فِي قَمِّ التَّنِينِ فَهَلَكَ . فَسَبَّهْتُ
 بالبرِّ الدُّنْيَا المملوءة آفاتٍ وُسُوراً ، وَخَافَاتٍ وَعَاهَاتٍ ، وَسَبَّهْتُ بالحَيَاتِ
 الأربعة الأَخْلَاطَ الأربعةَ الَّتِي فِي البَدَنِ ؛ فَإِنَّمَا متى هاجتْ أو أَحْدَهَا كانت
 كَحَمَةِ ^(٢) الأفاعي والسَّمِّ المُمِيتِ ، وَسَبَّهْتُ بالعُصَيْنِ الأَجَلَ الَّذِي لَا بُدَّ
 مِنْ انْقِطَاعِهِ ؛ وَسَبَّهْتُ بالجُرْذَيْنِ الأَسْوَدِ والأَبْيَضِ اللَّيْلِ والنَّهَارِ اللَّذَيْنِ هُمَا
 دَائِبَانِ فِي إِفْنَاءِ الأَجْلِ ؛ وَسَبَّهْتُ بالتَّنِينِ المَصِيرَ الَّذِي لَا بُدَّ مِنْهُ ؛ وَسَبَّهْتُ
 بالعَسَلَ هَذِهِ الحلاوةَ القليلةَةَ الَّتِي يَنَالُ مِنْهَا الإنسانُ فَيَطْعَمُ وَيَسْمَعُ وَيَشْمُ
 وَيَلْمَسُ ، وَيَتَشَاغَلُ عَنْ نَفْسِهِ ، وَيَلْهُو عَنْ شَأْنِهِ ، وَيُضَدُّ عَنْ سَبِيلِ قَصْدِهِ ...

عمرو بن العاص يصف حاله في احتضاره

قال عبد الله بن عباس : دخلتُ على عمرو بن العاص وقد احتضِرُ ،
 فدخل عليه ابْنُهُ عبدُ اللَّهِ فقال له : يا عبدَ اللَّهِ ، خُذْ ذَلِكَ الصُّدُوقَ ، فقال :
 لا حاجة لي فيه ، قال : إنه مملوءٌ مالا ، قال : لا حاجة لي به ، فقال عمرو :

(١) الكوارة : خلية الحبل

(٢) الحمة : أرة النحلة ونحوها

لَيْتَهُ مَمْلُوءٌ بَعْرًا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : فَقُلْتُ : يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ ، إِنَّكَ كُنْتَ تَقُولُ :
 أَشْتَهِي أَنْ أَرَى عَاقِلًا يَمُوتُ حَتَّى أَسْأَلَهُ : كَيْفَ يَجِدُ ، فَكَيْفَ تَجِدُكَ ؟
 قَالَ : أَجِدُ السَّمَاءَ كَأَنَّهَا مُطَبَّقَةٌ عَلَى الْأَرْضِ وَأَنَا بَيْنَهُمَا ، وَأُرَانِي كَأَنَّمَا أُنْتَفَسُ
 مِنْ خَرْتِ إِبْرَةِ ثُمَّ قَالَ : اللَّهُمَّ ، خُذْ مِنِّي حَتَّى تَرْضَى ، ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ فَقَالَ :
 اللَّهُمَّ ، أَمَرْتُ فَعَصَيْتَا ، وَنَهَيْتُ فَرَكَبْنَا ، فَلَا بَرِيءٌ فَأَعْتَذِرُ وَلَا قَوِيٌّ فَأَنْتَصِرُ
 وَلَكِنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ - ثَلَاثًا - ثُمَّ فَاظَ ... د قَوْلُهُ : مِنْ خَرْتِ إِبْرَةِ يَعْنِي :
 مِنْ نَقْبِ إِبْرَةِ ، وَقَوْلُهُ : فَاظَ : أَي مَاتَ ،

ماذا قال عبد الله بن الزبير

حين أتاه خبر مقتل أخيه المصعب^(١)

لَمَّا أَتَى عَبْدَ اللَّهِ بْنَ الزُّبَيْرِ خَبْرُ قَتْلِ الْمُصْعَبِ بْنِ الزُّبَيْرِ خَطَبَ النَّاسَ
 فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ : إِنَّهُ أَتَانَا خَبْرُ قَتْلِ الْمُصْعَبِ فُسِّرْنَا بِهِ وَاكْتَأْنَا
 لَهُ ، فَأَمَّا السَّرُورُ : فَلَيْسَ قُدْرُ لَهُ مِنَ الشَّهَادَةِ وَحِيزِ لَهُ مِنَ الثَّوَابِ ، وَأَمَّا الْكُتَابَةُ
 فَلَوْعَةٌ يَجِدُهَا الْحَمِيمُ عِنْدَ فِرَاقِ حَمِيمِهِ ، وَإِنَّا وَاللَّهِ مَانُوتٌ حَبِيبًا كَيْتَةَ آلِ
 أَبِي الْعَاصِيِّ ، إِنَّمَا نَمُوتُ وَاللَّهُ قَتْلًا بِالرَّمَاكِ وَقَعْصًا تَحْتَ ظِلَالِ السِّيُوفِ ، فَإِنْ
 يَهْلِكِ الْمُصْعَبُ فَإِنَّ فِي آلِ الزُّبَيْرِ مِنْهُ خَلْفًا ... د الْحَبِيجُ : أَنْ يَأْكُلَ الْبَعِيرُ
 لِحَاءَ الْعَرْفَجِ فَيَتَكَبَّبُ فِي بَطْنِهِ وَيَضِيقُ مَبْعَرُهُ عَنْهُ فَلَا يَخْرُجُ مِنْ جَوْفِهِ
 فَيَهْلِكُ ، يُعْرِضُ بَنِي مَرْوَانَ وَيَنْعَى عَلَيْهِمْ كَثْرَةَ أَكْلِهِمْ وَإِسْرَافَهُمْ فِي مَلَاذِ
 الشُّهُوتِ وَأَنَّهُمْ يَمُوتُونَ بِاللُّخْمَةِ . وَاللَّوْعَةُ : الْحَرَقَةُ ، وَالقَعْصُ : الْقَتْلُ الْمَعْجَلُ
 وَقَدْ قَعْصَهُ : إِذَا ضَرَبَهُ أَوْ رَمَاهُ فَمَاتَ مَكَانَهُ ، وَأَقْعَصَهُ كَذَلِكَ وَالْمَقْعَصُ : الْمَقْتُولُ ،

(١) عبد الله بن الزبير بن العوام هو خليفة الحجاز ومصعب أخوه

إذا ضيقت شيئاً ضاق جداً

وما يؤثر في باب الصبر قول الشاعر :

إذا ضيقت شيئاً ضاق جداً وإن هونت ما قد عزّ هانا
فلا تترك لشيء فات بأساً فكم أمر تصعب ثم لانا
سأصبر عن رقيق إن جفاني على كل الأذى إلا الهوانا
فإن المرء يجزع في خلاء وإن حضر الجماعة أن يهانا
« بأساً مردود إلى قوله تترك يقول : لاتهلك بأساً . وقوله : فإن المرء ...
البيت يقول : إن المرء يجزع أن يهان كان وحده أو في جماعة »

لا تلهفن على ما فاتك

ونورد هنا هذا المثل البديع وإن كانت شهرته قد كادت تبذله ... رَوَى
الشعبي : أن رجلاً من بني إسرائيل صاد قبرة ، فقالت : ما تريد أن تصنع
بي ؟ قال : أذبحك فأكلك ! قالت : والله ما أشفي من قرم ولا أغني من
من جوع ، أعلمك ثلاث خصال هي خير لك من أكلني : أما الواحدة فأعلمكها
وأنا في يدك ، والثانية إذا صرت على هذه الشجرة ، والثالثة إذا صرت على الجبل ،
فقال : هاتي ! قالت : لا تلهفن على ما فاتك ، شغلي عنها ، فلما صارت فوق الشجرة
قال : هاتي الثانية ، قالت : لا تصدق بما لا يكون أنه يكون ، ثم طارت فصارت
على الجبل ، فقالت : يا شقي لو ذبحتني لأخرجت من حوصلتي درة فيها زنة
عشرين مثقالاً ! قال : فعض على شفتيه وتلهف ؛ ثم قال : هاتي الثالثة ،
قالت له : أنت قد نسيت الآنتين ، فكيف أعلمك الثالثة ! ألم أقل لك
لا تلهفن على ما فاتك ؟ فقد تلهفت على إذ فُتكت ، وقلت لك لا تصدقن بما

لا يكون أنه يكون افضدقت انا وعظي ورشي لأزن عشرين مثقالا ،
فكيف يكون في حوصاتي ما يزنها ا

ومن قولهم في الحث على التعزى

وبما قيل في الحث على الصبر والتعزى قولُ صالح بن عبد القدوس ^(١)
إن يكن ما أصبتُ به جليلا فذهب العزاء فيه أجلُّ
كلُّ آتٍ لآسك آتٍ وذو الجَه لِ مَعْنَى والغَم والحزنُ فضلُ ^(٢)
وقال عبدُ الله بن محمد بن أبي عيَّنة بن المهلب بن أبي صُفرة لظاهر
ابن الحسين: ^(٣)

لَمَّا رَأَيْتُكَ قَاعِدًا مُسْتَقِيمًا أَتَيْتُكَ أَنْكَ لِلْهَمِيمِ قَرِينُ
فَارْفُضْ بِهَا وَتَعَرَّ مِنْ أَثْوَابِهَا إِنْ كَانَ عِنْدَكَ لِلْقَضَاءِ يَقِينُ ^(٤)
مَا لَا يَكُونُ فَلَا يَكُونُ بِجَمِيلَةٍ أَبَدًا وَمَا هُوَ كَائِنٌ سَيَكُونُ
بَسَعَى الذُّكْيُ فَلَا يَنَالُ بِسَعِيهِ حَظًّا وَيَحْظَى عَاجِزٌ وَمَهِينُ
وكان ابن شبرمة ^(٥) إذا نزلت به نازلة يقول: سحابة ثم تنقش ^(٦) وكان

(١) كان متها بالزندقة ومن ثم قتله المهدي الخليفة العباسي إذ ضربه بالسيف
فقد نصفين وعلقه ببغداد

(٢) فضل يريد: زيادة، أى لا يليق بالعاقل، إذ لا جدوى من ورائه

(٣) أكبر أعوان المأمون بن الرشيد على أخيه الأمين

(٤) فرفض بها: من رفض الشيء يرفضه (بالكسر والضم) رفضا: تركه،
والباء زائدة

(٥) هو عبد الله بن شبرمة بن الطفيل بن المنذر من بنى سعد بن ضبة بن أذ، ولى

القضاء لطارق بن زياد خليفة خالد بن عبد الله القسرى لما أقام بواسط

(٦) تنقش: تجلى

يقال : أربعٌ من كنوز الجنة : كتمانُ المصيبةِ ، وكتمانُ الصدقةِ ، وكتمانُ
الفاقةِ ، وكتمانُ الوجعِ ...

لكل غد طعام

قال أوس بن حجر :

ولستُ بخابئٍ أبداً طعاماً حذارَ غدٍ لكلِّ غدٍ طعامُ
وقبل هذا البيت :

وليس بطارقِ الجيرانِ مني ذبابٌ لا يُنيم ولا ينامُ ^(١)
ولستُ بأطلسِ الثوبينِ يُصبي حليلته إذا هدأ النيامُ ^(٢)

ومن كلام سيدنا علي : يا ابن آدم ، لا تحمل همَّ يومك الذي لم يأتِ على
يومك الذي أنت فيه ، فإنه إن يُعلم أنه من أجلك يأت فيه رزقك ، واعلم
أنك لا تكسبُ من المالِ شيئاً فوق قوتك إلا كنتَ خازناً لغيرك فيه ...
والأصل المقدم في هذا المعنى قول سيدنا رسول الله : من كان آمناً في
سربه ^(٣) ، معافى في بدنه ، عنده قوتُ يومه ، كان كمن حيزت له الدنيا
بمخذافيها ... وقد تقدم

(١) كنى بالذباب عن الشر والأذى

(٢) حليلته : لا يريد امرأته ولكن أراد جارته التي تحال له في حلقه ، وكنى بأطلس

الثوبين عن رميه بالقيح من قولهم : رجل أطلس الثوب : وسخه ، والطلسة : الغبرة
تميل إلى السواد

(٣) المراد بالسرب دهنا : ما للرجل من أهل وولد ومال

اللثام مؤعون

يايذاء الكرام

من أحسن ما قيل في شقاء الكرام باللثام والاختيار بالأشعار قول
الشاعر الطرمّاح بن حكيم - شاعر إسلامي ، قال بعض العلماء :
لو تقدمت أيامه قليلاً لفضل على الفرزدق وجري - انظر ترجمته في
الأغانى - قال :

لقد زادني حُباً لنفسى أنى بغيض إلى كلِّ امرئٍ غير طائل
وأنى شقى باللثام ولا ترى شقياً بهم إلا كريمَ الشمائل
إذا ما أنى قطع الطرف بينه وبينى ففعل العارف المتجاهل
ملاأت عليه الأرض حتى كأنها من الضيق في عينيه كفة حابل
أكلت امرئى أنى أباه مقصراً معاد لاهل المسكرات الأوائل
إذا ذكرت مسعاةً والده اضطى ولا يضطنى من شتم أهل الفضائل

« قوله : لقد زادني ... أبيت يقول : لقد زادني أنى بغيض إلى كل
رجل لا فضل فيه ولا خير عنده حُباً لنفسى ، لأن التمايز بينى وبينه هو
الذى أداه إلى بُغضى ، ولو كان بيننا تشاكل لما كان كذلك ، فازدتُ
بذلك حُباً لنفسى ، لأنى لو كنت مثله لأحبنى ؛ وغير طائل قال الخليل بن
أحمد : يقال للشئء الدون : هذا غير طائل ... وقوله : وأنى شقى باللثام ...
أبيت يقول : وزادني حُباً لنفسى أيضاً شقوتى باللثام حتى تنقصونى وأصغوا
إنانى واعتابونى ؛ ثم قال : ولا ترى أحداً يشقى بهم إلا وهو كريمُ الأخلاق
وقوله : إذا ما أنى ... أبيت يقول : إذا أبصرنى آرتد طرفه عنى وقطع

انظره ، فَمَلَّ من يعرف الشيء ويتكأف جهله ؛ ويقال : ملأت عليه الأرض إذا ضيقتها عليه ، أما إذا قلت : ملأت منه الأرض فمعناه : أنك قتت و وعدت بذكركه ؛ والحابل : ناصب الحباله وهى التى يُصادُ بها ، وكفّة الحابل : حبالته التى بها يصيد ، وكل ما استدار فهو كِفّة : يقول فى هذا البيت : قد ضاقت به الأرض من عداوتى فكأننى مَلَأْتُها عليه ، ويجوز أن يكون المراد : أنه يخافنى فى كل مسلك يسلكه ... وفى معنى هذا البيت قول القائل :

كَأَنَّ جِجَاجَ الْأَرْضِ وَهِيَ عَرِيضَةٌ

على الخائف المطلوب كِفَّةُ حَابِلٍ

وقوله : إذا ذُكِرَتْ ... ألبيت فالمسعاة : السعى ، وهو العمل ، واضطنى : افتعل من الضنى ، يقال : ضنى يضنى : إذا دق وصغر جسمه ، ومن ثم سَمِيَ المرض ضنى ، لما يُورثُ من الهزال ، يقول : إنه يضنى إذا ذكر صنيع والده ، لقبّحه ، ومع هذا يشتم أهل الفضائل ولا يضنى من ذلك ، بصفه بالقبحة .

أبيات فى الصبر والشجاعة والكرم

قال عبدالعزیز بن زرارۃ السکلبى - وقد كان فى الجيش الذى بعثه معاوية بن أبى سفيان لغزو بلاد الروم سنة ٤٩ هـ فارغوا فيها حتى بلغوا القسطنطينية ، فاقتل المسلمون والروم قتالا شديدا ، ولم يزل عبدالعزیز هذا يتعرض للشهادة وهو يقول هذه الأبيات ، ثم حمل على من يليه تقتل خلقا كثيرا وانفوس بينهم فشجره الروم برهاهم فقتلوه ؛ والأبيات :

قد عشت فى الدهر ألوانا على طُرُقِ شتى وقاسيتُ فيها اللينَ والفظما

كَلَاءٌ بَلَوْتُ فَلَا نَعْمَاءُ تُبْطِرُنِي وَلَا تَخْشَعْتُ مِنْ لَأْوَائِهَا جَزَعًا
 لَا يَمْلَأُ الْهَوْلُ صُدْرِي قَبْلَ مَوْقِعِهِ وَلَا أُضِيقُ بِهِ ذَرْعًا إِذَا وَقَعَا
 «على طرق يروي: على خاق، والفظع: مصدر فُظِعَ الأمر فظاعة: اشتد
 وشُئِعَ وجاوز المقدار، وتبطرنى: تَحْمِلُنِي على البطار، وهو: الطغيان في
 النعمة، واللأواء: الشدة والمشقة وضيق العيش، وقوله: لا يملأ الهول...
 أبيت: من أحسن ما قيل في الشجاعة، وقال الخطيب من أبيات يمدح بها بعض
 الأجراد:

فَتَى غَيْرُ مِفْرَاحٍ إِذَا الْخَيْرُ مَسَّهُ وَمِنْ نَائِبَاتِ الدَّهْرِ غَيْرُ جَزْوَعٍ
 وَذَلِكَ فَتَى إِنْ تَأْتَتْ فِي صَنِيعَةٍ إِلَى مَالِهِ لَا تَأْتِي بِشَفِيعٍ
 «الصنعة: اسم لكل ما تُسديه من إحسان يد وصلة معروف،
 وأنشدوا: (١)»

إِذَا اشْتَمَلَتْ عَلَى الْيَأْسِ الْقُلُوبُ وَضَاقَ بِمَا بِهِ الصَّدْرُ الرَّحِيبُ
 وَأَوْطَنْتِ الْمَسْكَارُهُ وَاطْمَأَنَّتْ وَأَرْسَتْ فِي مَكَامِنِهَا الْخَطُوبُ
 وَلَمْ تَرَ لَانْكَشَافِ الضَّرِّ وَجْهًا وَلَا أَغْنَى بِحِيلَتِهِ الْآرِيبُ
 أَنَاكَ عَلَى قُنُوطٍ مِنْكَ عَوْتُ يَمُنُّ بِهِ اللَّطِيفُ الْمُسْتَجِيبُ
 وَكُلَّ الْحَادِثَاتِ وَإِنْ تَنَاهَتْ فَتَقْرُونَ بِهَا الْفَرَجَ الْقَرِيبُ

أبيات حكيمة

وإليك أبياتاً حكيمةً لشاعر جاهلي قديم يسمي: الأضبط بن قريع بن
 عوف بن كعب بن سعد، رهط الزبيرقان بن بدر، وهو الذي أساء قومه

(١) رواها أبو بكر بن دريد عن أبي حاتم راوية الأصمعي

مُجَاوَرَتَهُ ، فانتقل عنهم إلى آخرين ففعلوا مثل ذلك ، فقال : « إِنَّمَا أَوْجُهُ أُنْتُ سَعْدًا » ^(١) وقال : « بِكُلِّ وَادٍ بَنُو سَعْدٍ ، وَإِلَيْكَ هَذِهِ الْآيَاتِ :

لِكُلِّ ضَيْقٍ مِنَ الْهَمومِ سَعَةٌ وَالْمُسَى وَالصَّبِيحُ لافْلَاحَ مَعَهُ
 مابالُ مَنْ غَيْبُهُ مُصِيبُكَ لَوْ يَمْلِكُ شَيْئًا مِنْ أَمْرِهِ وَزَعَهُ
 أَذودُ عَنْ حَوْضِهِ وَيَدْفَعُنِي يَأقُومُ مَنْ عاذِرِي مِنَ الحُدَعَةِ
 حَتَّى إِذَا ما نَجَلتْ عَمَائِتُهُ أَقْبَلَ يَلْحَاحِي وَعَيْهُ فَجَعَهُ
 قَدْ يَرَقُّ الثَّوبَ غَيْرُ لابسِهِ وَيَلْبَسُ الثَّوبَ غَيْرُ مَنْ رَقَعَهُ
 فَأَقْبَلَ مِنَ الدَّهْرِ ما أَتاكَ بِهِ مَنْ قَرَّ عَيْنًا بِعَيْشِهِ نَفَعَهُ
 وَصَلَ جِبَالَ البَعِيدِ إِنْ وَصَلَ الحَبْلُ بَلْ وَأَقْصِ القَرِيبِ إِنْ قَطَعَهُ
 وَلَا تَهَيِّنِ الفَقِيرَ عَلكَ أَنْ تَرَكَعَ يوماً وَالدَّهْرُ قَدْ رَفَعَهُ

« المسى : اسم من الإسماء ، والصبح : اسم من الإصباح ، والفلاح هنا :

البقاء والعيش قال عبيد بن الأبرص :

أَفْلِحَ بِما شِئْتَ فَقَدْ يُدْ رَكَ بِالضَّعْفِ وَقَدْ يُخَدِّعُ الأَرِيبُ

يقول : لابقاء مع كرا الليل والنهار . والفلاح أيضا : الفوز ومنه قولهم في

الأذان : حتى على الفلاح ، والغنى : الخيبة والحرمان قال المرقس الأكبر :

فَنَ يَلِقُ خَيراً يَحْمَدُ النَّاسُ أَمْرَهُ وَمَنْ يَغُولُ يَعدَمُ عَلى الغَنى لا مَما

وجملة : لو يملك ؛ حالة ، ووزعه : ونعه وكفه ، يقول : مابال من تتألم

لخبثته وسوء حاله فإذا وجد شيئا من الخير كفه عنك ، وبروى هذا البيت

على وجه آخر ، وقوله أذود عن حوضه : هو مثل للحماية ودفع المكروه عنه ،

والخدعة : قوم من بنى سعد بن زيد مناة بن تميم

(١) يريد : أفر من الأذى إلى مثله

والعماية : الشدة التي تلتبس منها الأمور ، يقال : عَمِيَ عليه الأمر : إذا التبس ، وأقبل : شرع ، ويلجى : يلوم ، وغيه : ضلاله ، وجمعه : أصابه بمكروه وصل جبال البعيد ... أبيت يعني : تقرب إلى البعيد للنسب إذا طلب قربك واهجر القريب النسب إذا هجرك ، أخذه الأعشى فقال :

ولا تُذْنِ وضلاً من أخٍ متباعد ولا تنأ عن ذى بغضة إن تقرباً
فإن القريب من يُقرب نفسه كعمرُ أهلك الخير لا من تنسباً

وقوله ولا تهين الفقير الخ فالإهانة : الإيقاع في الهون (بضم الهاء) والهوان وهما بمعنى الذل والحقارة ، وعلّ : لغة في لعل وهى هنا بمعنى عسى ، والركوع : أراد به الانحطاط في المرتبة والسقوط في المنزلة ، ومثل هذا البيت في المعنى قول القائل :

عسى سائلٌ ذو حاجةٍ إن منعتَه في اليوم سُؤلاً أن يكون له غدٌ
وهذا البيت يستشهد به النحاة على أن نون التوكيد الخفيفة تحذف لالتقاء الساكنين والأصل تُهَيِّنُ بالنون الخفيفة ، ويروى : ولا تعاد ، ويروى لا تحقرن الفقير فلا شاهد فيه ؛ وفي معنى هذا البيت أيضا يقول عباد بن عباد بن حبيب بن المهلب :

إذا خَلَّتْ نَابَتْ صديقَكَ فَاغْتَنِمِمْ مَرَمَتَهَا فالدهرُ بالناس قُلبُ
وبادرٌ بمَعْرُوفٍ إذا كنتَ قَادِراً زوالَ اقْتِدَارِ أو غِنَى عنكَ يُعْقِبُ
« الخلة : الحاجة والفقرو في المثل « الخلة تدعو إلى السلة ، والسلة : السرفة وممرتها : إصلاح ما فسد منها ، وناب : كثير القلب من حال إلى حال ، وزوال : مفعول لبادر ، وعنك : متعلق بزوال ، ويعقب : صفة له ، يقول : يأتي الزوال عقب الاقتدار والغنى ، ويقول تميم بن مقبل :

فَأَخْلَفَ وَأَتْلَفَ إِنَّمَا الْمَالُ عَارَةٌ فَكَلَّمَهُ مَعَ الدَّهْرِ الَّذِي هُوَ آكَلُهُ
فَأَهْوَنُ مَفْقُودٍ وَأَيْسَرُ هَالِكٍ عَلَى الْحَيِّ مَنْ لَمْ يَبْلُغِ الْحَيَّ نَائِلُهُ
«وأخلف: يريد استفذَّ خَلَفَ ما أتلفت، وقد أخلف فلان لنفسه: إذا ذهب
له شيء فجعل مكانه آخر، وعارة: معار، والعارة والعارية: ما يتداول بين
الناس، ويقول جرير:

وإني لأستحي أخِي أن أرى له على من الحق الذي لا يرى ليَا
«يقول جرير: إني لأستحي أخِي أن يكون له على فضل ولا يكون لي عليه فضل
ومنى إليه مكافأة، فأستحي أن أرى له على حقاً لما فعل لي ولا أفعل إليه ما يكون
لي به عليه حق، قال المبرد: وهذا من مذاهب الكرام ومما تأخذ به أنفسها»

أبيات من يروها فلا مروءة له

وهذه أبيات كانوا يقولون: إنه من يروها فلا مروءة له. وهى لشاعر
يسمى أيمن بن حُرَيْم بن فاتك الأسدي، شاعر شريف فارس، وكان
يتشيع، وأبوه خريم له صحبة، وهو ممن اعتزل الجبل وصَفَّين وما بعدهما من
الأحداث، وقيل: إن هذه الأبيات للأقيشر، وهو شاعر إسلامي، قال:

وَصَهْبَاءَ جُرْجَانِيَّةٍ لَمْ يَطْفُ بِهَا	خَنيفٌ لَمْ تَنْفَرْ بِهَا سَاعَةً قَدْرُ
وَلَمْ يَحْضِرِ الْقَسَّ الْمُهَيِّمُ نَارَهَا	طُرُوقًا وَلَمْ يَشْهَدْ عَلَى طَبِخِهَا حَبْرُ
أَتَانِي بِهَا يَجِيُّ وَقَدْ نَمَتْ نَوْمَةً	وَقَدْ غَابَتِ الشُّعْرَى وَقَدْ طَلَعَ النَّسْرُ
فَقَلْتُ: آغْتَمِقُهَا أَوْ لَغَيْرِي فَاسْقِهَا	فَمَا أَنَا بَعْدَ الشَّيْبِ وَوَيْلِكَ وَالخُرُ
تَعَفَّفْتُ عَنْهَا فِي الْعُصُورِ الَّتِي خَلَّتْ	فَكَيْفَ التَّصَابِي بَعْدَ مَا كَلَّاءَ الْعَمُرُ
إِذَا الْمَرْءُ وَتَى الْأَرْبَعِينَ وَلَمْ يَكُنْ	لَهُ دُونَ مَا يَأْتِي حَيَاءٌ وَلَا سِتْرُ

فدَعَهُ وَلَا تَنْفَسَ عَلَيْهِ الَّذِي ارْتَأَى وَإِنْ جَرَّ أَسْبَابَ الْحَيَاةِ لَهُ الدَّهْرُ
 «الصهباء: الخمر، سميت بذلك لونها - والصبغة من الألوان: الشقرة - قيل:
 الصهباء هي الخمر التي عُصِرَتْ مِنْ عِنَبٍ أبيض، وقيل: هي التي تكون من
 العنب ومن غيره إذا ضَرَبَتْ إِلَى البياض، وقال أبو حنيفة الدِّيَنَوْرِيُّ: الصهباء
 اسم للخمر كالعَلَم. وجرجانية: نسبة إلى جرجان، وكانت مشهورة بنوع من الخمر
 والحنيفة: المسلم، ونفرت القدر: غَلَت، والمهيم: الذي يقرأ بصوت خفي غير
 بين لا يفهم، والطروق: الحضور ليلاً، والخبر واحد الأحبار: رئيس من
 رؤساء الدين المسيحي، ورئيس الكهنة عند اليهود، وقوله: وقد غابت الشعرى...
 قال البكري شارح الأمايلى: هذه الرواية الصحيحة، أما رواية: وقد غابت الشعرى
 وقد جَنَحَ النسر، فهي خطأ، قال: لأن الشعرى العبور إذا كانت في أفق
 المغرب كان النسر الواقع طالماً من أفق المشرق على نحو سبع درجات، وكان النسر
 الطائر لم يَطْلُع، وإذا كانت الشعرى الغميصاء في أفق المغرب كان النسر الواقع
 حينئذ غير «كَبْد - كَبَدَ النجم السماء: توسطها - فكيف أن يكون جانحاً؟
 وكان النسر الطائر حينئذ في أفق المشرق طالماً على نحو سبع درجات أيضاً
 قال الشاعر:

وإني وعبد الله بعد اجتماعنا
 لكالنسر والشعرى بشرق ومغرب
 يلوح - إذا غابت من الشرق - شخصه
 وإن تَدَحَّحَ الشعرى له يتغيب
 وقال أبو نواس:

وَحَمَارَةٌ نَبَّهَتْهَا بَعْدَ هَجْعَةٍ
 وَقَدْ لَاحَتْ الْجُوزَاءُ وَأَنْعَمَسَ النَّسْرُ
 فقالت: مَنِ الطَّرَاقُ؟ قلت: عصابة
 خِفافُ الأَدَاوَى يُبْتَغَى لَهَا الخمرُ
 والشعرى سابقة في الطلوع للجوزاء ولذلك سميت كلب الجبار، والجبار

اسم للجوزاء... والاعتباق : شُرِب العشى ، وويك : ويليك ، وكلا : انتهى إلى آخره وأقصاه ، ويقال : بلغ الله بك أكلأ العمر : أى آخره ، ولا تنفس : لا تحسد ، وارتأى : افتعل من رأى . وفي هذا المعنى يقول الأعور الشنئى :

إذا ما المرء - قصَرَ ثم مرَّت عليه الأربعون - من الرجال
ولم يلحق بصالحهم فدعه فليس بلاحي أُخرى الليالى

حكم ومواعظ

قال عبد الله بن عباس : كتب إلى علي بن أبي طالب رضى الله عنه بموعظة مأسررت بموعظة سُرورى بها ! أما بعد ، فإن المرء يسره دَرَكُ مالم يكن ليقوته ، ويسوءه فوتُ مالم يكن ليدركه ، فما نالك من دُنْيَاك فلا تُكسِرْ به قرحا ، وما فاتك منها فلا تُتبعه أسفا ، فليكن سرورك بما قدّمت ، وأسفك على ما خلفت ، وهمك فيما بعد الموت ... « يقول علي : إن كل شيء يُصيب الإنسان فى الدنيا من نفعٍ وصَرٍ فيقضاء من الله تعالى وقدره ، غير أن الناس لا ينظرون حقَّ النظر فى ذلك ، فيسُرُّ الواحد منهم بما يُصيبه من النفع ، ويُساء بقوت ما يفوته منه ، غير عالم بأن ذلك النفع الذى أصابه كان لا بُدَّ أن يُصيبه ، وأن ما فاتته منه كان لا بُدَّ أن يفوته ، ولو عرَفَ ذلك حق المعرفة لم يفرح ولم يحزن ، وإنما الأخلق بالعافل أن يأسف على ما فاتته ويسرَّ بما قدّمه ، من الخير والعمل الصالح الذى يُجدى عليه فى العالم الباقى - الآخرة »

ومن كلمة للحسن البصرى : تلقى أحدهم أبيضاً بضاً يملأ فى الباطل ملأنا ، ينفض مذرّوبه ، ويضربُ أصدريه ، يقول : هاأناذا فاعرفونى ! قد عرَفْنَاكَ فمَتَكَ اللهُ ومَتَكَ الصالحون ... « قوله : أبيض بضاً

فالبض : الرقيق اللون الصافي الذي يؤثر فيه كل شيء ، ويروون : أن معاوية بن سفيان قدم على عمر بن الخطاب رضي الله عنه من الشام وهو أبض الناس - أرفهم لونا وأحسنهم بشرة - فضرب عمر يده على عضده ، وقال : هذا ، والله ، لتشأ غلك بالحمامات وذوو الحاجات تقطع أنفسهم حشرات على بابك... وقوله : يملخ في الباطل مانخا : أى يكتر تردده في الباطل ، أو يمر فيه مراً سهلاً ، وقوله : ينفض مذرويه ويضرب أصدريه فينفض ويضرب : يحرك ، ومذرواه : جانباه ، وقيل : فرعا الآلتين ، وقيل : طرفا كل شيء ، وأراد الحسن : فرعى المنسكين . ولا واحد لهما ، وهو الصحيح ، والأصدران : عرقان يضربان تحت الصدغين ، لا يفرد لهما واحد كذلك ، ويريد الحسن : منكبيه أيضاً ، والعرب تقول : جاء فلان يضرب أصدريه وينفض مذرويه يريدون : جاء مختالاً ، وقد يريدون : جاء باغياً يهدد كما قال عنزة :

أحولى تنفض استك مذرويهما لتقتلى فهما أنا ذا عمارا

« عمارا يريد : يا عمارا »

وقال بعضهم : شهدت الحسن البصرى في جنازة أبو رجاء العطاردي وهو على بغلة والفرزدق يسأره على نجيب ، وكنت على حمار لي ، فذوت منهما ، فسمعت الفرزدق يقول للحسن : يا أبا سعيد ، أتدرى ما يقول أهل الجنازة ؟ قال : وما يقولون ؟ قال : يقولون : هذا خير شيخ بالبصرة ، وهذا شر شيخ بالبصرة ، قال : إذن يكذبوا يا أبا فراس أرب شيخ بالبصرة ، شرك بالله ، فذلك شر من أبي فراس ، ورب شيخ بالبصرة ذى طمرين لا يؤبه

له لو أقسَمَ على الله لأبره^(١) ، فذلك خير من الحسن يا أبا فراس ...
ولهذا الحديث تمة ولكننا نتجزأ بهذا الشطر منه لتكون المعانى متصلة
بعضها ببعض .

ونختتم هذا المعنى بأبيات مشهورة ولكنها لا تزال جديدة لأنها بعيدة
الغور موفية على الغاية فى الصدق والسداد ، وهى أبيات اختارها أبو تمام
فى حماسته ونسبها لعباس بن مرداس الصحابى الشاعر ، وقال أبو رياش : إنها
لمعاوية بن مالك بن جعفر بن كلاب مَعَوَد الحكماء^(٢) وهذه هى الأبيات كما
رواها أبو على القالى فى الأمالى :

تَرى الرَّجَلَ النَّحيفَ فَتَزْدَرِيهِ وَفِي أَتَوَاهِ أَسَدٌ هَـصُورٌ^(٣)
وَيُعْجِبُكَ الطَّرِيرُ فَتَبْتَلِيهِ فَيُخْلِـفُ ظَنَّاكَ الرَّجُلَ الطَّرِيرَ^(٤)
بَغَاثُ الطَّيْرِ أَطْوَلُهَا رِقَابًا وَلَمْ تَطُلِ السُّبْرَةُ وَلَا الصُّقُورُ^(٥)

(١) الطمر : الثوب الخلق البالى . وهذه كلمة الحسن من الحديث : رب ذى طمرين
لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره ، يقول : رب ذى خلقين أطاع الله حتى لو سأل
الله تعالى أجابه

(٢) سمى معوَد الحكماء بقوله :

سَأَعْقَلُهَا وَتَحْمِلُهَا غَنِيٌّ وَأُورِثُ نَجْدَهَا أَبَدًا كِلَابًا
أَعُوذُ مِثْلَهَا الْحِكْمَاءَ بَعْدِي إِذَا مَا عَضِلُ الْخَدَّائِنِ نَابًا

(٣) هصور يروى : مزير ، والهصور : الأسد الشديد الذى يفترس ويكسر
والمزير : الشديد القلب القوى النافذ ومن معانيه : العاقل الحازم

(٤) الطرير : ذو الرواء والمنظر والجمال والهيئة الحسنة

(٥) البغات بفتح الباء رضمها : كل طائر ليس من جوارح الطير ، أى لا يصيد ، ويضرب
بها المثل فى اللزوم والشرف ، وفى الضعف ، قالوا : إن البغات بأرضنا يستنسر ، يضرب
مثلا للثيم يرتفع أمره

خَشَّاشُ الطَّيْرِ أَكْثَرُهَا فِرَاحًا وَأُمُّ الصَّقْرِ مَقْلَاتٌ نَزُورٌ ^(١)
 ضِعَافُ الْأَسَدِ أَكْثَرُهَا زَهْرًا وَأَصْرَمُهَا اللَّوَاتِي لَا تَزِيرُ
 وَقَدْ عَظَّمَ البعيرُ بغيرِ لَبٍ فلم يَسْتَعْنِ بِالْعِظَمِ البعيرُ
 يُنَوِّخُ ثُمَّ يُضْرَبُ بِالْهَرَاوِي فَلَا عُرْفٌ لَدَيْهِ وَلَا تَكْبِيرٌ ^(٢)
 يُقَوِّدُهُ الصَّبِيُّ بِكُلِّ أَرْضٍ وَيَنْحَرُهُ عَلَى الثَّرَبِ الصَّغِيرِ
 فَمَا عَظَّمَ الرِّجَالِ لَهُمُ بَزِينٍ وَلَكِنْ زَيْنُهُمْ كَرَمٌ وَخَيْرٌ ^(٣)

في الموت

قال المتنبى في الموت :

وما المَوْتُ إِلَّا سَارِقٌ دَقَّ شِئْضُهُ يَصُولُ بِلا كَيْفٍ وَيَسْعَى بِلا رِجْلِ
 ومن غريب ما قيل في مدح الموت قول ابن الرومي :

قد قلت إذ مدحوا الحياة فأكثروا للموت ألف فضيلة لا يعرف
 فيها أمانٌ إلقائه بِلِقائه وفراق كلِّ مُعاشِرٍ لا يَنْصِبُ

أقول : لعل ابن الرومي يريد أن يقول : إن للموت مزايا لا تحصى ،
 وقل من يعرفها ، ولو لم يكن فيها إلا أننا بلقاء الموت نظنم بلقاء
 المرئي - وناهيك بفضائله - وبفراق غيره من المعاشرين القليل الإنصاف لكان
 في ذلك الفضل كله للموت ، وقال المتنبى :

(١) خَشَّاشُ الطَّيْرِ : شرارها وما لا يصيد منها ، كالبعثات ، والمقليات : التي تلد
 واحداً ثم لاتلد بعد ذلك وقيل : التي لا يعيش لها ولد ، والقلت : الهلاك تقول :
 أقلت المرأة : إذا هلك ولدها ، والنزور : القليلة الأولاد

(٢) ينوخ : يبرك ، نوخ الجمل وأناخه : فاستناخ : أبركه فبرك

(٣) الخير : الكرم ، وهو أيضاً : الشرف

وقد فارقَ النَّاسُ الأَحْبَةَ قبلنا وأعيا دواءُ الموت كلَّ طيب
سُبقنا إلى الدنيا فلو عاش أهلها مُنعنا بها من جيئةٍ ودُهب
تمسكها الآتى تملك سائب وفارقها الماضى فراق سليب
ولا فضلَ فيها للشجاعةِ والتدبى وصبرِ الفتى لولا إلقاء شعوب

« يقول فى البيت الرابع : لولا الموت لما كان لهذه المعانى فضل ، وذلك أن الناس لو أمِنوا الموت لما كان للشجاع فضل على الجبان ، لأنه قد أيقن بالخلود ، وكذلك لو أمِنوا الموت لاستوى الكريم والبخيل والصابر والجازع ، وكذلك كلُّ الأشياء ، وقال أيضاً :

إلْفُ هذا الهواءِ أوقعَ فى الألف سِ أن الحِمامَ مرُّ المذاقِ
والآتى قبلَ فرقةِ الرُّوحِ عجزُ والأسى لا يكونُ بعدَ الفراقِ

قال أبو العلاء المعرِّى : إن هذين البيتين يفضلان كذب الفلاسفة لأنهما متناهيان فى الصدق وحسن النظام ، ولولم يقل شاعرهما سواهما لكان له شرفٌ منهما وجمال ...

يقول المتنبى : إن خوف الموت من أكاذيب النفس ، ومن إلفنا هذا الهواء ، وإلا فقد علم أن الحزن على فراق الروح قبل فراقه عجز ، وعلم أيضاً أن الحزن على المفارقة لا يكون بعد الموت ، فلماذا يحزن الإنسان ؟

طائفة من عبقرياتهم في التعازي

ولذمطف الآن على الباب الثالث « عبقرياتهم في الصبر والدنيا والموت
والمرض » فلنسير فيه ولنورد عليك سائر عبقرياتهم في التعازي ثم نختم
الباب بعبقرياتهم في المرض وما يتصل به .

التسليية بعد وقوع المحذور

قالوا: كل شيء يبدو صغيراً ثم يعظم، إلا المصيبة، فإنها تبدو عظيمة ثم تصغر
واشتكى ابن لِعَمْرَ بن عبد العزيز رضى الله عنه بجزع عليه، ثم مات،
فَرَوَى مُتَسَلِّياً، فقيل له في ذلك؟ فقال: إنما كان جَزَعِي رِقَّةً له ورحمةً،
فلما وقع المصابُ زال المحذور... ومَرِضَ ابن لبعض السلف بجزع، ثم
مات فلم يَجَزَعْ، فقيل له فقال: أما بعد وقوع الأمر فلم يبق إلا الرضا
والتسليم... وقال البحترى:

صُعُوبَةُ الرِّزِّهِ تُتَلَقَّى فِي تَوَقُّعِهِ مُسْتَقْبَلًا وَانْقِضَاءُ الرِّزِّهِ أَنْ يَبْقَا
وَقَبْلَهُ قَالَ أَوْسُ بْنُ حَجَّارٍ:

أَيَّتْهَا النَّفْسُ أَجْمَلِي جَزَعًا إِنَّ الَّذِي تَحَذَّرُ قَدْ وَقَعَا

ومما يتصل بهذا المعنى قول أبي نواس يرثي المأمون:

وَكُنْتُ عَلَيْهِ أَحْذَرُ الْمَوْتِ وَحَدَهَ فَلَمْ يَبْقَ لِي شَيْءٌ عَلَيْهِ أَحْذَرُ

وقال بعضهم: نزلتُ بامرأة ذاتِ أولادٍ وثروة، فلما أردتُ الارتحال

قالت: لا تُخَلِّني إذا وَرَدْتُ هذا الصُّقْعَ، ثم آتَيْتها بعد أعوام، فوجدتها

قد آتَفَرَّتْ وَتُكَلَّتْ أولادها، وهي ضاحكةٌ مسرورة، فسألتها؟ فقالت:

لِأَنَّ كُنْتُ ذَاتَ ثَرَةٍ وَجَاهٍ، وَكَانَتْ لِي أَحْزَانٌ، فَفَعَلْتُ أَنْ ذَلِكَ لِقَلَّةِ الشُّكْرِ،

وَأَنَا الْيَوْمَ بِهَذِهِ الْحَالَةِ أَضْحَكُ شُكْرًا لِلَّهِ تَعَالَى عَلَى مَا أَعْطَانِي مِنَ الصَّبْرِ ...
وقيل: إذا استأثر الله بشيء فآله عنه « آله عنه: أتركه وأسئل »

من دواعي التسلي قرب للقوق بالميت

كتب بعضهم: فيم الجزع ونحن على مدرجة المتوفى « المدرجة: الطريق
والمسلك، ... دخل أحدهم على آخر وقد توفى له أخ فاشتد جزعه عليه،
فقال: اذكر مصيبتك في نفسك تُنسك فقد غيرك، واذكر قول الله تعالى:
إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ، وخذ بقول الشاعر:

وهون ما لقي من الموت أن ما أصابك منه يا بني مصيبي
وقال إبراهيم بن المهدي:

وإني وإن قدّمت قبلي لعالمٌ باني وإن أبطأت عنك قريبٌ

وقال آخر:

وهون وجدى أني سوف أغتدى على إثره يوماً وإن نفس العمر

من تعازي الملوك

وتسلّمهم بأن الناس جميعاً مُصابون

لما حضرت الإسكندر المقدوني الوفاة كتب إلى أمه: أن اصنعى
طعاماً يحضره الناس، ثم تقدّمي إليهم: أن لا يأكل منه محزون، ففعلت،
فلم يبسط أحدٌ إليه يده، فقالت: مالكم لا تأكلون؟ فقالوا: إنك تقدمت
إلينا أن لا يأكل منه محزون، وليس منّا إلا من قد أصيب بحميم أو قريب
فقالت: مات - والله - أبني أو ما أوصى إليّ بهذا إلا ليُعزّيني به ...

التسلي بأنه معزى

لامعزى به

قال أبو فراس الحمداني في أبيات يعزى بها سيف الدولة بأخته :
 هيات ماني الناس من خالد لا بد من فؤد ومن فؤد
 كني المعزى لا المعزى به إذ كان لا بد من الواحد
 وقال المتنبي من أبيات يمدح سيف الدولة ويرثي ابن عمه أبا وائل :
 مهما يعزى الفقى الأمير به فلا يندامه ولا الجود^(١)
 ومن منانا بقاءه أبدا حتى يعزى بكل مولود^(٢)

التسلي عن مضى بمن بقي

قيل لرجل مات امرأته نفساء^(٣) : عظم الله أجرك فيما أباد وبارك
 فيما أفاد... وقال المتنبي في مرثية يعزى سيف الدولة بأخته الصغرى
 ويسلّيه بالكبرى :

قاسمتك المنون شخصين جوراً جعل القسم نفسه فيك عدلاً^(٤)

(١) يقول : إذا عزاه معز بهذا الميت فلا عزاه بجوده ولا شجاعته ، أى لا عدمهما
 (٢) يقول : أمنتنا التى تمنّاها هى بقاءه أبداً حتى يعزى بكل من ولد ، يتقدمونه
 ويبقى هو فيعزى بهم

(٣) النفاس : ولادة المرأة إذا وضعت ، والوالدة نفساء

(٤) يقول : قاسمتك الموت شخصين فذهب بإحداهما وترك الأخرى ، فكانت
 هذه المقاسمة جوراً لأنه كان من حقه أن يتركهما ولكن هذا الجور عدل فيك
 حيث تركك حياً وكانت المقاسمة فى الاختين ، يعنى : إذا كنت أنت الباقي فالجور
 عدل ؛ وهذا إذا نصبت القسم وجعلت الفعل للجور ، أما من رفع القسم فيكون
 المعنى : أن القسم جعل نفسه عدلاً فى الجور لأنه وإن أخذ الصغرى فقد أبى الكبرى

فإذا قِستَ ما أخذتَ بما أغدَرْنَ سَرَى عن الفوائدِ وَسَلَّى (١)
ولمّا ماتت الأخت الكبرى بعد ذلك رثاها فقال :

قد كان قاسمك الشخصينِ دهرهما وعاش دُرهما المقدى بالذهب (٢)
وعاد في طاب المتروك تاركه إِنّا لنغفل والأيامُ في الطاب
ما كان أقصرَ وقتا كان بينهما كأنه الوقتُ بين الوردِ والقرب (٣)

وفي هذه المرثية الثانية هذان البيتان البديعان :

طوى الجزيرة حتى جاءني خبرٌ فرِعتُ فيه بأمالى إلى الكذب
حتى إذا لم يدع لي صدقه أملا شَرقتُ بالدمع حتى كاد يشرق بي

من تسلى بماله من الثواب

وبعض تعازيمهم

دخل عمر بن عبد العزيز على ابنه عبد الملك - وكان قد أصابه الطاعون -
فقال : دَعْنِي أَمْسَ قَرَحَتِكَ ، - وكان يقال : إذا كان القرحُ لينا يُرجى ،
وإن كان خشنا لا يُرجى - فامتنع عبد الملك من أن يمسه ، فعلم عمر لم
مَنَعَهُ ! فقال : دَعْنِي أَمْسُهَا ، فوالله لأن أقدّمك فتكون في ميزاني أحبّ إلى
من أن أكون في ميزانك ! فقال : والله ، لأن يكون ما تريد أحبّ إلى

(١) أغدرن : مثل غادرن أى تركن وأبقين ، وسرى : أذهب ، وسلى : عزى وهذا
البيت يؤيد رواية رفع القسم

(٢) يريد بالشخصين : أخته الكبرى والصغرى وجعل الكبرى كالدر لنفاسته
وجعل الصغرى ذهباً ، وجعل الكبرى كدر فدى بالذهب

(٣) من عاده القوم أنهم يرعون الإبل وهم في ذلك يسرون نحو المساء فإذا بقي بينهم وبين
الماء عشية فتلك الليلة ليلة القرب يقول : ما كان أقصر ما كان بينها من الزمان فكأنه
ما بين القرب إلى الورد ، وهو ليلة

من أن يكون مأريداً فلمسها ، فقال : يا عبد الملك ، الحق من ربك فلا تكونن من المُستترين ... فقال : ستجدني إن شاء الله من الصابرين ...
ولما مات عبد الملك عزى أباه الحسن البصري بهذا البيت :
وَعُوِضَتْ أَجْرًا مِنْ فَقِيدٍ فَلَا يَكُنْ فَمَيِّدُكَ لَا يَأْتِي رَأْجُكَ يَذْهَبُ
وروى : أن رجلا جزع على ابن له ، فشكى ذلك إلى الحسن ، فقال له :
هل كان ابنك يغيب عنك ؟ فقال : نعم ، كان مغيبه عنى أكثر من حضوره
قال : فاتركه غائبا ، فإنه لم يغيب عنك غيبة الأجر لك فيها أعظم مثل هذه
الغيبة ... وقال أعرابي : وقد مات له ثلاثة بنين في يوم واحد ، فدفعهم
وعاد إلى مجلسه ، فجعل يتحدث كأن لم يفقد واحدا ، فليم على ذلك ، فقال :
ليُسُوا فِي الْمَوْتِ بِيَدِعْ ، وَلَا أَنَا فِي الْمَصِيبَةِ بِأَوْحَدٍ ، وَلَا جَدْوَى لِلجَزَعِ ،
فَعَلَّامٌ تَلُوْمُونِي !

من مات له كثير من أهله

فصير

نظر رجل بالبصرة إلى امرأة فقال : ما رأيت مثل هذه النضارة وما ذاك
إلا من قلة الحزن ، فقالت : ما حزن كحزني إذ ذبح زوجي شاة ، ولى صبيان
يلعبان ، فقال أحدهما للآخر : تعال أريك كيف ذبح أبو الشاة ، فذبحه ،
ثم خاف فهرب إلى الجبل ، فرهقه ذئب ، فافتترسه ، وخرج زوجي في
طأبه ، فاشتد عابه الحر فمات عطشا فليل لها : كيف صبرت ؟ فقالت :
لو وجدت في الحزن دركا ما اخترت عليه ... « رهقه : غشيه ، ودركا :
تريد مداركة لما فات »

ومن أدعيتهم لذوى المصيبة

ومن قولهم فى الدعاء لذوى المصيبة : وَهَبَ اللهُ لَكَ عُمْرًا طَوِيلًا وَأَجْرًا جَزِيلًا وَعُسْرًا جَمِيلًا ؛ لَقَاكَ اللهُ الصَّبْرَ وَوَقَاكَ مَا يُحْبِطُ الأَجْرَ . وقال رجلٌ لابنِ عمرَ : عَظَّمَ اللهُ أَجْرَكَ ، فقال : بل جعل اللهُ لِي العَافِيَةَ ... « وذلك أن تعظيمَ الأجرِ فى تعظيمِ ما يُؤجِرُ عليه من المصيبة ، وقالوا : التعزية بعد ثلاثِ تجديدٍ للمصيبة ، والتهنئة بعد ثلاثِ استخفافٍ بالمؤدَّةِ ... »



« وبعد ، فأما عقرياتهم فى المرائى فإنَّ لها موضعا آخر فى هذا الكتاب كما أن عقرياتهم فى المدح والثناء تراها فى باب قد أوردناه لها .

عقرياتهم فى الطب والمرض وعيادة المرضى

معنى الطب

كلُّ حَازِقٍ بعمَلِهِ : طَيِّبٌ عِنْدَ العَرَبِ ، وَرَجُلٌ طَبَّ بِكَذَا : أى عَالمٌ بِهِ ثم صارَ الطَّيِّبُ اسْمًا للعَالِمِ بِمداوِةِ أبدانِ النَّاسِ ، وقالوا : حَدُّ الطَّبِّ : معرفةُ الداءِ وَتَقْيِيهِ بالدواءِ ، أو هو : اسْتِدَامَةُ الصَّحَّةِ وَمَرَمَةُ السَّقَمِ .

وصف طيب حاذق

قال لَسْرِىُّ الرَّفَاءِ فى طيب حاذق :

أَوْضَحَ نَهْجَ الطَّبِّ فى مَعْتَبِرٍ ما زالَ فيهِم دَارِسَ الرَّسْمِ (١)
كَأَنَّهُ مِنَ لُطْفِ أَفكارِهِ يَجُولُ بَيْنَ الدَّمِ واللَّحْمِ

(١) ارسـم : الاثر ، ودرس الرسم : عفا

لَوْ غَضِبْتَ رُوحٌ عَلَى جِسْمِهَا أَصْلَحَ بَيْنَ الرُّوحِ وَالْجِسْمِ
وقال أيضاً :

يَبْدُو لَهُ الدَّاءُ الْخَبِيثُ كَمَا بَدَأَ لِلدَّيْنِ رَضْرَاضُ الْعَدْبِ الصَّافِي (١)

الطيب الجاهل

رأى فيلسوف طيباً جاهلاً فقال : هذا مُسْتَحْتَلٌ لِلْمَوْتِ ... وقال الشاعر
المعروف بالخبز أُرْزِي (٢) في طيب اسمه نُعْمَانُ :

أَقُولُ لِنُعْمَانَ وَقَدْ سَاقَ طِبُّهُ نَفُوساً نَفِيسَاتٍ عَلَى سَاكِنِي الْأَرْضِ
« أبا مُنْذِرٍ أَفْنَيْتَ فَاسْتَبَقِي بَعْضَنَا حِنَاتِيكَ بَعْضَ الشَّرِّ أَهْوَنُ مِنْ بَعْضِ »
« أقول : إن البيت الثاني لطرفة بن العبد » صَمَّته الخبز أُرْزِي شعره »
وقال آخر في طيب :

لَمْ يَأْتِ فِي الْأَرْبَعَا عَلِيلاً إِلَّا دَفَنَاهُ فِي الْخَنِيْسِ

وكان رجل يجتري التصوير ثم تركه وتطبب ، فقبل له في ذلك ؟ فقال :

الخطأ في التصوير تُدْرِكُهُ الْعَيُونُ ، وَخَطَأُ الطَّيِّبِ تُوَارِيهِ الْقُبُورُ ...

مدح الحمية وذمها

قال قائل للحارث بن كَلْدَةَ - وكان طيباً العرب - : مَا الطَّبُّ فَقَالَ :
هُوَ الْأَزْمُ ... وَمَرَّادُهُ بِالْأَزْمِ : الْحَمِيَّةُ وَالْإِمْسَاكُ عَنِ الْاسْتِكْثَارِ مِنَ
الطَّعَامِ ... وَقِيلَ لَجَالِيئِنِّي أَوْ لَا بُقْرَاطَ : إِنَّكَ تُقَلُّ مِنَ الطَّعَامِ ! قَالَ :
غَرَضِي مِنَ الطَّعَامِ أَنْ آكُلَ لِأَحْيَا ، وَغَرَضِي غَيْرِي مِنَ الطَّعَامِ أَنْ يَحْيَا

(١) الرضراض : ماذق من الحصى

(٢) اسمه نصر وكان شاعراً أمياً وكان يجتز خبز الأرز ، ترجم له ابن خلكان وياقوت

ليأكل ... وقالوا: لا تأكل ما تشتهي فَيُصِيرُكَ إِلَى مَا لَا تَشْتَهُى ... وفي الحديث:
 لَا تُكْرِهُوا مَرْضَاكُمْ عَلَى الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ فَإِنَّ اللَّهَ يُطْعِمُهُمْ وَيَسْقِيهِمْ ...
 وقالوا: الحِمِيَّةُ للصَّحِيحِ ضَارَّةٌ ، كما أَنَّهَا لِلْعَلِيلِ نَافِعَةٌ ... وقال الرَّشِيدُ لِلْفَضْلِ:
 مَا أَطِيبُ مَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا ؟ فَقَالَ : رَفُضَ الْحِشْمَةِ وَتَرَكَ عِلْمَ الطَّبِّ ، فَلَا
 عَيْشَ لِمُحْتَشِمٍ وَلَا لَذَّةَ لِمُحْتَمٍ ... وقالوا : مَنْ عَرَفَ مَا يُضُرُّهُ مِمَّا يَنْفَعُهُ
 فَهُوَ مَرِيضٌ ... وقال أَفْلَاطُونُ : المَوْتُ مَوْتَانِ : طَبِيعِيٌّ وَإِرَادِيٌّ : فَالطَّبِيعِيُّ
 مَفَارِقَةُ الرُّوحِ لِلبَدَنِ ، وَالإِرَادِيُّ تُنْمَعُ الأَبْدَانُ مِنَ الشَّهَوَاتِ ... وقالوا :
 الأَبْدَانُ الَّتِي اعْتَادَتِ الحِمِيَّةَ أَفْنُهَا التَّخْلِيطُ ، وَالأَبْدَانُ الَّتِي اعْتَادَتِ التَّخْلِيطَ
 أَفْنُهَا الحِمِيَّةُ ...

شرب الدواء

قال سيدنا رسول الله : مَنْ اسْتَقَلَّ بِدَائِهِ فَلَا يَتَدَاوَى ، فَإِنَّهُ رَبَّ دَوَاءٍ
 يُورِثُ الدَّاءَ ... وَكَانَتِ الحِكْمَاءُ تَقُولُ : إِذَاكَ وَشُرْبَ الدَّوَاءِ مَا حَمَلَتْ صِحَّتَكَ
 دَاءَكَ ... وقالوا : مَثَلُ شُرْبِ الدَّوَاءِ مَثَلُ الصَّابُونِ لِلشُّوبِ ، يُنْقِيهِ وَلَكِنْ
 يُخْلِقُهُ وَيُبْلِيهِ ... وَقَالَ أَهْرَاطُ : الدَّوَاءُ مِنْ فَوْقَ ، وَالدَّوَاءُ مِنْ تَحْتِ ،
 وَالدَّوَاءُ لِأَفْوَقٍ وَلَا تَحْتِ ، وَفَسَّرَ ذَلِكَ مُفَسَّرُوهُ فَقَالُوا : مَنْ كَانَ دَاوَاهُ فِي
 بَطْنِهِ فَوْقَ سُرْتِهِ سُقِيَ الدَّوَاءَ ، وَمَنْ كَانَ دَاوَاهُ تَحْتِ سُرْتِهِ حُقِنَ ، وَمَنْ لَمْ
 يَكُنْ بِهِ دَاءٌ لَمْ يَكُنْ فَوْقَ وَلَا مِنْ تَحْتِ لَمْ يُسَقَ الدَّوَاءُ ، فَإِنَّ الدَّوَاءَ إِذَا لَمْ يَجِدْ
 دَاءً يَعْمَلُ فِيهِ وَجَدَ الصَّحَّةَ فَعَمِلَ فِيهَا ...

سياسة الأبدان

بما يصلحها من الطعام وغيره

قال الحجاج بن يوسف الثقفي لتيأذوق مُتَطَبِّيه^(١) : صِفْ لِي صِفَةً آخَذَهَا
 وَلَا أَعْدُوهَا ، قَالَ تِيأذوق : لَا تَتَزَوَّجُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا شَابَةً ، وَلَا تَأْكُلْ مِنَ
 اللَّحْمِ إِلَّا فَتِيًّا ، وَلَا تَأْكُلْهُ حَتَّى يُنْعَمَ طَبْخُهُ ، وَلَا تُشْرَبَنَّ دِرَاءً إِلَّا مِنْ
 عِيْلَةٍ ، وَلَا تَأْكُلْ مِنَ الْفَاكِهِةِ إِلَّا نَضِيحَهَا ، وَلَا تَأْكُلْ طَعَامًا إِلَّا أُجِدَّتْ
 مَضْغَةً ، وَكُلُّ مَا أَحْبَبْتَ مِنَ الطَّعَامِ وَاشْتَرَبْتِ عَلَيْهِ ، وَإِذَا شَرِبْتَ فَلَا تَأْكُلْ
 عَلَيْهِ شَيْئًا ، وَلَا تَحْبِسِ الْغَائِطَ وَالْبَوْلَ ، وَإِذَا أَكَلْتَ بِالنَّهَارِ فَتَمِّمْ ، وَإِذَا أَكَلْتَ
 بِاللَّيْلِ فَتَمِّشْ وَلَوْ خَمْسِينَ خُطْوَةً ... فَقَالَ لَهُ بَعْضُ مَنْ حَضَرَ : إِذَا كَانَ الْأَمْرُ
 كَمَا تَقُولُ فَيَلِمَ هَلْكَ أَتَقْرَاطِ وَلِمَ هَلَكَ جَالِينُوسُ وَغَيْرُهُمَا وَلِمَ يَبْقَى أَحَدٌ
 مِنْهُم ؟ قَالَ : يَا بُنَيَّ ، قَدْ احْتَجَجْتَ فَاسْتَمِعْ : إِنْ الْقَوْمَ دَبَّرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا
 يَمْلِكُونَ ، وَغَلَبَهُمْ مَا لَا يَمْلِكُونَ - يَعْنِي الْمَوْتَ وَمَا يَرُدُّ مِنْ خَارِجٍ ، كَالْحَرِّ
 وَالْبَرْدِ وَالْوَقُوعِ وَالْغَرَقِ وَالْغَمِّ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ - ... وَقَالَ تِيأذوقُ أَيْضًا
 لِلْحَجَّاجِ : أَرْبَعَةٌ تَهْدِمُ الْعَمَرَ وَرُبَّمَا قَتَلْنَ : دُخُولُ الْحَمَامِ عَلَى بَطْنَةٍ ، وَالْمَجَامَعَةُ
 عَلَى الْإِمْتِلَاءِ ؛ وَأَكْلُ الْقَدِيدِ الْجَافِ^(٢) ، وَشُرْبُ الْمَاءِ الْبَارِدِ عَلَى الرَّبْقِ ؛
 وَمَا مَجَامَعَةُ الْعَجُوزِ بِعَبِيدَةِ مَنْهْنٍ ... وَوَجَدَ الْحَجَّاجُ فِي رَأْسِهِ صُدَاعًا فَبَعَثَ
 إِلَى تِيأذوقَ وَأَحْضَرَهُ ، فَقَالَ : آغْسِلْ رِجْلَيْكَ بِمَاءٍ حَارٍّ وَاذْهَنْهُمَا ، وَخَصِّصْ
 لِلْحَجَّاجِ قَائِمٌ عَلَى رَأْسِهِ ، فَقَالَ الْخَصِيُّ : وَاللَّهِ ، مَا رَأَيْتُ طَبِيبًا أَقَلَّ مَعْرِفَةً

(١) ترجم له ابن أبي أصيبعة في طبقات الاطباء

(٢) القديد : اللحم المجفف

بالطَّب منك ا شكى الاميرُ الصُّداع في رأسِه فتِصف له دواءً في رِجليه ا
فقال له : أما إنَّ علامَةَ ماألتُ فيكَ بَيِّنَةٌ ! قال الحِصِيُّ : وما هي ؟ قال :
نَزَعَت حُصِيَّتاك فَذَهَبَ شَعْرُ الحِيتِكَ ! فَضَحِكَ الحِجَّاجُ وَمَن حَضَرَ ...

وقال عبد الملك بن مروان لأعرابيَّ : إنَّكَ حَسَنُ الكِدْنَةِ ا قال : إني
أُذِفِي رِجْلِي في الشتاء ، وَأُغْفِلُ غاشيةَ الغَمِّ ، وآكلُ عند الشهوة ...
ويقال : ثلاثة أشياء تُورِثُ الهُزالَ : شربُ المِاءِ على الرِّيقِ ، والنومُ على
غيرِ وِطاءٍ ، وكثرةُ الكلامِ برفعِ الصوتِ ... وقالوا : الدواءُ الذي لاداءٍ معه :
أن تجلسَ على الطعامِ وأنتَ تشتهيه وتقومَ عنه وأنتَ تشتهيه .

وقال أرسطوطاليس : المَطْعُمُ والمَشْرَبُ إذا كَثُرَا على المَعِدَةِ أَظْفَأَ
نارَها تَبَجَرَتِ الأغذية في البَدَنِ غيرَ نَضِيجَةٍ ، فَصارَ ذلكُ نُقصاناً للبَدَنِ يورِثُ
الفِترَةَ ^(١) ، كالشجرة ، إذا كَثُرَ ماؤها عَفِنَتْ وإن قَلَّ جَفَّتْ ، وكالسرَّاج ، إذا
قَلَّ دُهْنُه أو كَثُرَ انظافاً ... وقال بعضهم : مَن تَعَدَّى وتَعَشَّى ولم يأكل
فيما بيدهما ، سَلِمَ من الأوجاع ، لِقولِ الله عز وجل : ولهم رِزقُهُم فيها بُكرةً
وعَشِيًّا ... وقال بعضُ الأطباءِ : أَحَبُّ الناسِ إلينا : الرَغِيبُ البَطْنِ ، لكثرةِ
حاجاتهم إلينا . . . وأخبرَ بعضُ الأمراءِ بشيخٍ قد أتتْ عليه مائةٌ وخمسون
سنةً في اعتدالِ جسمٍ ونضارةِ لونٍ ، فاستدعاه وسأله فقال : إنَّ كانَ لِما ترى
من هذه المَوْهبةِ الجميلةِ سَبَبٌ بعدَ تَقديرِ الله تعالى فما أَصِفُه : ما حَتَمْتُ مِهمًّا
تَبُعدُ على مُدافعتِه ، ولا رأيتُ من زوجةٍ مَكروها ، ولا اجتمعَ في بَطْنِي
طعامانٌ ، وإذا شَرِبْتُ شراباً تناوَلتُه رقيقاً طيباً لا أَثْمَلُ منه ^(٢) ، ولا أَسْتدعِي

(١) الفِترَةُ : الضعفُ والانكسارُ (٢) ثْمَلُ يشملُ : أخذ منه الشرابَ والسكرَ

الطبيعة من غير عارض ، وما استدعيتُ للباه^(١) حركة إلا أن يهيج بالطبيعة على القلب ، وإذا فعلتُ ذلك أقلتُ الحركة بقيةً يومية... وقالوا: أضر الأشياء للبدن: الفسكُ والسهرة ، وأنهاك الأشياء للبدن : الخوف . وقال المأمون : قد أصبتُ دواءً يمرئى ولا يؤكلُ ولا يُشربُ اققيل : ماهو ؟ قال : النومُ إثر الغداء... وقالوا : إذا أكلت فاضطجع على جنبك الأيسر ، فإن الكبد يقع على المعدة فينضج الطعام فيهضمه... وقالوا : غشيانُ المرأة المولوية يضعف الثوة ويُسقم البدن ، لأنها كالشنن البالي^(٢) ، ماؤها سم قاتل ، تأخذ منك ولا تعطيك...

من تناول طعاما

وتحقق تولد علة منه

اجتاز رجلٌ بصديق له محموم فسأله عن سبب عيلته ؟ فقال : أكلتُ في هذا الصيف فراخا وعسلا وشربتُ خمرأ صلبا - شديدة - ونمتُ في الشمس فقال له : على كلِّ يمين ، لو كانت الحمى من حملة الشمس ورأتك بهذه الحالة اتركتُ عملها وواقفك... ونظر طبيبٌ إلى دهقان^(٣) يغررُ شجرة مشمش فقال له : ما تصنع ؟ قال : أعملُ لي ولك اديعى أن الطبيب ينتفع بالمشمش ، لسوء أثره على آكله ، وحاجتهم إلى الطبيب ، لما يتولد فيهم من الادواء لا كل الطرى منه ، وفي هذا المعنى يقول ابن الرومي :

إدما رأيت الدهر بستان مشمش فأيقن بحق أنه لطيب
يغلُّ له مالا يغلُّ لربه يغل مريضا حمل كل قضيبي

(٢) الشنن : القرية الخلق

(١) الباه والباهة والباء والباة : الجماع

(٣) رئيس القرية

« يُغَلُّ لَهُ : أَى يَعطى الطيبَ مِنَ العَلَّةِ - وهى الدَّخْل - مالا يُعطيه لصاحبه ،
وذلك أن حَمَلَ العَصَنِ الواحد من كل شجرة مشمش من أشجار ذلك البُستان
إذا أكله إنسان فإنه ينقلب مريضاً فيلجأ إلى الطيب ،

الحمى

قال المتنبى :

وزائرَتى كأنَّ بها حياءً	فليس تزورُ إلا فى الظلامِ
بَدَلتُ لها المطارِفَ والحشايا	فعاقتها وباتتْ فى عظامى
يَضيقُ الجِلدُ عن نَفسى وعنها	فَتوسِعُه بأنواعِ السَّقامِ
إذا ما فارَقَتْنى غَسَلتْنى	كأننا عاكفانِ على حرامِ
كأنَّ الصُّبحَ يطرُدُها فتَجرى	مَدامعُها بأربعةِ سِجامِ
أراقِبُ وقتها من غيرِ شوقِ	مُراقِبَةَ المَشوقِ المُستَهامِ
ويَصُدقُ وعُدُّها والصدقُ شرٌّ	إذا ألقاكِ فى الكُربِ العِظامِ

« وقوله : وزائرَتى ... البيت يقول : إن الحمى التى كانت تأتيه ليلاً ،
كأنها حَيِّيةٌ فليست تزور إلا فى الليل ... والمطارِف فى البيت الثانى : جمع
مُطرَف وهى : أُرْدِيَةٌ مُرَبَّعةٌ من خَزِّ فى جنبها عَمَلانِ ، والحشايا
جمع حَشِيَّة : ما حِشى من الفرش مما يُجلس عليه ، يقول . إن هذه الزائرة
- الحمى - لا تبيت فى الفراش وإنما تبيت فى عظامى . وقوله : يضيق الجلد .
البيت يقول : يضيق جلده فلا يَسْمُها ولا يَسعُ أنفاسى التى أتَنفُسُها ، وهى
مع ذلك تذهب بالحمى فتوسِع جلدى بما تورد عليه من ضروب السقم ،
وقوله : إذا ما فارَقَتْنى غَسَلتْنى ... يقول : إنه يَعرَقُ عند فراقِها ، فكأنه

تغسله لُكُوفهما على ما يوجب الغُسل ، وإنما خَصَّ الحرام لأنه جعلها
 زائرةً غريبةً ولم يجعلها زوجةً ولا مملوكةً ... وقوله : كأن الصبح ... البيت
 يقول : إنها تفارقه عند الصبح فكان الصُّبح يطردُها ، وأنها إذا فارقتَه
 تجرى مدامعُها من أربعة سِجَام ، يريد : كثرة العرق - عَرَق الحُمى - فكانها
 تبسكي عند فراقه لِحُبِّها إياه ، وأراد بالأربعة : اللَّحَاظِينَ والمُوقِنِينَ للعَيْنِينَ .
 وقوله : أراقب وقتها الخ يقول : أنتظر وقت تجيئها كما ينتظر المَشُوق مجيء
 حبيبته ، وذلك أن المريض يجزع لورود الحمى ، فهو يراقب وقتها خوفاً
 لا شوقاً . ثم قال : ويصدق وعدُّها ، يقول : إنها صادقة الوعد في الورد
 وذلك الصدق شرٌّ من الكذب ، لأنه صدق بضر ولا ينفع كمن أوعده ثم صدق
 في وعيد ... »

وقال المتنبي أيضاً :

ومنازلُ الحمى الجسومُ فقلْ لنا ما عذرها في تركها خيراتها
 أعجبتُها شرفاً فطال وقوفُها لتأمل الأعضاء لا لأذاتها
 « يقول المتنبي لهذا الممدوح - وكان مُصاباً بالحمى - إنَّ جِسْمَكَ خَيْرُ
 الأجسام فلا عذَرَ للحمى في تركه ، لأن محلَّها الأجسام اثم قال : إن الحمى
 لما رأتك في المحل الأرفع من الشرف والكرم والنبل أعجبتُها فأقانت
 في بدنك لتأمل أعضائك التي اشتملت على تلك المحامد ، لأنها تريد أن
 تُؤذيك » ... وقال الشاعر أبو الفتح كُشاجم^(١) في علي بن سليمان الأخفش :
 وانفذ أخطأ قومٌ زعموا أنها من فضلِ برِّدٍ في العصب

(١) هو محمود بن الحسين بن السندی بن شامك ، وشاعك أمه

هو ذاك الذهن أذكى ناره والمزاج المفراط الحرا التهب

ودخل بختيشوع^(١) على يحيى بن خالد بن برمك بعقب حمى فقال له : تَوَقَّ فَإِنَّ حَمَى لَيْلَةٍ يَبْقَى فِي الْبَدَنِ تَأْمِيرَهَا سَنَةٌ — وعنده وكيع فقال : صدق ، فقال يحيى : ما أقرب تصديقك إياه ! قال : لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال . حَمَى لَيْلَةٍ كَفَّازَةٌ سَنَةٌ ، فَعَمِلْتُ أَنْ هَذَا مِنْ ذَلِكَ ...

الرمد

مَا يُسْتَحْسَنُ فِي عَيْنِ مَحْبُوبٍ رَمْدَاءُ قَوْلِ ابْنِ الْمُعْتَزِّ :

قالوا : اشتكت عينه فمات لهم : **وَمِنْ شِدَّةِ الْفَتَكِ نَالَهَا الْوَصْبُ^(٢)**
حمرتها من دماء من قتلت **وَالدَّمُ فِي النَّصْلِ شَاهِدٌ عَجَبُ^(٣)**
وفي معنى هذين البيتين قول بعضهم :

قالوا : الحبيبُ شكا جُعِلَتْ فِدَاؤُهُ رَمْدًا أَضْرَّ بَعِينَهُ كَالْعَنْدَمِ^(٤)
فأجبتهم : ما زال يفتك لحظه في مُهَجَّتِي حَتَّى تَلَطَّخَ بِالْدَمِ

(١) بختيشوع بن جورجس هو طيب يوناني الاصل ، اتصل بهرون الرشيد وخدمه وكانت له منزلة عنده ، وكان أبوه جورجس طيب أبي جعفر المصور ، وابنه يدعى جبرائيل بن بختيشوع ؛ كان من أمهر الأطباء اتخذه جعفر بن يحيى البرمكي طبيبه الخاص وحظي عند الخلفاء ونال منهم أموالا لم ينالها أحد غيره منهم
(٢) الفتك يروى : القتل ، والفتك أحسن ، والوصب : المرض والوجع الدائم وقد يطلق على التعب

(٣) النصل : فصل السهم والسيف والرمح وقد يسمى السيف نصلا

(٤) العندم : صبغ أحمر يختضب به

النقرس (*)

كان أبو الفضل بن العميد يكثر برجله النقرس ، فقيل له : لا تغمم فإن ذلك يؤذِنُ بطولِ العمر ! فقال : طولِ العمرِ هو أنْ مَنْ به النقرسُ يسهرُ ، فيصير ليـلهُ نهاراً ، فكأنما يتضاعفُ عُمره ... وقال المبردُ : ذكر أعرابيُّ رجلاً قد أترى فقال : تنقرس ! كأنه سمِعَ أن النقرسَ يكون مع النعمة ... ومنه قول الأعرابيِّ :

ألا فاعجبوا من مُفلسٍ حلفِ نقرسٍ أما نقرسٌ في مُفلسٍ بعجيبِ
« فلان حلف كذا أي : حليفه وملازمه »

عودٌ إلى عبقرياتهم في التداوى والأدوية

قيل لأبقراط : ما بال إنسان يكون أثورَ ما يكون بدنًا إذا شرب الدواء ؟ فقال : مثل البيت تراه أكثر ما يكون غباراً إذا كُدس ... ومن قولهم : مثلُ الدواءِ مثلُ عدوِّ إلى جانبه صديق ، ترمي العدو فلا تأمن أن تُصيب الصديق ... وقالوا : لا تُستعملُ الأدوية فيما تنفع فيه الأغذية .

وفي الحديث الشريف : تداووا فإن الله ما أنزل داءً إلا أنزل له دواءً ، إلا الهرم ...

وقالوا : حقُّ الطيب أن يتأني في المداواة فعثرته لا تقال ... وقالوا المتأني في علاج الداء بعد معرفة الدواء كالمُتأني في إطفاء النار وقد أخذت بحواشي ثيابه

(٥) النقرس : داء معروف يأخذ في الرجل وهو ورم يحدث في مفاصل القدم وفي

إيهاها أكثر

شهوة المريض إلى الطعام

قال أبقراط : المريض الذي يَشْتَهِي أَرْجِي عِنْدِي مِنَ الصَّحِيحِ الَّذِي لَا يَشْتَهِي ... وَقَالَ الْمُنْبِي :

وَمَنْ يَكُ ذَا فَمِ مَرِيضٍ يَجِدُ مَرًّا بِهِ الْمَاءَ الزُّلَالَا
 وَقِيلَ لِلْخَلِيلِ بْنِ أَحْمَدَ فِي عِلَّتِهِ . أَنْشَهِي شَيْئًا ؟ قَالَ : لَا أَوْ بُرْدِي
 أَنْ أَشْتَهِي . وَقِيلَ ذَلِكَ لِآخِرِ قَتَالٍ : أَشْتَهِي أَنْ لَا أَمُوتَ .

شكوى العلة

وَكَانَ مِنْهُمْ مَنْ لَا يَرَى بَأْسًا فِي شَكْوَى عِلَّتِهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُنْكِرُ ذَلِكَ
 فَمِنْ شَكَا عِلَّتَهُ أَبُو نَوَاسٍ إِذْ يَقُولُ :

دَبَّ فِي السَّقَامِ سُفْلًا وَعُلوًا وَأَرَانِي أَمُوتُ عِضْوًا فَعِضْوًا
 لَيْسَ يَمِضِي مِنْ سَاعَةٍ بِي إِلَّا نَقَّصْتَنِي بِعَرَّهَا بِي جُزْوًا
 لَهْفَ نَفْسِي عَلَى لَيْالٍ وَأَيَّامٍ تَمْتَعْتُهُنَّ لِعِبَابًا وَلَهْوًا
 وَقَالُوا : * وَلَا بَدَّ مِنْ شَكْوَى إِذَا لَمْ يَكُنْ صَبْرًا *

وَلَمَّا مَرَضَ بَعْضُ الصَّالِحِينَ وَعَادَهُ النَّاسُ قَالُوا لَهُ : كَيْفَ تَجِدُكَ ؟
 قَالَ : بِشَرِّ ، قَالُوا : هَذَا كَلَامٌ مِثْلَ ذَلِكَ قَالَ : أَجَلٌ ، إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ :
 « وَنَبِّئُوهُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً » فَالْخَيْرُ الصَّحَّةُ ، وَالشَّرُّ الْمَرَضُ

وَقَالُوا : الشَّكْوَى تُخَفِّفُ الْهَمَّ وَتُنْزِلُ الْإِلْمَ ...

وَلَمَّا وَجَّهَ الْمُتَوَكِّلُ فِي السَّنَةِ الَّتِي قُتِلَ فِيهَا أَنْ يُحْمَلَ إِلَيْهِ الْجَاحِظُ مِنَ
 الْبَصْرَةِ قَالَ لِمَنْ أَرَادَ حَمَلَهُ : وَمَا يَصْنَعُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ بِأَمْرِي لَيْسَ بِطَائِلٍ ،
 ذِي شِقِّ مَائِلٍ ، وَلُعَابِ سَائِلٍ ، وَفَرْجِ بَائِلٍ ، وَعَقْلِ حَائِلٍ « حَائِلٌ : مُتَغَيِّرٌ ،

وحدّث المُبرّدُ قال : دخلت على الجاحظ في آخر أيامه فقلت له : كيف أنت ؟ فقال : كيف يكون من نصفه مفلوج لو حُزَّ بالمناشير ما شعر به ، ونصفه الآخر مُنقرَسٌ^(١) أو طار الذباب بقُربِه لآلامه ، وأشدُّ من ذلك ستُّ وتسعون سنة أنا فيها ، ثم أنشدنا :

أترجو أن تكون وأنت شيخٌ كما قد كنتَ أيامَ الشبابِ
لقد كذبتك نفسك ، ايسَ ثوبٌ دَريسٌ كالجديد من الثيابِ
« دريس : بال »

وقيل لآخر : ما تشكو ؟ فقال : تمامُ العِدَّةِ وانقضاء المُدَّةِ ... وقال بعضهم لمن يشكو : أتشكو من يرحمك إلى من لا يرحمك ! وقيل لسعيد بن عمرو بن سعيد بن العاص وهو مريض : إن المريض يتفرجُ إلى الأنين وإلى أن يصف مابه إلى الطبيب ، فقال : أما الأنين فوالله إنه لجزع ولا يسمعُ الله مني أينما فأكونَ عنده جزوعا ، وأما الطبيب فوالله لا يحكم غير الله في نفسي ، فإن شاء قبضها إليه وإن شاء منَّ بها علي ...

فضل الصحة والعافية

قالوا : شيان لا يعرفُ فضلُهُما إلا من فقدَهما : الشَّبابُ والعافية .
وقالوا : لا يعرفُ طعمَ العافيةِ إلا من نالته يدُ العيلةِ ، ولا طعمَ الرِّخاءِ إلا من مسَّته يدُ البلاءِ .

(١) منقرس : مصاب بالنقرس وهو ورم أو وجع في مفاصل الكعبين وأصابع الرجلين وفي إبهامهما أكثر

نفع المرض

اعتلَّ الفضلُ بن سَهْلٍ بخراسانَ ، ثم برأ ، فجلس للناس فهتأوه بالعافية
وتصرَّفوا في فنون الكلام ، فلما فرغوا أقبل على الناس فقال : إن في العلل
ينها يدبغى للعافل أن يعرفها : تمحيصُ الذنب ، والتعرضُ للشواب ، والإيقاظُ
من الغفلة ، والإذكارُ بالنَّعمة في حال الصَّحة ، والاستدعاءُ للآتية ، والحضُّ
على الصدقة ، وفي قضاءِ الله وقدره الخيار ...

واعتل بعضهم فقال : اللهمَّ أجمله أدباً لا عَضْباً ... وفي الحديث الشريف :
إن المريض تتحاتُّ عنه خطاياهُ كما يتحاتُّ ورقُ الشجر (١) ... وذكَّرت
الأدواءُ عند أبي الدرداء فقال رجلٌ : ما اشتكيتُ قطُّ ، فقال لا جرم أن
ذنوبك لم تحطَّ عنك ...

وصف العلة بأنها تنال الأماثل

قال أبو تمام من أبيات في مرض الياس بن أسد :

فإن يكنَّ وصبَّ عاينتَ سورته فالوردُ حلفٌ لليث الغاية الأضم
إن الرباح إذا ما أعصفتُ فصمتُ عيَّدان تجد ولا يعبان بالرتم
بنات نعش ونعش لا كسوف لها والشمس والبدر منها الدهر في الرقم
قد يُنعمُ اللهُ بالباوى وإن عظمتُ ويبتلى اللهُ بعض القوم بالنعم

« الوصب هنا : المرض ، وسورته : شدته ، والورد : الحمى ، والأضم :

الغضبان : وعيَّدان (بالفتح) جمع عيْدانة وهي : النخلة الطويلة والشجرة

(١) تحات الشيء : تناثر ، وتحات الورق : سقط عن الغصن

السُّبُلَةُ القَدِيمَةُ . والرَّيْحَمُ : نبات من أدق الشجر، ونبات تُعْش كبرى وهي سبعة كواكب أربعة منها نَعَشٌ وثلاث بنات؛ وَصُغْرَى : وهي مثلها، ومنها نأى من دونها، والرِّقْمُ : السواد، ويضئ به الخفاء للكسوف والخسوف « وقال البحرى :

وما الكلبُ محوماً وإن طالَ عُمرُهُ ألا إنما الحمى على الأسدِ الوردِ
 قيل للأسدِ وردٌ لأن لونه أحمر يضرب إلى صُفْرَةٍ ، وفي الحديث الشريف : مثلُ المؤمنِ مثلُ الحامَةِ من الزرع ، تُفِيئُها الريحُ مرةً وتعدُّها مرةً ، ومثلُ الكافرِ مثلُ الأرزَةِ لا تزالُ حتى يكونَ انجِفافُها مرةً واحدةً .
 الحامَةُ : الزرع أول ما ينبت على ساقٍ واحدة ، وقيل : السُّبُلَةُ ، وقيل : الطاقة الغضة من الزرع ، وقيل : الشجرة الغضة الطرية . وَتُفِيئُها : تحركها وتُمَيِّها يَمِيناً وشَمالاً ، والأرزَةُ : واحدة الأرز : شجر معتدل صلب لا يحرَّكُه هبوب الريح يقال له الأرزَةُ معروف بلُبنان ، وقيل : شجر الصنوبر والجمع أرز ، وانجفافها : انقلاعها . ومعنى الحديث : أن المؤمن يلبغى له أن يتلقَى المكارهَ صابراً راجياً الخير من ورائها ، وأن يُعدَّ نفسه كأوائل الزرع تُمَيِّله الرياحُ يَمِينَةً وَيَسْرَةً ، فهو في الدنيا هَدْفٌ تَنْتَضِلُ فيه الرزايا ، فليس له إلا أن يَعْتَصِمَ بالصبر والرضا ، وأن يَعْلَمَ علماً ليس بالظن أن كل ما يُرزؤه من فُقدان مال وولد وما إليهما ، وما يصيبه من مَرَضٍ ووَصَبٍ ، إنما هو مكفَّرٌ لذنبياته رافع لدرجاته ؛ أما الكافر ، أما العِفْرِيَّة النَّفْرِيَّة ، فإن كل هَمِّه أن يَسْتَمْتِعَ بشهوات الدنيا ولذاتها ، فإذا رُزِيَ في ماله وولده ونفسه تسخَّط ولم يندخر لنفسه ما ينفعه في آجله ومن ثمَّ يموت إذ يموت كما تمعجفُ شجرةُ الأرزَةِ وتُجْتَثُّ من أصلها فيلقى اللهُ بذنوبه حائتة . هذا ، ولك أن

تقول: إن المعنى بسبيل من قولهم: المؤمن مُصَابٌ، ومعنى هذا أن المؤمن. لأنه يتقى الله في سائر أسبابه ولا يُقَدِّم على ما حَرَّمَ الله، لا توائيه الدنيا كما تواتى من لا يتقى الله فيعيش من كان هذا شأنه مُرَزَّأً وإن كان في آخرته من الفائزين. وهذا في الغالب، وإلا فهناك من المؤمنين الصادقين من كان إيمانهم مَدْرَجَةً إلى أن يعيشوا عيشة راضية يُحسدون عليها. وعلى أية حال فإن المراد بمثل هذا الحديث هو تعزية المصابين في الدنيا من المؤمنين بأن الآخرة خيرٌ وأبقى...

عيادة المريض

وجوب عيادة المريض

ورد في الحديث الشريف: حَقُّ المسلم على المسلم ثلاثٌ: عيادةُ المريض وتشميتُ العاطِسِ، وتشيعُ الجنازة؛ وفي الحديث أيضاً: من عاد مريضاً لم يزل في حُرْقَةِ الجنة حتى يرجع... «الحُرْقَةُ» (بضم الحاء وفتحها): ما يُخْتَرَفُ أى يُجْتَنَى من الثمر، أى لم يزل في بستانٍ يَجْتَنَى منه الثمر، شبه صلوات الله عليه ما يحوزُه من يعودُ المريض من الثوابِ بما يحوزُه المُخْتَرَفُ من الثمر»

أدب عيادة المريض

قالوا: سوءُ العيادةِ تَلْقِيحٌ لِلْعِلَّةِ... وقال الفضلُ بنُ الربيع: لا تقولوا: كيف حال أمير المؤمنين، ولا تسألوه عن حاله فتكافوه الجواب، ولعله يثقلُ عليه الكلام، ولكن اجعلوا مسألتكم الدعاء له وقولوا بدل كيف يَجِدُ أميرُ المؤمنين نفسه: أنزل الله عليه الشفاء والرحمة... ودخل قومٌ على

السَّيرَى السَّقَطَى رَحِمَهُ اللهُ وَهُوَ عَمِلٌ فَأَطَالُوا الْجُلُوسَ وَقَالُوا : ادْعُ لَنَا ،
فَقَالَ : ارْفَعُوا أَيْدِيَكُمْ وَقُولُوا : اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِّنْ عَالَمَتِهِمْ عِيَادَةَ الْمُرْضَى ...
وَدَخَلَ قَوْمٌ عَلَى مَرِيضٍ فَأَطَالُوا الْجُلُوسَ ثُمَّ قَالُوا : أَوْصْنَا ، فَقَالَ : أُوصِيكُمْ
أَلَّا تَطِيلُوا الْجُلُوسَ عِنْدَ الْمَرِيضِ إِذَا عُدْتُمْوَهُ ... وَدَخَلَ ثَقِيلٌ عَلَى مَرِيضٍ
فَأَطَالَ الْجُلُوسَ ثُمَّ قَالَ : مَا تَشْتَكِي ؟ قَالَ : قُعُودِكَ عِنْدِي ...

شكايه من لا يعودده إخوانه

قال : جحظة البرمكي^(٥) :

مَرِيضٌ فَلَمْ يَكُنْ فِي الْأَرْضِ حُرّاً يُشْرِقُنِي بِسَيْرٍ أَوْ سَلَامٍ
وَصَبَّوْا بِالْعِيَادَةِ وَهِيَ أَجْرٌ كَأَنَّ عِيَادَتِي بَدَلُ الطَّعَامِ

الاعتذار عن ترك العيادة

قال شاعر :

إِنْ كُنْتُ فِي تَرْكِ الْعِيَادَةِ تَارِكًا حَظِي فَإِنَّ فِي الدَّعَاءِ لِحَاثِدُ
وَلَرَبَّمَا تَرَكَ الْعِيَادَةَ مُشْفِقٌ وَأَتَى عَلَى غِلِّ الضَّمِيرِ الْحَاثِدُ

من عاده ممرضه

قال العوام بن كعب بن زهير في ليلي العطفانية :

وَحُبْرَتُ كَيْلَى بِالْعِرَاقِ مَرِيضَةٌ فَأَقْبَلْتُ مِنْ أَهْلِ بَمَصْرَ أُعْوِدُهَا

(٥) هو أبو الحسن أحمد بن جعفر بن موسى بن يحيى بن خالد بن برمك ، فهو من ذرية البرامكة كما ترى وكان من ظرفاء عصره وكان أديباً شاعراً صاحب فنون وأخبار ونوادر ومنادمة ، وجحظة لقب لقبه به عبد الله بن المعتز توفي سنة ٣٢٦ و انظر ترجمته في معجم البلدان لياقوت ووفيات الاعيان لابن خلكان ،

فوالله ما أدرى إذا أنا عدتها أأبرئها من داتها أم أزيدها

مريض عاد صحيحا

قال العباس بن الأحنف :

قالت : مَرِضْتُ فَعُدَّتْهَا فَتَبَرَّمْتُ وَهِيَ الصَّحِيحَةُ وَالْمَرِيضُ الْعَائِدُ

والله : لو أَنَّ الْقُلُوبَ كَقَلْبِهَا مَارَقَ لِلوَالِدِ الضَّعِيفِ الوَالِدُ

وقال آخر :

إِذَا مَرِضْنَا أَتَيْنَاكُمْ نَعُودُكُمْ وَتُذُنُونَ فَنَاتِيكُمْ وَتَعْتَدِرُونَ

حشهم العائد على تنشيط المريض

قال بعض الأطباء القدامى : بشرُوا المريض بالبرء ، ونشطوه لشرب الدواء ، ولا تُصَعَّبُوا عليه العلة ، فتخاف نفسه ، ويموت حشاه ، وقال : أبقراط : حدثوا المريض بحال من كان في أصعب من عيائه قبرا ، ولا تحدثوه عن كان في مثل علة فمات ...

حشهم على تخويفه ليتجنب المضار

قالوا : خَوْفُوا المريض لِيَتَجَنَّبَ المضارَّ ، فن خَوْفَكَ لِتَأْتِيَ الأمانَ خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَمْنِكَ لِتَأْتِيَ الخوفَ ... وقالوا : مَنْ أَوْجَرَكَ المَرُّ لِتَبْرَأَ خَيْرٌ مِنْ أَوْجَرَكَ الحُلُو لِيَتَسَقَمَ

تغير اللون

قال الصولي : لم يُسْمَعْ أَحْسَنُ من قول البُحْتَرِيِّ في صُفْرَةِ اللون : بَدَتْ صُفْرَةٌ في لَوْنِهِ ، إِنْ حَمَدَهُمْ مِنْ الدَّرِّ مَا أَصْفَرَتْ نَوَاحِيهِ في العِقْدِ

وقال أبو تمام :

لَمْ تَشْنُ وَوَجْهَهُ الْهَيْجَ وَلَكِنْ جَعَلَتْ وَرْدَ وَجَنَّتِيهِ بَهَارًا
وَالْبَهَارُ : نَبْتُ بَرَى طِيبِ الرَّائِحَةِ لَهُ فُقَّاحَةٌ - زَهْرَةٌ - صَفْرَاءُ يَنْبُتُ

أَيَّامَ الرَّبِيعِ ، يُقَالُ لَهُ : الْغَرَارُ وَعَيْنُ الْبَقْرِ .. ،

تَهْنِئَةٌ مِنْ بَرَأٍ مِنَ الْمَرَضِ

قال أبو تمام :

سُقِّمْتُ أُتِيحَ لَهُ بُرءٌ فَرَزَعَنَاهُ وَالرُّمْحُ يَنْبَادُ طَوْرًا ثُمَّ يَعْتَدِلُ
قَدْ حَالَ لَوْ نُفِرَدَ اللَّهُ نَضْرَتَهُ وَالنَّجْمُ يَخْمُدُ حِينًا ثُمَّ يَشْتَعِلُ

يقال : زَعَزَعَ الشَّيْءَ : حَرَّكَهُ لِيَقْلَعَهُ ، وَالْمُرَادُ هُنَا : دَفَعَهُ وَأَزَاحَهُ ، وَيُنَادَى :

يَعِيلُ ، وَحَالَ لَوْ نُ : تَغَيَّرَ ، وَالنَّضْرَةُ : الْحَسَنُ وَالْجَمَالُ ،

وقال أشجع بن عمرو السُّلَمِيُّ : ^(١)

لَنْ جَرَحْتَ شِكَاؤُكَ كُلَّ قَلْبٍ لَقَدْ قَوَّرْتَ بِصِحَّتِكَ الْعْيُونَ
وَقِيلَ لِأَعْرَابِي بَرَأً مِنْ عِلَّتِهِ : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي سَلَّمَكَ ، فَقَالَ : أَوْ يَسْلُمُ مَنْ
الْمَوْتُ فِي عُنُقِهِ ؟ وَقَدْ تَقَدَّمَ

وقال المتنبي :

لِلْمَجْدِ عُوفِي إِذْ عُوْفِيَتِ وَالسَّكْرُمُ وَزَالَ عَنْكَ إِلَى أَعْدَائِكَ الْإِلْمُ
صَحَّتْ بِصِحَّتِكَ الْغَارَاتُ وَابْتَهَجَتْ بِهَا الْمَكَارِمُ وَأَنْهَلَتْ بِهَا الدِّيمُ

(١) كَانَ شَاعِرًا خَلَا وَوَلِدًا فِي الْبَيْمَةِ وَنَشَأَ فِي الْبَصْرَةِ وَمَدَحَ الْبَرَامِكَةَ وَانْقَطَعَ إِلَى

جَعْفَرِ بْنِ يَحْيَى قَهْرَبِهِ مِنَ الرَّشِيدِ وَمِنْ أَيْيَاتِهِ السَّائِرَةُ قَوْلُهُ فِيهِ :

وَعَلَى عَدُوِّكَ يَا ابْنَ عَمِّ مُحَمَّدٍ رَصْدَانُ ضَوْءِ الصَّبْحِ وَالْإِظْلَامِ
فَإِذَا تَنَبَّهَ رُغْبَتَهُ وَإِذَا غَفَا سَلَتْ عَلَيْهِ سِيُوفُكَ الْأَحْلَامِ

وراجع الشمس نوراً كان فارَقها كأنما فَعَدُّهُ في جِسْمِهَا سَقَمٌ
 قوله : وزال عنك إلى أعدائك الألم : إنما هو خبرٌ وليس دُعَاءٌ ، يريد :
 أن أعداءَهُ نُؤَلِّمُهُمْ عَافِيَتَهُ لِعُودِهِ بعد ذلك إلى غزوهم ، كما أشار إلى ذلك
 في البيت التالي . وانهايت : سالت ، والديم جمع ديمة وهي : المطر الدائم في
 سكون . يقول : كانت الغارات على بلاد الروم قد انقطعت فلما سُفِي وَصَح
 اتصلت الغارات عليها ، فكأن الغارات كانت عليلة بعائته ثم صحت بصحته ،
 وَسُرَّتْ المكارمُ بصحته لأنه صاحبها ، وكانت الأمطارُ مُنْقَطِعَةً فلما سُفِي
 صادف اتصالها شفاءه ، ويقول في البيت الثالث : إن الشمس فقدت بهجتها
 في عيون أوليائه لاغتهم لعائته فلما شفي عاد إليها حُسْنُهَا ،

تفدية المريض

قال البُحْتَرِيُّ :

بأنفِيسِنَا لا بالطوارِفِ والتَّسْلِدِ

نَقِيكَ الَّذِي تُنْخِي مِنَ الشُّكْرِ أَوْ تُبْدِي

بِنَا مَعشَرَ العَافِيْنَ مَابِكِ مِنْ أَدَى

فَإِنْ أَشْفَقُوا مِمَّا أَقُولُ فِي وَحْدِي

« الطوارِف : جمع طارقة مؤنث طارف وهو المال المستحدث وعكسه التَّسْلِدُ

وهو المال القديم ، والشكو مصدر شكا كالشكوى والشكاة ، والعافى طالب

المعروف ، وأشفقوا : خافوا ،

وقال آخر :

بَالَيْتَ عِلْتَهُ بِي غَيْرِ أَنْ لَهُ أَجَرَ العَلِيلِ وَأَنْ غَيْرُ مَا جُورِ

عقريات شتى

في الطب والمرض والعيادة

قال جالينوس : المرض هَرَمَ عارض ، والهرم مرض طبيعي ؛ وله : مجالسةُ
الثقيل حَمَى الروح .

وقال ثابت بن قُرَّة : ليس شيء أضر بالشيخ من أن تكون له جاريةُ
حسنة ، وطباخ حاذق ؛ لأنه يُكثر من الطعام فيسقم ، ومن الجماع فيهرم :
وقال آخر : ليس لثلاث حيلة : فقرٌ يخالطه كسل ، وخصومة يخامرُها
حسد ، ومرض يمازجه هَرَم ...

وقالوا : ثلاثة يُعذرون على سوء الخلق : المريض ، والمسافر ، والصائم ...
وقالوا : فرط الغمِّ والسرور يقتلان ، أما الغم فإنه يُجمد الدم . والسرور
يلهبه حتى تعلو حرارته على الحرارة الغريزية ... وقال كسرى لوزيريه يوماً :
أى الفراش ألد ؟ فقال أحدهما : ألدُّ الفراش الخرزُ محشواً ، وقال الآخر :
ألدُّ الفراش الحرير محشواً — وكان بين يديه غلام من الحجاب فقال : أيها
الملك ، أأذن لي في الكلام ؟ فقال : نعم ، قال : ألدُّ الفراش الأمان ، قال :
صدقت ، قال : فما ألد الطعام ؟ قال : ما لا يهيج على طبيعة علة ، ولا يعقد
في عنق آكله منته ، فقال : أحسنت ، فما ألد الشراب ؟ فقال : ما لا يُزيل
عقلًا عن محله ولا يهيج على طبيعة شيئاً من عِلد ؛ قال : أحسنت ، فما ألد
الريحان ؛ قال : الولد السارُّ ريحانُ أبيه في حياته وخلف له بعد وفاته ؛ فرفع
محله وألحقه بأكابر حشمه ...

ونالت أبا الطيب المتنبى وهو بمصر علة ، فكان بعض إخوانه المصريين

يكثر الإمام به ، فلما أبلّ قطعته ، فكتب إليه : وصلنتى — أعزك الله —
معتلاً ، وقطعتنى مُبِلاً ، فإن رأيت أن تُكدر الصحة على ، وتُحَبِّب العلة
إلى ، فعلت ...

وقال شاعر :

إن الجهولَ تضُرني أخلاقه ضررَ السعالِ لِنَ به استسقاء^(١)
وقال البُستى^(٢)

أنا كالورْدِ فيه راحةٌ قَوْمِ ثم فيه لآخرينَ زُكأم^(٣)

(١) الاستسقاء لدى الاطباء : تجمع سوائل مصلية في تجويف أو أكثر من تجاويف الجسد أو في خلاياه .

(٢) هو أبو الفتح علي بن محمد البستى الكاتب الشاعر المتوفى سنة ٤٠٠ هـ من شعره :

وقد يلبس المرءُ خزَّ الثيابِ ومن دونها حالةٌ مُضنيّة
كمن يكتسى خدهُ حُمْرَةَ وعِلتها ورمٌ في الرية
وله :

تحمّل أخاك على ما به فإني استقامته مطمع
وأنى له خفاقٌ واحدٌ وفيه طبائعه الأربع

ومن ألفاظه : من أصاح فاسده أرغم حاسده . من أطاع غصبه
أضاع أدبه . الفهم شعاع العقل . المنية تضحك من الأمانة . حد العفاف
الرضا بالكفاف

(٣) قبله :

لا يغرنك أنى لئن المسّ فعزى إذا اتضيت حسام

وقال المتنبّي :

لعلّ عَتَبِكَ محمودٌ عواقِبُهُ ورُبّما صَحَّتِ الاجسامُ بِاللِئَالِ

وقال :

أعيذها نظراتٍ منك صادقةً أن تحسبَ الشحمَ فيمن شحمه ورُمُ
وقيل لبعض الأطباء وقد نهكته العلة : ألا تتعالج ؟ فقال : إذا كان
الداء من السماء ، بطل الدواء ، وإذا قدرَ الربُّ بطلَ حذرُ المربوب ، ونعم الدواء
الامل ، وبس الداء الاجل .

ومن أدعيتهم : أغناك الله عن الطّبِّ والأطباء ، بالسلامة والشفاء ، وجعل
علك تمحيصاً لا تنفيصاً ، وتذكيراً لا تنكيراً ، وأدباً لا غضباً .



الباب الرابع

في

كتمان السر وإفشائه

وعبقرياتهم في ذلك وفيما يجري هذا المجرى
من الشورى والاستبداد بالرأى والنصح والأناة والعجلة

وهذا كتمان السر هو الآخر لَوْنٌ من ألوان الصبر الذي أسلفنا القول عليه في الباب الثالث ، وهو معنى من المعاني الخُلُقِيَّة التي عُنِيَ بالقول عليها والحث على الاستمسك بعروتها سائر عقلاء الناس في كل جيل من حنكهم التجارب ، ذاهبين إلى أن إفشاء السر - كان ما كان لونه - آيةٌ من آيات الضعف ودليل على أن في عقل صاحبه عُهُدَةٌ تُغْتَمَزُ فيه ، وأنه ناشئ من قلة الصبر وضيق الصدر ، وأنه من خلائق ضَعْفَةِ الرجال والنساء والصبيان .

ومن السر ما يعد كتماناً من الحزم والاحتياط . وهذا أخص ما يكون بالملوك والساسة ومن إليهم ، وهذا اللون من السر قد يؤدي إفشائه إلى سفك الدماء وضياع الممالك والدول والدمار وخراب الديار . . . ومن السر ما يحدث من الإنسان مما تستقبح إشاعته ويشنعُ سماعه . وإلى هذا اللون يشير سيدنا رسول الله بقوله صلوات الله عليه : من آتى منكم من دنه القاذورات بشيء فليستر بستر الله . . .

وبعد فإياك إياك يا أخى أن يتخذَكَ عن سرِكَ مثل قول القائل :

❖ وَأَكْتُمُ السِّرَ فِيهِ ضَرْبَةُ الْعُنُقِ ❖

وقول الآخر :

وَيْكَاتِمُ الْأَسْرَارَ حَتَّىٰ إِنَّهُ لِيَصُونَهَا عَنْ أَنْ تَمُرَّ بِيَالِهِ
فَذَلِكَ قَوْلٌ مِنْ يَسْتَنْزِلُكَ عَمَّا فِي نَفْسِكَ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَقْصَىٰ مَا عِنْدَكَ لَمْ
يَبْرَعْ فِيهِ حَقِّكَ ، وَقَدْ قَالُوا : إِنْ الصَّبْرَ عَلَى الْقَبْضِ عَلَى الْجَمْرِ أَيْسَرُ مِنَ الصَّبْرِ عَلَى
كَيْفَانِ السَّرِّ ...

حفظ اللسان

من قديم ما قيل في حفظ اللسان قولُ امرئ القيس :

إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَحْزُنْ عَلَيْهِ لِسَانُهُ فَلَيْسَ عَلَى شَيْءٍ سِوَاهُ بِخَزَّانٍ
« لَمْ يَحْزُنْ عَلَيْهِ لِسَانُهُ : لَمْ يُحْرِزْ لِسَانَهُ فَيَجْعَلْهُ فِي خِزَانَةِ قَلْبِهِ ، قَالَ صَاحِبُ
اللسان : وَخِزَانَةُ الْإِنْسَانِ قَلْبُهُ ، وَخَازِنُهُ : لِسَانُهُ ، وَقَالَ الْقَهْمَانُ الْحَكِيمُ لِابْنَتِهِ :
إِذَا كَانَ خَازِنُكَ حَفِيظًا وَخِزَانَتُكَ أَمِينَةً رَشِدَتْ فِي أَمْرِيكَ : ذُنُوبُكَ
وَأَخْرَجْتَكَ ، يَعْنِي : اللسان والقلب ،

وقالوا : من ضاق قلبه اتسع لسانه ...

وقال أبو سعيد الحسن بن أبي الحسن البصرى : لسان العاقل من وراء
قلبه . فإن عرض له القول نظر فإن كان له أن يقول قال ، وإن كان عليه
القول أمسك ، ولسان الاحمق أمام قلبه ، فإذا عرض له القول قال ، كان عليه
أو له ... وقالوا : مقتل الرجل بين فكَّيه .

ومن كلامهم : قِ فَاكِ مَا يَقْرَعُ فَفَاكِ « قِ : فعل أمر من الرقاية ، ومنه :

إن لم تملك فضل لسانك ، مَلَسْتَ الشيطان فضل عنانك .

وفي اللسان ومكانته يقول زهير :

لسانُ الفتى نصفٌ ونصفٌ فؤاده فلم يبق إلا صورةُ اللحم والدم

منع إظهار السر قبل تمامه

قال سيدنا رسول الله : استعينوا على قضاء الحوائج بالكتمان فإن كلَّ ذى نعمةٍ محسود ... « يقول صلوات الله عليه : إنكم إن أظهرتم الناس على حوائجكم حسدوكم فعارضوكم فيما تترامون إلى تضائه ووقفوا في سبيل تحقيقه »

وقالوا : من وهى الأمر لإعلانه قبل إحكامه ؛ وقالوا : من حصن سره فله من تحصينه إياه خلتان : إما الظفر بما يريد ، وإما السلامة من العيب والضرر إن أخطأه الظفر ...

حشم على حفظ السر

قال الشاعر الجاهلي قيس بن الخطيم :

إذا ما جاوزَ الإثنين سرِّي فإنه بِذِكِّ وإفشاءِ الحديثِ قهينُ (١)

وإن ضيَّعَ الإخوانُ سرًّا فإنني كَرُومٌ لأمرارِ العشيرِ أمينُ

يكونُ له عندي إذا ما ضَمَمْتُهُ بَقَرٌ بسوداءِ الفؤادِ كنينُ

رووا : أن ابن المقفع لما سمع هذا البيت قال : أراد بالإنسين الشفتين

كأنه يقول : لا تُفشِ سرَّك إلى أحد ... وهذا لعمري بديع من ابن المقفع

(١) هو معلوم أن الألف في اثنين ألف وصل فإذا جاءت متطوعة في الشعر كما

في هذا البيت فإنما ذلك ضرورة شعرية ، والتك : نشر الحديث الذي كتبه أحق

من نشره ، وقهين : خليق وجدير ، وبنت متعلق بقهين

وكان عليّ ابن أبي طالب رضى الله عنه كثيراً ما يتمثل بهذين البيتين :

فلا تُفشِ سِرِّكَ إلا اليك فإن لكل نصيح نصيحاً
ولمّنى رأيتُ عُقَاةَ الرجا ل لا يتركون أديماً صحيحاً

وقال الصلتان العبدىّ من أبيات أوردها أبو تمام فى حماسته :

أشابَ الصغيرَ وأقى الكبيرَ كثرَ الغداةِ ومرَّ العيشِ
إذا ليلةٌ هَرَمَتْ يومها أتى بعد ذلك يومٌ فتى
زوحٌ ونغدو لحاجاتنا وحاجته من عاش لا تقضى
تموت مع المرء حاجته وتبقى له حاجة ما يبقى
بنيّ بدأ حَبَّ نجوى الرجال فكن عند سرك حَبَّ النجوى^(١)
وسرك ما كان عند امرئٍ وسرُّ الثلاثة غيرُ الخفيّ
كما الصمتُ أذنى لبعضِ الرشا فبعضُ التكلم أذنى لغيرِ

وهن قولهم : سرك من ديمك « يعنون : أنه ربما كان فى إفضاء السرِّ

سَفْكُ الدم ، وقال آخر لآخ له وحدهُ بجديث : آجعلُ هذا فى وعاءٍ غيرِ

سَرِبٍ « السرب : السائل ،

من يُكره أطلاعه على السر

قيل : لا تُظلعوا النساءَ على سِرِّكم تصأح أموركم ، وقالوا : ما كتمتهُ

عدوك فلا تُظلعُ عايه صديقك

(١) الحب بكر الخاء : المكر وبفتحها : المكار ، والنجوى مصدر ، وهو مستعمل

فما يتحدث فيه اثنان على طريق السر والسكتان ، يقول : إذا ناجيت صاحبك فكن

خبياً فمما تودعه من سرك فإن نجوى الرجال إذا بدا خبها عادت وبالاً

المفتخر بحفظ السر

قال المتنبي :

وللسرِّ منيَّ ووضعُ لا يناله نديمٌ ولا يُفِضِي إليه شرابُ
وقال مسكين الدارميُّ :

وفتيانٍ صدقٍ لستُ مُطَّلِعٌ بعضهم على سرِّ بعضٍ غيرَ أني جماعها (١)
لكلِّ أمرئٍ شِعبٌ من القلبِ فارغٌ وموضعُ نجوى لا يرَامُ أطلّاعها (٢)
يظُلُّونَ شئِي في البلادِ وسِرُّهم إلى صخرةٍ أعيَا الرجالِ انصداعها

الممدوح بحفظ السر

قال الأحرص - شاعر إسلامي ترجم له صاحب الأغاني في

الجزء الرابع - :

كريمٌ يُمِيتُ السرَّ حتى كأنه عمٌ بنواحي أمره وهو خايرُ
وقال قيسُ بن الخطيم :

(١) أضاف الفتيان إلى الصدق كما يقال : فتيان خير ، والمعنى : أنهم يصدقون في الود ولا يخونون ؛ والجماع : اسم لما يجمع به الشيء كما أن النظام اسم لما ينظم به الشيء ، والضمير في جماعها : لك أن ترجمه إلى الفتيان أو إلى ما دل عليه الكلام من ذكر الأسرار يقول : رب فتيان هكذا استناموا إليّ واستودعوني أسرارهم فكنت أنا نظامها لا يفوتني من خبيات صدورهم شيء ثم أفردت كلا منهم بالوفاء وكتبان ما أودعني من سره

(٢) يقول : لكل رجل منهم جانب من القلب فرغ له وخص بموضع سره ، والشعب في الأصل : الطريق في الجبل وجمعه شعاب أراد به مكانه من قلبه ، والنجوى اسم للسر ، واطلاعها : علمها يقال : اطلع الشيء واطلع عليه : علمه ، وأنت الضمير العائد على الموضوع لتأنيث المضاف إليه

كُتُومٌ لِأَسْرَارِ الْخَلِيلِ أَمِينُهَا يَرَى أَنْ بَثَّ السَّرَّ قَاصِمَةُ الظَّهِيرِ
وقال كشاجم :

وَيُسْكَتُمُ الْأَسْرَارَ حَتَّى إِنَّهُ لَيَصُونُهَا عَنْ أَنْ تَمُرَّ بِبَالِهِ
« وقد تقدم آنفاً »

ودخل ابنُ أبي مِحْجَنٍ التَّمَقِّيُّ ^(١) على مُعَاوِيَةَ ، فقال له مُعَاوِيَةُ : أُبُوكَ
الَّذِي يَقُولُ :

إِذَا مِتُّ فَادْفِنِّي إِلَى أَصْلِ كَرْمَةٍ تُرَوِّى عِظَامِي بَعْدَ مَوْتِي عُرُوقُهَا
وَلَا تَدْفِنِّي فِي الْفَلَاةِ فَإِنِّي أَخَافُ وَرَاءَ الْمَوْتِ أَنْ لَا أَدْرِقُهَا
فقال ابنُ أبي مِحْجَنٍ : لو شِئْتَ ذَكَرْتَ أَحْسَنَ مِنْ هَذَا مِنْ شِعْرِهِ !
فقال مُعَاوِيَةُ : وما ذاك ؟ قال : قوله :

(١) أبو محجن التَّمَقِّيُّ هو الصحابي الشاعر المشهور بقصته مع سعد بن أبي وقاص
في يوم القادسية وذلك أنه أتى به إليه وهو سكران - وكان صاحب شراب - فأمر به
فقيد ، وكان بسعد جراحة فاستعمل غيره ، وصعد سعد فوق البيت لينظر ما يصنعه
الناس فجعل أبو محجن يتمثل :

كُنِيَ حَزَنًا أَنْ تَرْتَدِي الْخَيْلُ بَانَقَنَا وَأَتَرَكَ مَشْدُودًا عَلِيًّا وَثَاقِيَا
ثم قال لامرأة سعد : ويلك خيليني ولك علي إن سلبت أن أرجع فأضع رجلي
في القيد وإن قتلت استرحتم مني ؛ فخلفته ووثب علي فرس لسعد يقال لها البلقاء ، ثم
أخذ الرمح وانطلق حتى أتى الناس فجعل لا يحمل في ناحية إلا هزم الناس ، فجعل الناس
يقولون : هذا ملك ، وسعد ينظر فجعل يقول : الضبر ضبر البلقاء ^(١) والظفر ظفر أبي
محجن وأبو محجن في القيد ، فلما هزم العدو رجع أبو محجن فوضع رجله في القيد ،
فأخبرت امرأة سعد سعد بالذي كان فقال : لا والله لأأخذ اليوم رجلاً أبلى الله المسلمين
علي يديه ما أبلاه ، فخلى سبيله فقال أبو محجن : لقد كنت أشربها إذ كان يقام علي
الحد أظهر منها فأما إذ بهر جنتي فوالله لأأشربها أبداً

(١) الضبر : عن الفرس

لا تسأل القومَ ما مالى وما حسبي وسألت القومَ ما حزمى وما خلنى
 ألقومُ أعلمُ أنى من سرايم إذا تطيشُ يدُ الرَّعْدِ بَدَةِ الفَرِيقِ
 أعطى السَّنانَ غَدَاةَ الرَّوْعِ حِصَّتَهُ وعاملَ الرُّيحِ أُرْوِيَهُ مِنَ العَلَقِ^(١)
 قد أطعنُ الطَّعْنََةَ النَّجْلَاءَ عَن عُرْضِ وأكتمُ السَّرَّ فِيهِ ضَرْبُهُ العُنُقِ
 فقال معاويةُ: إن كنا أسانا الذولَ لنُحْسِنَنَّ الفِعْلَ، وأجزَلَ صِلَتَهُ..

صعوبة حفظ السرِّ

قالوا: أصبرُ الناس من صبر على كتمان سرِّه فلم يُبْذِه لصديق فيوشك
 أن يَصيرَ عَدُوًّا فُيذِيعَهُ

وقالوا: الصبرُ على لَهَبِ النارِ أهونُ من الصبرِ على كتمانِ السَّرِّ...

من لا يحفظ سره ويستحفظه غيره

قال الشاعر:

فلا تُودِعَنَّ الدَّهْرَ بِسِرِّكَ أَحْمَقًا فإنك إن أودَعْتَهُ مِنْهُ أَحْمَقُ
 إذا ضاقَ صَدْرُ المَرءِ عَن كَتْمِ سرِّه فصدْرُ الَّذي يُسْتَوْدَعُ السَّرَّ أَضيقُ

وقال بشار:

تَبَوَّحَ بِسِرِّكَ ضَيْقًا بِهِ وَتَحَسَّبُ كُلَّ أُخٍ بِكُتْمِ
 وَكَيْتَانُكَ السَّرَّ مَن تَخَافُ وَمَنْ لَا تَخَافُهُ أَحْزَمُ
 إِذَا ذَاعَ سِرُّكَ مِنْ نُخْبَرٍ فَأَنْتَ مَتَى أُمَّتُهُ أَلْوَمُ

ذم من يفشى السر

يقولون: فلانُ أَضْيَعُ للأسرار من الغُرْبَالِ للباء، وقال الحطيئة:

أَغْرِبَالًا إِذَا اسْتُودِعْتَ سِرًّا وَكَأْتُونَ عَلَى الْمُتَحَدِّثِينَ

« الكاتون : الثقل من الناس ، وقيل : الكانون : الذي يجلس حتى

يَتَحَصَّى الْأَخْبَارَ وَالْأَحَادِيثَ لِيَنْقَأَهَا ، قَالَ أَبُو دَهْبَلٍ :

وَقَدْ قَطَعَ الرَّاشِدُونَ بَيْنِي وَبَيْنَهَا وَنَحْنُ إِلَى أَنْ يُوَصَلَ الْجَبَلُ أَحْوَجُ

فَلَيْتَ كَوَانِينَا مِنْ أَهْلِ وَأَهْلِهَا بِأَجْمَعِهِمْ فِي جِلَّةِ الْبَحْرِ لَجَّجُوا ،

وَقَالُوا : فَلَنْ نَأْتِمُّ مِنَ النَّسِيمِ عَلَى الرِّيَاضِ . وَقَالَ ابْنُ الرَّومِيِّ :

كَأَنَّ سِرِّي فِي أَحْسَانِهِ لَهَبٌ فَمَا تُطِيقُ لَهُ طَيِّبًا حَوَاشِيهَا

الأحوال التي يفسد فيها السرّ

قالوا : إِذَا أُرِدْتَ أَنْ تُنْزِلَ الرَّجُلَ عَنْ سِرِّهِ فَتَوَصَّلْ إِلَيْهِ فِي حَالِ

سُكْرِهِ * فَالْشُّكْرُ يُظْهِرُ سِرَّهُ الْمَكْنُونَا *

المسازرة في المحافل

قال سيدنا رسول الله : إِذَا كُنْتُمْ ثَلَاثَةً فَلَا يَتَنَاجَى اثْنَانِ دُونَ الثَّلَاثِ .

وكان مالك بن مسمع إذا سارده إنسان يقول : أَظْهَرَهُ فَلَوْ كَانَ خَيْرًا لَمْ

يَكُنْ مَكْتُومًا ، وَهَذَا مِنْ قَوْلِ زَهْرِبِ بْنِ أَبِي سُلَيْمٍ :

وَالسُّتْرُ دُونَ الْفَاحِشَاتِ وَلَا يَلْقَاكَ دُونَ الْخَيْرِ مِنْ سِتْرِ

« يقول : إِنَّ بَيْنَ الْمَمْدُوحِ وَبَيْنَ الْفَاحِشَاتِ سِتْرًا مِنَ الْحَيَاءِ وَالثُّبْتُ ، وَلَا

سِتْرَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْخَيْرِ يَحْجُبُهُ عَنْهُ »

وَقَالَ الْخُبَيْرِيُّ أَرْزِي :

إِذَا أَنْتِ سَارَرْتِ فِي مَجْلِسٍ فَإِنَّكَ فِي أَهْلِهِ مُتَّهَمَةٌ

فَهَذَا يَقُولُ : قَدْ آغْتَابَنِي وَذَا يَسْتَرِبُ وَذَا يَتَّهَمُ

المتبجح بإظهار أسرار أصدقائه

قال أعرابي:

ولا أكنتم الأسرارَ لكن أنتمها ولا أدع الأمرارَ تغلي على قلبي
وإنَّ قليلَ العقلِ من بات ليلته نُقلبه الأسرارُ جنباً إلى جنبٍ
وقال آخر:

ولا تُودع الأسرارَ قلبي فإنما تُصبِن ماءً في إناءٍ مُسلمٍ
وقال رجل لصديق له: أريدُ أن أفشيَ إليك سرّاً تحفظه ، فقال: كلا
لستُ أشغلُ قلبي بنجواك ، ولا أجعلُ صدري خزانة شكواك ، إنِّي لقلبي
ما ألقاك ، ويُورِّقني ما أرقك ، فتديتَ بإفشائه مُستريحاً ، وبيتَ قلبي بحزّه
جريحاً ... ولعمري ما صدقَ هذا وأكثره انطباقاً على الواقع ا وفي الحق
أن هذا وأمثاله يجب أن يكون عظةً لمن لا يطيقون كتان أسرارهم

الرخصة في إفشاء السر إلى الصديق

قال بعض الشعراء:

وأبذتُ عمراً بعض ما في جوانحي وجرعته من مرٍّ ما أنجرعُ
فلا بدّ من شكوى إلى ذي حفيظة^(١) إذا جعلت أسرارُ نفسي تطلعُ

(١) الحفيظة: إما يراد بها: حفظ الأسرار ، وإما أن يراد بها: الغضب لحرمة
نتهك من حرمانك أوجار ذي قرابة يظلم من ذوبك أو عهد ينسك قال الخطيئة:
يسوسون أحلاماً بعيداً أنانها وإن غضبوا جاء الحفيظة والجُد
والمحفظات: الأمور التي تحفظ الرجل أي تفضبه إذا وتر في حيمه أو جيرانه
قال الفطامي:

أخوك الذي لا تملك الحيس نفسه وترفض عند المحفظات الكتاب =

وقال أبو تمام :

شَكَوتُ وما الشُّكوى لِثَلِي عَادَةٌ ولكن تَفِيضُ الكَأْسِ عِنْدَ امْتِلائِها
وقالوا : لا يزالُ المرءُ في كُربَةٍ ووَحْشَةٍ ما لم يجدْ من يشكو إليه
يتصل بهذا أن يُخَيَّرَ المريضُ طَبِيبَهُ بِكُنْهٍ دائِه .
وقال محمود الوراق :

إذا كَتَمَ الصَّدِيقُ أخاهُ سَراً فما نُضِلُّ الصَّدِيقَ عَلى العَدُوِّ

عقريات شتى في كتمان السر

قال المهلب بن أبي صفرة : أذنى أخلاق الشريف كتمان السر ، وأعلى أخلاقه نسيان ما أسر إليه .

ويروى أن معاوية بن أبي سفيان أسر إلى ابن أخيه عثمان بن عتبة بن أبي سفيان حديثاً ، قال عثمان : جئت إلى أبي فقلت : إن أمير المؤمنين أسر إلى حديثاً أفأحدثك به ؟ قال : لا ، إنه من كتم حديثه كان الخيار إليه ومن أظهره كان الخيار عليه ، فلا تجعل نفسك مملوكاً بعد أن كنت مالكا ، فقلت له : أويدخل هذا بين الرجل وأبيه ؟ فقال : لا ، ولكني أكره أن تذلل لساتك بأفناء السر . قال : فرجعت إلى معاوية فذكرت ذلك له ، فقال معاوية : أعنقك أختي من رِقِّ الخطأ

وكان معاوية يقول : أعنتُ على عليِّ رحمه الله بأربعٍ : كنتُ رجلاً

== والكنايف : جمع كنيفة وهي السخيمة والحقد والعداوة يقول الفطامي : إذا استوحش الرجل من ذي قرابته فاضطغن عليه سخيمة لإساءة كانت منه إليه فأوحشته ثم رآه يضام زال عن قلبه ما احتقده عليه وأغضب له فنصره وانتصر له من ظلمه ،

أَكْتَمُ سُرِّي ، وكان رجلاً ظَهْرَةً ^(١) وكنت في أطْوَعِ جُنْدٍ وَأَصْلِحِهِ ، وكان في أَخْبَثِ جُنْدٍ وَأَعْمَاهِ ، وتركتُهُ وَأَصْحَابَ الْجَمَلِ وقلت : إِنَّ ظَفِيرَوا به كانوا أهونَ علىَّ منه ، وإن ظَفِيرَ بهم اعتَدَدْتُ بها عليه في دينه ، وكنتُ أَحَبُّ إلى قريشٍ منه ...

« وجاء رجلٌ إلى القاضي مُرَبِّحٍ فكلَّمه بشيءٍ وأخفاه ، فلما خرج قال له رجلٌ : يا أبا أمية ، ما قال لك ؟ قال : يا ابنِ أخي ، أو ما رأيتَه سَآءَرَهُ عنك !

وأَسَرَّ رجلٌ إلى صديق له حديثاً فلما استقصاهُ قال : أفهمتَ ؟ قال : لا ، بل نَسيتُ ..

وقال عبيدُ الله بنُ عبدِ الله بنِ عُتْبَةَ بنِ مسعودٍ الفقيه :

إذا كان لي سِرٌّ فحَدِّثْهُ العِداً وضاق به صدرى فللناسِ أَعْدُرُ
هو السِّرُّ ما اسْتَوْدِعْتَهُ وكتَمْتَهُ وإيسِ بِسِرِّ حِينِ يَفْشُو وَيَظْهَرُ
ويقال : إذا انتهى السِّرُّ من الجنانِ إلى عَذْبَةِ اللسانِ فالإذاعةُ مُسْتَوَايَةٌ عليه ..

وقال عمر بن عبد العزيز : القلوبُ أوعيةُ الأسرارِ ، والشفاةُ أبقاؤها والآلسُنُ مفاويجُها ، فليَحْفَظْ كُلُّ امرئٍ مِفْتَاحَ سِرِّهِ ..
وقال شاعر :

صَنِ السَّرِّ عن كلِّ مُسْتَعْجِرٍ . وحاذِرٍ فما الحَزْمُ إلا الحَدْرُ
أَسِيرُكَ سِرِّكَ إنْ صُلَّتْهُ وَأنتِ اسِيرٌ له إنْ ظَهَرَ
وقال جميل بن مَعْمَر :

(١) ظهرة بضم ففتح : يظهر أمره للناس

أَمُوتُ وَالْقَى اللهُ يَا بَنِيَّ لِمَ أُبْحِ بِسِرِّكَ وَالْمُسْتَخْبِرُونَ كَثِيرُ
وقال عمر بن أبي ربيعة :

ولما تَلَقَيْنَا عَرَفْتُ الَّذِي هِيَ كَمِثْلِ الَّذِي بِي حَذَوَكَ النَّعْلَ بِالنَّعْلِ
فَقَالَتْ وَأَرْتَحْتُ جَانِبَ السُّتْرِ إِنَّمَا مَعِيَ فَتَكَلَّمُ غَيْرَ ذِي رِقْبَةٍ أَهْلِي
فَقُلْتُ لَهَا مَا بِي لَهْمٌ مِنْ تَرْقُبٍ وَلَكِنَّ سِرِّي لَيْسَ يَحْمِلُهُ مِثْلِي
يريد : أنه ليس يحمله أحدٌ مثلي في صيانته وسيره ، أي فلا يُبديهِ لأحد ،
وقال شاعر :

أَخْفِضِ الصَّوْتَ إِنْ نَطَقْتَ بَلِيلٍ وَالتَّفِيتُ بِالنَّهَارِ قَبْلَ الْكَلَامِ
وقال مسلم بن الوليد صَرَّبُ الغواني في الكتاب يَا تَيْكَ فِيهِ السَّر :
الْحَزْمُ تَخْرِيقُهُ إِنْ كُنْتَ ذَا حَذَرٍ وَإِنَّمَا الْحَزْمُ سُوءُ الظَّنِّ بِالنَّاسِ
إِذَا أَنَاكَ وَقَدْ أَدَى أَمَاتَتَهُ فَاجْعَلْ صِيَانَتَهُ فِي بَطْنِ أَرْمَاسِ
« أرماس جمع رَمَس وهو القبر ، والمراد إخفاؤه وتَعْفِيفُهُ حتى لا يَبْقَى
له أثر ،

وقال المعري :

فُظُنَّ بِسَارِّ الإِخْوَانِ شَرًّا وَلَا تَأْمَنُ عَلَى سِرِّ نَوَادِ
وَقَبَلَهُ :

نَلُومٌ عَلَى تَبَلْدِهَا قُلُوبًا تُكَايِدُ مِنْ مَعِيشَتِهَا جِهَادًا
إِذَا مَا النَّارُ لَمْ تُطْعَمْ وَقُودًا فَأَوْشِكُ أَنْ تَمُرَّ بِهَا رَمَادًا
فُظُنَّ وَتُطْعَمُ وَأَوْشِكُ أَنْ تَمُرَّ بِهَا رَمَادًا البيت

وبعده :

فَلَوْ خَبَرْتَهُمُ الْجُوزَاءُ خُبْرِي ... لَمَا طَلَعَتْ مَخَانَةَ أَنْ تُكَلِّدَا

عقرياتهم في المشورة

والاستبداد بالرأى

المشورة مُشتقة من : سُرت الدابة : إذا أجزيتها لتعرف قوتها، وهي : استنباط المرء رأى غيره فيما يعرض له من الأمور المعضلة . حتى يثبت له حاق الأمر . . ونعمت العدة هي إذا كان المستشار صديقاً مجرباً حازماً ناصحاً رابط الجأش غير مُعجب بنفسه ولا مُتأثر في رأيه ولا كاذب في مقاله - فإن من كذب لسانه كذب رأيه - فارغ البال حين استشارته :

فأنفع من شاورت من كان ناصحاً شقيقاً فأبصر بعدها من تُشاور
وليس بشافيك الشفيق ورأيه عزيز ولا ذو الرأى والصدر واغبر^(١)

* * *

وما كل ذي لب بمؤتيك نصحه وما كل مؤت نصحه بليب
ولكن إذا ما استجمعا عند واحد فحق له من طاعة بنصيب^(٢)

مدح المشورة

أمر الله عز وجل نبيه صلوات الله عليه بمشاورة من هو دونه من أصحابه فقال سبحانه : (وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله) ذهب المفسرون إلى أن الله تعالى لم يأمر نبيه بمشاورة أصحابه لحاجة منه إلى رأيهم ولكن ليُعلم ما في المشاورة من البركة والثماء ، وقيل : أمره

(١) عزيز : بعيد غائب

(٢) لابي الاسود الدؤلي وقوله : فحق له من طاعة بنصيب ، يريد : فهو اذن وفي

هذه الحالة جدبر بأن يطاع وينتصح بنصحه

بذلك تألفاً لهم وتطيباً لنفوسهم ، وقيل : لبستنّ بذلك المسلمون ... وقال سبحانه : وأمرهم شورى بينهم

وفي الأثر : والمشاورة حصنٌ من الندامة وأمنٌ من الملامة وقالوا : ما هلك أمرؤ عن مشورة

وقال عمر بن الخطاب : الرأي الفرد كالخيط السجيل ، والرأيان كالخيطين المبرمين ، والثلاثة مِرارٌ لا يكادُ يُنتقض ...

« السجيل : الخيط غير المقتول ، والمرار : الحبل الذي أُجيدَ قتلُهُ ، وقالوا : نصنُ رأيك مع أخيك فاستشره ...

حُثم على مشاورة الحازم اللبيب

قال بشار بن بُرد :

إذا بلغَ الرأي المشورة فاستعين	بعزم نصيحٍ أو بتأييد حازم
ولا تجعلِ الشورى عليك غصاصةً	مكان الخوافي نافعٌ للقوادم ^(١)
وخلّ الهوينى للضعيف ولا تكن	تؤوماً فإن الحزم ليس بناهم ^(٢)
وما خيرُ كف أمسك الغلُّ أختها	وما خيرُ سيف لم يؤيد بقائم ^(٣)
وأدين من القربى المقرب نفسه	ولا تشهدِ الشورى أمراً غيرِ كاتب
فإنك لا تستطردُ بهم بالمنى	ولا تبلغُ العلياً بغيرِ المسكارم ^(٤)

(١) الخوافي : ريشات صغار من الجناح إذا ضم الطائر جناحيه خفيت ، والقوادم :

الريشات الكبار التي في مقدم الجناح يقول : إن الضعيف قد عمد الفوى بالمعونة

(٢) الهوينى : تصغير الهوني والهوني تأنيك الالهون يقال : إنك لتعمد للهويننا

من أمرك : أى لاهونه

(٣) الغل : واحد الاغلال طوق من حديد أو جلد يجعل في اليد أو في العنق

(٤) الهم : ما يهيم به الرجل أو أجال فكره فيه ليفعله

إذا كنتَ قَرْدًا هَرَكَ النَّاسُ مُقْبِلًا وَإِنْ كُنْتَ أَدْنَى لَمْ تَفْرَ بِالْعَزَائِمِ (١)
 وَمَا قَرَعَ الْأَقْوَامَ مِثْلُ دُشَيْعٍ أَرِيبٍ وَلَا جَلَى الْعَمَى مِثْلُ عَالِمٍ (٢)
 قال الأصمى : قلت لبشار : إني رأيت رجال الرأي يتمجبون من
 أبحاثك في المشورة ؛ فقال : أما علمت أن المشاور بين إحدى الحُسَيْنَيْنِ :
 بين صواب يفوز بثمرته أو خطأ يُشَارَكُ في مكروهه ؛ فقلت أنت والله
 أشعرُ في هذا الكلام منك في الشعر .

استشارة الكبار والصغار

ومن يُعتمد على مشورته ورويته

كانت الربُّ تَحْمَدُ آراءَ الشيوخ ؛ لتقدّمها في السن ، ولما مرَّ عليها
 من التجارب التي عرفت بها عواقب الأمور حتى كأنها تنظرُها عيانًا ،
 وطراً عليها من الحوادث التي أَوْصَحَتْ لها طريق الصواب وبيّنته تبيانًا ،
 ولما مُنَحَتْهُ من أصالة رأيا ، واستفادته بجميل سعيها ، قال علي بن
 أبي طالب رضي الله عنه : رأى الشيخ خيرٌ من مشهَدِ الغلام . ومن أمثالهم
 «زاجِمٌ يَعودُ أو دَع» (٣)

وقال بعض الحكماء : عليك بمشورة من حلب أشطَر دهره ، ومَرَّتْ عليه

(١) يقال : فلان هزه الناس إذا كرهوا ناحيته ، والعزائم : الحاجات التي
 يعتمز المرء فعلها يقول : إذا انفردت برأى نفسك ولم تستعن بآراء ذوى التجارب
 باعدك الناس وأصغروا من شأنك وإن كنت أدنى القوم شأنًا لم تفز بحاجاتك التي
 اعتمزت عليها .

(٢) المشيع : الشجاع كأنه قد شيع قلبه بما يركب من الأهوال أو بقوّة قلبه

(٣) العود : المسن من الإبل أى لا تستعن إلا بأهل السن والتجربة في الأمور

ضروبٌ خيره وشره ، وباع من العمرِ أشده ، وأورت التجربة زنده ،
واستشارَ زيادُ بن أبيه رجلاً ، فقال الرجل : حقُّ المستشار أن يكون
ذا عقلٍ وافر ، واختبارٍ مُتَظَاهِر ، ولا أراني كذلك .

وقال ابن الرومي يمدح يحيى بن علي المنجم :

أَلَمَعِي يَرَى بِأَوَّلِ ظَنِّ آخِرَ الْأَمْرِ مِنْ وِرَاءِ الْمَغِيبِ
لَا يُرَوِّى وَلَا يُقَبِّبُ كَفًّا وَأَكُفُّ الرِّجَالِ فِي تَقْلِيْبِ

وقال :

تَرَاهُ عَنِ الْحَرْبِ الْعَوَانِ بِمَعْزِلِ وَأَرَاؤُهُ فِيهَا وَإِنْ غَابَ سُهْدُ
كَمَا احْتَجَبَ الْمَقْدَارَ وَالْحَكْمَ حُكْمَهُ عَلَى الْخَلْقِ طُرًّا أَلَيْسَ عَنْهُ مُعَرَّدٌ (١)

وقال ابراهيم بن العباس الصولي في الفضل بن سهل :

يُمِضِي الْأُمُورَ عَلَى بَدِيهِتِهِ وَتُرِيهِ فَكْرَتَهُ عَوَاقِبَهَا
فَيَظَلُّ يُصَدِّرُهَا وَيُورِدُهَا فَيَعْمُ حَاضِرَهَا وَغَائِبَهَا
وَإِذَا الْحُرُوبُ غَلَّتْ بَعَثَتْ لَهَا رَأْيًا تَقُلُّ بِهِ كِتَابَهَا
رَأْيًا إِذَا نَبَتِ السِّيُوفُ مَضَى عَزَمٌ بِهَا فَشَقِي مَضَارِبَهَا
وَإِذَا الْخُطُوبُ تَأَثَّلَتْ وَرَسَتْ هَدَّتْ فَوَاصِلُهُ نَوَائِبَهَا
وَإِذَا جَرَتْ بِضَمِيرِهِ يَدُهُ أَبَدَتْ بِهِ الدُّنْيَا مَنَاقِبَهَا

وقبلهما قول أوس بن حجر :

الْأَلَمَعِيُّ الَّذِي يَظُنُّ بِكَ الظَّ نَّ كَانَ قَدْ رَأَى وَقَدْ سَمِعَا

وقال علي بن أبي طالب في عبد الله بن عباس : إنه ليمتظر إلى الغيب من

سائر رقيق

(١) ليس عنه معرّد : ليس عنه مهزّب

وقال الشاعر:

بِصِيرٍ بِأَعْقَابِ الْأُمُورِ كَأَنَّمَا يَرَى بِصَوَابِ الرَّأْيِ مَا هُوَ وَاِقْعُ

وقال الآخر في مثله:

عَلِيمٌ بِأَعْقَابِ الْأُمُورِ بِرَأْيِهِ كَأَنَّ لَهُ فِي الْيَوْمِ عَيْنًا عَلَى الْعَدِ

وقال:

بِصِيرٍ بِأَعْقَابِ الْأُمُورِ كَأَنَّمَا يَخَاطِبُهُ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ عَوَاقِبُهُ

وَأَيْنَ مَقَرُّ الْحَزْمِ مِنْهُ وَإِنَّمَا مَرَاتِنِ الْأُمُورِ الْمُشْكِلَاتِ تَجَارِبُهُ

ولقد بالغوا في الحثِّ على مُشاوَرَةِ ذَوِي الرَّأْيِ وَالتَّجْرِبَةِ حَتَّى وَلَوْ كَانُوا

أَعْدَاءً، قَالَ ابْنُ الْمُقَفَّعِ فِي كَلِيلَةِ وَدِئْمَنَةِ: لَا يَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ أَنْ يَتْرَكَ اسْتِشَارَةَ

عَدُوِّهِ ذِي الرَّأْيِ فِيمَا يَشْرِكُهُ ذَلِكَ الْعَدُوُّ فِي نَفْعِهِ وَضَرِّهِ ...

وقالوا: اسْتَشِيرْ عَدُوَّكَ تَعْرِفْ مَقْدَارَ عِدَاوَتِهِ ...

وقد رأى قومٌ خِلافَ ذَلِكَ وَذَهَبُوا إِلَى أَنَّ رَأْيَ الشَّبَابِ هُوَ الرَّأْيُ

الصَّائِبُ، وَفَهَمَهُمْ هُوَ الْفَهْمُ الثَّاقِبُ، إِذْ أَنْ عَقُولَهُمْ سَلِيمَةٌ مِنَ الْعَوَارِضِ،

وَأَرَاءُهُمْ خَصِيرَةٌ نَضْرَةٌ لَمْ يَهْتَصِرْ غُضُنُهَا هَرَمٌ^(١)، وَلَا أَذْرَى زَهْرَتِهَا قَدَمٌ

وَلَا حَبَابٌ مِنْ ذِكَايَها يَطُولُ الْمُدَّةَ ضَرَمٌ. قالوا: إِنَّ رَأْيَ الشَّيْخِ كَالزَّائِدِ قَدِ انْتَلَمَ،

أَمَّا رَأْيُ الشَّبَابِ فَكَالزَّائِدِ الصَّحِيحِ الَّذِي يُورِي بِأَيْسَرِ اقْتِدَاحِ

وقال الشاعر:

رَأَيْتُ الْعَقْلَ لَمْ يَكُنْ أَتْيَهَابًا وَلَمْ يُقَسِّمْ عَلَى عَدَدِ السَّنِينَا

وَلَوْ أَنَّ السَّنِينَ تَقَسَّمَتْ حَرَى الْآبَاءِ أَنْصَبَةَ الْبَلِينَا

(١) يهتصر الغصن: يقطعه ويكسره من غير انفصال

من يجب أن تجتنب استشارته

قال قُتُس بن ساعدة الإيادي لابنه: لا تُشاوِرْ مشغولاً وإن كان حازماً ولا جائماً وإن كان فهماً، ولا مَدْعوراً وإن كان ناصحاً، ولا مَهْموماً وإن كان عاقلاً، فالهَمُّ يَعْقِلُ العقلُ فلا يَتَوَلَّدُ منه رأْيٌ ولا تَصْدُقُ به رَويَةٌ... وقالوا: لا تُدْخِلْ في مَشُورَتِكَ بَخِيلاً فَيَقْصِرَ بِفِعْلِكَ، ولا جَبَاناً فَيُخَوِّفَكَ، ولا حَرِيصاً فَيَعِدَّكَ ما لا يُرْجَى، وإن البُخْلَ والجُبْنَ والحِرْصَ طَبِيعَةٌ واحدةٌ يَجْمَعُهَا سُوءُ الظنِّ بالله... .

وقالوا: لا تُشاوِرْ مَنْ لَيْسَ في بَيْتِهِ دَقِيقٌ ...

وكان كسرى إذا أراد أن يستشير إنساناً بَعَثَ إليه بنفقته سنة ثم يستشيرُه .

وقال عليٌّ رضي الله عنه: إِيَّاكَ ومُشاوِرَةَ النَّساءِ قَرَأَيْهِنَّ إلى أُنْفٍ وَعَزَمَهُنَّ إلى وَهْنٍ^(١)... ووَرَدَ في الأثر: شاوِروهُنَّ وخالفوهنَّ ...

وجوب نصيحة مستشيرك

قال سيدنا رسول الله: المُسْتَشَارُ مُؤْتَمَنٌ ...

وقال صلوات الله عليه: الدِّينُ النِّصِيحَةُ ، قالوا: لِمَنْ يارسولَ الله؟

قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم ...

« قال ابن الأثير في النهاية: النصيحة كلمة تُعْبَرُ عن جملة هي: إزادة الخير للنصوح له، وايست كلمة تُعْبَرُ عن هذا المعنى سواها، وأصل النصح في اللغة: الخُلُوصُ، يقال: أَصْحَتْه وَأَصْحَتْ لَهُ... هذا: والنصيحة لله: الإِيمانُ به

(١) الألف: النقص، ورجل مأفون: نائض العقل، والوهن: الضعف

وطاعة أمره واجتناب نهيه، وهو الألة من أطاعه، ومُعَادَاة من عصاه وما إلى ذلك مما ترجع عائده في الحقيقة إلى العبد، فهي نصيحة إلى نفسه وكسب خير لها؛ والنصيحة لكتابه: الإيمان بأنه من عند الله، وتحليل ما حله وتحريم ما حرّمه، والاهتداء بما فيه، إلى أمثال ذلك؛ والنصيحة للرسول: تصديقه والاستئنان بسنته، إلى آخره؛ والنصيحة لأئمة المسلمين - والمراد بهم أولوا الأمر - إعانتهم على الحق ونصحهم في رفق وعدل، إلى آخره، والنصيحة لعامة المسلمين: إرشادهم إلى ما فيه خير الدنيا والآخرة. وقال حكيم: لا تُشِيرَنَّ على عدوّك وصديقك إلا بالنصيحة، فالصدقُ تقضى بذلك حقه والعدوُّ يهابك إذا رأى صواب رأيك ...

وقال آخر: إذا استشارك عدوك فخرّد له النصيحة، لأنه بالاستشارة

قد خرج من عداوتك إلى موالاتك ..

ويروى: أن زياد بن أبيه كتب إلى معاوية: يا أمير المؤمنين، قد ضبّطت لك العراق بشمال وقرّعت يميني لطاعتك، فولّني الحجاز، فبأن ذلك الرجل الصالح عبد الله بن عمر رضي الله عنه، - وكان مقبلاً بمكة - فقال: اللهم اشغلّ عنا يمين زياد، فأصابه الطاعون في يمينه، فجمع الأطباء واستشارهم، فأشاروا عليه بقطعها، فاستدعى القاضي شريحاً وعرض عليه ما أشار به الأطباء، فقال: لك رزق معلوم، وأجل محتوم، وإنى أكره إن كانت لك مدة أن تعيش في الدنيا بلا يمين، وإن كان قد دنا أجلك أن تلقى ربك مقطوع اليد، فإذا سألك لم تقطعها قلت: بُغضاً في لفائك، وفراراً من قضائك؛ فمات زياد من يومه، فلام الناس شريحاً على منعه من القطع، لبغضهم زياداً، فقال: إنه استشارني والمستشار مؤمن ... ولولا

الامانة في المشورة لوددت أن تقطع يده يوماً ورجله يوماً وسائر
جسده يوماً يوماً ...

الحث على قبول النصيحة وإن كان مُراً

قالوا: مَنْ أَحَبَّكَ نَهَاكَ ، وَمَنْ أَبْغَضَكَ أَغْرَاكَ
وقال بعض الحكماء: مَنْ أَوْجَرَكَ الْمُرَّ لَتَبْرَأَ أَشْفَقُ عَلَيْكَ مِنْ أَوْجَرَكَ
الْحُلْوُ لَتَسْقَمَ . . . يقال: أَوْجَرَهُ الدَّوَاءُ: سَقَاهُ إِيَّاهُ . وَالْوَجُورُ: الدَّوَاءُ الَّذِي
يَصَبُّ فِي الْفَمِ ،

عتاب من لم يقبل النصيحة

قالوا: مَنْ لَمْ يَقْبَلْ رَأْيَ أَصْحَابِهِ وَإِنْ أَحْزَنُوهُ عَادَ ضَرُّهُ عَلَيْهِ ، كَالْمَرِيضِ
الَّذِي يَتْرَكُ مَا يَصِفُّ لَهُ الطَّيِّبُ وَيَعْتَمِدُ إِلَى مَا يَشْتَبِهُهُ فَيَهْلِكُ . وَقَالَ اللَّهُ
تَعَالَى حِكَايَةً عَنْ صَالِحٍ : « لَقَدْ أَرْسَلْنَاكُمْ رَسُولًا مِنْ بَنِيكُمْ أَنْذَرَكُمْ نِيَّتَهُمْ فَاذْكُرُوا يَوْمَكُمْ
الَّذِي كُنْتُمْ تُكْفَرُونَ » .
لَا تُجِيبُونَ النَّاصِحِينَ ،
وقال العرجي^(١):

عَرَضْتُ نَصِيحَةً مَنِي لِيَجِيءُ فَقَالَ: غَشَشْتَنِي وَالنُّصْحُ مُرٌّ

ضياح النصيحة لمن لا يقبله

قال الشاعر: * وما خيرُ نُصْحٍ قِيلَ لَا يُتَقَبَّلُ *
* * *

(١) هو عبد الله بن عمر بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان ، سمي العرجي
لأنه ولد بالعرج في الطائف وقيل : بل كان له فيه مال فكان يكثر الاختلاف إليه
فشهر به ، شاعر مطبوع في الغزل والنسيب ، ترجم له صاحب الاغانى (ج - ١)

وقال غيره :

إن كان حمدي ضاع في نُصْحِكُمْ فَإِنَّ أجزى ليس بالضائع
وقيل : أخذ رجلٌ ذئباً فجعل يعِظُه ويقول له : إياك وأخذَ أغنامَ
الناس فباعَ بك الله ، والذئب يقول : خفف واخترِ قدامي قطعُ
من الغنم لثلا يفوتني ...

معاينة من يستنصح الناس

ويستغش الناصح

قال عبد الله بن همام السأولي :^(١)

وقد يستغش المرء من لا يعشيه ويأمن بالغيبِ امرأةً غيرَ ناصح

وقال أيضا :

ألا ربَّ من تعشيه لك ناصحٌ ومؤمنٍ بالغيبِ غيرُ أمين

« تعشيه : تعده غاشياً لك »

وقال غيره :

نصحتُ فلم أفليح وغشوا فأفجروا فأزلى نصحي بشرٌ مكان

(١) هو القائل :

وأنتِ أمرؤٌ إما ائتمنتك خاليا فحنتِ وإما قلتِ قولاً بلا علم

فأنتِ من الأمر الذي كان بيننا بمنزلة بين الحياة والموت

وكان قد وشى به واش إلى زياد بن أبيه وقال له : انه هجاك ، فقال : أجمع

بينك وبينه ؟ قال : نعم ، فبعث زياد إلى ابن همام فأتى به وأدخل الرجل بيتاً فقال

زياد : يا ابن همام ، بلغني أنك هجرتني ، فقال : كلا . أصلحك الله ما فعلت ولا أنت

لذلك أهل ، فقال : إن هذا الرجل أخبرني وأخرج الرجل ، فأطرق ابن همام هنيهة

ثم أتبل على الرجل وقال هذين البيتين :

وقال يزيد بن الحكم الثقفى ^(١) من قصيدة جيدة في بابها ^(٢) يُعَاتِبُ ابْنَ
عمه عبد الرحمن بن عثمان بن العاص وأولها :

تُكَاثِرُنِي كُرْهًا كَأَنَّكَ نَاصِحٌ

وَعَيْنُكَ تُبْدِي أَنَّ صَدْرَكَ لِي دَوِي ^(٣)

لِسَانِكَ لِي أَرَى وَغَيْبِكَ عَلِقْمٌ ^(٤) وَشُرْكَ مَبْسُوطٌ وَخَيْرُكَ مُنْطَوِي ^(٥)

تُصَافِحُ مَنْ لَاقَيْتَ لِي ذَا عَدَاوَةٍ صِفَاحًا وَغَيْبِي بَيْنَ عَيْنَيْكَ مُزَوِي ^(٥)

تُفَارِضُ مَنْ أَطْوَى طَوَى السَّكْشَحِ دُونَهُ ^(٦) وَبَيْنَ دُونِ مَنْ صَافَيْتَهُ أَنْتَ مُنْطَوِي ^(٦)

الناصح منهم

من أمثالهم : المبالغة في النصيحة تهجمُ بك على عظيم الظنة . « الظنة :
الثَّهْمَةُ ، وقال أكنم بن صيفي : إياكم وكثرة التَّنصُّحِ فإنه يورثُ الثَّهْمَةَ .
« التَّنصُّحُ : كثرة النصح ، وقال قائلهم :

❖ وقد يستفيدُ الظنَّةُ المتنصِّحُ ❖

(١) شاعر إسلامي فحل ، ترجم له صاحب الأغانى ج ١١ ساسي

(٢) انظرها في الأمالى والخزانة

(٣) يقال : كاشر الرجلُ الرجل إذا كشر كل واحد منهم لصاحبه ، وهو أن يبدى
له أسنانه عند التبسم ، وكرهاً : بضم الكاف وفتحها مصدر وضع موضع الحال ،
والدوى وصف من الدوى بالفتح : المرض ودوى صدره : ضعف

(٤) الأرى : العسل ، والعلقم : الحنظل

(٥) وغبي يروي وحتمدي ، وزوى ما بين عينيه : قبضها

(٦) فاوضه : أظهر له أمره . وأطوى ضد أنشر ، والطوى : الجوع يقول : تظهر

أمرك لمن أخفى عنه جوعى أى تبسط في الكلام عند عدول لا أظهره على شيء من
أموري ، وتقبض عن أصدقائي ولا تظهرهم على شيء من أمرك نكابة في .

وشاور المأمونَ يحيى بن أكرمٍ، فكان الرأي مخالفاً لهوى المأمون، فقال يحيى: ما أحدٌ بالغ في نصيحة الملوكِ إلا استغشوه، قال: ولم يحيى؟ قال: لصرفه لهم عما يُحبون إلى ما لعلمهم يتكروهون في الوقتِ والهوى إلهٌ معبودٌ!

وصف غاش في نصحه

من أمثالهم في الذي ينصح القوم وهو غاش: « أنت شولة الناصحة » قال ابن السكيت: كانت شولة أمة رعناء تنصح لوالها فتعود نصيحتهما وبالا عليهم، لحمةها.

وقال معاوية يوماً لعمر بن العاص: هل غششتني منذ استنصحتك؟ قال: لا، فقال: ولا يوم أشرت عليّ بمبارزة عليّ وأنت تعلم من هو؟ فقال: كيف وقد دعاك رجلٌ عظيمُ الخطر كنت من مبارزته إلى إحدى الحسينين! إن قتلته فزت بالملكِ وازددت شرفاً إلى شرف، وإن قتلك تعجلت من الله تعالى ملاقاته الشهداء والصديقين! فقال: وهذه أشدُّ من الأولى! فقال: أو كنت من جهادك في شك؟ فقال: دعني من هذا . . .

وقال شاعر:

أعاذل إن نصحك لي عناءٌ فحسبك قد سمعتُ وقد عصيتُ

الاستبداد وكرهه المشورة

ومن الناس من آثر الاستبداد برأيه وكره أن يستشير، قال المهلب ابن أبي صفرة: لو لم يكن في الاستبداد بالرأي إلا صوتُ السرِّ وتوفيرُ

العقل لوجب التَّمَسُّكُ به ... وقال عبد الملك بن صالح ؛ ما اسْتَشَرْتُ أحداً قطُ إلا تكبَّرَ عليَّ وتصاغرتُ له ، ودخلته العِزَّةُ ودخلتني الذلَّةُ ؛ فعليك بالاستبدادِ ، فإن صاحبه جليلٌ في العيون ، مهيبٌ في الصدور ؛ واعلم أنك متى استشرت تَضَعُ شَأْنَكَ ، وَرَجَفَتْ بِكَ أركانك ؛ وما عَزَّ سلطانٌ لم يُغْنِه عَقْلُه عن عقولِ وُزرائه ، وآراءِ نصحاہِ ؛ فإياك والمشورة وإن ضاقتُ عليك المذاهب ، واشتهتْ لديك المسالك .

ورَوَوْا : أن أبا جعفر المنصور كان يَسْتَشِيرُ أهلَ بيته حتى مدحا ابن هَرَمَةَ ^(١) بقوله :

يُزِنُ امْرَأً لَا يُصْلِحُ الْقَوْمَ أَمْرَهُ

وَلَا يَنْتَجِي الْأَذْنِينَ فِيمَا يُجَاوِلُ ^(٢)

فاستوى جالساً وقال : أصبتَ والله ! واستعاده ، وما استشار بعدها . وقال بعضُ جلساء هارون الرشيد . أنا قتلُ جعفر بن يحيى البرمكي وذلك أني رأيت الرشيد يوماً وقد تنفَّسَ تنفَّساً مُنْكَرًا فأنشدت في إثر نفسه :

وَأَسْتَبَدَّتْ مَرَّةً وَاحِدَةً إِنَّمَا الْعَاجِزُ مِنْ لَا يَسْتَبِدُّ ^(٣)

فأصغى إليه واستعاده ، ثم قتل جعفرًا ...

(١) هو إبراهيم بن علي بن سلمة بن هرمة ، من متقدمي الشعراء ، ومن أدرك الدولتين الأموية والهاشمية ترجم له صاحب الأغانى (ج ٤ ،
 (٢) انتباه : إذا أفضى إليه بسرّه وخصه به
 (٣) لعمر بن أبي ربيعة وقبله :

لَيْتَ هِنْدًا أَنْجَزْنَا مَا تَعِيدُ وَشَفْتُ أَنْفُسَنَا بِمَا نَجِدُ

وكانت الفرس والروم مختلفين في الاستشارة؛ فقلت الروم: نحن لا نملك من يحتاج إلى أن يستشير، وقالت الفرس: ونحن لا نملك من يستغنى عن المشاورة؛ وقد فضل الفرس لقوله تعالى « وشاورهم في الأمر » .

المتفادى من أن يستشار

ومن الناس من يكره أن يشير:

استشار عبد الله بن عليّ عبد الله بن المقفع فيما كان بينه وبين أبي جعفر المنصور، فقال ابن المقفع: لست أقود جيشاً، ولا أتقلدُ حرباً، ولا أشير بسفك دم، وعترة الحرب لا تستمال، وغيرى أولى بالمشورة في هذا المكان ...

واجتمع رؤساء بني سعد إلى أكنم بن صينيّ يستشيرونه فيما دهمهم يوم الكلاب، فقال: إن وهن الكبر قد فشا في بدني، وليس معي من حدة الذهن ما أبتدئ به الرأي، ولكن اجتمعوا وقولوا، فإنني إذا مرّ بي الصواب عرفته .

الأنانة والروية والعجلة

مدح الأنانة والروية وذم العجلة

وكانوا يمدحون الأنانة في الرأي وإجالة الفكرة فيه وعدم التسرع . كان عبد الله بن وهب الراسبي يقول: إياي والرأي الفطير ا وكان يستعبد بالله من الرأي الدبري .

« الفطير: كل ما أعجل عن إدراكه، تقول: نظرت العجين، وهو

أَنْ تَدْعِيَهُ ثُمَّ تَحْتَبِرُهُ مِنْ سَاعَتِهِ . وَالدَّبْرِيُّ : الَّذِي يَسْنَحُ بَعْدَ الْفَوْتِ
يُقَالُ : شَرُّ الرَّأْيِ الدَّبْرِيُّ ، وَهُوَ الَّذِي يُسْنَحُ آخِرًا عِنْدَ فَوْتِ الْحَاجَةِ ،
أَيُّ أَنْ شَرَّهُ إِذَا أَدْبَرَ الْأَمْرُ وَفَاتَ ، وَهِنْ ذَا قَوْلِهِمْ : عَرَفَ الْأَمْرَ تَدْبِيرًا ،
أَيُّ بِأَخْرَةِ قَالَ جَرِيرُ :

وَلَا تَتَّقِرْنَ الشَّرَّ حَتَّى يَصِيبَكُمْ وَلَا تَعْرِفُونَ الْأَمْرَ إِلَّا تَدْبِيرًا
وَيُقَالُ : إِنْ فُلَانًا لَوْ اسْتَقْبَلَ مِنْ أَمْرِهِ مَا اسْتَدْبَرَهُ لَهْدَى لِيُوجِّهَهُ
أَمْرِهِ ، أَيُّ لَوْ عَلِمَ فِي بَدْيِ أَمْرِهِ مَا عَمِلَهُ فِي آخِرِهِ لَاسْتَرْشَدَ لِأَمْرِهِ «
وَكَانَ عَامِرُ بْنُ الظَّرِبِ حَكِيمٌ الْعَرَبُ يَقُولُ : دَعُوا الرَّأْيَ يَغِيبُ حَتَّى
يَخْتَمِرَ ، وَإِيَّاكُمْ وَالرَّأْيَ الْفَطِيرُ ! يَرِيدُ الْإِنَاءَةَ فِي الرَّأْيِ وَالتَّثْبِتَ فِيهِ
وَقَالَ الشَّعْبِيُّ — عَامِرُ بْنُ شَرَّاحِيلَ — : أَصَابَ مُتَأَمِّلٌ أَوْكَادًا ، وَأَخْطَأَ
مُسْتَعِجِلٌ أَوْكَادَ « الْمُتَأَمِّلُ : الْمُتَثَبِّتُ يَقُولُ : تَأَمَّلْ فُلَانٌ : إِذَا تَثَبَّتَ وَنَظَرَ
فِي الْأَمْرِ »

وقال شاعر :

تَأَنَّ وَشَاوِرْ فَإِنَّ الْأَمْرَ رَمْنًا مِضِيًّا وَمُسْتَعْمِضًا
فَرَأْيَانٍ أفضَلُ مِنْ وَاحِدٍ وَرَأْيُ الثَّلَاثَةِ لَا يُنْقَضُ

وقال المتنبي :

الرَّأْيُ قَبْلَ شِجَاعَةِ الشُّجْعَانِ هُوَ أَوْلُّ وَهَى الْمَحَلِّ الثَّانِي
فَإِذَا هُمَا اجْتَمَعَا لِنَفْسٍ مُرَّةٍ بَلَغَتْ مِنَ الْعَلْيَاءِ كُلِّ مَكَانٍ (١)
وَلَرَبَّمَا طَعَنَ الْفَتَى أَقْرَانَهُ بِالرَّأْيِ قَبْلَ تَطَاعِنِ الْأَقْرَانِ

(١) لنفس مرة: من المرارة، وتروى مرة بكسر الميم: القوة والشدة، وأصل المرة
لإحكام الفتل يقال: أمر الحبل لمرارا، وتروى: حرة

لولا العقول لكان أدنى ضيغمٍ أدنى إلى شرف من الإنسان^(١)
ولما تفاضلت العقول ودبرت أيدي الكماة عوالي المران^(٢)
وفي الأثر: ما دخل الرفق في شيء إلا زانه، ولا الحرق إلا شانه.
وقال القطامي:

قد يذكرك المتأني بعص حاجته وقد يكون مع المستعجل الزلل
وقال:

وخير الأمر ما استقبلت منه وليس بأن تتبعه أتباعا^(٣)
وقبله:

ومعصية الشفيق عليك بما يزيدك مرة منه استماعا^(٤)

مدح العجلة وانتهاز الفرص

وهناك من الخطوب ما تمدح فيه العجلة:

قيل لأبي التيناء: لا تعجل فالعجلة من الشيطان ا فقال: لو كان ذلك
كذلك لما قال نبي الله موسى «وعجلت إليك رب استرضي»،
وقال معاوية: ما من شيء يعدل الثبوت ا فقال الأحنف بن قيس: إلا
أن تبادر بالعمل الصالح أجلك ...

(٢٠١) الضيغم: الأسد والمراد بأدنى ضيغم: أدون وأخس، وأدنى إلى شرف:
أقرب، والعوالي: صدور الرماح، والمزان: الرماح اللينة، والسكاة جمع كمي وهو
البطل المشتمل بالسلاح

(٣) يقول: خير الأمر ما قد تدبرت أوله فعرفت إلام تول عاقبته، وشره
ماترك النظر في أوله، وتتبع أو آخره بالنظر

(٤) يقول: إذا عصيت الشفيق عليك الحريص على رشدك تبينت في عواقب
أمرك الزلل فزادك حرصاً على أن تقبل نصحه.

وقالوا: المتأني في علاج الداء، بعد أن عرف الدواء، كالمتأني في إطعام النار وقد أخذت بحواشي ثيابه ...

وسأل أبو علي البصيرُ بعضَ الأمراءِ حاجة: فقال له: رُحْ إلى وقتِ العَصْرِ، بجاءِ وقتِ الظُّهرِ، فقال: ألمِ أَعِدْكَ وقتَ العَصْرِ؟ فقال: نعم، ولكن رأيتُ الإفراطَ في الاستظهارِ أَحْمَدَ من الاستظهارِ في التواني ...
«والاستظهار هنا معناه: الاحتياط والاستيثاق»

ومن قولهم في انتهاز الفرص: الهَيْبَةُ خَيْبَةٌ والْفُرْصَةُ تَمْرٌ مَرَّ السَّحَابِ ...
وقالوا: انتَهَزَ الْفُرْصَةَ قَبْلَ أَنْ تَعُودَ غُصَّةٌ. وقالوا: الْاِفْتِرَاصُ اِقْتِنَاصٌ ...

عقريات شتى في المشورة

قال عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب - شاعر ضخم أدرك الدولة العباسية - :

فَأرْسِلْ حَكِيمًا وَلَا تُوصِ	إذا كنتَ في حاجةٍ مُرْسِلًا
فشاوِرْ كَبِيًّا وَلَا تَعْصِه	وإنْ بابُ أمرٍ عَلَيْكَ التَّوَى
حَدِيثًا إِذَا أَنْتَ لَمْ تُحْصِه	وَلَا تَنْطِقِ الدَّهْرَ فِي بَجَاسِ
فإنَّ الوَثِيقَةَ فِي نَفْسِه ^(١)	وَنَصَّ الحَدِيثَ إِلَى أهْلِه
فَلَا تَنْأَ عَنه وَلَا تُفْصِه	وإنْ ناصِحٌ مِنْكَ يَوْمًا دَنَا
وَقَدْ تَعَجَّبُ العَيْنُ مِنْ شَخِصِه	وَكَمْ مِنْ قَتِيٍّ شاخِصَ عَقْلُه
وَيَأْتِيكَ بِالأمْرِ مِنْ فَصِه ^(٢)	وَأخَرَ تَحَسَّبُه جَاهِلًا

(١) نص الحديث: رفعه وأسندته؛ والوثيقة في الأمر: إحكامه والاختذ بالثقة

(٢) فص الأمر: أصله وحقه يفته تقول: أنا أتيك بالأمر من فسه، يعني: من

مخرجه الذي قد خرج منه

وقال ابن المقفع: لا يُقَدِّفَنَّ في رُوعِكَ أنك إذا اسْتَدْرَتَ الرجال ظهر للناس منك الحاجة إلى رأى غيرك فتنتطع بذلك عن المشورة ، فإنك لا تريد الرأى للفخر ولكن للاتفاف به ، ولو أنك أردت الذكر لكان أحسنُ الذكر عند الألباء أن يُقال : لا ينقرُدُ برأيه دون ذوى الرأى من إخوانه ...

ولما سار سيدنا رسول الله إلى قريش في غزاة بدر نزل صلى الله عليه وسلم أذنى ماءٍ من مياه بدر ، فقال له الحجاب بن المنذر : يا رسول الله ، رأيت هذا المنزل أمزِلُ أنزلَكَ اللهُ عز وجل ليس لنا أن نتقدّمه ولا أن نتأخر عنه ، أم هو الرأى والحربُ والمكيدة ؟ قال : « بل هو الرأى والحربُ والمكيدة » ؛ فقال : يا رسول الله ، فإن هذا ليس لك بمنزل ، فانهض بالناس حتى نأتى أذنى ماءٍ من مياه القوم فنزله ، ثم نُعَوِّرَ^(١) ما سواه من القلب ، ثم نبني عليه حوضاً فتملأه ماءً ، ثم نُقاتِلَ القومَ فَنَشْرَبَ ولا يشربوا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لقد أشرتُ بالرأى » وفعل ما أشار به الحجاب .

وفي حديث أبي هريرة : ما رأيتُ أحداً أكثر مشورة لأصحابه من النبي صلى الله عليه وسلم ... « أقول : وإنما كان يشاورهم — كما قال علماؤنا — فيما ليس فيه نص ، وفي أمور الدنيا ، ومن ظنَّ أنه كان يشاورهم في الأحكام فقد غفل غفلةً عظيمةً كما قال الأئمة ، وكذلك إنما كانت المشاورة قبل العزم والتبيين ، فإذا عزم الرسول لم يكن لبشرٍ التقدّم على الله ورسوله ، قال العلماء : فلقد شاورَ النبي أصحابه يوم أُحُدٍ في المقام

(١) عور الركبة : كبتها بالتراب حتى تنسد عيونها

والخروج ، فأوَّاه الخروج ، وكان صلوات الله عليه يرى أن يُقيم
 بالمدينة فيقاتلهم فيها ، فما زالوا برسول الله حتى لبس لأُمَّته ^(١) فلما لبسها
 ندَموا وقالوا : يارسول الله أقيم فالرأى رأيك ، فلم يمل إليهم بعد العزم
 وقال : لا ينبغي لنبي يلبس لأُمَّته أن يضعها حتى يحكم الله... وكذلك كان
 الخلفاء الراشدون يستشيرون الأُمماء من أهل العلم في الأمور التي لم يكن
 فيها نصُّ بحكم مُعيَّن ليأخذوا بأيسرها ، فإذا وضَح الكتابُ والسنة لم
 يتعدَّوه إلى غيره ، فقد كان أبو بكر رضى الله عنه إذا ورد عليه أمرٌ نظر
 فإن وجد في كتاب الله أو سنة رسوله ما يقضى به قضى وإلا دعا رؤس
 المسلمين وعلماءهم واستشارهم ، وكذلك كان يفعل الفاروق وسائر الخلفاء
 رضى الله عن الجميع »

قالوا : وكانت الرومُ والفرسُ لا يجمعون وزراءهم على الأمرِ يستشيرون
 فيه ، وإنما كانوا يستشيرون الواحدَ منهم من غير أن يعلم الآخرُ به ؛
 وذلك لمعانٍ : منها أن لا يقع بين المُستشارين منافسةٌ تذهب بأصالة الرأي
 وصحة النظر ، لأن من طباع المُشتركين في الأمر التناؤس والتعالب والطعن
 من بعضهم على بعض ، وربما أشار أحدُهم بالرأى الصواب وسبق إليه
 فحسده الآخرون فتعقبوه بالإعراض والتأويل والتَّهجين وكدرهه وأفسدوا
 ومنها أن في اجتماعهم على المشورة تعريضُ السر للإضاعة والإفشاء والإذاعة
 ولذلك قالت الفرسُ : إنما يُراد الاجتماع والكثرة والتأصُّر في الأمور
 التي يُحتاج فيها إلى القوة ، أما الأمورُ الغائضة فإن الاجتماع يُفيدُها ويُؤلِّدُ
 فيها التضاعن والتناؤس ...

وجاء في كتاب للهند : أن ملكا استشارَ وزراءه له ، فقال أحدُهم :

(١) أداة الحرب من درع وبيضة وغيرهما من السلاح

الملك الحازمُ يزدادُ برأىِ الوزراءِ الحزاةِ كما يزدادُ البحرُ بموادهِ من الأنهارِ
وينالُ بالحزمِ والرأىِ ما لا يناله بالقوةِ والجنودُ ؛ وللأسرارِ منازلُ : منها
ما يدخُلُ الرهطُ فيه ، ومنها ما يُستعانُ فيه بقوم ، ومنها ما يُستغنى فيه بواحد
وفي تحصينِ السرِّ الظفرُ بالحاجةِ والسلامةُ من الخللِ ، والمستشيرُ وإن كان
أفضلَ رأياً من المشيرِ فإنه يزدادُ برأيه رأياً كما تزدادُ النارُ بالسليطِ ضوءاً^(١) ؛
وإن كان الملكُ مُحصناً لسِرِّه بعيداً من أن يُعرفَ ما في نفسه مُتخيراً للوزراءِ
مهيّباً في أنفُسِ العامةِ كافياً بحسنِ البلاءِ لا يخافُهُ البريء ولا يأمنهُ المريبُ
مُقَدِّراً لما يُفيدُ وينفِقُ ، كان خليقاً لبقاءِ مُلكه . ولا يصلحُ لسرنا هذا إلا
لسانان وأربعُ آذانٍ . ثم خلا به ...

(وبعد) فإن دولة الاستبداد قد أُدِيلَ منها في هذه الأجيالِ وشال أمرها في
الميزانِ ، ورجحت كِفَّةُ الشورى ونفقت سُوْقُها ، وخطت في عصرنا هذا
خُطواتٍ رغبةً مَرْفُوقَةً ، وعمت أكثر الأمم التي أعرقت في الحضارة ، وظهر
أن مجالسَ الشورى على عِلاتها هي خَيْرُ ألوانِ الحُكمِ ، ومن الذى يقول
إن الاستبداد أو الحُكمِ المطلق الذى لا رِقبةَ عليه هو أفضلُ من الشورى
أياً كان لونُها اللهم إلا رجُلٌ أحقُّ مافون ليس بثاقبِ الرأى ، وإذا كانت
الشورى لا تعرى من العيوبِ فأين لا أين الخيرُ نَحْضاً والكمالُ صرفاً ...

(١) السليط : الزيت والمراد زيت المصباح

عقرياتهم في الوعظ

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

ومما يتصل بهذا الباب عقرياتهم في الوعظ والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فلنورد لك صدرًا من ذلك إن شاء الله

نهي من لم يتعظ عن الوعظ

قال رجلٌ لعليّ بن أبي طالب رضى الله عنه : عِظِي وَأَوْجِزِي ، فقال :
تَوَقَّ مَا تَعِيبُ .

وجاء رجل إلى عبد الله بن عباس رضى الله عنه فقال : إني أريد أن أعظ ، فقال : أَوَبَلَّغْتَ ذَلِكَ إِنْ لَمْ تَخْشَ أَنْ تَفْتَضِحَ بِثَلَاثِ آيَاتٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ فَافْتَحْ ، قال : ما هي ؟ قال : قول الله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ الْكَبِيرَ مَقْنًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ » وقوله تعالى : « أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ » ، وقول العبد الصالح شُعَيْبٍ « مَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُم عَنْهُ » أَحْكَمَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ ؟ قال : لا ، قال : فابدأ إذن بنفسك .

وقال شاعر :

يا وادِظَّ النَّاسِ قَدْ أَصْبَحْتَ مُتَّهِمًا إِذْ عِيبَتْ مِنْهُمْ أُمُورًا أَنْتَ تَأْتِيهَا
كُنْ كَمَا النَّاسُ مِنْ عُرْيٍ وَعَوْرَتُهُ لِلنَّاسِ بَادِيَةٌ مَا إِنْ يُوَارِيهَا

حشهم على الوعظ بالفعال دون المقال

قال بعضهم : ليس الحكيم الذي يُلَقِّنُكَ الْحِكْمَةَ تَلْقِينَا ، إنما الحكيم

الذي يعملُ القتلَ الحكيمُ ففَتَّدي به .
 وقال آخر ؛ أخذ المرءُ نفسه بحسنِ الأدبِ تأديبٌ لأهله .
 ومن هذا يقول محمود الوراق :
 رأيتُ صلاحَ المرءِ يُصلِحُ أهلهُ ويُعديهمُ داءُ الفسادِ إذا قَسَدُ

التلطف واللين في الوعظ

تصدى رجل للرشيد فقال : إني أريد أن أعظَّ عليك في المقال ،
 فهل أنت مُحتَمِلٌ ؟ قال : لا ؛ لأن الله تعالى أرسل من هو خيرٌ منك إلى
 من كان شرًّا مني ، وأمره باللين ، فقال تعالى : « فقولوا له قولاً ليناً لَعَلَّهُ
 يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ،

وقالوا : واجِبٌ مَنْ يَعْظُ أَنْ لَا يَعْظَفَ ، وَمَنْ يُوعِظُ أَنْ لَا يَأْتَفَ

الحث على الاتعاض

قالوا : السعيد من وعظ بغيره والشقي من وعظ به غيره . وقالوا :
 مَنْ لَمْ يَتَعِظْ بغيره وَعَظَّ اللهُ بِهِ غيره .

وعظ من لا يتعظ

قالوا : لا يَنْجُحُ الوعظُ في اللوب القاسية ، كما لا يزكو البذر في
 الأرض الجاسية .

وقالوا : صفةُكَ سيفاً ليس له سنخٌ^(١) تعب ، وبذرُكَ أرضاً
 سبخةً نَصَب .

(١) السنخ : الأصل من كل شيء . تقول : رجعت فلان إلى سنخه الكريم وإلى سنخه الخبيث

وقالوا : من استشقل سماع الحق فهو للعمل به أكثر استثقالا ...

حشهم على قبول وعظ من ليس بمتعظ

قالوا : لا يَمْنَعَنَّكُمْ سُوءُ مَا تَعْمَلُونَ عَنَّا أَنْ تَعْمَلُوا بِأَحْسَنِ

مَا تَسْمَعُونَ مِنَّا .

وورد في الأثر : مُرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَإِنْ لَمْ تَعْمَلُوا بِهِ ، وَإِنَّهُوَ عَنِ الْمُسْكَرِ

وَإِنْ لَمْ تَنْتَهُوا عَنْهُ :

وقال الحسنُ البَصْرِيُّ يوماً لبعض الصالحين : عِظْ أَصْحَابَكَ ، فقال له :

لَأِنِّي أَخَافُ أَنْ أَقُولَ مَا لَا أَفْعَلُ ، فقال له : يَرْحَمُكَ اللَّهُ ، وَأَيْنَا يَقُولُ

مَا يَفْعَلُ ! يَوْدُ الشَّيْطَانُ أَنَّهُ ظَفِيرَ بَهْدِهِ مِنْكُمْ فَلَمْ يَأْمُرْ أَحَدٌ بِمَعْرُوفٍ وَلَمْ يَنْهَ

عَنْ مُسْكَرٍ ...

النهى عن الاقتداء بذوى الزلات

قال بعض العلماء : إياك والاقتداء بزلات أصحاب النبي صلى الله عليه

وسلم فتقول : فلان شرب النبيذ ، وفلان سمع الغناء ، وفلان لمب بالشطرنج

فيخرج منك فاسق تام ... وقالوا : من أخذ برخصة كل فقيه خرج منه

فاسق ...

الحث على الأمر بالمعروف والحال التي يجوز فيها

قال الله تعالى : « وَتَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ

وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ^(١) »

(١) قال الإمام البيضاوي في تفسيره : من في منكم للتبويض لان الامر

وقال سيدنا رسول الله : « مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مَنْكِرًا وَاسْتَطَاعَ أَنْ يُغَيِّرَهُ
بِيَدِهِ فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ ، وَذَلِكَ
أَضْعَفُ الْإِيمَانِ .

وفى الأثر : إِنْ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدِهِ عَمَّهِمْ اللَّهُ
بِعِقَابِهِ .

وأما قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ
إِذَا اهْتَدَيْتُمْ » فقد قال الإمام البيضاوى : قوله : عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ ، أى احفظوها
والزموا إصلاحها ، ولا يضركم ... الآية : أى لا يضرُّكم الضلال إذا كنتم
مُهتدين ، قال : ومن الاهتداء أن ينكر المنكر حسب طاقته ، وقال : نزلت
هذه الآية لما كان المؤمنون يتحسرون على الكفرة ويتمنون إيمانهم ، وقيل
كان الرجل إذا أسلم قالوا له : سَفَّهْتَ آبَاءَكَ ، فنزلت ،

وقال الراغب الأصهبانى : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال
صلوات الله عليه : اتنعروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر ، وإذا رأيت
شُحًا مُطَاعًا وَهَوًى مُتَّبَعًا وَإِعْجَابَ كُلِّ امْرِئٍ بِرَأْيِهِ فَعَلَيْكَ بِخَوْصَةِ نَفْسِكَ

بالمعروف والنهى عن المنكر من فروض الكفاية ، ولأنه لا يصلح له كل أحد
إذ للتصدى له شروط لا يشترك فيها جميع الأمة ، كالعلم بالاحكام ومراتب
الاحتساب وكيفية إقامتها والتمكن من القيام بها ، خاطب الجميع وطلب فعل بعضهم
ليدل على أنه واجب على الكل حتى لو تركوه رأساً أئتموا جميعاً ، ولكن يسقط بفعل
بعضهم ، وهكذا كل ما هو فرض كفاية ثم قال : والدعاء إلى الخير يعم الدعاء إلى
ما فيه صلاح دينى أودنىوى ، وعطف الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر عليه عطف
الخاص على العام للإيذان بفضله

ودَعَّ أمرَ العوامِ (١) ، ثم قال الراغب : وقال أكثر المتكلمين : لا يجوز ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في كلِّ موضع ، لكن من علم أوطن أن قوله يَنْقُذُ وأن لا يئأله مكروه إذا أمرَ أو نهى فعليه أن يفعل ذلك ، ومتى خاف على نفسه فعليه أن يُنكِرَ المنكر بقلبه دون لسانه ...

(١) خويصة : تصغير خاصة بسكون الياء لأن ياء التصغير لا تكون إلا ساكنة وجوز النقاء الساكنين فيما أن الأول حرف لين والثاني مدغم ، وعليك بخويصة نفسك : جاهد نفسك وانكش في الأعمال الصالحة ، ثم قال : ودع أمر العوام يريد : دع السواد الأعظم فيما هم فيه سادرون

الباب الخامس

في

الحلم وكظم الغيظ

والعفو والغضب والانتقام

وما إلى هذه المعاني

والحلم كذلك لونٌ من ألوان الصبر، أليس هو تجرُّع الغيظ أو إمساك النفس عن ثورة الغضب وهيجته وانبعائه؛ وهو فضيلةٌ عليا ما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظٍ عظيم^(١) ومن كلام الثبوة: كادَ الحلم أن يكون نبيًّا. وهو نتاج العقل والآناة، أو قل: إنه هُما. قال عزَّ وجلَّ يَذُمُّ الكُفَّارَ مُتَعَجِّبًا مِنْهُمْ: «أم تأمرهم أحلامهم بهذا»، وسأل عليُّ رضي الله عنه كبيرَ فارسٍ عن الغالبِ كان على كِسْرَى أنوشروان؛ قال: الحلم والآناة، قال: هما توأمان يندبهما علوُّ الهمة وقال الشاعر:

لَنْ يُدْرِكَ الْمَجْدَ أَقْوَامٌ وَإِنْ كَرُمُوا

حَتَّى يَذُلُّوا — وَإِنْ عَزُّوا — لِأَقْوَامٍ

وَيُشْتَمُّوا فَتَرَى الْأَلْوَانَ مُسْفِرَةً لِاصْفَحَ ذَلِكَ وَلَكِنْ صَفَحَ أَحْلَامُ^(٢)

(١) آية كريمة هي: «ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم

(٢) مسفرة: مشرقة مضيئة سرورا

قالوا : ولن يتمَّ حلمُ الإنسانِ إلا بإمساكِ الجوارحِ كُلِّها : اليد عن البَطْشِ ، واللسان عن الفُحْشِ ، والعين عن النَّظَرِ الشَّزْرِ ، وأقربُ لفظ يقابل الحِلْمَ هو التَّدْمُرُ . وقال أبو هلالِ العسكري : ومِنَ أشرفِ نُعُوتِ الإنسانِ أن يُدعى حلِماً ، لأنه لا يُدعاه حتى يكون عاقلاً وعالماً ومُضْطَبِّراً وَعَفْواً وصاحفاً ومحمّلاً وكاظماً ، وهذه شرائف الأخلاقِ وكراماتِ السجايا والخصال .

والحلمُ : منه ماهو غريزى ، وهو هبةٌ من الله لعبده يَعْفُو عَمَّن ظَلَمَهُ ، وَيَصِلُ مِنْ قِطْعَةٍ ، وَيُحْسِنُ إِلَى مَنْ أَسَاءَ إِلَيْهِ ، يَصْدُرُ فِي ذَلِكَ عَنْ نِيْزَةِ كَرِيْمَةٍ وغريزةِ سَليمةٍ وصدْرٍ سَليمٍ من الغوائل والأذى ، صَافٍ من شوائب الكدر والقذى ، وهذا هو الحِلْمُ الذى لا يُسْتَطَاعُ تعلُّماً ولا يُكْتَسَبُ تحلُّماً :

وإذا الحِلْمُ لم يكن فى طِبَاعِ لم يُحَلِّمْ تقادُم الميلاَد [المتنبى] روى أن سيدنا رسولَ الله قال لأشجَّ عبد القيس : يا أبا المنذر ، إنَّ فيكَ تحصّلتين يرضاها اللهُ ورسولُهُ : الحِلْمُ والإِنَاءَةُ ، فقال : يارسولَ اللهُ ، أشيءُ جَبَلْتَنِي اللهُ عليه أم شيءُ اخترعْتُهُ من قِبَلِ نَفْسِي ؟ قال : « بل شيءُ جبلك اللهُ عليه ، قال : الحمد لله الذى جَبَلْتَنِي على خُلُقِي يرضاه اللهُ ورسولُهُ . وهناك من يقول : إن الحِلْمَ ليس غريزةً ولا طبيعةً بل مُكْتَسَبٌ مستفاد : وأيا كان الحال فليس من يُنْكِرُ أن من الحِلْمِ ماهو غريزى كما قلنا ، كما أن هناك حِلْمًا يُكْتَسَبُ بالتَّحَلُّمِ كما أن العِلْمَ بالتعلُّمِ

قال حاتم :

تَحَلَّمْ عَنِ الْأَدْنَيْنِ وَاسْتَبْقِ وَدَّهْمَ فَلَئِنْ تَسْتَطِيعَ الْحِلْمَ حَتَّى تَحَلِّمًا يُرَوَى أَنَّهُ كَانَ عِنْدَ جَعْفَرِ الصَّادِقِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَبْدٌ سَيِّئُ الْخُلُقِ ، فَقِيلَ لَهُ : أَمَا تَأْتَفُ مِثْلَ هَذَا عِنْدَكَ وَأَنْتَ قَادِرٌ عَلَى الْإِسْتِبْدَالِ بِهِ ؟ فَقَالَ :

إنما أتركه لآ تعلم عليه الحلم ...

وقال الشاعر :

وليس يتمُّ الحلمُ للدرِّ راضياً إذا هو عند السُّخِطِ لم يَتَحَلَّمْ
 كما لا يَتِيحُ الجُودُ للدرِّ مُوسِراً إذا هو عند القَسْرِ لم يَتَحَشَّمْ
 [يتحشم : يندمُّم وَيَسْتَحِي]

وهناك حلمٌ حادثٌ عن السِّكِّيرِ والعَجْرَقَةِ ، لا يَرى المُسِيءَ أهلاً أن
 يُجَارِيَهُ ، كما أن هناك حِلْمٌ هَاهُنَا وَذِلَّةٌ وَعِجْزٌ وَضَعْفٌ نَفْسٌ وَصِغْرٌ هَمَّةٌ

الممدوح بالحلم وتمدحهم به

قال مهبَّار الديبلي :

وإذا الإباءُ المرُّ قال لك : انْتَقِمِ قالت خَلَانِقُكَ الكِرَامُ : بِلِ أَحْلَمِ
 شَرُّعٌ مِنَ العَفْوِ انْفَرَدَتْ بِدِينِهِ وفضيلةٌ لِسِوَاكَ لَمْ تَتَقَدِّمِ
 حتى لقد وَدَّ البَرِيءُ لو أَنَّهُ أدلى إِلَيْكَ بِفَضْلِ جِاءِ المُجْرِمِ
 وقال بعضهم :

فَدَهْرُهُ يَصْفَحُ عَن قُدْرَةِ وَيَغْفِرُ الذَّنْبَ تَلَى عِلْمِهِ
 كَأَنَّهُ يَأْتِفُ مِنْ أَن يَرَى ذَنْبَ امْرِئٍ أَعْظَمَ مِنْ حِلْمِهِ

وقال المتنبي :

وَأَحْلُمُ عَن خِلِّي وَأَعْلَمُ أَنَّهُ متى أَجْرَهُ حِلْمًا عَلى الجَهْلِ يَنْدِمُ
 وقال سالم بن وإبسة^(١) :

(١) شاعر إسلامي تابعي ، وهو صاحب هذه الأبيات : - وهي من أبيات الحماة

أحبُّ الفتى يَنْفِي الفِواحِشَ سَمِعَهُ كَأَنَّ بِهِ عَن كُلِّ فَاخِشَةٍ وَقَرَأَ

وَنَيْرِبٍ مِنْ مَوَالِي السُّوءِ ذِي حَسَدٍ يَبْتَاتُ لِحُمَى وَمَا يَشْفِيهِ مِنْ قَرَمٍ ^(١)
 دَارَيْتُ صَدْرًا طَوِيلًا غَمْرُهُ حَقْدًا مِنْهُ وَقَلَّمْتُ أَظْفَارًا بِلَا جِلْمٍ ^(٢)
 بِالْحَزْمِ وَالْخَيْرِ أَسَدِيهِ وَالْجِمَّةُ تَقْوَى الْإِلَهِ وَمَا لَمْ يَرْعَ مِنْ رَحِمٍ ^(٣)
 فَأَصْبَحَتْ قَوْسُهُ دُونِي مُوْتَرَةً تَرْمِي عَدُوِّي جِهَارًا غَيْرَ مُسَكِّتِمٍ ^(٤)
 وَإِنَّ فِي الْحِلْمِ ذُلًّا أَنْتَ عَارِفُهُ وَالْحِلْمُ عَنْ قُدْرَةٍ فَضْلٌ مِنَ الْكَرَمِ
 وَقَالَ بَعْنُ بْنُ أَوْسِ الْمُرَزِيِّ: ^(٥)

وَذِي رَحِمٍ قَلَّمْتُ أَظْفَارَ ضَغْنِيهِ بِحِلْمِي عَنْهُ وَهُوَ لَيْسَ لَهُ حِلْمٌ

سَلِيمٌ دَوَاعِي الصَّدْرِ لَا بَاسِطًا أَذَى وَلَا مَانِعًا خَيْرًا وَلَا قَاتِلًا هُجْرًا
 إِذَا شِئْتَ أَنْ تُدْعَى كَرِيمًا مُكْرَمًا أَدِيًّا ظَرِيفًا عَاقِلًا مَاجِدًا حُرًا
 إِذَا مَا أَتَيْتَ مِنْ صَاحِبٍ لَكَ زَلَّةٌ فَكُنْ أَنْتَ مُحْتَالًا لِزَلَّتِهِ عُدْرًا
 غِنَى النَّفْسِ مَا يَكْفِيكَ مِنْ سَدِّ خَنَةٍ فَإِنْ زَادَ شَيْئًا عَادَ ذَلِكَ الْغَنَى فَقْرًا

(١) النيرب: الشر والنيمة، أراد: وذى نيرب، والقرم: شدة الشهوة إلى اللحم
 يقول: رب ذى نيرب حسود من موالى السوء يقتابني ويأكل لحمي ولا يشفيه ذلك
 من قرم، ويقتات: يفتعل من القوت.

(٢) الغمر: الحقد والغل، والجلم: أحد شقي المقرض وإنما هما جلمان يقول:
 صابرة على مداجاته وانطوائه على حقدى فدفعت شره عن نفسى بطول مداراتى.
 وحقدا: أى حاقدا ودأويت صدره: أى مكنون صدره

(٣) بالحزم متعلق بدأويت أو قلت وقوله: تقوى الإله يرجع إلى أسديه، وما
 لم يرع من رحم: يرجع إلى ألجمه

(٤) يقول: ما زلت أنلطف وأصلح الأمر الفاسد بالرفق قليلا قليلا حتى صار
 يقاتل عدوى مجاهرة بعد أن كان يعاديني مكاشرة

(٥) شاعر غزل من مخضرمى الجاهلية والإسلام وأبياته هذه من أبيات له طريفة

يُحَاوِلُ رَغْمِي لَا يُحَاوِلُ غَيْرَهُ وَكَلِمَاتٍ عِنْدِي أَنْ يُحَالَ بِه الرِّغْمُ^(١)
 وَيَسْتَمُّ عَرَضِي فِي الْمَغِيَّبِ جَاهِدًا وَلَيْسَ لَهُ عِنْدِي هَوَانٌ وَلَا سْتَمُّ
 إِذَا سُمِّتُهُ وَضَلَّ الْقَرَابَةَ سَامِنِي قَطِيعَتَهَا ، تَلِكِ السَّفَاهَةَ وَالْإِسْتَمُّ
 فَمَا زِلْتُ فِي لَيْسِنِي لَهُ وَتَعْطَانِي عَلَيْهِ كَمَا تَحْتَوُوا عَلَى الْوَلَدِ الْأَثْمُ
 وَصَبْرِي عَلَى أَشْيَاءَ مِنْهُ تَرِيْبُنِي

وَكَظَمِي عَلَى غَمِيظِي وَقَدْ يَنْفَعُ الْكَظْمُ^(٢)
 لِأَسْتَلَّ مِنْهُ الضَّغْنَ حَتَّى اسْتَلْتَنَّهُ وَقَدْ كَانَ ذَا ضِغْنٍ يَضِيئُ بِهِ الْحَزْمُ
 فِدَاوَيْتُهُ حَتَّى ارْفَأَتْ نِفَارُهُ نُعِدْنَا كَأَنَّا لَمْ يَكُنْ بَيْنَنَا صَرْمُ^(٣)
 وَأَطْفَاتُ نَارِ الْحَرْبِ بَيْنِي وَبَيْنَهُ فَأَصْبَحَ بَعْدَ الْحَرْبِ وَهُوَ لَنَا سَلْمُ
 وَقَالَ شَاعِرٌ :

لَقَدْ أَسْمَعُ الْقَوْلَ الَّذِي هُوَ كَلِمَا نُنْذِرُ بِهِ النَّفْسَ قَلْبِي يُصَدِّعُ
 فَأَبْدِي لِمَنْ أَبْدَاهُ مِنِّي بِشَاشَةً كَأَنَّ مَسْرُورًا بِمَا مِنْهُ أَسْمَعُ
 وَمَا ذَاكَ مِنْ عَجْزٍ بِهِ غَيْرَ أَنِّي أَرَى أَنْ تَرَكَ الشَّرَّ لِلشَّرِّ أَدْفَعُ

فضل كظم الغيظ

يقال : كَظَمَ الرَّجُلُ غَيْظَهُ يَكْظِمُهُ كَظْمًا : رَدَّهُ وَحَبَسَهُ وَتَجَرَّعَهُ . قَالَ تَعَالَى :
 « وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ » قَالَ بَعْضُ اللُّغَوِيِّينَ : يَعْنِي أَعَدَّتِ الْجَنَّةَ لِلَّذِينَ جَرَى
 ذِكْرُهُمُ وَاللَّذِينَ يَكْظِمُونَ الْغَيْظَ ،

(١) الرِّغْمُ : الذَّلُّ وَالْقَسْرُ

(٢) رَابَهُ فُلَانٌ وَأَرَابَهُ : إِذَا رَأَى مِنْهُ مَا يَكْرَهُ

(٣) ارْفَأَتْ : سَكَنَ مَا خُوِذَ مِنْ رِفَا الثُّرْبِ : لِأَنَّ خَرْقَهُ وَضَمَّ بَعْضُهُ إِلَى بَعْضٍ

وفي الحديث : « مامن جرعة يتجرعها الإنسان أعظم أجراً من جرعة غيظ في الله عز وجل ،

وقالوا : الكظم يدفع محذور الندم ، كالماء يطفئ حرَّ الضرم
وقال بعضهم : كظمٌ يتردد في حلقى أحب إلى من نقص أجده في
خلقى .

وقال : * وأفضل حلمٍ حسبةٌ حلمٌ مغضبٌ *
وقال معاوية : ما وجدت لذة هي عندي ألد من غيظ أتجرعه وسفه
بحلم أقمعه . وقال لابنه يزيد : عليك بالحلم والاحتمال حتى تُمكنك الفرصة
إذا أمكنتك فعليك بالصفح ، فإنه يدفع عنك معضلات الأمور ، ويقيك
مصارع المحذور .

الغضب وألوانه

وما يسكن به ثورانه

قال الراغب : مثلُ الغضبِ مثلُ نارٍ ما يشتعلُ ، والناس فيه مختلفون ،
فبعضهم كالخلفاء^(١) سريعُ الوُقودِ سريعُ الخُودِ ، وبعضهم كالغضا^(٢) بطيءُ الوُقودِ
بطيءُ الخُودِ ، وبعضهم سريعُ الوُقودِ بطيءُ الخُودِ ، وبعضهم على العكس من
ذلك ، وهو أحمدُّهم ، ما لم يُؤدِّ به ذلك إلى زوالِ حِمِيته ، وفقدانِ غِيْرته .
واختلاف الناس في الغضب قد يكون مرده اختلاف الأمزجة ، وقد يكون

(١) الخلفاء : نبت أطرافه محسدة كأنها سعف النخل والخرص : ينبت في
مفايض المياه .

(٢) الغضا : شجر من الأثل خشبه من أصلب الخشب وجره يبق زماً طويلاً
لا يطفئ الواحدة منه غصاة .

العادة ، إذ من الناس من اعتاد السكون والهدوء من جرّاء إلفه الذلّ والانتقاية والاستخزاء ، ومنهم من تعود الطيش والانزعاج فيحتدّ من أدنى ما يلمّ به ، مثله مثل كلب يسمع صوتاً فيلبح قبل أن يعرف مصدره : وأكثر الناس غضباً الصبيان والنساء ، وأكثرهم ضجرّاً الشيوخ ، وأجل الناس شجاعةً وأفضاهم مجاهدةً وأعظمهم قوةً من كظّم الغيظ . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ليس الشديد بالصرعة ، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب ، ومرّ صلوات الله عليه بقوم يرفعون حجراً فقال : (ألا أخبركم بأشدكم ؟ : من ملك نفسه عند الغضب) واعلم أن نار الغضب متى كانت عيفةً ناججت واضطرت واحتدّ غليان الدم في القلب واتلات الشرايين والدماغ دخاناً مظلماً يسوء منه حال العقل ويضعف فعله ، وكما أن الكهف الضيق إذا امتلأ حريقاً واختنق فيه اللهب والدخان وعلا الأجاج صعب علاجه وإطفائه ، وصار كل ما يذنو منه مادة لقوته ، كذلك النفس إذا اشتعلت غضباً عميت عن الرشيد وصمّت عن الموعظة حتى تصير المواظ مادة لغضبها ، وربما أدى الغضب إلى تلف ، وهو اختناق الحرارة في القلب الأمر الذي قد يكون سبباً لأمراض مستعصية تؤدى إلى التلف ؛ ثم قال وحق من يعتره الغضب أن يفكر ، فإن كان المغضوب عليه تحت يده فلا معنى لاستشاطته ؛ إذ هو متمكّن من الانتقام منه مع سكون الجأش ، وإن كان غضبه على من لا سبيل إليه فلا معنى لتدنيه نفسه في الوقت وإنما الأخلق به أن يصبر حتى يتمكن منه ثم يفعل الواجب ، قال حكيم : سدّ طريق الغضب قبل تلهب ناره في لحيك ودمك فإنك إن لم تطفئ نار الغضب

قبل انتشارها صُعب عليك إطفائها بعد أن تنتشر . وقال بعض الملوك للحكيم : كيف لي أن لا أَعْضِب ؟ فقال : بأن تكون كلَّ وقتٍ ذا كراً أنه يجب أن تُطِيع لأن تُطاع فقط ، وأن تُخَدِّم لأن تُتخَدَم فقط ، وأن تتحقق أن الله تعالى يراك دائماً ، فإذا فدات ذلك لم تغضب وإن غضبت غضبت قليلاً ...

وقالوا : مَنْ غَضِبَ قائماً فَعَدَّ سَدَكْنَ غَضْبُهُ ، وإن كان قاعداً فاضطجع سَكَن .

وكانت العرب تقول : إِنَّ الرَّيْثَةَ تَنْفَسُ الغَضِبَ : « الرَيْثَةُ : اللبنُ الحامضُ يُصَبُّ عليه الحليب ، وهو أطيبُ اللبن ، وَتَنْفَسُ الغَضِبَ : تُسَكِّنُهُ وَتَكْسِرُ حِدَّتَهُ ، وخطب معاوية يوماً فقال له رجلٌ : كَذَبْتَ ، فَنَزَلَ بُغْضاً ، فدخل منزله ، ثم خرج دليهم تَقَطَّرُ لِحْيَتُهُ ماءً ، فصعد المنبرَ فقال : أيها الناس ، إن الغَضِبَ من الشيطان ، وإن الشيطانَ من النار ، فإذا غَضِبَ أحدكم فَلْيُطْفِئْهُ بالماء : ثم أخذ في الموضوع الذي بلغه من حُطْبِيهِ .

وفي الحديث : إن الغَضِبَ جَمْرَةٌ تُوقَدُ في جَوْفِ ابنِ آدَمَ ، ألم تَرَوْا إلى حُمْرَةِ عَيْنِيهِ وانتفاخ أوداجه ...

من اجتهد في إغضابه فلم

خَاطَرَ رجلٌ آخرٌ ^(١) على أن يُغَضِبَ الأَحْمَفَ بنَ قيس ، فجاءه فخطب إليه أمه ، فقال : لسا نرُذِّك انتقاماً لحسبك ، ولا قِلةَ رَغْبَةٍ في ضاهرتك ولكنها امرأةٌ قد علا سننها ، وأنت تحتاج إلى امرأةٍ ولودٍ ودودٍ تأخذ من خُلُقِكَ ، وَتَسْتَمِدُّ من أدبِكَ ؛ أرجع إلى قومك وأخبرهم أنك لم تُغَضِبني .

(١) يقال : خاطره على الأمر : راهنه عليه .

وخطب آخر إلى معاوية أمه : فقال : ما الذى رَغَبَكَ فيها وهى عجوزٌ؟
فقال . إنها عجوز عنائمه العُجْز ! فقال : لعلك خاطرت على أن تُنْضِبَ
سَيِّدَ بنى تميم ؟ قال : نعم ، قال : أَرْجِعْ فليست به .

وَسَمَّ رَجُلٌ الْأَحْنَفَ وَالْحَّ عَلَيْهِ ، فَلَمَّا فَرَّغَ قَالَ لَهُ : يَا بْنَ أَخِي ، هَلْ
لَكَ فِي الْعَدَاءِ ؟ فَإِنَّكَ مِنْذُ الْيَوْمِ تَحْدُو بِجَمَلٍ فَقَالَ ... « الثِّغَالِ :
الْبَطْلَى الثَّقِيلُ الَّذِي لَا يَنْبَغُ إِلَّا كَرْهًا »

وَرَوَى أَنَّ رَجُلًا خَاطَرَ آخَرَ عَلَى أَنْ يَهْوِمَ إِلَى مُعَاوِيَةَ إِذَا سَجَدَ
فِيصَعَّ يَدَهُ عَلَى كَفَلِهِ وَيَقُولُ : سُبْحَانَ اللَّهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا أَشْبَهَ عَجِيزَتَكَ
بِعَجِيزَةِ أُمَّكَ هَذَا ففعل ذلك ، فلما انقضى مُعَاوِيَةَ عَنْ صَلَاتِهِ قَالَ لَهُ :
يَا أَخِي ، إِنَّ أَبَا سُفْيَانَ كَانَ مُحْتَاجًا إِلَى ذَلِكَ مِنْهَا ؛ فَخَذَ مَا جَعَلُوهُ لَكَ ، فَأَخَذَهُ
ثُمَّ خَاطَرَهُ آخَرٌ بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ يَهْوِمَ إِلَى زِيَادٍ وَهُوَ فِي الْخُطْبَةِ فَيَقُولُ : أَيُّهَا الْأَمِيرُ
مَنْ أُمَّكَ ؟ ففعل ؛ فقال زياد : هَذَا يُخْبِرُكَ — وَأَشَارَ إِلَى صَاحِبِ
الشَّرْطَةِ — فَقَدَّمَهُ وَضَرَبَ عُنُقَهُ ، فَلَمَّا بَاغَى ذَلِكَ مُعَاوِيَةَ قَالَ : مَا قَتَلَهُ
غَيْرِي ، وَلَوْ أَدْبَتُهُ عَلَى الْأَوَّلَى مَا عَادَ إِلَى الثَّانِيَةِ ...

وَقِيلَ لِلْأَحْنَفِ : مِمَّنْ آتَمَلْتَ الْحِلْمَ ؟ قَالَ : مِنْ قَيْسِ بْنِ عَاصِمِ
الْمِنْقَرِيِّ ، رَأَيْتُهُ قَاعِدًا بِنِزَاءِ دَارِهِ مُحْتَبِيًا بِجَاهِلِ سَيْفِهِ يُحَدِّثُ قَوْمَهُ ، حَتَّى
أَتَى بِمَسْكَوْفٍ وَرَجُلٍ مَقْتُولٍ ، فَقِيلَ لَهُ : هَذَا ابْنُ أَخِيكَ قَتَلَ ابْنَكَ . قَالَ :
فَوَاللَّهِ مَا حَلَّ حُبُّوتَهُ وَلَا تَقَطَعَ كَلَامُهُ ، ثُمَّ التَفَتَ إِلَى ابْنِ أَخِيهِ فَقَالَ : يَا ابْنَ
أَخِي أَيْمَنَ بَرِّبِكَ ، وَرَمَيْتَ نَفْسَكَ بِسَهْمِكَ ، وَقَتَلْتَ ابْنَ عَمِّكَ ؛ ثُمَّ قَالَ
لِابْنِ لَهُ آخَرَ : قُمْ يَا بَنِي نَوَارٍ أَخَاكَ وَحُلِّ كِتَابُ ابْنِ عَمِّكَ وَسُقَى إِلَى أُمَّكَ

ماتة ناقة دية ابنها فإنها غربية ، ثم اتكأ على شقه الأيسر وقال :
 إِنِّي أَمْرٌ لَا يَعْتَرِي خُلُقِي دَنْسٌ يُفْنِدُهُ وَلَا أَفْنُ (١)
 مِنْ مَنَقَرٍ فِي بَيْتِ مَكْرَمَةٍ وَالْفَرْعُ يَنْبُتُ فَوْقَهُ الْغُصْنُ
 حُطْبَاءُ حِينَ يَقُولُ قَاتِلَهُمْ بِيضُ الْوَجْوِهِ أَعَقَّةُ لُسنُ
 لَا يَفْطِنُونَ لِعَيْبِ جَارِهِمْ وَهُمْوَا لِحَفْظِ جَوَارِهِ فُطْنُ

وأسمع رجلٌ عمر بن عبد العزيز بعض ما يكره ، فقال : لا عليك
 إنما أردت أن يستغزني الشيطان بعز السلطان فأنال منك اليوم ما تناله
 متى غداً ، انصرف إذا شدت ...

وأمر محمد بن سليمان برجل أن يطرح من القصر كان قد غضب
 عليه فقال الرجل : آتق الله ، فقال : تخلوا سبيله ، فإني كرهت أن أكون
 من الذين قال الله فيهم : « وإذا قيل له آتق الله أخذته العزة بالإثم »

حشهم على ترك الغضب

المؤدى إلى الاعتذار

قال حكيم : إياك وعزة الغضب فإنها تصيرُ بكِ إلى ذلِّ الاعتذار
 وقال شاعر :

مَتَى تُرِدِ الشَّمَاءَ لِكُلِّ غَيْظٍ تَكُنْ مَا يَغِيظُكَ فِي ازْدِيَادِ

(١) وروى هذا البيت أيضاً هكذا :

إِنِّي أَمْرٌ لَا يَطْبِي حَسْبِي دَنْسٌ يُمَجِّنُهُ وَلَا أَفْنُ

اطباء : دعاه ، والأفن : النقص ، ويفنده : يكدبه

حَثَمَ عَلَى التَّصَامِمِ عَنِ الْقَبِيحِ

وَتَمَدَّحُهُمْ بِذَلِكَ

قال المهلبُ بنُ أبي صفرة: إذا سمع أحدكم العوراءَ فليطأطأ لها
تَنَخَّطَاهُ ... «العوراء»: الكلمةُ القبيحةُ أو الفعلةُ القبيحة: ويقال للكلمة
القبيحة عوراء، وللکلمة الحسنة عينا، قال الشاعر:

وعوراءَ جاءت من أخٍ فرددتها بسائلة العينين طالبة عذرا
«بسالة العينين»: أى بكلمة حسناء لم تكن عوراء. وعورانُ الكلام:
ما تنفيه الأذن قال:

وعوراء قد قيلت فلم أستمع لها وما السكلمُ العورانُ لي بقول^(١)
وقال حاتم طي:

وأغفر عوراءَ الكريم ادخاره وأعرض عن شتم اللئيم تكرما^(٢)
وقال ابن علقمة الفزاري من أبيات يمدح بها ابن عمه عميلة:
إذا قيلت العوراءُ أغضى كأنه دليلٌ بلا ذلٍ ولو شاء لانتصر
وقد تقدم هذا البيت مع أبيات أخرى له جميلة.

حَثَمَ عَلَى الْعَفْوِ مطلقاً

قال الله جل شأنه: «وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ،
والله غفور رحيم»، وقال سبحانه: «فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ»،

(١) وصف الكلم بالبوران لانه جمع وأخبر عنه بالقتول وهو واحد لان الكلم
يذكر ويؤنث وكذلك كل جمع لا يفارق واحده إلا بالهاء
(٢) ادخاره: أى لا تخاره

وقال عزّ وتقدّس : « وأن تعفوا أقرب للتقوى » ، وقال تعالى
لِنَبِيِّهِ : « خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ » ... « خذ
العفو ، فالعفو : السهل الميسر والمعنى : احتمل أخلاق الناس واقبل منها
ما سهل وتيسر ولا تستقص عليهم فيستقصي الله عليك مع ما فيه من
العداوة والبغضاء ، أقول : ولما حَقَّقَ سيدنا رسول الله ما أدبه الله به قال
سبحانه في حقّه : (وإنك لَعَلَى خُلَانِي عَظِيم) »

وقال الأحنف بن قيس : إياك وحيّة الأوغاد ، قيل : وما حيّيتهم
قال : يرون العفو مغرماً والتحمل مغمماً ... « التحمل ههنا : الغضب وقد
جاء في بعض الروايات بدل التحمل : والبخل »

وقيل لبعضهم : هل لك في الإنصاف أو ما هو خير من الإنصاف ؟
فقال : وما هو خير من الإنصاف ؟ قال : العفو ...

وقالوا : العفو زكاة النفس

وقالوا العفو عن المذنب من واجبات الكرم ...

وقالوا : لذة العفو أطيب من لذة التشنق ؛ لأن لذة العفو يلحها حد
الماتبة ، ولذة التشنق يلحها ذم الندم ... وقال الشاعر وقد نظم هذا المعنى :
لَذَّةُ الْعَفْوِ إِنْ نَظَرْتَ بَعَيْنِ الْإِثْمِ أَسْقَى مِنْ لَذَّةِ الْإِنْتِقَامِ
هَذِهِ تَكْسِبُ الْحَامِدَ وَالْأَجْرَ وَهَذِهِ تَجِيءُ بِالْآثَامِ

التحلم عن الخدم

نظر معاوية إلى ابنه يزيد وهو يضرب غلاماً له ، فقال له : اُنْفِسِدْ

أدبك بأديه ! فلم ير ضارباً غلاماً له بعد ذلك .

وقيل ليجي بن خالد البرمكي : إنك لا تؤدّبُ غلبانك ولا تضربهم !
قال : هم أمناؤنا على أنفسنا فإذا نحن أخفناهم فكيف نأمنهم !

الرحمة ومدح ذويها

قالوا من كَرَمَ أصلُه لان قلبه

وقالوا : من أمارات الكرم : الرحمة ، ومن أمارات اللوم : القسوة

« الكرم نقيض اللوم »

وفي الحديث الشريف « ارحم من في الأرض يرشحك من في السماء
وفيه أيضاً « لا تُنزع الرحمة إلا من قلب شقي »

أما من دَمَ الرحمة ونعاها على أهلها مثل الوزير محمد بن عبد الملك
الزيات إذ يقول : الرحمة حَوْرٌ في الطبيعة ، ومثل غيره من فلاسفة هذا
الجيل كالفيلسوف نيتشه ومن على شاكاته فأوثكك إنما يترامون إلى
أهداف أخرى ، وإلى مدح القوّة في مواضعها ، وهذه سوف تمر عليك
عقربانهم فيها .

ما يستحسن فيه الحلم من الكبار

وما يُستقبح

أغظ رجلٌ لمعاويةَ فحلّم عنه ، فقل له : تحلّم عن هذا ! فقال : إني
لأحول بين الناس وبين ألسنتهم ما لم يحولوا بيننا وبين سلطاننا ... وقال
المأمون : يحملُ الحلم بالملك إلا في ثلاثة مواضع ، مُذيعٍ لبيّرٍ ، ومُتعرِّضٍ
للحرَم ، وقادح في مُلك ... « حرَم الرجل : عياله ونساؤه وما يحميه »

وقال السفاح: الحِلْمُ يَحْسُنُ إلا ما أوضع الدين والسلطان .

حتمهم على درء الحدود

في الحديث الشريف: «أَدْرُوا الْحُدُودَ بِالشُّبُهَاتِ ، وَأَنْبَلُوا الْكِرَامَ عَثْرَاتِهِمْ ، وَإِنَّ الْإِمَامَ لَأَنْ يُخْطِئَ فِي الْعَفْوِ خَيْرٌ مِنْ أَنْ يُخْطِئَ فِي الْعُقُوبَةِ ، «ادْرُوا : ادفعوا ، والحدود جمع حد، وهو لغة، المنع وشرعا : العقوبة التي جعلت لمن يعترف مانهى عنه كحد السارق ، وهو قطع يمينه في ربع دينار فصاعداً ، وحد الزاني البكر وهو جلده مائة وتغريبه عاماً ، وحد المُحْصَن إذا زنى ، وهو الرجم ، سميت حدوداً لأنها تُحَدُّ : أى تمنع من إتيان ما جعلت عقوبات فيها ^(١) ، والشُّبُهَات جمع شبهة وهي الالتباس يقال : تشابهت الأمور واشتبهت ، أى النبست لاشتباه بعضها ببعض ، والعثرات : الزلات والكرام : خيار الناس ووجوههم حسباً ونسباً وعلماً ودينياً وصالحاً ، ومعنى أنبلوا عثراتهم : لا تعاقبهم عليها ولا تؤاخذوهم بها ، إلا في حد من حدود الله فإنه لا تجرز إقالتهم فيه إذا ثبت عند الإمام وخلا عن الشبهة ولم يجد إلى دفعه سبيلاً ، ومعنى ادروا الحدود بالشبهات : اعملوا ما وجدتم السبيل على أن لا تقيموا العقوبة على مسلم إلا بأمر متيقن لا يتطرق إليه التأويل .

حث القادر على العفو

قالت عائشة رضي الله عنها : إذا مَلَكَتْ فَاسْجِئِ « قالت ذلك لعلي

(١) وتطلق الحدود ويراد بها المعاصي قال تعالى : وتلك حدود الله

فلا تقربوها .

ابن أبي طالب رضى الله عنه يومَ الجمَل حين ظهر على الناس فدنا من هودجها ثم كلمها بكلام ، فأجابته : ملكت فأسجح ، أى ظفرت فأحسِن وقدرت فسهل وأحسِن العفو ، فجهزها عند ذلك بأحسن الجهازِ إلى المدينة فالإسجاح : حُسنُ العفو ،

ومن كلمة لعللى رضى الله عنه : إذا قَدَرْتَ على العدو فاجعلِ العفو سُكْرَ قَدْرَتِكَ .

وقالوا : المقْدِرَةُ تُذهبُ الحفيظةُ « الحفيظة : الغضبُ ، وقولهم : إنَّ الحفاظَ تذهبُ الاحقادُ فعناه : إذا رأيتَ حميمك يُظلمَ حِميتَ له وإن كان عليه فى قلبك حِقْدٌ ... وظَفِرَ الإسكندرُ المقدونىُ ببعضِ الملوكِ ، فقال له : ما أضعُ بك ؟ قال : ما يَجْمَلُ بالكرام أن يصنعوه إذا ظفروا ، فخلى سبيله وردّه إلى مملكته .

ولما ظَفِرَ أنو شروانَ ببزُرُ جَهْرَ قال : الحمد لله الذى أظفَرَنى بك ، فقال : كافى من أعطاك ما تُحِبُّ بما يُحِبُّ ... وقيل ليوسفَ عليه السلام : بعفوك عن إخوتك عند تَدْرَتِكَ رُفِعَ قَدْرُكَ ...

ذم المتشقى من الغيظ

قال معاوية رضى الله عنه : العُقوبةُ الأَمُّ حالاتُ ذى القُدرةِ ... وقال حكيم : التَشَقُّقُ طَرْفٌ من الجزع ، فَمَنْ رَضِيَ أن لا يكون بينه وبين الظالمِ إلا سِترٌ رقيقٌ وحِجابٌ ضعيفٌ فليمتَصِفْ ...

مدح من صفح عن قدرة

قال الاخطل من آيات يمدح بها بنى أمية :

شُئْسُ العداوةِ حتى يُستَقَادَ لهم

وأعظمُ الناسِ أحلاماً إذا قَدَرُوا (١)

وقال أشجع السلمي :

يعفو عن الذنبِ العظيِّمِ وليس يُعْجِزُهُ انْتِصَارُهُ (٢)

صَفْحًا عن الجاني عَلَيَّ بِهِ وقد أحاطَ بِهِ انْتِصَارُهُ

وقال المنبهي :

قَتَى لا تَسْلُبُ القَتْلَى يَدَاهُ وَيَسْلُبُ عَفْوَهُ الأَسْرَى الوَثَاقَا

« يقول المنبهي : إذا قتل المدوح قتيلا لم يأخذ سلبه ، ترفعاً عن ذلك

ولكن عفوهُ يسلبُ أسراهُ أغلالهم وقِيودهم ، أي يعفو عنهم ويُطلقهم »

الحث على إقالة من سلم ظاهره

قالوا : لا تَعْتَدَّ بما لم تَسْمَعَهُ أذْناكَ ، فإن السَّيِّدَ إذا حَضَرَ هيب وإذا

غاب أَغْتِيب .

وقال بعض الملوك : إنما تَمْلِكُ الأجساد دون النِّيَّاتِ ، وتَفْخِصُ

عن الأعمالِ لاعتنِ السرائرِ ... وقال البُحْتَرِيُّ :

إذا عَدُوْكَ لَمْ يُظْهِرْ عداوَتَهُ فَمَا يُضْرِكُ إن عاداك إسرارا

(١) شمس : جمع شمس وهو : الصعب العداوة ، وقوله : حتى يستقاد لهم : أي

حتى يؤخذ حقهم ممن اعتدى عليهم ، من قولهم ، استعدت الأمير من القاتل فأقاد لي

منه أي قتله (٢) الانتصار : الانتصاف والانتقام

وقال العلاء بن الحضرمي^(١) يخاطبُ سيدنا رسول الله :

وإن دَحَسُوا بِالشَّرِّ فَأَعْفُ تَكَرُّمًا

وإن خَنَسُوا عَنكَ الْحَدِيثَ فَلَا تَسَلْ^(٢)

« وإن دحسوا: قال ابن الأثير يريد: إن فعلوا الشر من حيث لا تعلمه .

وخنسوا الحديث يريد : وارزوه وغيبوه وأخروه عنك ،

العفو عن سلم باطنه

قد يهفو المرء ونيتة سليمة ، ويَزِلُّ وطريقته مستقيمة .

قال إبراهيم بن المهدي في عَيْنِيَّتِهِ لِلأَمُونِ وقد عفا عنه :

قسماً وما أدلي إليك بِحُجَّةٍ إِلَّا التَّضَرُّعَ مِنْ مُحِبِّ خَاشِعٍ

ما إن عَصَيْتُكَ وَالغَوَاةُ تَمُدُّنِي أَسْبَابُهَا إِلَّا بَلِيَّةَ طَائِعٍ

وقال الفرزدق :

فَلَسْتَ بِمَأْخُوزٍ بِلُغْوِ تَقْوَلُهُ إِذَا لَمْ تَعْمَدْ عَاقِدَاتُ الْعَزَائِمِ^(٣)

« تعمد : تتعمد »

(١) صحابي جليل استعمله سيدنا رسول الله على البحرين وأقوه أبو بكر ثم عمر

مات سنة ٢١ هـ

(٢) بعده :

فإن الذي يؤذيك منه استأءه وإن الذي قالوا وراءك لم يُقَلْ

(٣) لعل الفرزدق أخذ هذا المعنى من قوله تعالى : لا يؤاخذكم الله باللغو في

أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان .

عتب من يحفظ الذنب بعد تقادمه

قال البُحْتَرِيُّ :

تَنَاسَ ذُنُوبَ قَوْمِكَ إِنْ حَفِظَ الذُّنُوبَ - إِذَا قَدُمْنَ - مِنْ الذُّنُوبِ

العفو عن المقرِّ المعترف

قال بعضهم :

إِذَا مَا امْرُؤٌ مِنْ ذَنْبِهِ جَاءَ تَانِبًا إِلَيْكَ فَلَمْ تَغْفِرْ لَهُ ، فَلكِ الذَّنْبُ

ومن قولهم : التوبة تغسيل الحوبة ، الحوبة : الخطيئة ،

وقالوا : لا عتَبَ مع إقرار ، ولا ذَنبَ مع استغفار .

وقال بعضهم لصديق له أنكِرَ ذَنْبًا : إما أَنْ تُقِرَّ بِذَنْبِكَ فَيَسْكُونَ

إِقْرَارُكَ حُجَّةً لَنَا فِي الْعَفْوِ ، وَإِلَّا فَطَبُّ نَفْسًا بِالِاتِّصَارِ مِنْكَ ، فَإِنَّ الشَّاعِرَ

يقول :

أَقْرِرْ بِذَنْبِكَ ثُمَّ أَطْلُبْ تَجَاوُزَنَا عَنْهُ فَإِنَّ جُحُودَ الذَّنْبِ ذَنْبَانِ

ومن كلام لابن المعتز : تَجَاوَزَ عَنْ مُذْنِبٍ لَمْ يَسْلُكْ بِالِإِقْرَارِ طَرِيقًا

حَتَّى اتَّخَذَ مِنْ رَجَائِكَ رَفِيقًا .

وقال بعض الأمراء لرجل عاتبه : بَلَغَنِي أَنَّكَ تُبَغِّضُنِي ، فَلَمْ يُسْكَرِ

الرَّجُلُ وَقَالَ : أَنْتِ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ :

فَإِنَّكَ كَالدُّنْيَا نَدُمُ صُرُوفَهَا وَنُوسِعُهَا ذَمًّا وَنَحْنُ عَبِيدُهَا

وقال أبو فراس الحمداني :

إِنْ لَمْ تَجَافِ عَنِ الذَّنُوبِ بِ وَجَدْتَهَا فِينَا كَثِيرَةً (١)
لَكِنَّ عَادَتَكَ الْجَمِيَّةَ لَمْ أَنْ تَغُضَّ عَنِ الْجَرِيرَةِ (٢)

وقال السري الرفاء :

فَإِنْ تَغُفَّ عَنِّي تَغُفَّ عَنْ غَيْرِ جَاحِدٍ

لِمَا كَانَ وَالْإِقْرَارُ بِالذَّنْبِ أَرْوَحُ

وقال آخر:

فَلَسْتُ بِأَوَّلِ عَبْدٍ مَهْمَا وَلَسْتُ بِأَوَّلِ مَوْلَى عَفَا

وقال غيره :

صَفْحًا فَلَوْ شَقَّ قَلْبِي مِنْ صَحِيْفَتِهِ لَظَلَّ يُقْرَأُ مِنْهُ الْخَوْفُ وَالنَّدَمُ
وَأَنْ أَبُو جَعْفَرِ الْمَنْصُورُ بِرَجُلٍ أَذْنَبَ . قَالَ : إِنْ اللَّهُ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ
وَالْإِحْسَانِ : فَإِنْ أَخَذْتَ فِي غَيْرِي بِالْعَدْلِ نَخَذُ فِيَّ بِالْإِحْسَانِ ...

حسن العفو عن المصير

سمع حكيمٌ رجلاً يقول : ذَنْبُ الْإِصْرَارِ ، أَوْلَى بِالِاغْتِمَارِ ؛ قَالَ :
صَدَقَ وَاللَّهِ ، لَيْسَ فَضْلُ مَنْ عَفَا عَنِ السُّهُوِّ الْقَلِيلِ كَمَنْ عَفَا عَنِ الْعَمْدِ
الْجَلِيلِ ...

استعفاء من خلط إقرارا بإنكار

قال بعضهم في ذلك :

(١) تجاف بحذف إحدى التاءين أي تتجافى وتتجافى عن الذنوب : تتباعد وتغض
الطرف عنها
(٢) الجريرة : ما يجره الإنسان من ذنب

هَبْنِي أَسَأْتُ كَمَا ظَنَنْتُ مَتَّ فَإِنَّ عَاقِبَةَ الْأُخْرَى
وإذا أسأت كما أسأت فأين فضلك والمرورة

وقال آخر :

وهبني — وما أجرمت — أجرمت كل ما

أناك به الواشي مُجْدُّ بِاحْتِمَالِهِ
وقال الشعبي لبعض الولادة — وقد كلفته في قوم حبسهم — : إن
حبستهم بالباطل فالحق يُخْرِجُهُمْ ، وإن حبستهم بحق فالغفوة يسعهم ؛
فأمر بإطلاقهم .

معتذر مع إنكار

قال الرشيد لرجل يُرْمَى بِالزُّنْدَةِ : لَأُضْرِبَنَّكَ حَتَّى تُقَرَّ بِالذَّنْبِ ، فَقَالَ :
هَذَا خِلَافٌ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ ، لِأَنَّهُ أَمَرَ أَنْ يُضْرَبَ النَّاسُ حَتَّى يُقَرُّوا
بِالْإِيمَانِ وَأَنْتَ تُضْرِبُنِي حَتَّى أُقَرَّ بِالْكَفْرِ الْخَجِلِ وَعَفَا عَنْهُ .

وكان الرشيد قد حبس عبد الملك بن صالح ، فلما أخرجه الإهين من
الحبس ، وذكر الرشيد وفعله به قال : والله إن الملك لشيء ما توثيته
ولا تمنيته ، ولو أردته لكان إلى أسرع من الماء إلى الحدور ^(١) ، ومن
النار إلى ييس العرفج ^(٢) ، وإني لما أخذ بما لم أجن ، ومسئول عمي
لا أعرف ، ولكن لما رأني بالملك قينا ، وإن لم أترشح له في سيرة
ولا جهر ، ورآه يحن إلى حنين الوالدة الوالهة ، وتميل ميل الهلوك ^(٣)

(١) الحدور بوزن رسول : المكان الذي ينحدر منه

(٢) العرفج : نبات سهلي

(٣) الهلوك من النساء : الفاجرة الشبقة

عاقبتني عقاب من سهر في طلبه ، فإن كان إنما حسبتني أنني أصلح له ويصلح لي فليس ذلك ذنباً فأتوب منه .

وقال التَّوْحِيّ:

إن كان إقرارى بما لم أجنيه يُرضيك عنى قلتُ إني ظالمٌ

معتذر بتكذيب نفسه

خرج النعمان بن المنذر في غيب سماء فمرَّ برجلٍ من بني يَشْكُرَ جالساً على عَدير ماءٍ ، فقال له : أتعرفُ النعمانَ ؟ قال اليَشْكُرِيُّ : أليس ابنَ سَلَمَى ؟ قال : نعم ، قال : والله لربِّما أمررتُ يدي على فرجها ، قال له : ويحك ، النعمان بن المنذر ! قال : قد خبرتُك ، فما أنقضى كلامه حتى لحقته الخيل وحيَّوه بتحيةِ المُلك ، فقال له : كيف قلتُ ؟ قال : أبيتَ اللَّعن^(١) ، إنك والله ما رأيتَ شيئاً أكذبَ ولا ألامَ ولا أوضعَ ولا أعصَّ يبْظُرُ أمه^(٢) من شيخ بين يديك ؛ فقال النعمان : دَعُوهُ ، فأنشأ يقول :

تعفو الملوكُ عن العظيِّمِ م من الذنوبِ لفضْلِها

واقدم تُعاقِبُ في اليَسِيْرِ ر و ليس ذاك لجهْلِها

إلا ليعرَفَ فضائلُها وَيُخافُ شِدَّةَ نَكْلِها

وانقطع عبدُ الملك بن مروان عن أصحابه . فأنتهى إلى إعرابيِّ ، فقال :

(١) كلمة كانت العرب تحي بها ماوكها في الجاهلية ومعناها : أبيت أيها الملك أن تأتي ما تلعن عليه ، واللعن : الإبعاد والطرده من الخير

(٢) البظُر : هنة بين الاسكتين من المرأة لم تخفص - لم تختنن - ومن قولهم في السب : يا ابن مقطمة البظور : جمع بظُر ، يريدون أن أمه خاتنة وقد يقولونها في معرض الذم وإن لم تكن أمه خاتنة

أَنعِرْفُ عَبْدِ الْمَلِكِ؟ قَالَ: نَعَمْ، جَارٍ بَائِرٍ، قَالَ: وَيَحِكُ أَنَا عَبْدُ الْمَلِكِ! قَالَ:
لَا حَيَاكَ اللَّهُ وَلَا بِيَاكَ وَلَا قَرْبَكَ، أَكَلْتَ مَالَ اللَّهِ، وَضَيَّعْتَ حُرْمَتَهُ، قَالَ:
ويحك أنا أضُرُّ وأَنْفَعُ، قَالَ: لَارْزَقَنِي اللَّهُ تَفْعَكَ وَلَا دَفَعَ عَنِّي ضُرَّكَ؛ فَلَمَّا
وَصَلَتْ خَيْلُهُ عَيْلَمَ صِدْقِهِ، فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، آكَلْتُمْ مَا جَرَى فَالْجَالِسِ
بِالْأَمَانَةِ . . .

استعفاء من زعم أن ذنبه كان خطأ

قَالَ غُلَامٌ هَاشِمِيٌّ أَرَادَ عُمَهُ أَنْ يُجَازِيَهُ بِسَهْوٍ مِنْهُ: يَا عَمُّ، إِنْ قَدَّاسَاتُ
وَلَيْسَ مَعِيَ ثَقَلِي فَلَا تُسَيِّئْ وَمَعَكَ عَقْلُكَ . . .

وقال المتنبي:

وَعَيْنُ الْمُخْطِئِينَ هُمْ وَالْيُسُورَا بِأَوَّلِ مَعْشَرٍ خَطِئُوا فَنَابُوا
وَأَنْتَ حَيَاتِهِمْ غَضِبْتَ عَلَيْهِم وَهَجَرُ حَيَاتِهِمْ لَهُمْ عِقَابُ
وَمَا جَهَلْتُ أَبَا دِيكَ الْبَوَادِي وَلَكِنْ رَبَّمَا خَفَى الصَّوَابُ^(١)

وقال أبو تمام:

إِنْ يَكُ حُرْمٌ عَنِّ أَوْ تَكُ هَفْوَةٌ عَلَى خَطِيئَتِي مَنِي فَعُذْرِي عَلَى عَمْدٍ
وَالْأَصْلُ فِي هَذَا الْمَثَلِيِّ قَوْلُ سَيِّدِنَا رَسُولِ اللَّهِ: «رُفِعَ عَنِّي الْخَطَأُ
وَالنَّمِيَانُ وَمَا اسْتَكْرَهُوا عَلَيْهِ» وَقَالَ تَعَالَى: وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ
بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا

(١) أبا ديك: نعمك، والبوادي: خلاف الحواضر أي أهل البوادي يقول:
إنهم لم يجهلوا بعصيانك سوا بق نعمك ولكن قد يخفى الصواب على المرء
فيأتي غيره

مستعفف سأل أن يقوم ويؤدّب

قال أحمد بن أبي فَنَنِ (١) :

أَحِينَ كَثُرَتْ حُسَادِي وَسَاءَهُمْ جَمِيلُ فِعْلِكَ بِي أَشَمَّتْ حُسَادِي !
فَإِنْ تَكُنْ هَفْوَةً أَوْ زَلَّةً سَلَفْتُ فَأَنْتَ أَوْلَى بِتَقْوِيٍّ وَإِرْشَادِي

مستعفف سأل العفو

لفرط خوفه

قال علي بن الجهم من أبيات أرسلها إلى المتوكل وهو محبوس :
وعفوك عن مُذنبٍ خاضِعٍ قَرَنْتَ المَقْسِمَ بِهِ المُقْعِدَا (٢)
إِذَا ادَّرَعَ اللَّيْلَ أَنْضَى بِهِ إِلَى الصَّبْحِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَرُقُدَا
أَلَمْ تَرَ عِبْدًا عَدَا طَوْرَهُ وَمَوْلَى عَفَا وَرَشِيدًا هَدَى
وَمُفْسِدًا أَمْرٍ تَلَا فَيْتَهُ فَعَادَ فَأَصْلَحَ مَا أُنْسِدَا
فَلَا عُدْتُ أَعْصِيكَ فِيمَا أَمَرْتُ حَتَّى أَرْوَرَ الثَّرَى مُلْحِدَا
وَالْأَنْفَالُفْتُ رَبَّ السَّمَاءِ وَخُنْتُ الصَّدِيقَ وَعَفْتُ النَّدَى

مستعفف أتكل على سالف حرمة

قال من لا أذكر اسمه :

أَيَذْهَبُ يَوْمٌ وَاحِدٌ إِنْ أَسَأْتُهُ بِصَالِحِ أَيَّامِي وَخُسْنِ بَلَايَا (٣)

(١) شاعر مجيد من شعراء بغداد شهر بالشعر في أيام المتوكل واستفرغ شعره

في الفتح بن خاقان

(٢) يقال : أخذته المقيم المقعد أي ما يوجب الاضطراب من خوف ونحوه

(٣) أسأته : أسأت فيه

وقال جل شأنه: « إن تجتنبوا كبار ما تنهون عنه نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا » والمراد بالسيئات : الصغائر ، والكبار هن : الذنوب التي رتب الشارع عليها حدوداً أو صرح بالوعيد فيها ،

الاستعفاء لمذنب من قوم محسنين

قال ابراهيم بن العباس الصولي :

أسأوا وفيهم مُحْسِنُونَ فَإِنْ تَتَّبَعَ لِحَسَنِهِمْ أَهْلَ الْإِسَاءَةِ يَصْلِحُوا

متوصل إلى العفو بمراجعة أو حجة

رَوَوْا أَنَّ الْفَارُوقَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَانَ يَعْشُ لَيْلَةً ، فَسَمِعَ غِنَاءَ رَجُلٍ مِنْ بَيْتٍ ، فَتَسَوَّرَ عَلَيْهِ ، فَرَأَاهُ مَعَ امْرَأَةٍ يَشْرَبَانِ الْخَمْرَ ، فَقَالَ : يَا عَدُوَّ اللَّهِ ، أَظَنَنْتَ أَنَّ يَسْتُرُكَ اللَّهُ وَأَنْتَ عَلَى مَعْصِيَةٍ ؟ فَقَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، لَا تَعْجَلْ إِنَّ كُنْتُ عَصَيْتُ اللَّهَ فِي وَاحِدَةٍ فَقَدْ عَصَيْتَ فِي ثَلَاثٍ : قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : وَلَا تَجَسَّسُوا وَقَدْ تَجَسَّسْتَ ، وَقَالَ : وَأَنْتَ الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَقَدْ تَسَوَّرْتَ عَلَيَّ ، وَقَالَ : لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتَسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا وَقَدْ دَخَلْتَ بِغَيْرِ سَلَامٍ ، فَقَالَ عُمَرُ : أَسَأْتُ فَهَلْ تَعْفُو ؟ قَالَ : نَعَمْ ، وَعَلَى أَنْ لَا أَعُودَ ... « وَقَدْ أوردنا هذه الأحاديث كما أوردناها الأدباء ، وإن في النفس منها بعد لأشياء . »

مستعف ذكر فرط خوفه من الوعيد

قال سلم الخاسر :

لقد أنتنى من المهدي معتبة تظل من خوفها الاحشاء تضطرب
وقال أبو تمام من قصيدة يمدح بها أحمد بن أبي دؤاد ويعتذر إليه :

أَتَانِي عَائِرُ الْأَنْبَاءِ تَسْرِي عِقَارِبُهُ بِدَاهِيَةِ نَادٍ (١)

فِيَاخْبِرًا كَأَنَّ الْقَلْبَ أُمِّي يُجْرُّ بِهِ عَلَى شوكِ الْقِتَادِ (٢)

وقال البحرى :

عَذِرِي مِنَ الْإِيَّامِ رَنْقَنَ مَشْرَبِي وَلَقَيْتَنِي نَحْسًا مِنَ الطَّيْرِ أَشْمًا (٣)

وَأَكْسَبْتَنِي سُخْطَ امْرَأَتِي بِتُ مَوْهِنًا أَرَى سُخْطَهُ لَيْلًا مَعَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا (٤)

من استعفى واستوهب معا

أَخَذَ مُصْعَبُ بْنُ الزَّيْبِرِ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِ الْخِتَارِ ، فَأَمَرَ بِضَرْبِ عُنُقِهِ ،
فَقَالَ : أَيُّهَا الْأَمِيرُ ، مَا أَقْبَحَ بِكَ أَنْ أَقُومَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى صُورَتِكَ هَذِهِ
الْحَسَنَةِ ، وَوَجْهِكَ هَذَا الَّذِي يُسْتَضَاءُ بِهِ ، فَأَتَمَلَّقَ بِأَطْرَافِكَ وَأَقُولُ : أَيْ
رَبِّ سَلِّ مُصْعَبًا فِيمَ قَتَلْتَنِي ، نَالَ : أَطْلِقُوهُ ، قَالَ : اجْعَلْ مَا وَهَبْتَنِي لِي مِنْ
حَيَاتِي فِي خَفْضِ ، قَالَ : أَعْطُوهُ مِائَةَ أَلْفٍ ، قَالَ : بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي ،
أَشْهَدُ اللَّهُ أَنْ لَابْنَ قَيْسِ الرَّقِيَّاتِ مِنْهُمَا خَمْسِينَ أَلْفًا ، قَالَ : وَلِمَ ؟ قَالَ :
لِقَوْلِهِ فِيكَ :

إِنَّمَا مُصْعَبٌ شَهَابٌ مِنْ اللَّهِ تَجَلَّتْ عَنْ وَجْهِهِ الظُّلْمَاءُ

مُلْكُهُ مُلْكُ رَحْمَةٍ لَيْسَ فِيهِ جَبْرُوتٌ يُخَشَى وَلَا كِبْرِيَاءُ

يَتَّقَى اللَّهُ فِي الْأُمُورِ وَقَدْ أَفْدَى لِمَنْ كَانَ هَمَّهُ الْإِتْقَانُ

(١) عائرٌ : كقولهم : قصيدة عائرُه : أى سائرة ، ويقال : داهية ناد فالناد :

الداهية تحلّ .

(٢) فيا خبرا : يروى : ثنا خبر ، وثنى الخبر : أذاعه وأفشاه ، والقِتَاد : شجر

صلب له شوك كالإبر

(٣) رنق الماء : كثره ، والمشرب : موضع الشرب ، والماء

(٤) الموهن : نحو من نصف الليل

فضحك مُصْعَب وقال : أرى فيك موضعاً للصديعة ، وأمره بلزومه
وأحسنَ إليه ، فلم يزل معه حتى قتل ...

وقال المتنبى :

فاغفرْ فِدَى لكَ واحِبُّنِي مِن بَعْدِهَا لِنُحْصِنِي بِعَطِيَّةٍ مِنْهَا أَنَا (١)

المتوصل إلى العفو بالتثبت إلى حين التبين

قال تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بَدِيًّا فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا
قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْحِرُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ... « قال الإمام البيضاوي :
« فَتَبَيَّنُوا : فتعرفوا وتصفحوا قال : وتنكير الفاسق والنبأ للتعميم ؛ وتعليق
الامر بالتبين على فسق المخبر يقتضى جواز قبول خبر العدل ... وأن
تصيبوا : أى كراهة إصابتكم ،

وغضب الرشيد على رجل ، فقال له جعفر بن يحيى : غضبتَ لله ، فأطاع
الله فى غضبك بالوقوف إلى حال التبين كما غضبتَ له .. وقال الشعبي
لعبد الملك بن مروان : إنك على إيقاع مالم تُوقع أقدرك منك على ردِّ
ما أوقعت ...

نهى العافى عن التريب

رضى بعض الملوك عن رجل ، ثم أخذ يُويِّئُه ، فقال : إن رأيتَ إلا

(١) فاغفر أى فاغفرلى ذنبى ، وفدى خبر عن محذوف أى أنا فدى لك ، وحباه :
أعطاه ، ومن بعدها : أى من بعد هذه المغفرة يقول : إذا عفوت عنى وأعطيتنى
كنت قد خصصتني بعطاء أنا من جلته ، لأنه إذا عفا عنه فقد وهبه نفسه

تَخْدِشَ وَجْهَ رِضَاكَ بِالتَّثْرِيبِ فَافْعَلْ (١)
 وقالوا: ما عفا عن الذنب مَنْ قَرَّعَ بِهِ ...
 وقال شاعرٌ فِيمَنْ يَمَاقِبُ ثُمَّ يَمَانِبُ :
 إِذَا عُرِيبَ الْجَانِي عَلَى قَدْرِ جُرْمِهِ فَتَعْنِيفُهُ بَعْدَ الْعِقَابِ مِنَ الرَّبِّ

نهيهم عن الاعتذار وصعوبته

جاء في الحديث الشريف: إِيَّاكَ وَكُلَّ أَمْرٍ يُعْتَذَرُ مِنْهُ :
 وفي حديث آخر: إِيَّاكُمْ وَالْمَعَاذِرَ فَإِنَّهَا مَفَاجِرٌ ...
 « ومعنى الحديثين: إِيَّاكُمْ أَنْ تَتَكَلَّمُوا أَوْ تَفْعَلُوا مَا تَحْتَاجُونَ إِلَى أَنْ
 تَعْتَذَرُوا عَنْهُ . »

وقال بعضهم: دَعِ مَا يَسْبِقُ إِلَى الْقُلُوبِ إِزْكَارُهُ، وَإِنْ كَانَ عِنْدَكَ
 اعْتِدَارُهُ فَلَسْتَ بِمُوسِعٍ عُدْرًا كُلِّ مَنْ أَسْمَعْتَهُ نُكْرًا ...
 وكتب الحجاجُ إِلَى بَعْضِ مَنْ اعْتَذَرَ إِلَيْهِ: إِنْ يَسَلَّمَ اللَّهُ ذَلِكَ مِنْ
 نَيْتِكَ تُكْفَ الْمَقَالُ .

وكتب كاتبٌ: لَسْتُ أَعْتَذِرُ إِلَيْكَ مِنَ الذَّنْبِ إِلَّا بِالْإِقْلَاعِ عَنْهُ .
 وكتب آخرٌ: إِنْ تَرَكْتُ الْعِذَارَ فَلَمَّا قَالَ الشَّاعِرُ — هُوَ مُحَمَّدُ
 الْوَرَّاقُ — :

إِذَا كَانَ وَجْهُ الْعُدْرِ لَيْسَ بَيِّنًا فَإِنَّ أَطْرَاحَ الْعُدْرِ خَيْرٌ مِنَ الْعُدْرِ
 وقالوا: الْإِغْرَاقُ فِي الْعُدْرِ يَحَقِّقُ التَّهْمَةَ، كَمَا أَنَّ الْإِفْرَاطَ فِي النَّصِيحَةِ
 يُوجِبُ الظَّنَّ ...

(١) التثريب: تقيح الفعل والاستقصاء في اللوم

وكتب بعضهم: إن كان ما بَلَغَكَ حقاً فما تُغني المَعاذير، وإن كان كذباً
فما تضر الأباطيل .

وقال شاعر:

تعالوا نصطَلح وتَكُونُ مِنَّا مُعاوِدَةً بلا عَدِّ الذنوب
فإن أُحِبِّتُمُ قَلْبَتُمُ وَقَلْنَا فَإِنَّ القَوْلَ أَشَقِيَّ للقلوب

وخطب الحجاج يوماً فأطال، فقام رجل فقال: الصلاة، الوقتُ
لا ينتظرُك، والرَبُّ لا يَعْدِرُك، فأمر بحبسِه، فأتاه قومه وزعموا أنه مجنون
فإن رأى أن يُحَلِّيَ سِدِيلَه ا فقال: إن أقر بالجنون خَلِيَّتَه، فقليل له ذلك، فقال:
معاذ الله، لا أزعُمُ أن الله ابتلاني وقد عافاني، فباع ذلك الحجاج، فعفا
عنه لصدقه ..

تأسف من يعاتب من غير ذنب

من أمثالهم: رَبِّ لَوِمْ لا ذنب له .

وقال البُحْتَرِيُّ:

إذا مَحَّاسِنِي اللانِي أدِلُّ بها كانت ذنوبي قُلُّ لي كيف أعتذر

عبقرياتهم في ذمّ الحلم ومدح العقاب

النهى عن الحلم إذا كان يسبب ذلاً أو ضرراً

قال النابغة الجعدي :

ولا خير في حلمٍ إذا لم تكن لهُ بوادرٌ تحمى صفوه أن يكدرًا (١)
ولا خير في جهلٍ إذا لم يكن لهُ حلِيمٌ إذا ما أورد الأمر أصدراً
يُروى أنه لما أنشد هذين البيتين سيدنا رسول الله قال صلوات الله
عليه: أجدت لا يفضض الله فاك؛ فعاش مائة وثمانين سنة لم تنفض له
ثبته ... وأنشد المبرد :

أباحسن ما أقبح الجهل بالفتى وللحلم أحياناً من الجهل أقبحُ
إذا كان حلم المرء عوناً عدوه عليه فإن الجهل أعق وأروحُ
« أقول: إن مرادهم بالجهل ههنا ما قابل الحلم »

وقال المتلبي :

من الحلم أن تستعمل الجهل دونه إذا اتسعت في الحلم طرق المظالم

وقال :

إذا قيل : رفقاً قال : للحلم موضعٌ وحلم الفتى في غير موضعه جهلٌ
وقال أبو يعقوب الخريبي :
أرى الحلم في بعض المراتب ذلةً وفي بعضها عزاً يسود صاحبه

(١) البوادر جمع بادرة : ما ييدر من الرجل في حال الغضب من قول أو فعل

وقال الأحنف بن قيس : لا حِلْمَ لمن لا سَفِيهَ له . وقال : ما قَلَّ
سَفَهَاءُ قومٍ إلا ذلوا ...

وقال الجاحظ : من قَاتَلَ الإِسَاءَةَ بالإِحْسَانِ فقد خَالَفَ الله في
تَدْيِيرِهِ ، وظن أن رَحْمَةَ الله دون رَحْمَتِهِ ، فإن الله تعالى يقول : « من يَعْمَلْ
سُوءًا يُجْزَ بِهِ » ، وقال : « وَجِزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا »

وقال الشعبي : يُعْجِبُنِي الرَّجُلُ إِذَا سِيمَ هَوَانًا دَعَمْتَهُ الأَنْفَقَةَ إِلَى المِكَافَأَةِ
وَجِزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ؛ وَرُفِعَ كَلَامُهُ إِلَى الحِجَاجِ فَقَالَ : اللهُ دَرَهُ أَيُّ رَجُلٍ
بَيْنَ جَنبِيهِ ا وَتَمَثَّلَ بِقَوْلِ الشَّاعِرِ :

وَلَا خَيْرَ فِي عَرِضِ أَمْرِي لَا يَصُونُهُ وَلَا خَيْرَ فِي حِلْمِ أَمْرِي ذَلَّ جَانِبُهُ

دفع الجهل بالجهل

قال محمد بن وهيب :

لَنْ كُنْتُ مُتَحَاجًّا إِلَى الحِلْمِ لِأَنِّي إِلَى الجَهْلِ فِي بَعْضِ الأَحْيَانِ أَحْوَجُ
وَلِي قَرَسٌ لِلحِلْمِ بِالحِلْمِ مُلْتَجِمٌ وَلِي فَرَسٌ لِلجَهْلِ بِالجَهْلِ مُسْرَجُ
فَمَنْ رَامَ تَقْوِيَّيَ فَإِنِّي مُقَوِّمٌ وَمَنْ رَامَ تَعْوِيَّيَ فَإِنِّي مُعَوِّجُ
وَمَا كُنْتُ أَرْضَى الجَهْلَ خِدْنًا وَصَاحِبًا وَلَكِنِّي أَرْضَى بِهِ حِينَ أُحْرَجُ
وَإِنْ قَالَ بَعْضُ النَّاسِ : فِيهِ سَمَاجَةٌ قَدِّ صَدَقُوا ، وَالدَّلُّ بِالْحُرِّ أَسْمَجُ

وقال إياس بن قتادة - وهو بارع جدا - :

تُعَاقِبُ أَيْدِينَا وَيَحْمِلُ رَأِينَا وَتَنْسِمُ بِالأَفْعَالِ لَا بِالكَلِمِ

وقال أوس بن حنينة - شاعر إسلامي تميمي وحنيناه أمه - :

إِذَا المرءُ أَوْلَاكَ الهَوَانَ فَأُولُهُ هَوَانًا وَإِنْ كَانَتْ قَرِيبًا أَوَاصِرُهُ ^(١)

(١) يقول : إذا سامك إنسان ذلا وهو أونا فأوله من الذل والهوان ما ترذ به =

وإن أنت لم تقدرِ على أن تُهينهُ فذره إلى اليوم الذي أنت قادره^(١)
 وقارب إذا ما لم تكن لك حيلةٌ وصمَّ إذا أيقنت أنك عاقرة^(٢)
 وقالوا: الشر لا يدفعه إلا الشر والحديد بالحديد يُفْلَحُ^(٣) ...

من نهى عن الاغترار بحلمه

قال المتنبي :

وأطمعَ عامرَ البقيّا عليها ونزفها احتمالك والوقار^(٤)

وقال آخر :

ولا يغررك طولُ الحلمِ مني فإبدأ تُصادفني حلّما

وقال آخر :

أحذرَ مغايظَ أقوامِ ذوى أنفٍ إن المغيظَ جهولُ السيفِ مجنونٌ

الحلم مغرٍ وضار مذل

قال الأحنف لرجل : ليت طولَ حلمنا عليك لا يدعوا جهلَ غيرنا

إليك .

كيدك عنك وتشقى به نفسك وإن كان الذى سامك الحسف يمت إليك بسبب من
 القرابة وقوله قريبا خبر، كان ولم يقل قريبا على حد قوله تعالى : إن رحمة الله قريب
 من المحسنين

(١) قادره : أى قادر فيه

(٢) عاقره : قاتله

(٣) يفلح : يشقى

(٤) منع عامر من الصرف لأنه أراد القبيلة ، والبقيا اسم من الإبقاء يقول :

وأطمعهم فى العصيان إبقائك عليهم وعدوك عن الإيقاع بهم ، وحملهم على الطيش
 حلك عنهم وأمتاعك من الانتقام منهم

وقيل للأخف : ما الحلم ؟ فقال : الرضا بالذلّ ...

وقالوا : الشهرةُ بالملاينةِ والخيرُ شرٌّ من الاشتهارِ بالغِلظةِ والشرُّ ، لأنّ مَنْ عُرِفَ بالخيرِ اجترأ عليه الناس ، وَمَنْ عُرِفَ بالشرِّ هابَهُ الناسُ وتجنّبُوهُ .

وقال معاوية : ما وُلِدَتْ قُرَشِيَّةٌ خيراً إِقْرَشِيٍّ مِنِّي ، فقال رجل كان حاضراً : بل ما وُلِدَتْ شراً لِمَنْ مِنْكَ ، فقال : كيف ؟ قال : لأنك عَوَدْتُمْ عادةً يَطْلُبُونَهَا مِنْ بَعْدِكَ فَلَا يُجِيبُونَهُمْ إِلَيْهَا فَيَحْمِلُونَ عَلَيْهِمْ كَحْمَلِهِمْ عَلَيْكَ وَكَأَنِّي بِهِمْ كَالزَّفَاقِ الْمَنْفُوخَةِ عَلَى طُرُقَاتِ الْمَدِينَةِ ...

نهيهم عن إكرام اللئام

قال المتنبي :

إِذَا أَنْتَ أَكْرَمْتَ الْكَرِيمَ مَلَكَتَهُ وَإِنْ أَنْتَ أَكْرَمْتَ اللَّئِيمَ تَمَرَّدَا
وَوَضِعَ النَّدَى فِي مَوْضِعِ السِّيفِ بِالْعُلَا
هُضِرٌ كَوْضَعِ السِّيفِ فِي مَوْضِعِ النَّدَى

وقبلهما :

وَمَا قَتَلَ الْأَحْرَارَ كَالْعَفْوِ عَنْهُمْ وَمَنْ لَكَ بِالْحُرِّ الَّذِي يَحْفَظُ الْيَدَا
وقالوا : استعمالُ الحلمِ مع اللئيمِ أضْرَعُ استعمالُ الجهلِ مع الكريمِ .
وقال يزيد بن معاوية لآبيه : هَلْ ذَمَّمْتَ عَاقِبَةَ حِلْمٍ ؟ قال : مَا حَلُمْتُ عَنْ
لئيمٍ وَإِنْ كَانَ وَلِيَا إِلَّا أَعَقَبْتَنِي نَدَمًا ، وَلَا أَقْدَمْتُ عَلَى كَرِيمٍ وَإِنْ كَانَ عَدُوًّا
إِلَّا أَعَقَبْتَنِي أَسْفَا ...

وقال الشاعر :

مَي تَضَعِ الْكِرَامَةَ فِي لَثِيمٍ فَإِنَّكَ قَدْ أَصَاتَ إِلَى الْكِرَامَةِ

الاستعانة بالجهل لدى الحاجة إليه

قال العباس بن الأحنف :

وَمَنْ يَحْكُمُ وَلَيْسَ لَهُ سَفِيهٌ يُبَلِّغُ الْمَعْضَلَاتِ مِنَ الرِّجَالِ
وقال غيره :

وَلَا يَلْبَثُ الْجُهَّالُ أَنْ يَتَضَمَّوْا أَخَا الْحِلْمِ مَا لَمْ يَسْتَعِنَ بِجَهْلٍ
وَيَبْنِي عِبْدُ اللَّهِ بِنُحْمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ جَالِسٌ إِذْ أَقْبَلَ أَعْرَابِيٌّ ،
فَأَطَمَهُ ، فَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ نَجَّدَ بِهِ الْأَرْضَ ، فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ : لَيْسَ بَعِزِي مِنْ
لَيْسَ فِي قَوْمِهِ سَفِيهٌ ...

حث القادر على العقاب قبل فوته

قد أسلفنا كثيراً من عبرياتهم في هذا المعنى ، وقال أبو أذينة الغساني :
يُحَرِّضُ ابْنَ عَمِّهِ الْأَسْوَدَ بْنَ الْمُنْذِرِ عَلَى قَتْلِ جَمَاعَةٍ مِنْ مَلُوكِ الشَّامِ كَانَ قَدْ
أَسْرَمَ فَأَرَادَ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ :

مَا كُلُّ يَوْمٍ يَسْأَلُ الْمَرْءَ مَا طَلَبَا وَلَا يُسَوِّغُهُ الْمَقْدَارُ مَا وَهَبَا
وَأَنْصَفُ النَّاسِ فِي كُلِّ الْمَوَاطِنِ مَنْ سَقَى الْأَعَادِيَ بِالْكَأْسِ الَّتِي شَرِبَا
وَلَيْسَ يَظْلِمُهُمْ مَنْ بَاتَ يَضْرِبُهُمْ بِحَدِّ سَيْفٍ بِهِ مِنْ قَبْلِهِمْ ضَرْبَا
فَالْعَفْوُ إِلَّا عَنِ الْأَعْدَاءِ مَكْرُمَةٌ مَنْ قَالَ غَيْرَ الَّذِي قَدْ قُلْتَهُ كَذْبَا
قَتَلْتَ عَمْرًا وَتَسْتَبْقِي يَزِيدَ لَقَدْ رَأَيْتَ رَأْيًا يَجْرُ الْوَيْلَ وَالْحَرْبَا
لَا تَقْطَعَنَّ ذَنْبَ الْأَفْعَى وَتَتْرُكَهَا إِنْ كُنْتَ شَهْمًا فَاتَّبِعْ رَأْسَهَا الذَّنْبَا^(١)

(١) الشهم : الذكي الغواد المتوقد النجد النافذ في الامور

هم جَرَدُوا السيفَ فَاجْعَلُهُمْ به جَزَراً
 هم أوقَدُوا النارَ فَاجْعَلُهُمْ لها حَطَباً^(١)

ومنها :

لَا عَفْوَ عَنْ مِثْلِهِمْ فِي مِثْلِ مَا طَلَبُوا لَكِنَّ ذَلِكَ كَانَ الْهَلْكَ وَالْعَطْبَا
 عَلامَ تَقْبِيلُ مِنْهُمْ فِدْيَةٌ وَهُمْ لَا فِضَّةَ قَبِلُوا مِنَّا وَلَا ذَهَباً
 وكتب يحيى بن خالد البرمكى إلى الرشيد من الحبس : إن كان الذنبُ
 خاصاً . فلا تُعَمَّمْ بالعقوبة ، فمعى سلامة البريء ومودة الولي ؛ فكتب إليه :
 قُضِيَ الأمرُ الذى فيه تَسْتَفْتِيَان ...

وقال بعضهم لأبي جعفر المنصور : لقد هجمت بالعقوبة حتى كأنك لم
 تَسْمَعِ بالعفو ! فقال : لأن بنى مروان لم تَبَلَّ رِئْمُهُمْ ، وآلُ أبى طالب لم
 تُغَمَدُ سِوْفُهُمْ ، ونحن بين أقوام قد رأونا بالأئس سوقة واليوم خُلْفَاءُ ،
 فليس تتمهَدُ الهَيْبَةُ فى صُدُورِهِمْ إلا بأطراح العفو واستعمال العقوبة ...

التبجح بقسوة العقاب وقلة الرحمة

كان محمد بن عبد الملك الزيات وزير المعتصم والوائق قد انخَدَ تَنُوراً
 من حديد ، وأطراف مَساميره قائمة مثل رؤس المَسال ، فى أيام وزارته ،
 وكان يعذبُ فيه المصادرين وأرباب الدواوين المطلوبين بالأموال ، فيجدون
 لذلك أشدَّ الألم ، ولم يَسْبِقْهُ أحدٌ إلى هذا النوع من العقاب ، وكان إذا قال
 له أحدٌ منهم : أيها الوزير ، ارتخى ، يقول له : الرحمةُ خَوْرٌ فى الطبيعة ، فلما

(١) اجعلهم جزرا : أى قطعاً ومن ذا قولهم : تركهم جزراً للسباع والطير أى
 قتلهم حتى صاروا قطعاً تأكلها السباع والطير

اعتقله المتوكلُ أمرَ يادخاله في التَّثْوَرِ وَقِيدَهُ بِخَمْسَةِ عَشْرَ رِطْلًا مِنْ
الحديد، فقال: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، اِرْحَمْنِي، فقال له: الرَّحْمَةُ خَوْرٌ فِي الطَّبِيعَةِ،
كَمَا كَانَ يَقُولُ لِلنَّاسِ . ثُمَّ يَتَمَثَّلُ :

❖ فَلَا تَجْرَعَنَّ مِنْ سِيرَةٍ أَنْتَ سِرْتَهَا (١) ❖

وَوَقَّعَ مَرَّةً فِي قِصَّةِ رَجُلٍ : دَعْنِي مِنْ ذِكْرِ الرَّحْمَةِ وَالْإِشْفَاقِ ، فَمَا هُمَا
إِلَّا لِلسَّوَانِ وَالصِّيَّانِ ...

وقال المتنبي :

يَدْخُلُ صَبْرُ الْمَرْءِ فِي مَدْحِهِ وَيَدْخُلُ الْإِشْفَاقُ فِي نَلْبِهِ (٢)

« الثلب : الذم والعاب ، يقول : إن الصبر بما يمدح به الإنسان والإشفاق
بما يعاب به »

أخذ البريء بذنب الجاني

قال الله تعالى : « وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً »
وقال الحارث بن حِزْرَةَ الْيَشْكُرِي مِنْ مَعَاقِمَتِهِ الَّتِي ارْتَجَلَهَا بَيْنَ يَدَيْ عَمْرٍو بْنِ هِنْدٍ
مَلِكِ الْحِيرَةِ فِي شَيْءٍ كَانَ بَيْنَ بَكْرٍ وَتَغْلِبَ :

عَنَّأَ بَاطِلًا وَظَالِمًا كَمَا تُعَدُّ سِتْرٌ عَنْ حَجْرَةِ الرَّيْبِضِ الظُّبَاءِ

« العنن : الاعتراض يقال : عَنَّ يَعْنُ وَيَعُنُّ عَنَّاً وَعُنُونًا وَاعْتَنَّ :

عَرَضَ وَاعْتَرَضَ ، وَالاسْمُ الْعَنْنُ ، وَالْحَجْرَةُ : النَّاحِيَةُ ، وَالْجَمْعُ : حَجْرٌ

(١) هذا مثل تقدم القول عليه في الجزء الأول صفحة ٢٣

(٢) من قصيدته التي يعزى بها أبا شجاع عضد الدولة بعتمته وأولها :

آخَرَمَا الْمَلِكُ مُعَزَّى بِهِ هَذَا الَّذِي أَثَّرَ فِي قَلْبِي

وحجرات مثل جَمْرَةٌ وَجَمْرٌ وَجَمْرَاتٌ ، والعترة ، ذبح العتيرة ، وهي ذبيحةٌ كانت تذبح للأصنام في رجب ، والرييض : الغنم الرابضة في مَرَبِضِهَا ، وقد كان الرجلُ في الجاهلية ينذر : إن بَلَغَ اللهُ عَمَمَهُ مائةٌ ذبح منها واحدةً للأصنام ، ثم رُبَّمَا ضَلَّتْ نَفْسُهُ بِهَا فَأَخَذَ ظِيماً وَذَبَحَهُ مَكَانَ الشاةِ الواجبةِ عليه يقول :
الزَّمْتُمونا ذنَبَ غيرنا عَنناً باطلاً كما يُذبح الظَّبِيُّ حَقِيٍّ وَجِبَ في الغنم ،

وقال النابغة الذي ياني من أبياته العينية التي يعتذر فيها إلى النعمان بن المنذر
أَتَانِي آيَاتُ اللَّعْنِ أَنَّكَ لُمْتَنِي وتلك التي تَسْتَأْكَ مِنْهَا الْمَسَامِعُ
مَقَالَةٌ أَنْ قَدْ قُلْتَ : سَوْفَ أَنَا لَهُ وذلك من تَلْقَاءِ مِثْلِكَ رَائِعُ
أَتُوْعِدُ عَبْدًا لَمْ يَخُنْكَ أَمَانَةٌ وتتركُ عبداً ظالماً وهو ظالِعُ
وَحَمَلْتَنِي ذَنْبَ امْرِئٍ وَتَرَكْتَهُ كَذَى العُرِّ يُكْوَى غَيْرُهُ وَهُوَ رَائِعُ
وَذَلِكَ امْرُؤٌ لَمْ أَكُنْ لِأَقُولَهُ ولو كَبَلْتُ في سَاعِدَيَّ الْجِوَامِعُ
أَتَاكَ بِقَوْلٍ لَهْلَهُ الدَّسَخُ كَاذِبًا ولم يَأْتِ بِالْحَقِّ الَّذِي هُوَ نَاصِعُ
لَعْمَرِي وَمَا عَمَرِي عَلَى بَهَيْنٍ لَقَدْ نَطَقْتُ بُطْلًا عَلَى الْأَقَارِعُ
ومنها :

وَعِيدُ أَبِي قَابُوسَ فِي غَيْرِ كُنْهِهِ أَنَا فِي وَدُونِي رَاكِسٌ فَالضَّوَاجِعُ
فَيْتُ كَأَنِّي سَاوَرْتَنِي ضَيْمِلَةٌ من الرَّقِيشِ فِي أُنْيَابِهَا السُّمُّ نَائِعُ
يُسَهِّدُ فِي لَيْلِ التَّمَامِ سَلِيمُهَا لِحَلِيِّ النِّسَاءِ فِي يَدَيْهِ قَعَاقِعُ
تَنَادَرَهَا الرَّاقُونَ مِنْ سَوْءِ سُمَّهَا تُطَلِّقُهُ طَوْرًا وَطَوْرًا تُرَاجِعُ
ومنها :

حَافَتُ فَلَمْ أَتْرُكْ لِنَفْسِكَ رِيَّةً وهل يَأْتُمِنَنَّ ذُو إِمَّةٍ وَهُوَ طَائِعُ
فَإِنَّكَ كَاللَّيْلِ الَّذِي هُوَ مُدْرِكِي وَإِنْ خِلْتُ أَنَّ الْمُنْتَأَى عَنْكَ وَاسِعُ
« وإليك شرح هذه الأبيات : آييت اللعن : آييت أن تَأْتِي من

الأخلاق المذمومة ما تُلتعنُ عليه ، وكانت هذه تحيةً لخمٍ وجُدام ، وكانت منازلهم الحيرة وما يليها ، وكانت تحيةً ملوك غسان : يا خيرَ الفتيان ، وكانت منازلهم الشام : وتستكُ : تَدَسَّدُ ولا تَسْمَعُ ؛ ورائع : مُفْرِعٌ وَخَوْفٌ . وإضافة مقالة إلى أن قد قلت من إضافة الأعم إلى الأخص ، وهى من الإضافة البيانية أى مقالة هى هذا القول . وظالِع : مائل . والعَرَّ : قَرَّحَ يأخذ الإبل فى مَشَافِرِها وأطرافها شديه بالقرع ، وربما تفرَّق فى مَشَافِرِها مثل القوباء ، يسيل منه ماءٌ أصفرُ ، وكان الأعرابُ إذا وقع العرُّ فى إبل أحدهم اعترضوا بغيراً صحيحاً من تلك الإبل فكَوَّوْا مِشْفَرَه وَعَضَدَه وَفَخَذَه يرون أنهم إذا فعلوا ذلك ذهب العرُّ من إبلهم . وقيل : إنما كانوا يكوون الصحيحَ لثلا يتعلَقَ به الداءُ لا ليَبْرَأَ السقيم . وكَبَلَتْ : قِيدَتْ . والجوامع : الأغلال ، جمع جامعة . وثوبٌ لَهْلَهُ النسيج وهلهل النسيج : إذا كان رقيقاً ، وناصع : بين واضح . وقوله : لَعَمْرَى ... البيت فالعمر بفتح العين هو العمر بضمها لكن حُصَّ استعمال المفتوح فى القَسَم ، أى ما قَسَمِي بَعْمَرَى هين على حتى يهمنى منهم بأنى أحلف كاذباً ، والبطل - بالضم : - هو الباطل والاقارع : هم بنو قريع بن عوف الذين كانوا سَعَوْا به إلى النعمان بن المنذر حتى تغيَّرَ له . وأبو قابوس : كنية النعمان بن المنذر . وقوله فى غير كنهه : أى جاءنى وعيده فى غير قدر الوعيد ، أى لم أكن بلغت ما يغضب على فيه . وراكس : واد ، والضواجع جمع ضاجعة وهو مُنْحَنى الوادى . وقوله : فَبِتُّ ... ألبت فالمساورة : الموائمة ، والأفعى لا تَلْدُغُ إلا وثباً . وضئيلة : هى الحية الدقيقة القليلة اللحم . والرثس من الحيات : المنقطة بسواد ، وهى من شرارها ، والسَم مبتدأ وناقع خبر ويجرز فى غير الشعر ناقعاً على الحالية وفى أُنْيابها هو الخبر . وليل التام بكسر التاء أطول ليلة فى السنة ، والسليم :

اللدبغ ، وسمت العرب الملسوع ساليا تفاؤلا . وقوله : لخلي النساء في يديه
 قمايع : فقد كان الملدوغ يُجَمَلُ الحَلِيُّ في يديه والجلال جل حتى لا ينام فَيَدِبُّ
 السُّمُّ . فيه وتناذرها الراقون يروى أيضاً : تناذرها الحارون ، وهو جمع حارٍ ،
 وهو الذي يُمَسِكُ الحَيَّاتِ ، أى أنذر بعضهم بعضاً بأنها لا تُجِيبُ راقياً
 وقوله : تُطَلِّقُهُ : تَخِيفُ عنه مرة وتشهد عليه مرة ، ومثل ذلك قول
 الآخر :

تبيتُ الهمومُ الطارِقَاتُ يُعَدُّنِي كاتعَتِرِي الأوصابُ رأسَ المُطَلِّقِ
 يقال : طَلَّقَ السَّلِيمُ : رَجَعَتْ إِلَيْهِ نَفْسُهُ وَسَكَنَ وَجَعَهُ بَعْدَ العِدَادِ (١)
 فهو مُطَلِّقٌ ، قال المبرِّدُ : وهذا هو الذي ذكره النابغة قال : وذلك أن
 المنهوش إذا ألحَّ الوجعُ به تارةً وأمسك عنه تارةً فقد قارب أن يُؤَيِّسَ
 من بُرئِهِ ، وإنما ذكر خوفه من النعمان وما يعتريه من لَوَعَةٍ في إثرِ
 فِتْرَةٍ والخائفُ لا ينامُ إلا غِراراً ، فلذلك شبه بالملدوغ المُسَهَّدِ . والإمَّةُ
 لغة في الأُمَّة : الدين والخير ثم شبهه في البيت الأخير في حال سخظه
 بالليل الشديد الظلمة لا يُهْتَدَى فيه «

ووقف رجلٌ على الحجاج فقال : أصلحَ اللهُ الأمير ، جَنَى جان في
 الحَيِّ فَأَخِذْتُ بِجَرِيرَتِهِ وَأَسْقِطَ عَطَائِي ، فقال الحجاجُ : أما سمعتَ قولَ
 الشاعر :

جانيك من يجني عليك وقد تُعِدِي الصَّحاحَ مَبَارِكُ الجُرْبِ (٢)

(١) العداد : احتياج وجمع اللدبغ . وأصله من العدد ، وقيل : عداد السليم : أن
 تعد له سبعة أيام فإن مضت رجوا له البرء ومالم تمض قيل : هو في عداده
 (٢) جانيك من يجني عليك ، يريد : صاحب جنابتك من يجني عليك فلا تأخذ

وَرَبِّ مَأْخُودٍ بِذَنْبِ صَدِيقِهِ وَنِجَا الْمُقَارِفِ صَاحِبِ الذَّنْبِ (١)
 فقال : أعزَّ الله الأمير ، كتابُ الله أولى ما أتبع ، قال الله تعالى :
 « معاذ الله أن نأخذَ إلا من وجدنا متاعنا عنده ، فقال الحجاج : صدقتَ
 يا غلام ، ردَّ اسمه وأثبتَ رسمه ؛ وأسِنَ له عطاءه .

عذر من بدر منه سخط

قال البحتري :

إذا أخرجتَ ذا كرمٍ تخطى إليك بيغضٍ أخلاق اللئام

طائفة من عبقرياتهم في العداوات

الاحتراس من غرس العداوة

جاء في كيلة ودمته : لا ينبغي للعاقل أن تحمله ثقته بقوته على أن
 يجتترَّ العداوة ، كما لا يجب لصاحب الترياق أن يشرب السمَّ انكالا
 على أدويته .

وقالوا : احذر مُعاداة الرجال فالناس رُجلان : عاقل فاحذر ختله ،

وأحمق فاحذر حقه

بالعقوبة غيره ، قال أبو عبيد : قولهم : جانيتك من يجني عليك يضرب مثلاً للرجل
 يعاقب بجناية ولا يؤخذ غيره بذنبه ، إنما يجنيك من جنايته راجعة إليك ، وذلك
 أن الإخوة يجنون على الرجل ، وقال غيره : معناه : الذي تلحقك منفعته هو الذي
 ياحتمك عاره ، يعنى : الذي يجني لك الخير هو الذي يجني عليك الشر ، فقولهم : جانيتك
 معناه الجاني لك ، ومبارك الحرب : مواضع بروكها أى : مراتبها ، والجرب :
 المصابة بالحرب .

(١) قارف فلان الخطيئة : خالطها

وسيمر عليك كثير من عقرياتهم في هذا المعنى في كتاب الإخروانيات
والأصدقاء والصدّاقه .

نهيهم عن الاغترار بالوَدِّ

كُتِبَ بَطْنٌ مَعَهُ الْعِدَاوَةُ

دخل سُديفٌ مولى أبي العباس السفاح^(١) على أبي العباس أمير المؤمنين
وعنده سليمان بن هشام بن عبد الملك وقد أدناه وأعطاه يده فقبّلها ، فلما
رأى ذلك سُديفٌ أقبل على أبي العباس وقال :

جَرَّدَ السَيْفَ وَارْفَعَ الْعَفْوَحَتِي لَا تَرَى فَوْقَ ظَهْرِيهَا أَمْوِيًّا

لَا يَغْرُنُكَ مَا تَرَى مِنْ أَنَاسٍ إِنَّ تَحْتَ الضُّلُوعِ دَاءٌ دَوِيًّا

فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ سُلَيْمَانُ فَقَالَ : قَتَلْتَنِي أَيُّهَا الشَّيْخُ تَمَلِّكَ اللَّهُ وَقَامَ أَبُو الْعَبَّاسِ
فَدَخَلَ ، فَإِذَا الْمُنْدِيلُ قَدْ أُلْقِيَ فِي عُنُقِي سُلَيْمَانَ ، ثُمَّ جَرَّ فَقَتَلَ .

ودخل شبّل بن عبد الله مولى بني هاشم على عبد الله بن علي ، وقد
أجلس ثمانين رجلاً من بني أمية على مُحمّط الطعام ، فقبل بين يديه وقال :

أَصْبَحَ الْمَلِكُ نَائِبَ الْأَسَاسِ بِالْبَهَائِلِ مِنْ بَنِي الْعَبَّاسِ^(٢)

(١) ذكر أبو الفرج في الأغانى أنه مولى خزاعة وكان سبب ادعائه ولاء بني
هاشم أنه تزوج مولاة لآبى لُهب ويقال : بل أبوه هو الذى تزوجها فولدت له سديفاً
وسديف شاعر مقل من مخضرمى الدولتين شديد التعصب لبني هاشم مظهراً لذلك
أيام بني أمية

(٢) الآساس واحدها أس ، وقد يقال للواحد : آساس وجمعه أسس ، والهلول :
العزير الجامع لكل خير

طلبوا وتر هاشم فشفوها بعد ميل من الزمان ويأس^(١)
 لأتقيان عبد شمس عثارا واقطعن كل رقلة وأواسى^(٢)
 ذلها أظهر التوؤد منها وبها منكم كخز الماوسى
 ولقد غاظنى وغاز سوائى قرهم من نماريق وكرايسى^(٣)
 أنزلوها بحيث أنزلها الله بدار الهوان والإتعاس
 وأذكروا مصرع الحسين وزيدا وقتيلاً بجانب المهراس^(٤)
 والقتيل الذى بجران أضحى ثاوباً بين غربة وتماس^(٥)
 نعم شبلى الهراش مولاك شبلى لونيما من حبال الإفلايس
 فأمر بهم عبد الله ، فشدخرا بالعمد ، وبسط عليهم البسط ، وجلس
 عليها ودعا بالطعام وإنه ليستمع أنين بعضهم حتى ماتوا جميعاً ، ولما فرغ من
 الأكل قال : ما أعلمني أكلت أكلة قط أنها ولا أطيب لنفسى منها ا وقال

(١) يقال فيك ميل علينا بسكون الياء أما كل منتصب مثل الحائط فيقال : فى الحائط ميل بالتحريك

(٢) الرقلة : النخلة الطويلة ويقال - إذا وصف الرجل بالطول - : كأنه رقلة ، والأواسى : جمع آسية وهى : أصل البناء بمنزلة الأساس

(٣) النمارق جمع نمرة وهى : الوسائد

(٤) زيد هو زيد بن على بن الحسين ، خرج على هشام بن عبد الملك سنة ٢٢١ هـ وقتله يوسف بن عمر الثقفى أمير العراق لحشام وصلبه بالكناسة - محلة بالكوفة - عريانا هو وجماعة من أصحابه ، وقوله : وقتيلاً بجانب المهراس فالمهراس : ماء بأحد ويريد : حمزة بن عبد المطلب ، وإنما نسب شبلى قتل حمزة إلى بنى أمية لأن أباسفيان ابن حرب كان قائداً كفار قريش يوم أحد

(٥) القتيلى الذى بجران هو إبراهيم بن محمد بن على ، وهو الذى يقال له الإمام

لِشِبْلِ : لولا أنك خلطت كلامك بالمسألة لا غنمك جميع أموالهم^(١) ،
ولقدت لك على جميع موالى بنى هاشم .

وقال المتنبى :

فلا تغررك أسنة موالٍ تُقلِبهنَّ أفئدةً أعادى^(٢)

وكن كالموت لا يرثى لباكٍ بكى منه ويروى وهو صاد^(٣)

فإن الجرح ينفر بعد حين إذا كان البناء على فساد

» قوله : فإن الجرح ... البيت : مثله قول البحتري :

إذا ما الجرح رم على فساد تبين فيه تفريط الطيب

وفى كليله ودمته : لا يغر العاقل سكون الحقد فى القلب مالم يجد محركا

فإنه كالجرم المكنون مالم يجد حظبا ؛ والعداوة إذا وجدت فرصة اشتعلت

فلا يطفئها شيء دون النفس ...

(١) بالمسألة يريد : سؤاله إذ قال :

نعم شبل الهراش مولاك شبل لو نجا من حبال الإفلاس

(٢) موال : جمع مولى وهو الولى والصديق يقول : لا تغتر بما تراه من إظهار

ودم فإن تلك الالسنه الموالية تقاها أفئدة معادية

(٣) لا يرثى : لا يرحم . والصادى : العطشان ، يقول : كن قاسياً عليهم كالموت

لا يرحم الباكى من خوفه ، ويروى وهو صاد كأنه لطلبه الشرب بعد الرى صاد ،
أى لطلب النفوس ، ومعنى بروى : ينال مالو أدركه لروى

* كالموت ليس له رى ولا شبع *

(٤) نفر الجرح : هاج وورم بعد البرء ، وقوله : إذا كان البناء على فساد أى

إذا نبت اللحم على ظاهره وله غور فاسد ، يعنى . أنهم يطوون العداوة فى أنفسهم إلى
أن تمكهم الفرصة .

نهيهم عن السكون إلى من تقدم

منك إليه إساءة

يُحكى أن رجلاً كان له عبدٌ سنديٌّ ، فتعرّض لامرأته ، فعيلم الرجلُ بذلك ، فأخذَه وحبَّه ، ثم تحوَّبَ لذلك ، فداواه ، فلما برأ اتفق أن غاب الرجل يوماً ، فعمدَ السنديُّ المخبُوبُ إلى ابنتينِ كانا لسيده فأخذهما وصعد السورَ ، فلما بصرَ بالرجلِ قال : والله إن لم تحبَّ نفسك كما حببتني لأفدنيهما من السورِ ليُموتا ، وإن نفسي لأهونُ من شربة ماء ، فلما رأى الرجلُ منه الجِدَّ حبَّ نفسه ، قرى العبدُ بالابنتينِ من السورِ وقال : إن حبك نفسك قصاص لما حببتني ، وقتل ابنك زيادةً أعطيتكما ...

وتزعمُ العرب : أن أخوينِ كانا في إبلٍ لهما ، فأجدبت بلادهما ، وكان بالقربِ منهما وادٍ حصيبٌ وفيه حيةٌ تحميه من كل أحد ، فقال أحدهما للآخر : يا فلان ، لو أني أتيتُ هذا الوادى المُكائِ فرعيتُ فيه إبلِي وأصلحتُها؟ فقال له أخوه : إني أخاف عليك الحية ، ألا ترى أن أحداً لا يهبطُ ذلك الوادى إلا أهلكته ، قال : فوالله لأقتلنَّ ، فهبط الوادى ورعى به إبله زماناً ، ثم إن الحيةَ نهشته فقتله ، فقال أخوه : والله ، ما في الحياة بعد أخى خير ، فلاطلبنَّ الحيةَ ولاقتلنها ، أو لا تبعنَّ أخى ، فهبط ذلك الوادى وطلب الحيةَ ليقتلها طلباً بثاره ، فقالت له الحيةُ : فهل لك في الصلح ، فأدعك بهذا الوادى تكون فيه وأعطيك كلَّ يومٍ ديناراً ما بقيت ؟ قال : أوفاعلة أنت ؟ قالت : نعم ، قال : إني أفعل ، فحلف لهما وأعطاهما الموائيق : لا يضرهما ، وجملت تعطيه كلَّ يومٍ ديناراً ؛ فكثُر ماله حتى صار من أحسن الناس حالاً ؛ ثم إنه ذكر أخاه فقال : كيف ينفعني العيش وأنا

أَنْظُرُ إِلَى قَاتِلِ أَخِي إِفْعَمِدَ إِلَى فَأْسِهِ فَأَخَذَهَا؛ ثُمَّ رَصَدَ لَهَا، حَتَّى خَرَجَتْ،
فَضْرَبَهَا ضَرْبَةً شَجَّتْ رَأْسَهَا، فَلَمَّا رَأَتْ مَا فَعَلَ قَطَعَتْ عَنْهُ الدِّينَارَ، خِيفَ
الرَّجُلُ شَرَّهَا وَتَدَمَّ، فَقَالَ لَهَا: هَلْ لَكَ أَنْ تَتَوَاتَّقَ وَتَعُودَ إِلَى مَا كُنَّا عَلَيْهِ؟
فَقَالَتْ: كَيْفَ أَعَاوِدُكَ وَهَذَا أَمْرٌ فَأَسْكَ وَهَذَا قَبْرُ أَخِيكَ! وَقَدْ ذَكَرَ هَذِهِ
الحِكَايَةَ النَّابِغَةُ الذِّيَابِيُّ فِي آيَاتٍ لَهُ لِادَّاعِيٍّ إِلَى إِيرَادِهَا وَقَدْ جَاءَ فِي
خَتَامِهَا هَذَا الْبَيْتُ:

أَبَى لَكَ قَبْرٌ لَا يَزَالُ مُوَاجِهِي وَضَرْبَةٌ فَأَسِ فَوْقَ رَأْسِي فَاغْرَهُ

نهيهم عن احتقار العدو

قال ابن نباتة السعدي:

وَإِذَا عَجَزْتَ عَنِ الْعَدُوِّ فَدَارِهِ وَأَمْرُجْ لَهُ إِنْ الْمِزَاجَ وَفَاقُ
فَالنَّارُ بِالْمَاءِ الَّذِي هُوَ ضِدُّهَا تُعْطَى النَّضَاجَ وَطَبْعُهَا الْإِحْرَاقُ
وَقَالُوا: لَا يُتَّقَى الْعَدُوُّ الْقَوِيُّ بِمِثْلِ الْخُضُوعِ وَاللِّينِ، وَمِثْلُ ذَلِكَ مِثْلُ
الرِّيحِ الْعَاصِفِ تَقْلَعُ الْأَشْجَارَ الْعِظَامَ، لِتَأْيِبِهَا عَلَيْهَا، وَيَنْسَلِمُ مِنْهَا النَّبَاتُ
اللِّينُ لِتَمَايُلِهِ مَعَهَا.

ومن أمثالهم: إِذَا عَزَّ أَخُوكَ فَهُنَّ

وقال الإمام ثعلب: هذا مثل ومعناه: إِذَا تَدَطَّمَّ أَخُوكَ شَائِحًا عَلَيْكَ
فَالنَّزِيمُ لَهُ الْهُوَانُ؛ وَعِبَارَةُ الْأَزْهَرِيِّ: الْمَعْنَى: إِذَا غَلَبَكَ وَقَهَرَكَ وَلَمْ تَقَاوِمِهِ
فَتَوَاضَعْ لَهُ، فَإِنْ اضْطَرَّابَكَ عَلَيْهِ يَزِيدُكَ ذُلًّا وَخَبَالًا؛ وَقَالَ الرَّجَاجُ: الَّذِي
قَالَهُ ثَعْلَبٌ خَطَأً، وَإِنَّمَا الْكَلَامُ: إِذَا عَزَّ أَخُوكَ فَهُنَّ - بِكسر الهاء - وَمَعْنَاهُ إِذَا
اشْتَدَّ عَلَيْكَ فَهُنَّ: لَمْ يَدَارِهِ، وَهَذَا مِنْ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ، كَمَا رُوِيَ عَنْ

معاوية رضى الله عنه أنه قال : لو أن بينى وبين الناس شعرةٌ يمدونها
وأمدتها ما انقطعت ، قيل : وكيف ذلك ؟ قال : كنت إذا أرخوها مددتُ ،
وإذا مَدَّوها أرخيتُ ، فالصحيح فى هذا المثل ، فهن بالكسر ، من قولهم : هان
يهنُ : إذا صار هيناً لينا ، كقوله :

هَيْنُونَ لَيْنُونَ أَيَسَارٌ ذَوُو كَرَمٍ سُوَاسُ مَكْرَمَةٍ أَبْنَاءُ أَظْهَارِ
وإذا قالوا : فهنُ فهو من الهوان ، والعربُ لا تأمرُ بذلك ، لأنهم أعزَّة
أبَاؤُنَ لِلضَّمِيمِ . وقال ابنُ سَيِّدِهِ . وعندى أن الذى قاله ثعلب صحيح لقول
ابن الأحرر - شاعر إسلامى - :

وقارِعَةٍ مِنَ الأَيَامِ لَوْلَا سَيِّلُهُمْ لَزَاحَتْ عَنْكَ جِينَا
دَبَّيْتُ لَهَا الضَّرَاءَ وَقَلْتُ : أَبَيْتُ إِذَا عَزَّ ابْنُ عَمِّكَ أَنْ تَهُونَا^(١)

المتبجح بإظهار اللبان وإضممار العداوة

قال المتنبي :

وجاهِلٌ مَدَّةٌ فى جَهْلِهِ ضَحِكِي حَتَّى أَتَتْهُ يَدُ فَرَّاسَةٍ وَفَمٌ
إِذَا نَظَرْتَ نِيُوبَ اللَّيْثِ بَارِزَةً فَلَا تَظُنِّيَنَّ أَنَّ اللَّيْثَ مُبْتَسِمٌ
« مَدَّة : أمهله وطول له ، وأصل الفرس : دق العنق يقول : ربّ جاهل
خدعته مجاملتى وتركه فى ضحكه ضحكى منه حتى افرسته وبطشت به بعد زمان
يعنى أنه يُغضى عن الجاهل ويحلم إلى أن يُجازيه ويعصف به ، ثم قال فى

(١) الضراء فى الاصل : الشجر المذلف فى الوادى يقال : فلان يمشى الضراء :
إذا مشى مستخفياً فيما يوارى من الشجر ، والضراء أيضاً : المشى فيما يوارى بك عن
تكيده وتختله يقال : فلان لا يدب له الضراء ، . يقال للرجل - إذا ختل صاحبه
ومكر به : هو يدب له الضراء

البيت التالي : إذا كشر الأسد عن نابه فليس ذلك تبسماً ، بل قصداً للاقتراس ، يريد : أنه وإن أبدى بشره ، وتبسّمه للجاهل فليس ذلك رضى عنه ، وفي مثل هذا يقول أبو تمام :

قَدْ قَلَصْتُ شَفَنَاهُ مِنْ حَفِيفَتِهِ فَنَحِيلَ مِنْ شِدَّةِ التَّعْيِيسِ مُبْتَسِمًا

العدو يكاشرك إذا حضرك

قال المثقّب العبدى - شاعر جاهلى - :

إِنَّ شَرَّ النَّاسِ مَنْ يَكْشِرُ لِي حِينَ أَلْقَاهُ وَإِنْ غَبْتُ شَتْمُهُ
وقال ابن الرومى :

يُذِيعُ لِي صَفْحَةَ السَّلَامَةِ وَالسَّلَامِ وَيُخْفِي فِي قَلْبِهِ مَرَضًا
وقال المتنبي :

أَبْدُو فَيَسْجُدُ مِنَ السُّوءِ يَذْكُرُنِي وَلَا أَعَاتِبُهُ صَفْحًا وَإِهْوَانًا (١)
وبما يصح أن يذكر هنا ما روى : أنه قيل لأعرابي : كيف فلان فيكم ؟
فقال : إذا حَضَرَ هِبْنَاهُ ، وَإِنْ غَابَ اغْتَبْنَاهُ ، قال : ذلك هو السيد فيكم ...

من نظره ينبي عن عداوته

وتحذيرهم من العداوة المستورة

قال شاعر :

سُتُورُ الضَّمَائِرِ مَهْتُوكَةٌ إِذَا مَا تَلَا حَظَّتِ الْأَعْيُنُ
وقال زهير بن أبي سلمى :

وَمَا يَكُ فِي عَدُوٍّ أَوْ صَدِيقٍ تُخْبِرُكَ الْعَيُونُ عَنِ الْقُلُوبِ

(١) يقول : إذا ظهرت لمن يذكرني بالسوء في غيبي عظمي وخضع لي وأنا أعرض عن عتابه إعراساً عنه واحتقاراً له لأنه لا يقدر أن ينظر إلى في حضرتي

وقال عُمَيْرُ بْنُ حُبَابٍ :

أَلَا رَبُّ مَنْ تَدْعُو صَدِيقًا وَلَوْ تَرَى
يُسْرَكَ بِأَدْبِهِ وَتَحْتَ أَدِيمِهِ
تُبِينُ لَكَ الْعَيْنَانِ مَا هُوَ كَأْتَمُّ
وَفِينَا - وَإِنْ قِيلَ اصْطَلَحْنَا - تَضَاغُنُّ

مَقَالَتَهُ فِي الْغَيْبِ سَاءَ مَا يَفْرَى ^(١)
نَمِيَّةٌ شَرَّ تَبْتَرَى عَصَبَ الظُّهْرِ ^(٢)
مِنَ الضُّغْنِ وَالشَّحْنَاءِ بِالنَّظْرِ الشَّزْرُ
كَأَطْرَ أَوْ بَارُ الْجِرَابِ عَلَى النَّشْرِ ^(٣)

وقال أبو نواس :

كَمَنَّ الشَّنَانُ فِيهِ لَنَا
وَقَبَلَهُ :

وَابْنِ عَمِّ لَا يُكَاشِفُنَا
وَهِيَ الْآيَاتُ الَّتِي يَقُولُ فِيهَا :

لَا أَذُودُ الطَّيْرِ عَنْ شَجَرٍ
وَقَالَ زُقْرُ بْنُ الْحَارِثِ :

وَقَدْ يَنْبُتُ الْمُرْعَى عَلَى دِمَنِ الثَّرَى
وَتَبَّى حَزَازَاتُ النُّفُوسِ كَمَا هِيَ ^(٦)

(١) يفرى : يفتاق ويكذب ، من الافتراء

(٢) تبترى : تبرى وتحت

(٣) جاء في اللسان : النشر : الكلا يهيج أعلاه وأسفله ندى أخضر تدفى منه الإبل إذا رعته ، واستشهد بالبيت ثم قال : يقول : ظاهرنا في الصلح حسن في مرآة العين وباطننا فاسد كما تحسن أوبار الجربى عن أكل النثر وتحتها داء منه في أجوافها . وقال أبو منصور الأزهرى : وقيل النشر في هذا البيت نشر الجرب بعد ذهابه ونبات الوبر عليه حتى يخفى ، قال : وهذا هو الصواب

(٤) الشنان : البغض . يقول : البغض قد كمن فيه واستتر مثل كمن النار في الحجر الذي يوربه ويقدحه

(٥) لا يكاشفنا : لا يظهرنا على العداوة ، ولبسناه على غمره : عاشرناه على ما به من حقد (٦) الدمن جمع دمنة والمراد : الموضع الذى يتلبد فيه السرقين وأبعار الغنم والبقر ، وفي الحديث : إياكم وخضراء الدمن ، قيل : وما ذاك . قال صلى الله

وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر الفتن فقال : يكون بعدها هُدنةٌ على دَخْنٍ وجماعةٌ على أَقْدَاءٍ « وأصل الهدنة : السكون بعد الهيج ، ومنه قيل للصلح بعد القتال بين كل متحارين : هُدنة ، لأنها مُلَيِّنةٌ وفترةٌ سكون بين المتقاتلين ، والدخن : السكْدُورَةُ إلى السوادِ كالدهان . والمراد سكون على غل ،

ثبات العداوة الذاتية

قالوا في ذلك : الوُدُّ والعداوة يُتوارثان .

وفي كَلِمَةٍ ودمنةٌ : ليس بين العداوة الجوهرية صلحٌ وإن اجْتهد ، فالماءُ وإن أُطيل إسخاؤه فليس يمتنع من إطفاء النار إذا صَبَّ عليها . ويُحكى : أن أعرابياً أخذ جَرَوْ ذئب ، فرباه بلبن شاةٍ عنده ، وقال : إذا ربيته مع الشاةِ أنس بها ، فيذُبُّ عنها ويكونُ أشدَّ من الكلب ، ولا يعرف طبع أجناسه ، فلما قوى وَثَبَ على شاةٍ فافترسها ، فقال الأعرابيُّ :

أَكَلْتُ شَوْهِي وَنَشَأْتُ فِينَا فَمَا أَدْرَاكَ أَنْ أَبَاكَ ذَيْبُ

حمد المداجاة طلباً للفرصة

قال علي كرم الله وجهه : أنسى الأشياء لعدوك أن لا تُعلمه أنك اتخذته عدواً .

وقال القاضي التتويحي :

أَلْقَى الْعَدُوَّ بَوَاجِهِ لَا قُطُوبَ بِهِ يَكَادُ يَقْطُرُ مِنْ مَاءِ الْبَشَاشَاتِ
فَأَحْزَمُ النَّاسِ مَنْ يَلْقَى أَعَادِيَهُ فِي جَسْمٍ حَقْدٍ وَثُوبٍ مِنْ مَوَدَّاتِ

عليه وسلم : المرأة الحسناء في المنبت السوء ، شبه المرأة بما ينبت في الدمن من الكلال
يرى له غصارة وهو وبى المرعى منبت الاصل

الرَّقِيقُ يُؤْمِنُ وَخَيْرُ الْقَوْلِ أَصْدَقُهُ وَكَثْرَةُ الْمَرْحِ وَفَتْحُ الْعِدَاوَاتِ

المسرة بوقوع العداة بين أعدائك

في كيلة ودمنة : من حق العاقل أن يرى معاداة بعض عدوه لبعض ظفراً حسناً ، ففي اشتغال بعضهم ببعض خلاصه منهم .

دنيء يعاديك بلا سبب

قال المتنبي :

وَأَتَعِبُ مَنْ نَادَاكَ مَنْ لَا تَجِيهُهُ وَأَغِيظُ مَنْ عَادَاكَ مَنْ لَا تُشَاكِلُهُ
 يقول : أتعب من ناداك من ناداك فلم تجبه ، لأنك لا تشفيه بالجواب ،
 فيجهد في النداء ، كما أن أغيط الأعداء لك من عاداك وهو دونك ، لأنك
 تترفع عن معارضته فلا تشتفي منه ،
 وقال شاعر :

يَسْطُو بِلَا سَبَبٍ وَتِلْكَ طَبِيعَةُ الْكَبَابِ الْعَقُورِ

تأسف من يعاديه لئيم أو دنيء

قال المتنبي في عذر من يخاصم دينياً ويدافعه :

إِذَا آتَتْكَ الْإِسَاءَةُ مِنْ لَيْمٍ وَلَمْ أَلَمْ الْمَسِيءَ فَمَنْ أَلُومُ

وقال علي بن الجهم في تأسف من يعاديه لئيم :

بَلَاءٌ لَيْسَ يُشْبِهُهُ بَلَاءٌ عِدَاوَةٌ غَيْرُ ذِي حَسَبٍ وَدِينٍ

يُذِيحُكَ مِنْهُ عَرَضًا لَمْ يُضِنِّهِ وَيَرْتَعِ مِنْكَ فِي عَرِضٍ مَصُونٍ

ويحكى : أن خنزيراً بدت إلى الأسد وقال : قاتلني ، فقال الأسد :

أَسْتَ بِكَفِّي ، وَإِن أَنَا قَتَلْتُكَ لَمْ يَكُن لِي ذَلِكَ شُغْرًا ، وَإِن قَتَلْتَنِي لِحَقِّي عَارٌ عَظِيمٌ ، فَقَالَ الْخَنزِيرُ : لِأَخْبَرَنَّ السَّبَاعَ بِبُكُوكِ ، فَقَالَ الْأَسَدُ : اِحْتِمَالُ الْعَارِ فِي ذَلِكَ أَيْسَرُ مِنَ التَّلَطُّحِ بِدَمِكَ .

حشهم على العداوة بالقول لا بالفعل

قالوا : غَضِبُ الْجَاهِلِ فِي قَوْلِهِ ، وَغَضِبُ الْعَاقِلِ فِي فِعْلِهِ

وقالوا : « وَنَشْتُمُ بِالْأَفْعَالِ لَا بِالتَّكْلِمْ » وقد تقدم

طائفة من عقرياتهم

في الناس وما جُبِلَ عَلَيْهِ السَّوَادُ الْأَعْظَمُ مِنَ الْحَقْدِ وَالْحَسَدِ

وَسُوءِ الظَّنِّ وَالشَّمَاتَةِ وَمَا جَرَى هَذَا الْمَجْرَى

ولمناسبة عقرياتهم في العداوات نورد عليك هاهنا صدرًا من عقرياتهم

في النَّاسِ وَمَا جُبِلَ عَلَيْهِ السَّوَادُ الْأَعْظَمُ مِنَ الْحَقْدِ وَالْحَسَدِ وَسُوءِ الظَّنِّ وَالشَّمَاتَةِ وَالْمُزَاحِ وَمَا جَرَى هَذَا الْمَجْرَى

الناس

لا يزال الناس بخير ما تباينوا

من أروع ما قيل في النَّاسِ وَحِكْمَةُ تَبَايُنِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « لَا يَزَالُ النَّاسُ بِخَيْرٍ مَا تَبَايَنُوا ؛ فَإِذَا تَسَاوَوْا هَلَكُوا » ، قَالَ ابْنُ الْأَثِيرِ فِي الْهَيْبَةِ مَعْنَاهُ : أَنَّهُمْ إِنَّمَا يَتَسَاوَوْنَ إِذَا دَرَضُوا بِالنَّقْصِ وَرَكُوا التَّنَافُسَ فِي طَلَبِ الْفَضَائِلِ وَدَرَكِ الْمَعَالِي ، وَقَدْ يَكُونُ ذَلِكَ خَاصًا فِي الْجَهْلِ ، وَذَلِكَ أَنَّ النَّاسَ لَا يَتَسَاوَوْنَ فِي الْعِلْمِ وَإِنَّمَا يَتَسَاوَوْنَ إِذَا كَانُوا كُلُّهُمْ جُهَالًا ، وَقِيلَ :

أراد بالتساوي التحزب والتفرق وأن لا يجتمعوا على إمام ويدعى كل واحد الحق لنفسه فينفرد برأيه . . . وقال أبو عبيد : أَحْسَبُ قَوْلَهُ : فإذا تساؤوا هلكوا ، لأن الغالب على الناس الشر ، وإنما يكون الخير في النادر من الرجال ، لعزته ، فإذا كان التساوي فإنما هو في السوء . . . » وقال شاعر :

النَّاسُ أَخْيَافٌ وَشَتَّى فِي الشَّيْمِ وَكُلُّهُمْ بِجَمْعِهِمْ بَيْتُ الْآدَمِ

« أخياف : ضروبٌ مختلفة الأخلاق والأشكال . والآدم . قيل : أراد آدم ، وقيل الأرض ، ولعله يشير بهذا إلى ما جاء في الأثر : كلكم لآدم وآدم من تراب ؛ وقال مسلم بن الوليد :

النَّاسُ كُلُّهُمْ لِيَضْنٍ وَاحِدٍ ثُمَّ اخْتَلَفَ طَبَائِعُ فِي أَنْفُسِ

« الضنء : الأصل » وقالوا : الناس في اختلافهم في خلقهم كاختلافهم في خلقهم . وقال خالد بن صفوان : الناس أخياف ، منهم من هو كالكلب ، لا تراه الدهر إلا هرايرا على الناس ، ومنهم كالخنزير ، لا تراه الدهر إلا قذراً ، ومنهم كالقرود ، يضحك من نفسه . وقال بعضهم : الناس أخياف : علق مَضْنَةٌ لا يُبَاعُ ، وعلق مَضْنَةٌ لا يُبْتَاعُ ، وقال أبو العتاهية :

مَنْ لَكَ بِالْمَحْضِ وَليْسَ مَحْضٌ يَخْبَثُ بَعْضٌ وَيَطِيبُ بَعْضٌ

« وقد بما قلت فيما قلت ، في كتابي «الفردوس» : ولم لا يكون هذا الاختلاف

في الحياة الدنيا بين الأفراد والجماعات إنما يُقصدُ به إلى معنى جميل مأمونه بدأ السنأ قد نُشئنا كأنغام آلات الموسيقى ، هي وإن اختلفت غير أن اجتماعها يُؤلف من هذا الاختلاف نغما موسيقياً متجانساً بديعاً يُطرب السمع ويملك على المرء مشاعره . ولعل الأصل في هذا كله قوله عز وجل : قُلْ كَلِمًا يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ قَرَّبَكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا . . . وقوله :

ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ...

وجدت الناس أخبر ثقله

ومن أبداع ما قيل في ذمّ الناس ما جاء في حديث أبي الدرداء: وجدتُ الناسَ أَخْبَرَ ثَقَلِهِ .. قال ابن الأثير في النهاية: القَلْبُ: البغض، يقال: قَلَاهُ يُقْلِيهِ قَلْيًا وَقَلْيًا: إذا أَبْغَضَهُ، قال الجوهري: إذا فُتِحَتْ مَدَدَتْ، ويقال: لغة طَيِّبٌ. يقول جَرَّبِ النَّاسِ فَإِنَّكَ إِذَا جَرَّبْتَهُمْ قَلَيْتَهُمْ وَتَرَكْتَهُمْ، لما يظهر لك من بواطن سرّاتهم. لَفْظُهُ أَنْظَ الْأُتْرُ وَمَعْنَاهُ الْخَبْرُ، أَي مِنْ جَرَّبْتَهُمْ أَبْغَضْتَهُمْ وَتَرَكْتَهُمْ: وَالْهَاءُ فِي ثَقَلِهِ: لِلسَّكْتِ. وَمَعْنَى نَظَمِ الْحَدِيثِ: وَجَدْتُ النَّاسَ مَقُولًا فِيهِمْ هَذَا الْقَوْلَ.

الناس كإبل مائة لا تجد فيها راحلة

وجاء في الحديث الشريف: النَّاسُ كِإِبِلٍ مِائَةٍ لَا تَجِدُ فِيهَا رَاحِلَةً
يعنى أَنَّ الْمَرِضِيَّ الْمُنْتَخَبَ مِنَ النَّاسِ فِي عِزَّةٍ وَجُودَةٍ كَالنَّجِيبِ مِنَ الْإِبِلِ الْقَوِيَّ عَلَى الْأَحْمَالِ وَالْأَسْفَارِ الَّذِي لَا يَوْجَدُ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْإِبِلِ. وَقَالَ الْإِمَامُ الْأَزْهَرِيُّ: الَّذِي عِنْدِي فِي هَذَا الْحَدِيثِ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى ذَمَّ الدُّنْيَا وَحَذَرَ الْعِبَادَ سُوءَ مَغْبَتِهَا وَضَرَبَ لَهَا فِي الْأَمْثَالِ لِيَتَعْتَبَرُوا، وَيَحْذَرُوا، وَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَحْذَرُهُمْ كَمَا حَذَرَهُمُ اللَّهُ، فَرَغِبَ بَعْضُ أَصْحَابِهِ بَعْدَهُ فِيهَا وَتَنَافَسُوا عَلَيْهَا حَتَّى كَانَ الزُّهْدُ فِي النَّادِرِ الْقَلِيلِ مِنْهُمْ فَقَالَ: تَجِدُونَ النَّاسَ بَعْدِي كِإِبِلٍ مِائَةٍ لَيْسَ فِيهَا رَاحِلَةٌ، أَي أَنَّ الْكَامِلَ فِي الزُّهْدِ فِي الدُّنْيَا وَالرَّغْبَةِ فِي الْآخِرَةِ قَلِيلٌ كَقِلَّةِ الرَّاحِلَةِ فِي الْإِبِلِ، وَالرَّاحِلَةُ هِيَ

البعيرُ القوي على الأسفار والأحمال ، النجيبُ النَّامُ الخلقُ الحَسَنُ المنظرُ ، ويقعُ
على الذَكَرِ والآثي ، والهَاءُ فِيهِ لِلْبَالِغَةِ ،

وقال الشاعر :

الناسِ بِمِثْلِ بُبُوتِ الشَّعْرِ كَمِ رَجُلٍ مِنْهُمْ بِالْفِ كَمِ بَيْتِ بَدِيوَانِ
وفِي هَذَا الْمَعْنَى يَقُولُ الْمَعْرَى :
الناسِ كَالشَّعْرِ تُتَلْنَى الْأَرْضُ جَائِثَةً بِالْجَمْعِ يُزَجِّي وَخَيْرٌ مِنْهُمْ رَجُلٌ

لو تكاشفتم ما تدافتم

ومن كلمة لسيدنا رسول الله صلوات الله عليه : لو تكاشفتم ما تدافتم .
يقول : لو علم بعضهم سريرة بعض لاسْتَنَقَلَ تَشْيِيعَهُ وَدَفَنَهُ . . . ولعل
أبا العتاهية قد أخذ من هذا الحديث قوله :

وفي الناس شر لو بدأ ما تعاشرُوا ولكن كساهُ اللهُ ثوبَ غِطاء

وقالوا في ذم الناس :

عَوَى الذَّبُّ فَاسْتَأْنَسْتُ بِالذَّبِّ إِذْ عَوَى

وَصَوَّتَ إِنْسَانٌ فَكَدَّتْ أَطِيرُ

وقال المعرَى :

يَحْسُنُ مَرَأَى لِبْنِي آدِمٍ وَكُلُّهُمْ فِي الذَّوْقِ لَا يَنْدُبُ
مَا فِيهِمْ بَرٌّ وَلَا نَاسِكٌ إِلَّا إِلَى نَفْعٍ لَهُ يَجْذِبُ
أَفْضَلُ مِنْ أَفْضَلِهِمْ صَخْرَةٌ لَا تَظْلِمُ النَّاسَ وَلَا تَكْذِبُ

وقال محمد بن يسير :

سَوَاءٌ لِلنَّاسِ كُلِّهِمْ أَنَا فِي هَذَا مِنْ أَوْلِهِمْ
لَسْتُ تَدْرِي حِينَ تَنْسَبُهُمْ أَيْنَ أَذْنَابِهِمْ مِنْ أَفْضَلِهِمْ

وقال بعضهم : كنتُ عند الحسن البصريِّ ، فقال : أَسْمَعُ حَسِيْسًا ، وَلَا أَرَى أَنِيْسًا ، صَبِيَانٌ حَيَارَى ، مَا لِهْمُ تَفَاوَدُوا عَقُولَهُمْ ، وَفَرَّشُ نَارٍ ، وَذِبَابٌ طَمَعٌ . وَقِيلَ لِسَفِيَانَ الثَّوْرِيَّ : دُلَّنَا عَلَى رَجُلٍ نَجْلِسُ إِلَيْهِ ، فَقَالَ : تِلْكَ ضَالَّةٌ لَا تَوْجِدُ . . . وَقَالَ فُلَانٌ : رَأَيْتُ كَلْثُومَ بْنَ عَمْرٍو الْعَتَابِيَّ يَأْكُلُ حُبْزًا فِي الطَّرِيقِ ، فَقُلْتُ لَهُ أَمَا تَسْتَحْيُ أَنْ تَأْكُلَ بِحَضْرَةِ النَّاسِ ؟ فَقَالَ : أَرَأَيْتَ لَوْ كُنْتُ فِي دَارٍ فِيهَا بَقْرٌ ، أَمَا كُنْتُ تَأْكُلُ بِحَضْرَتِهِمْ ؟ قُلْتُ : نَعَمْ ، قَالَ : فَهَؤُلَاءِ بَقْرًا ثُمَّ قَالَ : إِنْ شُدَّتْ أُرْيُوكَ دَلَالَةً عَلَى ذَلِكَ ، ثُمَّ قَامَ وَوَعِظَ ، وَجَمَعَ تَوْمًا ثُمَّ قَالَ : رُوِيَ عَنِ غَيْرِ وَجْهِ : أَنْ مَنْ بَلَغَ لِسَانَهُ أَرْتَبَةً أَنْفَهُ أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ ، فَلَمْ يَبْقَ أَحَدٌ إِلَّا أَخْرَجَ لِسَانَهُ يَنْظُرُ هَلْ يَبْلُغُ !

وقال رجل لأحد الشعراء : أَيْنَ سِكَّةُ الْخَيْرِ ؟ فَقَالَ : اسْلُكْ أَيَّ سِكَّةٍ شُدَّتْ فَكُلَّتْهَا دَرُوبُ الْخَيْرِ . . . وَمِثْلُ هَذَا مِنَ النَّوَادِرِ الْمُسْتَرْقَةِ . . .

وقال بعضهم : النَّاسُ أَرْبَعَةٌ أَصْنَافٌ : آسَادٌ ، وَذَنَابٌ ، وَثَعَالِبٌ ، وَضَانٌ ، فَأَمَّا الْآسَادُ فَالْمُلُوكُ - وَهِيَ إِلَيْهِمْ مِنَ الْحُكْمِ الْمُسْتَبْدِينَ - وَأَمَّا الذَّنَابُ فَالتَّجَارُ ، وَأَمَّا الثَّعَالِبُ فَالْقُرَّاءُ الْخَادِعُونَ ^(١) . وَأَمَّا الضَّانُ فَالْمُؤْمِنُ - يَرِيدُ الطَّيِّبَ الْكَرِيمَ - يَنْهَشُهُ كُلُّ مَنْ يَرَاهُ . وَقَالَ كَثِيرٌ عَزَّةً :

سَوَاسٍ كَأَسْنَانِ الْخِمَارِ فَمَا تَرَى لِيذِي شَيْبَةٍ مِنْهُمْ عَلَى نَائِيٍّ فَضْلًا

(١) لعل المراد بالقراء : النساك . وقد جاء في الحديث : أكثر منافع أمتي قراؤها قال ابن الأثير في النهاية . أي أنهم يحفظون القرآن نفيًا للنعمة عن أنفسهم وهم معتقدون تضييعه وكان المنافقون في عصر النبي صلى الله عليه وسلم هذه الصفة

«يقال هُم سَوَاسِيَةٌ وَسَوَاسٌ وَسَوَاسِيَةٌ : إِذَا اسْتَوَوْا فِي اللُّؤْمِ وَالْحَسَّةِ وَالشَّرِّ، وَقَالَ آخَرُ :

شِبَابُهُمْ وَشِدِيهِمْ سَوَاءٌ سَوَاسِيَةٌ كَأَسْنَانِ الْحِمَارِ
«وَأَسْنَانِ الْحِمَارِ مَسْتَوِيَةٌ»

وقال طرفة بن العبد :

كَلَّ خَيْمِلٌ كُنْتُ خَالَتُهُ لَا تَرَكَ اللهُ لَهُ وَاضِحَةً^(١)
كَلِمَ أَرْوَعٌ مِنْ ثَعْلَبٍ مَا أَشْبَهَ اللَّيْلَةَ بِالْبَارِحَةِ
وقال المتنبى :

وَلَمَّا صَارَ وَدَّ النَّاسِ خِبَا جَزَيْتُ عَلَى ابْتِسَامِ بَابِتْسَامِ
وَصِرْتُ أَشْكَ فِيمَنْ أَصْطَفِيهِ لِعَلَى أَنَّهُ بَعْضُ الْأَنَامِ
وقال ابن الرومي :

إِعْلَمْ بِأَنَّ النَّاسَ مِنْ طِينَةٍ يَصْدُقُ فِي الثُّبِّ لَهَا الثَّابِ^(٢)
وَلَا عِلَاجَ النَّاسِ أَخْلَاقَهُمْ إِذْنُ لَفَاحِ الْحَمَا اللَّازِبِ^(٣)
وقال المتنبى :

أَذْمُ إِلَى هَذَا الزَّمَانِ أَهْيَلُهُ وَأَعْلَهُمْ قَدَمٌ وَأَحْزَمُهُمْ وَغَدُ
وقال :

إِنَّمَا أَنْفُسُ الْأَنْبِيَاءِ سِبَاعٌ يَتَفَارَسُنَ جَهْرَةً وَاجْتِيَالًا
مَنْ أَطَاقَ النَّاسَ شَيْءٌ غِلَابًا وَاجْتِصَابًا لَمْ يَلْتَمِسْهُ سُؤَالًا
كُلُّ غَادٍ لِحَاجَةٍ يَتَمَنَّى أَنْ يَكُونَ الْغَضْبُفَرَّ الرَّبَالَا

(١) الواضحة : الأسنان التي تبدو عند الضحك . (٢) الثب : العيب

(٣) الحما : الطين الأسود المذنب ، واللازب . الذي يلزق ويصلب

وقال :

إننا لفي زمن ترك القبيح به من أكثر الناس إحساناً وإجمالاً
لولا المشقة ساد الناس كلهم الجود يُفقر والإقدام قتال

وقالوا في أن من شيم الناس أن تحمد من رشده وتلوم من يعوى
وفي ذلك يقول القطامي :

والناس من يلق خيراً قائلون له ما يشتهي ولأم المخطئ الهبل^(١)

وقد أخذ من قول المرتش الأصغر :

ومن يلق خيراً يحمد الناس أمره ومن يعر لا يعدم على النى لا بما
وهذا كعمري من عناوين اللوم المركب في الطباع.

وقالوا في انتكاس الأحوال وارتفاع السفلة الأندال والقائل : خدش

بن زهير - شاعر جاهلي من شعراء قيس - وهو ابن عم لبيد :

فإنك لا تبالي بعد حول أظبي كان أمك أم حمار

فقد لحق الأسافل بالأعلى وماج اللوم واختلط النجار

وعاد الفند مثل أبي قبيس وسبق مع المعلةجة العشار

« النجار : الأصل . والفند : قطعة من الجبل طولاً ، وأبو قبيس جبل

بمكة ، والمراد به : الرجل الشريف ، كما يراد بالفند ، الرجل الوضيع ، والمعلةجة :

المرأة اللثيمة الأصل الفاسدة النسب . والعشار : جمع العشاء : الناقة مضى

لحلمها عشرة أشهر ؛ يقول هذا الشاعر : أما وقد لحق الأسافل بالأعلى

واختلطت الأصول وماج أمر الناس واضطرب وعظم شأن اللوم ونفقت

(١) الهبل : الثكل - الفقد -

سُوقُهُ وَعَادَ الْحَسِيدِ مِثْلَ الشَّرِيفِ حَتَّى سِيدَتْ الْإِبِلَ الْحَوَامِلَ فِي مَهْرِ الْاِثْمَةِ
 وَتَغْيِرَ بِذَلِكَ الزَّمَانَ وَاطْرَحَتْ مِرَاعَاةَ الْأَنْسَابِ فَلَا نَبَالِي بَعْدَ قِيَامِكَ بِنَفْسِكَ
 وَاسْتِغْنَاكَ عَنِ أَبِيكَ ، مَنْ اِنْتَسَبَ إِلَيْهِ ، شَرِيفًا كَانَ أَمْ وَضِيعًا ... وَضَرَبَ
 الْمَثَلَ بِالظُّبِيِّ وَالْحِمَارِ وَجَعَلَهُمَا أَمِينَيْنِ وَهِيَ ذِكْرَانِ لِأَنَّهُ مِثْلُ لِحَقِيقَةِ ، وَقَصِدُ
 قَصْدِ الْجَنَسِيِّنِ وَلَمْ يَحْقُقْ أَبُوهُ . وَذَكَرَ الْحَوْلَ ، لِذِكْرِ الظُّبِيِّ وَالْحِمَارِ ، لِأَنَّهُمَا
 يَسْتِغْنِيَانِ بَأَنْفُسِهِمَا بَعْدَ الْحَوْلِ ؛ فَهَذَا شَاعِرٌ سَاخِطٌ كَمَا تَرَى ،

وقال ابن الرومي :

دَهْرٌ عَلَا قَدْرُ الْوَضِيعِ بِهِ وَهُوَ الشَّرِيفُ يَحْطُهُ شَرَفُهُ
 كَالْبَحْرِ يَرْسُبُ فِيهِ أَوْلُوهُ سَفَلًا وَتَطْفُو فَوْقَهُ جِيفُهُ

وقال :

رَأَيْتُ الدَّهْرَ يَرْفَعُ كُلَّ وَغْدٍ وَيَخْفِضُ كُلَّ ذِي شَيْمٍ شَرِيفَةٍ
 كَمِثْلِ الْبَحْرِ يَغْرَقُ فِيهِ حَتَّى وَلَا يَنْفَكُ تَطْفُو فِيهِ جِيفَةٌ
 أَوْ الْمِيزَانَ يَخْفِضُ كُلَّ وَافٍ وَيَرْفَعُ كُلَّ ذِي زِنَةٍ خَفِيفَةٍ

وقال الوزير المغربي :

إِذَا مَا الْأُمُورُ اضْطَرَبْنَ اعْتَلَى سَفِينُهُ بُضَامُ الْعُلَى بِاعْتِلَاتِهِ
 كَذَا الْمَاءَ إِنْ حَرَّ كُنْتَهُ يَدُّ طَفَا عَكِرٌ رَاسِبٌ فِي إِنْائِهِ

وقال المعري في الناس :

لَقَدْ قَدَّمْتُ عَنْ أَصْحَابِ دِينٍ لَهُمْ نُسْكٌ وَلَيْسَ لَهُمْ رِبَاءُ
 فَأَلْفَيْتُ الْبَهَائِمَ لَا عُقُولَ تُقِيمُ لَهَا اللَّيْلَ وَلَا ضِيَاءُ
 وَإِخْوَانَ الْفَطَانَةِ فِي اخْتِيَالٍ كَأَنَّهُمْ لِقَوْمِ أَنْبِيَاءُ
 فَأَمَّا دَوْلَاءُ فَأَهْلُ مَكْرٍ وَأَمَّا الْأَوْلُونَ فَأَغْيَاءُ

فإن كان الثَّقِي بَلَمَّا وَعِيًّا فَأَعْيَارُ الْمَذَلَّةِ أَتَقِيَاءُ
 « الأعيار : جمع عَيْر ، وهو الحمار يضرب به المثل في الذل قال المتلمس :
 ولا يقيم على ضَمِيمٍ أَلَمَّ بِهِ إِلَّا الْأَذْلَانَ عَيْرُ الْحَيِّ وَالْوَتِدُ
 فذَاكَ يُخَسِّفُ مَرْبُوطًا بِمَقْوَدِهِ وَذَا يُشْجِحُ وَلَا يَرِثِي لَهُ أَحَدٌ
 وقال :

بَنِي الدَّهْرِ مَهْلًا إِنْ ذَمْتُ فِعَالِكُمْ
 مَتَى يَتَقَضَى الْوَقْتُ وَاللَّهُ قَادِرٌ
 تَجَاوَرَ هَذَا الْجِسْمُ وَالرُّوحُ بُرْهَةً
 فإني بنفسى لا تحالة أبدأ
 فَنَسْكُنُ فِي هَذَا التُّرَابِ وَنَهْدًا
 فَمَا بَرَحَتْ تَأْذَى بِذَاكَ وَتَصْدَأُ
 وقال المعري :

جَرَبْتُ دَهْرِي وَأَهْلِيهِ فَمَا تَرَكَتُ
 لِي التَّجَارِبُ فِي وَدَّامِرِي غَرَضًا
 وقال :

أُولُو الْفَضْلِ فِي أَوْطَانِهِمْ غُرَبَاءُ
 تَوَاصَلَ حَبْلُ النَّسْلِ مَا بَيْنَ آدَمٍ
 تَنَاءَبَ عَمْرُو إِذْ تَنَاءَبَ خَالِدٌ
 وَزَهْدَنِي فِي الْخَلْقِ مَعْرِفَتِي بِهِمْ
 تَشِدُّ وَتَنَائِي عَنْهُمْ الْقُرَبَاءُ
 وَيُنِي وَلَمْ يُوَصَّلْ بِبِلَائِي بَاءُ
 يَعْذَوِي فَمَا أَعْدَتْنِي الثُّوبَاءُ
 وَعَلَيَّ بَأَنَّ الْعَالَمِينَ هَبَاءُ
 وقال المعري :

أَرَأَيْتِكَ فَلْيَغْفِرْ لِي اللَّهُ زَلَّتِي
 وَقَدْ يُخَافُ الْإِنْسَانُ ظَنَّ عَشِيرِهِ
 إِذَا قَوْمُنَا لَمْ يَعْْبُدُوا اللَّهَ وَحَدَّهُ
 بِذَاكَ وَدِينُ الْعَالَمِينَ رِثَاءُ
 وَإِنْ رَاقَ مِنْهُ مَنَظَرٌ وَرُؤَاؤُ
 بِنُصْحِ فَإِنَّا مِنْهُمْ بُرُؤَاؤُ
 وقال :

إِذَا بَكَرُ جَنَى فَتَوَقَّ عَمْرًا
 فَإِنَّ كَلَيْهِمَا لَابٌ وَأَمَّ

وفي كلِّ الطباعِ طباعٌ نَكَزٍ وليس جميعهنَّ ذواتِ سُمِّ
« النكز : تسع الحية »

رَأَيْتُ الْحَقَّ لَوْلَا تَوَارَتْ بِأَجٍّ مِنْ ضَلَالِ النَّاسِ جَمِّ

وقال :

رِيَاءُ بَنِي حَوَاءَ فِي الطَّبَعِ ثَابِتٌ فَنَهُمُ مُجِسِدٌ فِي النِّفَاقِ وَهَازِلٌ
سَخَوَالِيْقُولِ النَّاسِ جَادُوا وَأَقْدَمُوا لِيَذْكَرَ فِي الْهَيْجَاءِ قَرْنَ مُنَازِلُ

وقال :

النَّاسُ مِثْلُ الْمَاءِ تَضْرِبُهُ الصَّبَا فَيَكُونُ مِنْهُ تَفَرُّقٌ وَتَأَلُّفٌ

وَالْحَيْرُ يَفْعَلُهُ الْكَرِيمُ بِطَبِيعِهِ وَإِذَا اللَّيْمُ سَخَا فَذَلِكَ تَكَلُّفٌ

شَكَوَتْ مِنْ أَهْلِ هَذَا الْعَصْرِ عَدْرَهُمْ

لَا تُنْكَرِينَ فَعَلَى هَذَا مَضَى السَّافُ

وَقَلَّمَا تَسْكُنُ الْأَضْغَانُ فِي خَدِّدٍ إِلَّا فِي وَجْهِ مَنْ يَسْعَى بِهَا كَلْفٌ

أَمْسَى النِّفَاقُ دُرُوعًا يُسْتَجَنُّ بِهَا مِنَ الْأَذَى وَيُقَوَّى بِمَرَدَّهَا الْخَلْفُ

« الخلف : اليمين »

حَسَّنَ الْوَعْدَ بِالْإِنْجَازِ تَبِعَهُ إِذَا مَوَاعِدُ قَوْمِ شَانَهَا الْخُلْفُ

وقال :

إِذَا فَرَعْنَا فَإِنَّ الْأَمْنَ غَايَتُنَا وَإِنْ أَمِنًا فَمَا نَخْلُو مِنَ الْفَرَعِ

وَشِيْمَةُ الْإِنْسِ مِمَزُوجُهَا مَلَلٌ فَمَا تَدُومُ عَلَى صَبْرٍ وَلَا جَزَعِ

وقال :

إِذَا مَا أَسَنَّ الشَّيْخُ أَقْصَاهُ أَهْلُهُ وَجَارَ عَلَيْهِ النَّجْلُ وَالْعَبْدُ وَالْغِرْسُ

« العرس : الزوجة »

يُسَبِّحُ كَيْمًا يَغْفِرَ اللَّهُ ذَنْبَهُ رُوِيَكَ فِي عَهْدِ الصَّبَا مُلِي الطَّرْسُ

وقال :

أَهْرُبُ مِنَ النَّاسِ فَإِنْ جِئْتَهُمْ فَمِلَ سَابِ جَرَّهَ السَّاحِبُ (١)

يَذْتَفِعُ النَّاسُ بِمَا عِنْدَهُ وَهُوَ لَقِيَ بَيْنَهُمْ شَا حِبُ (٢)

وقال :

إِنْ مَارَتْ النَّاسَ أَخْلَاقٌ يُعَاشُ بِهَا فَإِنَّهُمْ عِنْدَ سُوءِ الطَّبَعِ أَسْوَأُ

أَوْ كَانَ كُلُّ بَنِي حَوَاءَ يُشْبِهُنِي فَبَيْسَ مَا وَلَدَتْ فِي الْخَلْقِ حَوَاءُ

بُعْدِي مِنَ النَّاسِ بُرُهُ مِنْ سَقَامِهِمْ وَقَرُّهُمْ لِلْحَجَى وَالذِّينِ أَدْوَاهُ

كَالْبَيْتِ أُرْدَدَ لَا إِطَاءَ يُدْرِكُهُ وَلَا سِنَادَ وَلَا فِي الْاَلْفِظِ إِقْوَاهُ (٣)

وقال :

قَدْ حُجِبَ الثُّورُ وَالضِّيَاءُ وَإِنَّمَا دِينُنَا رِيَاءُ

يَا عَالَمَ السُّوءِ مَا عَلِمْنَا أَنْ مُصَلِّكَ اتَّقِيَاءُ

كَمْ وَعَظَّ الوَاعِظُونَ مِنَّا وَقَامَ فِي الْأَرْضِ أَنْبِيَاءُ

فَانصَرَفُوا وَالبَلَاءُ بَاقٍ وَلَمْ يَزُلْ دَاوُكُ الْعِيَاءُ

« زال يزول : راح وذهب ؛ والعياء : الذي لا يبرأ منه »

حُكْمٌ جَرَى لِلْمَلِكِ فِينَا وَنَحْنُ فِي الْأَصْلِ أُغْيَاءُ

(١) السَّابُ : زق الخمر

(٢) اللقي : الملقى على الأرض ، والشاحب : المهزول المتغير اللون لعارض كمرض ونحوه

(٣) الايطاء : تكرر القافية بلفظها ومعناها ، والاقواء : اختلاف إعراب القوافي ،

والسناد أنواع وهو كل عيب يحدث قبل الروي كارداف قافية وتجريد أخرى

وهذه من عيوب القافية

وقال :

مُلَّ المَقَامُ فمِمْ أَعَاثِرُ أُمَّةً أَمَرَتْ بِغَيْرِ صِلَاحِهَا أَمْرَاؤُهَا
ظَلَمُوا الرَّعِيَّةَ وَاسْتَجَازُوا كَيْدَهَا فَعَدَّوْا مَصَالِحَهَا وَهُمْ أَجْرَاؤُهَا
وقال بشار بن برد :

خَيْرُ إِخْوَانِكَ المِشَارِكُ فِي المِسرِّ وَأَيْنَ المِشَارِكُ فِي المِرِّ أَيْنَا
الَّذِي إِنْ شَهِدْتَ سَرَّكَ فِي الحِمْسِيِّ وَإِنْ غَبْتَ كَانَ أُذُنًا وَعَيْنَا
مِثْلُ سِرِّ اليَاقوتِ إِنْ مَسَّهُ النَّارُ جَلَاهُ البِئْسَاءُ فَازدادَ رَيْنَا
أَنْتَ فِي مَعَشِرٍ إِذَا غَبْتَ عَنْهُمْ بَدَلُوا كُلَّ مَا يَزِينُكَ شَيْنَا
وَإِذَا مَا رَأَوْكَ قَالُوا جَمِيعَا أَنْتَ مِنْ أَكْرَمِ البَرَايَا عَلَيْنَا
مَا أَرَى لِلْأَنْامِ وُودًا صَحِيحَا عَادَ كُلُّ الوِدَادِ زُورًا وَمَيْنَا
وقال ابن الرومي :

ذُوقْتُ الطُّعُومَ فَمَا التَّدَذُّتُ بِرَاحَةٍ مِنْ مُحِبَّةِ الأَخْيَارِ وَالأَشْرَارِ
أَمَّا الصِّدِيقُ فَلَا أَحَبُّ لِنَفْسَاءَ حَذَرَ القَلْبِ وَكَرَاهَةَ الإِعْوَارِ
وَأَرَى العَدُوَّ قَدَى فَأَكْرَهُ قُرْبَهُ فَهَجَرْتُ هَذَا الحَلِيقَ عَنِ إِعْذَارِ
أَرِنِي صَدِيقًا لَا يَنْوِي إِسْقَاطَةَ مِنْ عَيْنِهِ فِي قَدَرٍ صَدْرِ نَهَارِ
أَرِنِي الَّذِي عَاشَرْتَهُ فَوَجَدْتَهُ مُتَغَاضِيًا لَكَ عَنِ أَقْلٍ عِشَارِ
أَحِبُّ قَوْمًا لَمْ يُحِبُّوا رَبَّهُمْ إِلَّا لِغَيْرِ دَوَسٍ لَدَيْهِ وَنَارِ

وقال :

عَدُوُّكَ مِنْ صَدِيقِكَ مُسْتَفَادٌ فَلَا تَسْتَكْبِرَنَّ مِنَ الصَّحَابِ
فَإِنَّ الدَّاءَ أَكْثَرَ مَا تَرَاهُ يَحُولُ مِنَ الطَّعَامِ أَوْ الشَّرَابِ
إِذَا انْقَلَبَ الصِّدِيقُ غَدًا عَدُوًّا مُبِينًا وَالأُمُورُ إِلَى انْقِلَابِ

ولو كان الكثير يُطيب كانت صاحبة الكثير من الصواب
وما اللبّيجُ الملاحُ بمُرّيات وتلقَى الرّىّ في النّظفِ العذابِ
وبعد فإن هذا الباب مُتّسعٌ جداً، وسيمر عليك كثير من عقوباتهم فيه في باب
الإخوانيات وباب الطبائع، فلنّهجرتي بهذا المقدار.

الغوغاء

ولهم في السُّقّاطِ والسّفلةِ وهذه الرّجّة من الناس كلام كثير، فن ذلك قول
واصل ابن عطاء: أَلَا قَاتَلَ اللهُ هَذِهِ السّفلةَ، تُؤَادِنُ حَادَّ اللهِ وَنَبِيّه، وَتُحَادُّ مَنْ
وَادَّ اللهُ وَنَبِيّه، وَتَذُمُّ مَنْ مَدَحَهُ اللهُ، وَتَمْدُحُ مَنْ ذَمَّهُ اللهُ، عَلَيَّ أَنْ يَبْهَمَ
عُلَمَاءُ الْفَضْلِ لِأَهْلِ الطّبقةِ العالِيَةِ، وَبِهِمْ أُعْطِيَتِ الأوساطُ حَقّاً مِنَ الثُّبُلِ...
ومنه قول سيدنا علي رضي الله عنه. وقد أتى بجنان ومعه غوغاء —
فقال: لا ترحباً بوجوه لا تُرى إلا عند كلّ سَؤِةٍ... وقوله رضي الله عنه:
هم الذين إذا اجتمعوا ضُروا وإذا تفرقوا نَفَعُوا؛ فقليل له: قد عَلِمْنَا مَصْرَةَ
اجتماعهم فما منفعةُ اتّراقتهم؟ فقال: يَرجِعُ أصحابُ المِهْنِ إلى مِهْنِهِمْ، فينتفعُ
الناسُ بهم، كرجوع البناء إلى بنائه، والنساج إلى منسجِه، والحَبَّاز
إلى مَخْبِزِه.

وكان الحسن البصري إذا ذكر الغوغاء والسُّوق يقول: قَتَلَةُ الأنبياءِ،
وكانوا يقولون: العامّة كالبحر إذا هاج أهلك رآك، وكان المأمون الخليفة
العباسي يقول: كُلُّ شَرٍّ وظلم في العالم فهو صادرٌ عن العامّة والغوغاء؛ لأنهم
قتلة الأنبياء، والشّعة بين العلماء، والنّمامون بين الأوداء، ومنهم اللصوص

وَقَطَّاعِ الطَّرِيقِ وَالطَّرَّارُونَ وَالْمُحْتَالُونَ وَالسَّاعُونَ إِلَى السَّاطَانِ ، فَإِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حُشِرُوا عَلَى عَادَتِهِمْ فِي السَّعَايَةِ ، فَقَالُوا : رَبَّنَا أَطْعَمْنَا سَادَتَنَا وَكِبْرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَ ، رَبَّنَا وَأَاتَهُمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا... وَقَالَ الْجَاهِظُ : الْغَاغَةُ وَالْبَاغَةُ ^(١) وَالْحَاكَةُ كَأَنَّهُمْ إِعْذَارُ ^(٢) عَامٍ وَاحِدٍ ، أَلَا تَرَى أَنَّكَ لَا تَجِدُ أَبَدًا فِي كُلِّ بَلَدَةٍ ، وَفِي كُلِّ عَصْرِ ، هَوْلًا ، إِلَّا بِمَقْدَارٍ وَاحِدٍ وَجِهَةٌ وَاحِدَةٌ ، مِنَ السَّخْفِ وَالنَّقْضِ وَالخَوْلِ وَالغِبَاوَةِ .

وَمِنْ كَلِمَةِ أَسِيدِنَا عَلَى فِي فَضْلِ الْعِلْمِ عَلَى الْمَالِ وَوَصْفِ الطَّغَامِ — قَالَ كَمَيْلُ بْنُ زِيَادِ النَّخَعِيِّ : أَخَذَ بِيَدِي أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى بْنِ أَبِي طَالِبٍ ، فَأَخْرَجَنِي إِلَى الْجَبَانِ ^(٣) ، فَلَمَّا أَصْحَرَ تَنَفَّسَ الصُّعْدَاءَ ^(٤) ، ثُمَّ قَالَ : يَا كَمَيْلُ بْنُ زِيَادٍ ، إِنَّ هَذِهِ الْقُلُوبَ أَوْعِيَةٌ نَفِيرُهَا أَوْعَاها ، فَاحْفَظْ عَنِّي مَا أَقُولُ لَكَ ، النَّاسُ ثَلَاثَةٌ ، فَقَالِمُ رَبَّانِيٌّ ، وَمُتَعَلِّمٌ عَلَى سَبِيلِ نَجَاةٍ ، وَهَمَّجٌ رَعَاعٌ ، أَتْبَاعُ كُلِّ نَاعِقٍ يَمِيلُونَ مَعَ كُلِّ رِيحٍ ، لَمْ يَسْتَضِيئُوا بِنُورِ الْعِلْمِ ، وَلَمْ يَاجِأُوا إِلَى رَكْنٍ وَثِيقٍ ، يَا كَمَيْلُ ، الْعِلْمُ خَيْرٌ مِنَ الْمَالِ ، الْعِلْمُ يَحْرُسُكَ وَأَنْتَ تَحْرُسُ الْمَالَ ، وَالْمَالُ تَنْقُصُهُ التَّفَقُّةُ وَالْعِلْمُ يَزْكُو عَلَى الْإِنْفَاقِ ، وَصَنِيعُ الْمَالِ يَزُولُ بِزَوَالِهِ ؛ يَا كَمَيْلُ بْنُ زِيَادٍ ، هَلَّاكَ خُزَّانُ الْأَمْوَالِ وَهُمْ أَحْيَاءُ ، وَالْعُلَمَاءُ بَاقُونَ مَا بَقِيَ الدَّهْرُ . إِلَى آخِرِ هَذِهِ الْخُطْبَةِ الْعُلُوبَةِ الَّتِي تَرَاهَا فِي نَهْجِ الْبَلَاغَةِ ...

(١) الَّذِي فِي اللِّسَانِ : وَبُغَاةِ النَّاسِ : سَفَلَتِهِمْ وَطَاشَتِهِمْ وَحِقَامِهِمْ .

(٢) الْإِعْذَارُ : الْخُتَّانُ وَطَعَامُ الْخُتَّانِ وَفِي الْحَدِيثِ : كُنَّا إِعْذَارَ عَامٍ وَاحِدٍ ، أَيْ

(٣) الْجَبَانُ وَالْجَبَانَةُ يَرِيدُ الصَّحْرَاءَ .

خَتْنًا فِي عَامٍ وَاحِدٍ ، وَكَانُوا يَخْتَنُونَ لِسَنًا مَعْلُومَةً فِيمَا بَيْنَ عَشْرٍ سَنِينَ وَخَمْسِ عَشْرَةٍ

(٤) تَنَفَّسَ الصُّعْدَاءَ : أَيْ تَنَفَّسَ نَفْسًا مَمْدُودًا طَوِيلًا

وقال معاوية لَصَمَّصَةَ بن صوحان : صِف لي الناس ، فقال : حُلِقِ الناس أطواراً ، طائفة للسيادة والولاية ، وطائفة للفقهِ والسُّنة ، وطائفة للبأس والنَّجدة ، ورجرة بين ذلك ، يُغْلُونَ السَّعْر ، وَيَكْدِرُونَ الماء ، إذا اجتمعوا ضروا ، وإذا تفرقوا لم يُعرَفوا ... ومن طريف التفسير وغيرها ما قيل في قوله تعالى : « قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم » أى من السلطان ، أو من تحت أرجلكم ، أى من السَّفَل .

وقال دَعْبِل :

ما أَكْثَرَ الناسَ لا بل ما أَقْلَهُمْ اللهُ يعلم أئى لم أَقُلْ فَنَدَا
إِنِّي لأَفْتَحُ عَيْنِي حين أَفْتَحُهَا على كثيرٍ ولكن لا أرى أحداً
وهم يشبهون سوادَ الناسِ بالدُّبَا ، والدُّبَا مقصور : الجراد قبل أن يطير ،
وفي حديث عائشة قالت : كيف الناس بعد ذلك ؟ قال : دَبَّى يأكل شِدَادُهُ
ضِعْفَهُ حتى تقوم عليهم الساعة ...

قلة الوفاء في الناس وشيوع الغدر والمكر في عاقبتهم

وقالوا في قلة الوفاء في الناس ووصف عاقبتهم بالغدر ، والمكر السيئ ،
ومن أروع ما قيل في ذلك قوله عز وجل : « وما وَجَدْنَا لأَكْثَرِهِمْ مِن عَهْدٍ
وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ » . وقال سبحانه : « الذين يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ
من بعد ميثاقه وَيَقْطَعُونَ ما أَمَرَ اللَّهُ به أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ في الأَرْضِ
أولئك لهم اللعنةُ ولهم سُوءُ الدَّارِ » ...

وقال : « أَفأَمِنَ الذين مَكَرُوا السِّبْثَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الأَرْضَ
أَوْ يَأْتِيَهُمُ العَذَابُ مِن حيثُ لا يَشْعُرُونَ ، وقال : ولا يَحِيقُ المَكْرُ السَّيِّئُ

إلا بأهله ... وقال : ومن نكثَ فإنما ينكثُ على نفسه . وقال : إنما
بغيتكم على أنفسكم ... وقال المتنبي :

غيري بأكثرِ هذا الناسِ يندعُ
أهلُ الحفيظةِ إلا أن تُجرَّ بهم
وفي التجاربِ بعد الغيِّ ما يزع

وقال أبو فراس الحمداني :

بمن يثقُ الإنسانُ فيما ينوبه
وقد صارَ هذا الناسُ إلا أقلهم
ومن أين للحرِّ الكريمِ صحاب
ذئاباً على أجسادهن ثياب

وقال أبو تمام :

إن شئتُ أن يسودَ ظنك كلهُ
ليس الصديقُ بمن يعيرك ظاهراً
فأجلهُ في هذا السوادِ الأعظم
متبسماً عن باطن متجهِّم

« يقول : إن شئتُ أن لاتظن بأحد خيراً فاختر من شئت من هذا الناس ،

وكان يحيى بن خالد البرمكي إذا اجتهد في يمينه يقول : لا والذي جعل
الوفاء أعزَّ ما يرى . وكان يقول : هو أعزُّ من الوفاء . وقالوا : من عامل الناس
بالمكر كافأوه بالقدر

وكانت العرب إذا غدرَ منهم غادر ، يوقدون له بالموسم ناراً
وينادون عليه يقولون : ألا إن فلاناً غدر ... وقالوا : ربَّ حيلة أهلكت
المحتال ، وقال امرؤ القيس :

أحارِ بنَ عمرو كأني نخِرُ ويعدو على المرءِ ما ياتِمِرُ
« رجل نخِر : خالطه الداء ، وقوله ويعدو الخ : أراد أن المرء ياتمر لغيره
بسوء فيرجع وبال ذلك عليه » وقال شاعر لا أذكره :

وكم من حافرٍ لآخيه ليلاً تردى في حفيرته نهاراً
ومن قولهم في وصف الغادر : فلان يحسو الأماناتِ حسواً ، وفلان

أعذر من الذئب، قال : * هو الذئب وللذئب أوفى أمانة *

وقال : * والذئب يأدو للغزال يأكله *

« يأدو للغزال : يَحْتَلِه لِيَأْكُلَه ، قال الشاعر :

حَنْتَنِي حَانِيَاتِ الدَّهْرِ حَتَّى كَأَنِّي خَانِلٌ يَأدُو لِصَيْدِ ،

ويقال : رَكِبَ فُلَانُ السَّخِيرَ : إذا غدر ، قال حسان بن ثابت :

يَا حَارِ مَنْ يَغْدِرُ بِذِمَّةِ جَارِهِ مِنْكُمْ فَإِن مَحْمَدًا لَمْ يَغْدِرْ

إِنْ تَغْدِرُوا فَالْغَدْرُ مِنْكُمْ شِيمَةٌ وَالْغَدْرُ يَنْبُتُ فِي أَصُولِ السَّخِيرِ

قال ابن بري : إنما شبه الغادر بالسخر ، لأن السخر شجر إذا انتهى استرخى

رأسه ولم يبق على انتصابه ، يقول حسان : أنتم لا تثبتون على وفاء كهذا السخر

الذي لا يثبت على حال ، بينما يرى معتدلاً متصباً ، عاد مسترخياً غير متصب »

وبعد فإنهم على هذا نصحوا بمداراة الناس ما دام الاستغناء عنهم غير

مستطاع . قال رجل لابن عباس : ادعُ الله لي أن يُغْنِيَنِي عن الناس

فقال : إن حوائج الناس تتصل بعضها ببعض كاتصال الأعضاء ، فتي يستغني

المرء عن بعض جوارحه ؟ ولكن قل : أغنني عن شرار الناس . وروى :

أن بعضهم كان يطوف برة قول : من يشتري مني بضائع بعشرة آلاف درهم ؟

فدعاه بعض الملوك وبذل له المال فقال له : اعلم أن الله لم يخلق خلقاً

شرا من الناس ، وإن لم يكن بدين من الناس فانظر كيف تحتاج أن تعامل

ما لا بد منه ولا يغني بك عنه ... ثم قال : هل يساوي هذا الكلام

عشرة آلاف درهم ؟ قال : دونك المال ، ولم يأخذه ... وقالوا :

لثنا التعايش ، مداراة الناس . وقال النظم - إبراهيم بن سيار

أحد شيوخ المعتزلة - : ما يُسُرُّني ترك المداراة ولي حُرِّمَ النِّعَمِ ،

قيل له : لِمَ؟ قال : لأن الأمر إذا غَشِيكَ فَشَحَّصَتْ له أَرْدَاك ، وإذا طَاطَأَتْ له تَحَطَّأَكَ . . . وقال معاوية : لو كان بيني وبين الناس شَعْرَةٌ ما انقطعت ، لأنهم إذا جذبوها أرسلتها ، وإذا أرسلوها جذبتها . . . وقال أكرم بن صَيْفِي : الانقباض من الناس مَكْسَبَةٌ للعداوة ، وإفراط الأُنس مَكْسَبَةٌ لقرناء السوء ، ومن أمثال العرب : لا تَكُنْ حُلُوقاً فَتُسْتَرَطَّ ولا مُرّاً فَتُلَقَّظَ « استرطه ابتلعه ، وجاء في كتاب للهند : بعض المقاربة حزم ، وكل المقاربة عَجْز ، كالحشبة المنصوبة في الشمس ، تُمَالُ فيزيد ظلها ، ويُفَرِّطُ في الإمامة فَيَنْقُصُ الظَّلَّ . . .

وقال الطفرائي في لاميته المشهورة المعروفة بلامية العجم :

وَحُسْنُ ظَنِّكَ بِالْأَيَّامِ مَعْجَزَةٌ فُظُنَّ شَرًّا وَكُنْ مِنْهَا عَلَى وَجَلٍ
غَاضُ الْوَفَاءِ وَفَاضُ الْغَدْرِ وَانْفَرَجَتْ مَسَافَةُ الْخُلْفِ بَيْنَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ
وَإِنَّمَا رَجُلُ الدُّنْيَا وَوَاحِدُهَا مَنْ لَا يَعُولُ فِي الدُّنْيَا عَلَى رَجُلٍ

الأنذال واللاثام

اللُّؤْمُ : ضِدُّ الْعِتْقِ وَالْمَكْرَمِ ، وَاللَّثِيمُ : الدَّنِيءُ الْأَصْلِيُّ الشَّجِيحُ النَّفْسِ :
وَالنَّدَالَةُ : الْحِسَةُ وَالسَّفَالَةُ وَرَكَكَةُ الْعَقْلِ وَالتَّأَخُّرُ عَنِ الْمَكَارِمِ ، وَالنَّذْلُ :
الْحَسِيْسُ الْحَقِيرُ الْفَسَلُ الَّذِي لَا مَرْوَةَ لَهُ . ومن عبقرياتهم في هذا الصنف
من الناس قولُ أبي الأسدِ نُبَاتَةَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ التَّمِيمِيِّ - شاعر كان معاصراً
لأبي تمام : -

إِنْ يَبْخَلُوا أَوْ يَجْبُونَا أَوْ يَنْدِرُوا لَا يَخْفَلُوا
يَعْدُوا عَلَيْكَ مَرْجَلَيْسَنَ كَأَنَّهُمْ لَمْ يَفْعَلُوا

كَأَبِي بَرَأِشَ كُلِّ لَوْ نَ لَوْ نُهُ يَتَخَيَّلُ

« وَصَفَ قَوْمًا مَشْهُورِينَ بِالْمَقَابِحِ لَا يَسْتَحُونَ وَلَا يَحْتَفِلُونَ بِمَنْ رَأَاهُمْ عَلَى ذَلِكَ . وَقَوْلُهُ : يَغْدُوا هُوَ بَدَلٌ مِنْ قَوْلِهِ : لَا يَحْفِلُوا ، لِأَنَّ عُدُوَّهُمْ مُرَجَّلِينَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُمْ لَمْ يَحْنَلُوا . وَالْتَرَجِيلُ : مَشْطُ الشَّعْرِ وَإِرْسَالُهُ . وَأَبُو بَرَأِشَ طَائِرٌ صَغِيرٌ أَعْلَى رِيشُهُ أَغْبَرُ وَأَوْسَطُهُ أَحْمَرُ وَأَسْفَلُهُ أَسْوَدٌ فَإِذَا انْتَفَشَ تَغَيَّرَ لَوْنُهُ أَلْوَانًا شَتَّى . وَهَذَا أَبُو بَرَأِشَ غَيْرُ بَرَأِشَ الَّتِي وَرَدَتْ فِي قَوْلِهِمْ : عَلَى أَهْلِهَا دَأَتْ بَرَأِشُ ، فَهَذِهِ اسْمُ كَلْبَةٍ لِقَوْمٍ مِنَ الْعَرَبِ أُغْيِرَ عَلَيْهِمْ فِي بَعْضِ الْأَيَّامِ ، فَهَرَبُوا وَتَبِعْتَهُمْ بَرَأِشُ فُرِجَعُ الَّذِينَ أَغَارُوا خَائِبِينَ ؛ فَسَمِعَتْ بَرَأِشَ وَقَفَّ حَوَافِرِ الْخَيْلِ ، فَتَبَحَّتْ فَاسْتَدَلُّوا عَلَى مَوْضِعِ نَبَاحِهَا ، فَعَظَفُوا عَلَيْهِمْ وَاسْتَبَاحُوهُمْ ، فَذَهَبَتْ مَمْلَأَةً وَقَالُوا : عَلَى أَهْلِهَا تَجْنِي بَرَأِشَ ، قَالَ حَمْرَةَ بْنُ بَيْضَ :

لَمْ تَكُنْ عَنْ جَنَابِي لِحِقْمَتِي لَا يَسَارِي وَلَا يَمِينِي جَنَّتِي
بَلْ جَنَابَا أَخٍ عَلَى كَرِيمٍ وَعَلَى أَهْلِهَا بَرَأِشُ تَجْنِي

وقال آخر — وهي من أبيات الحماسة — حماسة أبي تمام :-

أَنَاخَ اللُّؤْمِ وَسَطَ بَنِي رَبَاحٍ مَطِيئَتُهُ فَأَقْسَمَ لَا يَرِيمُ
كَذَلِكَ كُلُّ ذِي سَفَرٍ إِذَا مَا تَنَاهَى عِنْدَ غَايَتِهِ يُقِيمُ

« يُقَالُ : أَنْخَتُ الْبَعِيرَ قَبْرَكَ ، وَلَا يُقَالُ قَنَاخَ ، وَهَذَا مِنْ بَابِ مَا اسْتَفْنِي عَنْهُ بغيره ، وَلَا يَرِيمُ : لَا يَبْرَحُ ، وَقَوْلُهُ : كَذَلِكَ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ لِأَنَّ كُلَّ ذِي سَفَرٍ مَبْتَدَأُ وَمَقِيمٌ خَبْرُهُ ، كَأَنَّهُ قَالَ : رَكَلْتُ مُسَافِرًا إِذَا مَا انْتَهَى إِلَى غَايَتِهِ يُبَلِّغِي عَصَاهُ كَذَلِكَ ، أَيْ مِثْلَ إِقَامَةِ اللُّؤْمِ فِيهِمْ ، وَقَدْ نَقَلَ الْبُحْتَرِيُّ هَذَا الْمَعْنَى إِلَى الْمَدْحِ فَقَالَ :

إِذَا مَا رَأَيْتَ الْمَجْدَ أَلْقَى رَحْلَهُ فِي آلِ طَلْحَةَ مُمْ لَمْ يَتَحَوَّلِ »

وقال جبرير :

وَكَنتَ إِذَا تَزَلْتِ بَدَارِ قَوْمٍ رَحَلْتَ بِخَزِيَّةٍ وَتَرَكَتِ عَارَا

وقال :

تَمِيمٌ بِطَرْقِ الثُّؤْمِ أَهْدَى مِنَ الْقَطَا وَلَوْ سَلَكَتِ سُبُلَ الْمَكَارِمِ صَلَّتِ

وقالوا فيمن لا يصلح لخير ولا شر : فلان أملس ليس فيه مستقر

لخير ولا شر . وقالوا : فلان ما هو برطب فيعصر ولا يبابس فيسكسر .

وقالوا : شر الناس الذي لا يتوقى أن يراه الناس مسيناً ، وقد تقدم .

وقال الشاعر :

قَوْمٌ إِذَا خَرَجُوا مِنْ سَوَاءٍ وَجَرُوا فِي سَوَاءٍ لَمْ يَخْبَأُهَا بِأَسْتَارِ

الظن

وَلِتَفَشَى الْغَدْرَ وَالْمَكْرَ فِي هَذَا النَّاسِ مَدَحُوا الْاِحْتِرَاسَ وَالْحَذَرَ وَسُوءَ

الظَّنِّ بِالنَّاسِ . قِيلَ لِبَعْضِهِمْ : مَا الْحَزْمُ ؟ قَالَ : سُوءُ الظَّنِّ بِالنَّاسِ . وَقَالَ

الشاعرُ البَيْغَاءُ :

وَأَكْثَرُ مَنْ تَلَقَى يَسْرُكَ قَوْلُهُ وَلَكِنْ قَلِيلٌ مَنْ يَسْرُكَ فِعْلُهُ

وَقَدْ كَانَ حُسْنُ الظَّنِّ بَعْضَ مَذَاهِبِي

فَأَدَّبَنِي هَذَا الزَّمَانُ وَأَهْلُهُ

وقالوا عليك بسوء الظن ، فإن أصاب فالحزم ، وإن أخطأ فالسلامة .

وقال بعضهم : إن قوله تعالى : إن بعض الظن إثم : دلالة على أن جلّه

صواب . وقال عبد الملك بن مروان : فرق ما بين عمر وعثمان أن عمر

أساء ظنه فأحكّم أمره ، وأن عثمان أحسن ظنه فأهمّل أمره . وقيل

لبعضهم : أسأت الظن فقال : إن الدنيا لما امتلأت مكاره وجب على العاقل أن يملأها حذرًا ...

ولما رأوا أن الظن هو الغالب على الناس وأنه لذلك يكاد يكون غريزة من الغرائز الإنسانية ، وأن تحقيقه ولا سيما بين الأصدقاء يعد من الإفراط المقوت ، وأنه لا يليق بمكارم الأخلاق ، ذموه وتعووه على أهله ، قال تعالى : اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم . وقال سيدنا رسول الله : ثلاثة لا يسلم منهن أحد : الطيرة ، والظن ، والحسد ، قيل : فما المخرج منهن يا رسول الله ؟ قال : إذا تطيرت فلا ترجع ، وإذا ظننت فلا تحقق ، وإذا حسدت فلا تبغ . وقال صلوات الله عليه : إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ، وقال ابن الأثير في النهاية : أراد : إياكم وسوء الظن وتحقيقه ، دون مبادئ الظنون التي لا تملك وخواطير القلوب التي لا تدفع ، وقيل : أراد : الشك يعرض لك في الشيء فتحققه وتحكم به . وأكذب الحديث : أي حديث النفس ؛ لأنه يكون بإلقاء الشيطان في نفس الإنسان ، وقال المتنبى :

إذا ساءَ ففعلُ المرءِ ساءتْ ظُنُونُهُ وَصَدَقَ مَا يَمْتَدُّهُ مِنْ تَوَهُمِهِ
وَعَادَى مُجِيبِهِ بِقَوْلِ عِدَائِهِ فَأَصْبَحَ فِي دَاجٍ مِنَ الشَّكِّ مُظْلِمِ

وقال شاعر :

مَنْ سَاءَ ظَنًّا بِمَا يَهْوَاهُ فَارَقَهُ وَحَرَضْتَهُ عَلَى إِبْهَادِهِ التَّهْمِ
وَمِنْ هُنَا مَدَحُوا التَّثْبِتَ وَالتَّغَافَلَ . وَتَرَى سَائِرَ عِبْقَرِيَاتِهِمْ فِي الظَّنِّ فِي
باب الطبائع وباب الإخوانيات .

الشَّمَاةُ

والشَّمَاةُ : الفرح بِيَلِيَّةٍ تَنْزِلُ بِمَنْ تُعَادِيهِ ، تقول : شَمِيتُ بِهِ يَشْمَتُ شِمَاةً وَشِمَاتًا ، وَأَشْمَتُهُ اللهُ بِهِ ، وفي القرآن الكريم : فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ . . . وقد تقدم طَرَفٌ من عبقرياتهم في الشَّمَاةِ بالموت ، ومن عبقرياتهم في الشَّمَاةِ مطلقًا قول الفرزدق :

إِذَا مَا الدَّهْرُ جَرَّ عَلَيَّ أَنَايَسَ حَوَادِثُهُ أَنَاخَ بَأَخْرِينَا
فَقُلْ لِلشَّامِتِينَ بِنَا أَفِيقُوا سَيَلْقَى الشَّامِتُونَ كَمَا لَقِينَا
وقيل لِأَيُّوبَ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ : أَيُّ شَيْءٍ كَانَ أَشَدَّ عَلَيْكَ فِي بِلَانِكَ ؟
قال شِمَاةُ الْأَعْدَاءِ .

الحَقْدُ

الحَقْدُ - كما جاء في اللسان - : إِمْسَاكُ الْعَدَاوَةِ فِي الْقَلْبِ وَالزَّبْصُ لِفُرْصَتِهَا ، قال : والحَقْدُ : الضَّنُّ . قال : وَحَقَّدَ عَلَيَّ يَحْقِدُ حِقْدًا ، وَحَقَّدَ - بالكسر - حَقْدًا وَحِقْدًا فَهُوَ حَاقِدٌ ؛ فَالْحَقْدُ : الْفِعْلُ ، وَالْحِقْدُ : الْأَسْمُ ، وَتَحَقَّدَ : كَحَقَّقَدَ ، قال جرير :

يَا عَدْنُ إِنَّ وَصَالَهُنَّ خِلَابَةٌ وَلَقَدْ جَمَعَنَ مَعَ الْبِعَادِ تَحَقُّدًا
« وبعد ، فَالْحَقْدُ عَلَيَّ أَنَّهُ خَلَةٌ لَا تَتَفَقُّ وَالنُّبْلَ وَالسُّودَّ وَمَكَامٍ
الْأَخْلَاقِ فَإِنَّهُ دَلِيلُ الْحَيَوِيَّةِ ، وَهَنْ تَمَّ يَكَادُ يَكُونُ خَلَّةً مَرَّ كَوْزَةً فِي الطَّبَاعِ ،
وَإِذَا كَانُوا قَدْ مَدَّحَوْهُ فَإِنَّمَا يَتَرَامُونَ - كما قلنا - إِلَى أَنَّهُ عُنْوَانُ الْحَيَوِيَّةِ وَأَنَّ
مَنْ لَا يَحْقِدُ لَا يَشْكُرُ ، وَإِذَا هُم ذَهَبُوا ، فَإِنَّهُمْ إِذَا يَدْعُونَ إِلَى تَنَاسِيهِ وَأَنَّ
مِنْ سُمُو الْأَخْلَاقِ أَنْ لَا يَحْمِلَ الْمَرْءُ الْحَقْدَ الْقَدِيمَ ، كما قال الْمُتَمَنَّعُ الْكِنْدِيُّ

واسمُه محمد بن عُمَيْرَة ، وهو شاعر كِنْدِيّ إسلامي^(١) ، وكان أحسن الناس
 وَجْهًا فإذا سَفَرَ لُقِعَ ، أى أصابته العين ، فَيَمْرَضُ وَيَأْحَقُهُ عَنَتٌ ، فكان
 لا يمشي إلا مُقَنَّعًا ، قال من أبيات جيدة تراها في حماسه أبي تمام وغيرها :
 ولا أَحْمِلُ الحِقْدَ القديمَ عليهم
 وليس رَئِيسُ القومِ مَنْ يَحْمِلُ الحِقْدَا

ذم الحقد ومدحه

أما عقربياتهم في ذم الحقد: فمن ذلك ما يُروى : أنه قيل للأخنف بن
 قيس : مَنْ أَسْوَدُ الناسِ ؟ فقال الأخرقُ في ماله المَطْرَحُ الحِقْدِيهِ :
 وقال ابن الرومي يذمه بعد أن مدحه ، كما سيأتي :

يا مادحَ الحقدِ مُحْتالًا لَهُ شَهًّا لَقَدْ سَلَكْتَ إِلَيْهِ مَسْلَكًا وَعَثًّا^(٢)
 لَنْ يَقَابَ العيبَ زَيْنًا مَنْ يُزِينُهُ حَتَّى يَرُدَّ كَبِيرًا عَانِيًا حَدَثًا^(٣)

(١) وهو صاحب هذه الايات الجيدة في صاحب السوء :

وصاحبُ السُّوءِ كالداءِ العيَاءُ إذا ما رَفِضَ في الجوفِ يَجْرِي هَاهُنَا وَهَنَا
 يُلْبِي وَيُخْبِرُ عن سَوَاتِ صاحِبِهِ وما رأى عنده من صالحٍ دَفْنَا
 كمُهْرٍ سَوِيءٍ إذا رَفَعْتَ سِيرَتَهُ رامَ الجِمَاحَ وإن خَفَضْتَهُ حَرْنَا
 إن يَحْيَى ذاكَ فَكُنْ منه بِمَعْرِلَةٍ أُرْماتِ ذاكَ فلا تَعْرِفْ له جَنْنَا
 « داء عياء : لا يُبرأ منه ، ورفعت سيرته : حملته على أن يزيد في سرعة

سيره ؛ والجئن - بالتحريك - القبر »

(٢) وعث الطريق : تعسر سلوكه والكلام على المثل

(٣) عانيا : جاوز الحد

إِنَّ الْقَيْحَ ، وَإِنْ صَنَعْتَ ظَاهِرَهُ يَعُودُ مَا لَمْ مِنْهُ مَرَّةً شَعْبًا (١)
 كَمْ زَخْرَفَ الْقَوْلُ ذُو زُورٍ وَلِبْسُهُ عَلَى الْقُلُوبِ وَلَكِنْ قَلَمًا لَيْثًا
 قَدْ أَبْرَمَ اللَّهُ أَسْبَابَ الْأُمُورِ مَعًا فَلَنْ تَرَى سَيِّئًا مِنْهُنَّ مُنْتَكِبًا
 يَا دَاغِ الْهَقْدِ فِي ضِعْفِي جَوَائِحِي سَاءَ الدِّينُ الَّذِي أُمْسَتْ لَهُ جَدْنَا (٢)
 الْحَقُّ دَاءٌ دَرِيٌّ لَا دَوَاءَ لَهُ يَرَى الصُّدُورَ إِذَا مَا جَرَّهُ حُرْنَا (٣)
 فَاسْتَشْفِ مِنْهُ بِصَفْحٍ أَوْ مُعَاتَبَةٍ فَإِنَّمَا يَبْرَأُ الْمِصْدُورُ مَا نَفَثَا (٤)
 وَاجْعَلْ طِلَابَكَ بِالْأَوْتَارِ مَا عَظُمَتْ

وَلَا تَكُنْ لِصَغِيرِ الْأَمْرِ مُكْتَرِبًا
 وَالْعَفْوُ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَإِنْ جُرْمٌ مِنْ مُجْرِمٍ جَرَحَ الْإِكْبَادَ أَوْ فَرْنَا (٥)
 يَكْفِيكَ فِي الْعَفْوِ أَنَّ اللَّهَ قَرَّظَهُ وَحَيًّا إِلَى خَيْرٍ مَنْ صَلَّى وَمَنْ بُعِثَا
 شَهِدْتُ أَنَّكَ لَوْ أَذْنَبْتَ سَاءَكَ أَنْ
 تَلْقَى أَخَاكَ حَقُودًا صَدْرُهُ شَرْنَا (٦)

(١) شعبت : منتشر مفرق

(٢) الجدث : القبر

(٣) حرث : هيج ، ويرى الصدور : يأكلها

(٤) المصدور : الذى يشتكى صدره ، وما فى قوله : ما نفثا مصدرية ، و نفث : رى بالنفائة وهو ما يلقىه المصدور من فيه وفى المثل : لا بد للمصدور أن ينفث وقد يستعار ذلك للبعانى كما هنا وكما ورد أن بعضهم قال لشاعر : متى تقول هذا الشعر ، فقال : أويستطيع المصدور أن لا ينفث أى لا يبرق ، شبه الشعر بالنفث لأنهما يخرجان من الفم .

(٥) الفرث : تفتيت الكبد بالغم والأذى

(٦) الشرث ههنا : الغليظ الحشن ، من شرث الكف غلظ ونشقة ، والشرث

أيضا : الخلق البالى من كل شيء فلعله من هذا أيضا .

إِذَنْ وَتَرَكَ أَنْ يَدْسِيَ الذُّنُوبَ مَعًا وَأَنْ تُصَادِفَ مِنْهُ جَانِبًا دَيْثًا
 إِنِّي إِذَا خَلَطَ الْأَقْوَامُ صَالِحَهُمْ بَسِيئِ الْفَعْلِ جِدًّا كَانَ أَوْ عَيْبًا
 جَدَلْتُ صَدْرِي كظَرْفِ السَّبِيكِ حِينْتِ يَسْتَخَالِصُ النِّفْثَةَ الْبَيْضَاءَ لَا الْخَبِيثَا
 وَلَسْتُ أَجْعَلُهُ كَالْحَرِيصِ أَمْدُحَهُ بِحِفْظِ مَا طَابَ مِنْ مَاءٍ وَمَا خَبِيثَا

وقال يمدح الحقد:

حَقَدْتُ عَلَيْكَ ذَنْبًا بَعْدَ ذَنْبٍ وَلَوْ أَحْسَنْتَ كَانَ الْحِقْدُ سُكْرًا
 أَدِيمِي مِنْ أَدِيمِ الْأَرْضِ فَاعْلَمْ أُبِيءُ الرِّيعُ حِينَ أُسِيءُ بَذْرًا
 وَلَمْ تَمْكُ، يَا لَكَ الْخَيْرَاتُ، أَرْضُ لِتُزْرَعَ خَرْبَقًا فَتُرِيَعُ بَرًّا
 أَوْدَى إِنْ فَعَلْتَ الْخَيْرَ خَيْرًا إِلَيْكَ وَإِنْ فَعَلْتَ الشَّرَّ شَرًّا
 وَلَسْتُ مُكَافِئًا بِالنُّكْرِ عُرْفًا وَلَسْتُ مُكَافِئًا بِالْعُرْفِ نُكْرًا
 يُسَمَّى الْحِقْدُ عَيْبًا وَهُوَ مَدْحٌ كَمَا يَدْعُونَ حُلُوَ الْحَقِّ مُرًّا

« الخربق: نبات كالشم ورقه أبيض وأسود، والبر: القمح »

وأراد يحيى بن خالد بن برمك وزير الرشيد أن يَضَعَ من عبد الملك ابن صالح فقال له: يا عبد الملك بلغني أنك حَقُودٌ فقال عبد الملك: أيها الوزير، إن كان الحقد هو بقاء الخير والشر إثمًا لباقيان في قلبي، فقال الرشيد: ما رأيتُ أحدًا احتجَّ للحقد بأحسن مما احتج به عبد الملك وقال ابن الرومي يمدح الحقد أيضا وقد عابه عائب:

لَيْنٌ كُنْتَ فِي حَفْظِي لِمَا أَنَا مُودِّعٌ

من الخير والشر انتحيت على عرضي

لَمَّا عَيْبَتَنِي إِلَّا بِفَضْلِ إِبَانَةٍ وَرُبَّ أَمْرِي يُزِرِّي عَلَى خُلُقِي مَحْضٌ
 وَلَا عَيْبَ أَنْ تُجْزَى الْقُرُوضُ بِمِثْلِهَا بَلِ الْعَيْبُ أَنْ تَدَانَ دَيْثًا وَلَا تَقْضِي

وخَيْرُ سَجِيَّاتِ الرِّجَالِ سَجِيَّةٌ تُؤَفِّيكُ مَا تُسَدِي مِنَ الْقَرَضِ بِالْقَرَضِ
 إِذَا الْأَرْضُ أَدَّتْ رَيْعَ مَا أَنْتَ زَارِعٌ مِنَ الْبَدْرِ فِيهَا فَهِيَ نَاهِيكَ مِنْ أَرْضٍ
 وَلَوْ لَا الْحُقُودُ الْمُسْتَكِنَاتُ لَمْ يَكُنْ لِيَنْقُضَ وَتَرَآ آخَرَ الدَّهْرِ ذُو نَقْضٍ
 وَمَا الْحِقْدُ إِلَّا تَوَأْمُ الشُّكْرِ فِي الْفَتَى وَبَعْضُ السَّجَايَا يَلْتَهِنُ إِلَى بَعْضٍ
 فَحَيْثُ تَرَى حِقْدًا عَلَى ذِي إِسَاءَةٍ فَنَمَّ تَرَى شُكْرًا عَلَى حَسَنِ الْقَرَضِ
 وَفِي هَذَا الْقَدْرِ مِنْ عِبْقَرِيَّاتِهِمْ فِي الْحَقْدِ كِفَايَةٌ. وَتَرَى فِي بَابِ الطَّبَائِعِ
 مَا يَنْقَعُ غُلَّتْكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

الحسد

الحَسَدُ وَقَانَا اللَّهُ شَرٌّ — دَاءٌ مِنَ الْأَدْوَاءِ الْمَتَّاصَةِ الْحَيْثُ الشَّامِعَةِ فِي
 هَذَا النَّاسِ إِلَّا مَنْ عَصَمَ رَبُّكَ ، قَالَ عَلِمَاؤُنَا: الحسد: أَنْ يَرَى الرَّجُلُ لِأَخِيهِ
 نِعْمَةً فَيَتَمَنَّى أَنْ تَزُولَ عَنْهُ وَتَكُونَ لَهُ دُونَهُ ، أَمَا الْغَبْطُ أَوْ الْغِبْطَةُ فَهِيَ :
 أَنْ يَتَمَنَّى أَنْ يَكُونَ لَهُ مِثْلُهَا وَلَا يَتَمَنَّى زَوَالَهَا عَنْهُ ، وَهِيَ كَمَا قَالَ الْإِمَامُ
 الْأَزْهَرِيُّ - : ضَرْبٌ مِنَ الْحَسَدِ ، وَلَكِنهَا أَخْفَى مِنْهُ ، قَالَ : أَلَا تَرَى أَنَّ النَّبِيَّ
 صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا سُئِلَ : هَلْ يُضْرُّ الْغَبْطُ ؟ فَقَالَ : نَعَمْ ، كَمَا يُضْرُّ الْحَبْطُ
 فَأَخْبَرَ أَنَّهُ ضَارٌّ وَلَيْسَ كَضَرِّ الْحَسَدِ الَّذِي يَتَمَنَّى صَاحِبُهُ زَوَالَ النِّعْمَةِ عَنْ
 أَخِيهِ ، وَالْحَبْطُ : ضَرْبٌ وَرَقِ الشَّجَرِ حَتَّى يَتَحَاتَّ عَنْهُ ثُمَّ يَسْتَخْلَفُ مِنْ غَيْرِ
 أَنْ يُضْرَّ ذَلِكَ بِأَصْلِ الشَّجَرَةِ وَأَغْصَانِهَا

وَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ ...

قَالَ الْإِمَامُ الْبَيْضاوِيُّ : مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ : أَيُّ مَنْ

الْأُمُورِ الدُّنْيَوِيَّةِ كَالْجَاهِ وَالْمَالِ ، قَالَ : لَا تَتَمَنَّوْهُ . فَلَعَلَّ عَدَمَهُ خَيْرٌ ، قَالَ :

والمقتضى للنعم كونه ذريعة إلى التحاسد والتعادي مُعْرِبَةً عن عَدَم الرضا بما قَسَمَ اللهُ له ، وأنه أشبه حصول الشيء له من غير طلب ، وهو منهوم لأن تَمَنَّى ما لم يُقَدَّر له معارضة لحكم القدر وتَمَنَّى ما قدر له بغير كسب ضائع ومحال ؛ وقد نعى الله في غير ما آية على أولئك الذين يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ،

وفي الحديث : لاحسد إلا في اثنتين : رجل آتاه الله مالا فهو ينفقه آتاه الليل وأطراف النهار ، ورجل آتاه الله قرآنا فهو يتلوه ... قال الإمام الأزهرى : هو أن يتمنى الرجل أن يرزقه الله مالا يُنْفِقُ منه في سبيل الخير أو يتمنى أن يكون حافظاً لكتاب الله فيتلوه آتاه الليل وأطراف النهار ، ولا يتمنى أن يُرزأ صاحب المال في ماله أو تال القرآن في حفظه . وقال ثعلب : معناه ليس حسد لا يضر إلا في اثنتين ، أقول : ومعنى ذلك أن كل حسد ضار إلا في هاتين أى أن حسد صاحب المال ينفقه في سبيل الخير وحافظ القرآن يتلوه ، غير ضار ، لأن هذين على سبيل سواء يستحقان معه أن يُحسدا ، أى أن يُغبطا ...

وقال حكيم : الحسد من تعادى الطبائع واختلاف التركيب وفساد مزاج البلية وضعف عقْد العقل . والحاسد طويل الحسرات .

وقال حكيم : الحسد جرح لا يبرأ ، وحسب الحسود ما يُلْقَى . وقال الحسن البصرى : يا ابن آدم ، لِمَ تَحْسُدُ أَخاك ؟ إن كان الله أعطاه لكرامته عليه ، فإِلمَّ تَحْسُدُ مَنْ أكرمه الله ؟ وإن كان غير ذلك فإِلمَّ تَحْسُدُ مَنْ وَصِرُهُ إلى النار أو في الأثر : الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب ، وقال على بن أبى طالب : ما رأيت ظالماً أشبهَ بظالم من الحاسد ، نفَس دائم ،

وعقل هائم، وحُزنٌ لازم، وقالوا: الحسود لا يسود... قال رَوْحُ بن زِنَاعِ الجُدَاجِيُّ: كنتُ أرى قوماً دُونِي فِي المَنْزِلَةِ عَنِ السَّاطَانِ يَدْخُلُونَ مَدَاخِلَ لَأَدْخُلَهَا، فَلَمَّا أَذْهَبْتُ عَنِ الحَسَدِ دَخَلْتُ حَيْثُ دَخَلُوا... وَقَالَ ابْنُ المِقْفَعِ: أَقْلٌ مَا لَتَارَكَ الحَسَدَ فِي تَرْكِهِ أَنْ يَصْرِفَ عَنِ نَفْسِهِ عَذَابًا لَيْسَ بِمُدْرِكٍ بِهِ حِطًّا وَلَا غَائِظَ بِهِ عَدْوًا، فَإِنَّمَا لَمْ تَرَ ظَلَمًا أَشْبَهَ بِمُظْلَمٍ مِنَ الحَاسِدِ، طُولُ أَسْفٍ، وَمُخَالَفَةُ كِتَابَةِ وَشِدَّةُ تَحْرِيقٍ، وَلَا يَبْرَحُ زَارِيَا عَلَى نِعْمَةِ اللَّهِ وَلَا يَجِدُ لَهَا مَزَالًا، وَيُكَدِّرُ عَلَى نَفْسِهِ مَا بِهِ مِنَ النِّعْمَةِ فَلَا يَجِدُ لَهَا طَعْمًا وَلَا يَزَالُ سَاخِطًا عَلَى مَنْ لَا يَبْرِضَاهُ وَمُتَسَخِّطًا لِمَا لَنْ يَنَالَ فَوْقَهُ، فَهُوَ مُنْعَصُ المَعِيشَةِ دَائِمُ السَّخَطِ مَحْرُومُ الطَّلِبَةِ، لِأَنَّهَا قِسْمٌ لَهُ يَقْتَضِعُ وَلَا عَلَى مَا لَمْ يُقْسَمَ لَهُ يَغْلِبُ؛ وَالحَسُودُ يَتَقَابُ فِي فَضْلِ اللَّهِ مُبَاشِرًا لِلشَّرِّ مُتَمَتِّعًا بِهِ مُهْمَلًا بِهِ إِلَى مُدَّةٍ وَلَا يَقْدِرُ النَّاسُ لَهَا عَلَى قَطْعٍ وَاتِّقَاصٍ... وَقَالَ أَبُو تَمَامٍ:

وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ نَشْرَ نَفْسِي لَمْ يَطْوِيَتْ أُنَاحُ لِسَانِ حَسُودٍ
لَوْلَا اشْتِعَالُ النَّارِ فِيهَا جَاوَرَتْ مَا كَانَ يُعْرَفُ طِيبُ عَرَفِ العُودِ
لَوْلَا التَّخَوُّفُ لِلْعَوَائِبِ لَمْ تَزَلْ لِلحَاسِدِ التُّعْمَى عَلَى الحَسُودِ
وَقَالَ البَحْرِيُّ:

وَلَنْ يَسْتَبِينَ الدَّهْرَ وَوَضَعَ نِعْمَةً إِذَا أَنْتَ لَمْ تُدَلِّلْ عَلَيْهَا بِحَاسِدٍ
وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بنِ المَعْتِزِ:

أَصْبِرْ عَلَى كَيْدِ الحَسُودِ فَإِنَّ صَبْرَكَ قَاتِلُهُ
فَالنَّارُ تَأْكُلُ نَفْسَهَا إِنْ لَمْ تَجِدْ مَا تَأْكُلُهُ

وَقَالَ ابْنُ المِقْفَعِ أَيْضًا: الحَسَدُ وَالْحِرْصُ دَعَامَتَا الذُّنُوبِ، فَالْحِرْصُ أَخْرَجَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنَ الجَنَّةِ، وَالحَسَدُ نَقَلَ إبْلِيسَ مِنَ جِوَارِ اللَّهِ تَعَالَى

وقال الجاحظ: من العدل المحض والإنصاف الصريح - الخالص - أن
تَحُطَّ عن الحاسد نصف عقابه ، لأن ألم جسمه قد كفاك دُونَ شَطْر
غَيْظِكَ ؛ وللجاحظ رسالة مطولة في الحسد تراها في رسائله
وقيل للحسن البصرى : أَيَحْسُدُ الْمُؤْمِنُ أَخَاهُ ؟ قال : لا أَبَالِكَ ،
أَنْبَيْتَ إِخْوَةَ يَوْسُفَ ؟ وقالوا : الحسود غَضَبَانُ عَلَى الْقَدْرِ ، وَالْقَدْرُ
لَا يُتَّبَعُ - أى لا يزال عَتْبُهُ : أى لا يرضيه - أخذ هذا المعنى منصور
الفيقيه فقال :

أَلَا قُلْ لِمَنْ بَاتَ لِي حَاسِدًا أَتَدْرِي عَلَى مَنْ أَسَأْتَ الْآدَبَ
أَسَأْتَ عَلَى اللَّهِ فِي فِعْلِهِ إِذَا أَنْتَ لَمْ تَرْضَ لِي مَا وَهَبَ
وقال معاوية : كل الناس يمكننى أن أَرْضِيَهُ ، إِلَّا الْحَاسِدَ الَّذِي لَا يَرُدُّهُ
إِلَى مَوَدَّتِي إِلَّا زَوَالَ نَعْمَتِي . وقال المتنبى :

سِوَى وَجَعِ الْحَسَادِ دَارٍ فَإِنَّهُ إِذَا حَلَّ فِي قَلْبٍ فَلَيْسَ يَحْوَلُ
وقال آخر :

كُلُّ الْعِدَاوَةِ قَدْ تُرْجَى إِمَاتَتُهَا إِلَّا عِدَارَةَ مَنْ عَادَاكَ مِنْ حَسَدٍ
ويقال : إذا أراد الله أن يسلط على عبده عدواً لا يَرْخُمُهُ سُلْطَانٌ عَلَيْهِ
حاسداً ... وقال العتبي - وذكر ولدُ الذين ماتوا - :

وَحَتَّى بَكَى لِي حُسَادُهُمْ وَقَدْ أَتْرَعُوا بِالْدموعِ الْعَيْونَا
وَحَسْبُكَ مِنْ حَادِثٍ بَاسِرِي يَرَى حَاسِدِيهِ لَهُ رَاحِمِينَا
وقالوا : مَنْ دَعَمَتْهُ نَفْسُهُ إِلَى تَرْكِ الدُّنْيَا فَلْيَسْطُرْ : هَلْ يَحْسُدُ أَحَدًا ، فَإِنْ
حَسَدًا كَانَ تَرْكُهُ عَجْزًا ، لِأَنَّهُ لَوْ زَهَدَ فِيهَا مَا حَسَدَ عَلَيْهَا
وقال البحرى :

مُسْتَرِيحُ الْأَحْسَادِ مِنْ كُلِّ ضَغْنٍ بَارِدُ الصَّدْرِ مِنْ غَلِيلِ الْحَسُودِ

وقيل لسفيان بن معاوية : ما أسرع حسدَ الناس إلى قومِكَ ا فقال :
 إنَّ العرانيين تلقاها مُحَسَّدَةً ولا ترى للشامِ الناسَ حَسَاداً (١)

وقال آخر :

وترى اللبيبَ مُحَسَّداً لم يجترِمِ شتمَ الرجالِ وعِزُّهُ مَشْتومُ
 حسدوا الفتى إذ لم ينالوا سعيه فالتقوا أعداءَهُ له وخصومُ
 كضرائرِ الحسنةِ قُلتن لوجهها حسدا وظلماً : إنه لديمُّ

وقال آخر :

إن تحسدوني فإني لا ألوهكم

قَبلي مِنَ الناسِ أهلُ الفضلِ قد حَسِدُوا

فدام لي ولهم مابى وما بهم وماتَ أكثرنا غيظاً بما يجحدُ
 أنا الذى تجِدُونى فى حلوقكمُ لا أرتقى صدرًا عنها ولا أريدُ (٢)

وخطب الحجاج يوماً برُستُقْبَازَ بقولِ سُوَيْدِ بنِ أبى كاهل - شاعر

جاهلى إسلامى - :

كيف يرجون سقاطى بعد ما جَلَّ الرَّأسُ بياضُ وصاعُ
 رَبِّ من أنصجتُ غيظاً صدره قد تمنى لى موتاً لم يُطعُ
 ويرانى كالشجأ فى حلقه عسراً نخزجه ما يُنتزعُ
 مُزبداً يخطُرُ ما لم يرنى فإذا أسمعته صوتى انقمعُ

(١) عرانيين القوم : سادتهم وأشرفهم . وأصل العرنيين الأنف حيث يكون فيه

الشم يقال : هم شم العرانيين

(٢) لا أرتقى صدرًا ولا أريد : أى فأنا كالشجى الدائم الذى لا منجاة لأعدائى منه

لم يَضُرَّنِي غيرَ أنْ يَحْسُدَنِي

فَهُوَ يَزُقُّوْهُ مِثْلَ مَا يَزُقُّوْهُ الضُّوْعُ (١)

وَيُحْيِيْنِي إِذَا لَاقَيْتُهُ وَإِذَا يَخْلُوْهُ لَهْ لِحْيِ رَتَعُ

قَدْ كَفَانِي اللهُ مَا فِي نَفْسِهِ وَإِذَا مَا يَكْفِيْ شَيْئًا لَا يُضَعُ

وقال ابن الرومي لصاعد بن مخلد:

وَصِدِّ لَكُمْ لَا زَالَ يَسْفُلُ جَدُّهُ وَلَا بَرِحَتْ أَنْفَاسُهُ تَتَّصَعِدُ (٢)

يرى زَبْرِجَ الدُّنْيَا يُزْفُ إِلَيْكُمْ

وَيُغْضِيْ عَنْ اسْتِحْقَاقِكُمْ فَهُوَ يُفَادُ (٣)

ولو قاس باستحقاقكم ما منحتهم لأطفأ نارا في الحشا توقد

وآتق من عقد العقيلة جيدها وأحسن من سربالها المتجرد (٤)

وقال الأصمعي: رأيت أعرابياً قد أتت له مائة وعشرون سنة،

فقلت له: ما طول عمرك؟ فقال تركت الحسد فبقيت. وكانوا يقولون:

سِتَّةٌ لَا يَخْلُونَ مِنَ الْكُتَابَةِ: رَجُلٌ افْتَمَرَ بَعْدَ غَيْ، وَغَيْ يُخَافُ عَلَى مَا إِيهِ النَّوَى

— الهلاك والضياع — وحقود، وحسود، وطالب مرتبة لا يبلغها قدره

وخطايط الأدباء بغير أدب.

ومن ألفاظهم في وصف الحسد: قد دبت عقارب الحسد، وكمنت

(١) زقا الديك والطار ونحوهما: صاح، وكذلك الصبي إذا اشتد بكأوه، والضوع

طار من طير الليل إذا أحس بالصبح صدح

(٢) جده: حظه

(٣) يفاد: يحرق فواده

(٤) يقول: إن جيد العقيلة أجمل من العقد الذي يظن أنه يزينه، والمتجرد -

أي الجسم العريان - أجمل من السربال، وهو القميص

أَفَاعِيهِمْ بِكُلِّ مَرَصَدٍ : فَلَانَ قَدْ وَكَلَ بِي لِحَطًّا يَبْتَضِلُ بِأَسْهُمِ الْحَسَدِ ...

ومن وصاياهم في باب الحذر من الأعداء الحسد قول أعرابي يهبط رجلاً : وَيَحْتَكُ ، إن فلانا وإن ضحك إليك ، فإنه يضحك منك ، وإن أظهر الشفقة عليك ، إن عقابه لتسرى إليك ، فإن لم تتخذهُ عَدُوًّا فِي عَلَانِيَتِكَ فَلَا تَجْعَلْهُ صَدِيقًا فِي سِرِّيَتِكَ ...

وحذر بعض الحكماء صديقاً له صحبه رجل ، فقال : احذر فلاناً ، فإنه كثير المسألة ، حسن البحث ، لطيف الاستدراج يحفظ أول كلامك على آخره ، ويعتبر ما أخرت بما قدمت ، فلا تظهرن له المخافة فيرى أنك قد تحررت . واعلم أن من يقظة الفطنة إظهار الغفلة مع شدة الحذر . فبأنه مباتة الآمن ، وتحفظ منه تحفظ الخائف . فإن البحث يظهر الخفي الباطن ، ويؤدي المستكن الكامن .

هذا ، وقد عقد الإمام الغزالي للحسد باباً زاخراً في كتابه الإحياء حال فيه على طريقته هذا الداء - داء الحسد - وبين أسبابه وأعراضه وعلاجه ولماذا كان شائعاً بين الأقران والإخوة والأقارب فارجم إليه إذا أردت التوسع في هذا الباب ، ولنختار منه هذه الحكاية الطريفة ، قال : كان رجل يغشى بعض الملوك ، فيقوم بحذاء الملك فيقول : أحسن إلى المحسن بإحسانه ، فإن السوء سيكفيك إساءته ، فحسده رجل على هذا المقام ، وذلك الكلام ، فسعى به إلى الملك فقال : إن هذا الذي يقوم بحذاءك ويقول مايقول ، زعم أن الملك أبخر ، فقال له الملك : وكيف يصح ذلك عندي ؟ قال تدعوه إليك ، فإنه إذا دنا منك وضع يده على أنفه لئلا يشم ريح البخر ، فقال له :

انصرف حتى أنظر ، فخرج من عند الملك ، فدعا الرجل إلى منزله فأطعمه طعاماً فيه ثوم ، فخرج الرجل من عنده ، وقام بخذاء الملك على عادته ، فقال : أحسن إلى المحسن بإحسانه فإن المسىء سيكفيك إساءته ، فقال له الملك : آذُنُ مني ، فدنا منه ووضع يده على فيه ، مخافة أن يشمَّ الملك منه رائحة الثوم فقال الملك في نفسه : ما أرى فلاناً إلا قد صدق ، وكان الملك لا يكتب بخطه إلا بجائزة أو صلّة ، فكتب له كتاباً بخطه إلى عامل من عماله : إذا أتاك حامل كتابي هذا فاذبحه واسلخه وأحش جلدته تبنا وأبعث به إلى ، فأخذ الكتاب وخرج ، فلقى الرجل الذي سعى به فقال : ما هذا الكتاب ؟ قال : خط الملك لي بصلّة ، فقال : هب لي ، فقال : هوك ، فأخذه ومضى إلى العامل ، فقال العامل : في كتابك : أن أذبحك وأسألك ، قال : إن الكتاب ليس هو لي ، فالله الله في أمرى حتى تراجع الملك ، فقال : ليس لكتاب الملك مراجعة فذبحه وسلخه وحشا جلدته تبنا وبعث به ، ثم عاد الرجل إلى الملك كعادته ، وقال مثل قوله ، فعجب الملك وقال : ما فعل الكتاب ؟ فقال : لقيني فلان فاستوهبه مني ، فوهبته له ، قال الملك : إنه ذكر لي أنك تزعم أني أبخر ، قال : ما قلت ذلك ، قال : فلم وضعت يدك على فيك ؟ قال : لأنه أطعمني طعاماً فيه ثوم ، فكرهت أن تشمه ، قال : صدقت ، ارجع إلى مكانك فقه . كُفِيَ المسىءُ إساءته ... ومثل هذه الحكايات كثير ويصح أن توضع في باب السعاية والمسكر ، وعاقة الماكرين .

«وبعد» فإن ما نوردّه ههنا من عقرياتهم في الحسد والحقد وما إليهما إنما هو قليل من كثير تراه في باب الطبائع وإنما نورد ما نورد من هذه العقريات لستوفى في باب العداوات ..

المزاح

ولأن المزاح في الكثير الأعم الأغلب مَدْرَجَةٌ البغضاء رأينا أن
نورد هنا صدرا من عبقرياتهم فيه .

قال الزبيدي شارح القاموس : المزاح : المباشطة إلى الغير على جهة
التأطف والاستعطاف دون أذية ، حتى يخرج الاستهزاء والسخرية . قال :
وقد قال الأئمة : الإكثارُ منه والخروجُ عن الحدِّ يُخلُّ بالمروءة والوقار ،
والتنزهُ عنه والتقبُّضُ يُخلُّ بالسنة .

ويقال : مزاح يمزحُ مَزْحًا ومزاحًا ومزاحًا ومزاحة ، وقد مازحهُ مَازَحَةً
ومزاحًا ، والاسمُ المَزَاحُ بالضمِّ والمزاحةُ أيضا :

نهيهم عن المزاح

جاء في الأثر : إياك والمزاح فإنه يذهبُ بهنَاءِ المؤمنين ويُسَقِطُ
مُرُوَّةَ قَهٍ وَيَجْرُ غَضَبَهُ .

وقالوا : المَزَاحُ مجلبةٌ للبغضاء مَثَلَةٌ للبهَاءِ (١) : مَقْطَعَةٌ للإخاء .

وقالوا : المَزَاحُ أولُه فَرَحٌ وآخرُه تَرَحٌ ، وهو نَقَائِضُ السُّفَهَاءِ مِثْلُ
نَقَائِضِ الشُّعْرَاءِ . (٢)

وقالوا : لا تَمَازِحْ صَغِيرًا فَيَجْتَرِيَّ عَلَيْكَ ، وَلَا كَبِيرًا فَيَحْقِدَ عَلَيْكَ

(١) مثلبة : منقصة ومسبة

(٢) القبيضة في الشعر : ما ينقض به واجمع النقائض ومن ثم قالوا : نقائض
جرير والفرزدق ، وأصل النقض : إفساد ما أبرمت من عقد أو بناء ومنه المماقضة في
القول وهو أن ينقض الآخر ما قاله الأول

وقال مسعرُ بنُ كِدام لابنه :

ولقد حَبَّوْتُكَ يا كِدامُ نصيحتي فاستمع لِقَوْلِ أبِ عَليكَ شَفِيقِ
أما المِزاحَةُ والمِراءُ فدَعَهُما خُلُقانِ لِأَرْضاهُما إِصْديقِ^(١)
ولقد بَلَّوْهُما فلم أَحْمَدُهُما لِمُحاورِ جَارِ ولا لِرفِيقِ
وقالوا: المِزاحُ سِبابُ النَّوْكِ^(٢)

وقال عُمرُ بنُ عبدِ العَزيزِ: لا يَكُونُ المِزاحُ إِلاَّ من سَخَفٍ أو بَطَرِ.

وقالوا: الغالبُ فيه واِترُ. والمِغلوبُ نائِرُ. وقال أبو نِواسِ:

رُبِّمَّا اسْتَفْتِيحَ بِالْمِزْحِ مِغَالِيقُ الحِمامِ

حمدهم القصد في المزح

ومزاحُ الأمائل

جاء في الأثر: إني لأمزحُ ولا أقولُ إلا حقا ...

ومن مُزاحِه صلواتُ اللهُ مارُوى: أنَّ عِجوزاً من الأَنْصارِ أَتَتْهُ فقالت:

يا رسولَ اللهُ، ادْعُ لي بالمِغْفرةِ، فقال: أَمَا عَلِمْتِ أَنَّ الجَنَّةَ لا يَدْخُلُها

العَجائِزُ اِصْفَرَحَتْ، فبَسِمَ رسولُ اللهُ وقال: أَمَا قَرَأْتِ القرآنَ؟ « إِنَّا

أَنْشَأناهُنَّ إِِنْشاءً فَجَعَلناهُنَّ أَبْكاراً عَرُباً أَتراباً،^(٣)

وأَتَبَهُ أُخرى في حاجَةِ لِزُوجِها فقال لها: وَمَنْ زَوْجُكِ؟ فقالت:

فلانُ، فقال لها: الَّذي في عَينِهِ بياضُ؟ فقالت: لا، فقال: بَلَى، فانصَرَفَتْ

عَجَلَى إلى زُوجِها، وجعلت تَتأملُ عَينِيهِ، فقال لها: ماشَأُ نِكَ؟ فقالت:

(١) المِراءُ: الجِدالُ وترى عبقرياتهم في المِراءِ في كتاب العلم والآداب

(٢) الحقُّ (٣) عرب جمع عروب وهي: المرأة الحسنة المنجبة إلى زوجها

المطبعة له، أو العاشقة، أو المغتلة، أو الغنجة. والأتراب: الأمائل

أخبرني رسول الله أن في عينيك بياضا ، فقال : أما ترين بياض عيني
أكثر من سوادهما !

وقال صلوات الله عليه لُبْنَى كان لأبي طلحة الأنصاري ، وكان له
نُغْرٌ^(١) فمات : ما فعل النُّغَيْرُ يا أبا عمير ؟

وقالوا : الناس في سجين ما لم يتمازحوا .

وقال رجل لأبي عيينة . المزاح سبة ، فقال : بل سنة لعن يُحْسِنُهُ .

يا ساعتي في مجوني قد طببتُ فيك وطبتِ

إني إذا ضاقَ صدري قطعتُ بالسُّخْفِ ووقتي

وقال سعيد بن العاص لابنه : أقتصد في مزاحك فالإفراط فيه يذهب

البهاء ويُجَرِّئُ عليك السفهَاءَ ، وتركهُ يَقْبِضُ المَوَارِسِينَ ويُوْحِشُ المُخَالَطِينَ

نهيهم عن الغضب في المزاح

قال ابن سيرين : ليس من حُسنِ الخُلُقِ الغضب من المزاح

المددوح بأن فيه الجِدَّ والهزل

قال شاعر :

أخو الجِدِّ إن جاددتَ أرضاكَ جِدَّهُ

وَدُوْ باطلٍ إن شئتَ أهلكَ باطلُهُ

وقال أبو تمام :

الجِدُّ شيمته وفيه فُكاهته سُجُّجٌ ولا جِدٌّ لمن لم يَلْمَبِ^(٢)

(١) النغر : البلب (٢) السجج : اللين السهل

عذر من يضحك وهو محزون

❖ وقد يَضْحَكُ الْمَوْتُورُ وَهُوَ حَزِينٌ ❖

وقال آخر :

وَرُبَّمَا ضَحِكَ الْمَكْرُوبُ مِنْ عَجِبِ السَّنِّ أَضْحَكَ وَالْأَحْشَاءُ تَضَطَّرِمُ

نهيهم عن كثرة الضحك

في الأثر : إِيَّاكَ وَكَثْرَةَ الضَّحِكِ فَإِنَّهَا تُمِيتُ الْقَلْبَ وَتُورِثُ الدَّسِيَانَ .
وفيه أيضاً : وَبِئْسَ الَّذِي يُحَدِّثُ فَيَسْكَذِبُ لِيُضْحِكَ بِهِ الْقَوْمَ ،
وَبِئْسَ لَهُ ، وَبِئْسَ لَهُ .

وقال عمرُ بن الخطاب : مَنْ كَثُرَ ضَحِكُهُ قَلَّتْ هَيْبَتُهُ

وقال علي : إِذَا ضَحِكَ الْعَالِمُ ضَحِكَةً مَجَّ مِنَ الْعِلْمِ بَجَّةٌ .

وقالوا : كَثْرَةُ الضَّحِكِ تُورِثُ الرُّعُونَةَ .

وقيل لأبي العيَّان : فُلَانٌ يَضْحَكُ مِنْكَ أَفْقَالُ : إِنْ الَّذِينَ أَجْرَمُوا

كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ . وهذا من الأجوبة المسكتة ، وكان

أبو العيَّان ذا نواذر .

إيراد جد في مسلك هزل

قال خالد بن صفوان : رَمَانِي بِأَصْلَبَ مِنَ الْجَنْدَلِ ، وَتَشَقَّقِي بِأَحْرَ مِنْ

الْحُرْدَلِ ، ثُمَّ قَالَ إِنِّي أَمَازُحُكَ !

لي صاحب ليس يخلو لسانه من جراحی

يُجِدُّ تَمْرِيْقَ عِرْضِي عَلَى سَيْلِ الْمَزَاحِ

صدر من عبقرياتهم في الغيبة والنميمة

ولأن الغيبة والنميمة مدرجتان غالباً للعداء بادرنا بإيراد صدر من عبقرياتهم في هاتين الخلتين الذميتين .

حقيقة الغيبة والنميمة

الغَيْبَةُ الاسم من الاغتيال وهو : أن يتكلم خلفَ إنسانٍ مَسْتُورٍ بِسُوءٍ أو بما يَفْهَمُه لوسمته وإن كان فيه ، فإن كان صدقاً فهو غَيْبَةٌ وإن كان كذباً فهو البَهْتُ والبُهتان . كذلك جاء عن سيدنا رسول الله صلوات الله عليه . وقال بعضُ الفقهاء : الغَيْبَةُ : أن تذكرَ الإنسانَ بما فيه من العيب من غير أن تُخَوِّجَ إلى ذلك ، وفي هذا احترازٌ مما يقوله الشاهد عند الحاكم . والنميمة : نقلُ الحديث من قوم إلى قوم على جهة الإفساد والشر ، ونَمَّ الحديثُ يَنْمُو وَيَنْمُو نَمًّا : نقله ، والاسم النميمة ؛ والنَّمْعُ : تمام ، ويقال للنمام : القمات يقال : قَتَّ : إذا مشى بالنميمة ، ويقال له : قَسَّاسٌ ودرّاجٌ وغمّازٌ وهمّازٌ وماؤسٌ وممّاسٌ .

ذمّ الغيبة والنميمة

قال الله جل شأنه : ولا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا ، يُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ نَمِيئًا فَكَرِهْتُمُوهُ . « قوله سبحانه : يُحِبُّ أَحَدُكُمْ ... الآية : تمثيلٌ وتصويرٌ لما يناله المعتاب من عرض المعتاب على أنظع وجه وأخفشه ، قال الإمام الزمخشري : وفيه مبالغات شتى : منها الاستنهام الذي معناه التقرير ، ومنها جعلُ ما هو في الغاية من الكراهة موصولاً بالمحبة ، ومنها إسنادُ الفعل إلى

أجدكم والإشعار بأن أحداً من الآخدين لا يُحب ذلك ، ومنها أنه لم يقتصر على تمثيل الاغتياب بأكل لحم الإنسان حتى جعل الإنسان أخصاً ، وحتى جعل الأخر ميتاً . قال قتادة : كما تكره إن وجدت جيفةً مدوّدة أن تأكل منها فأكره لحم أخيك وهو حي .

وفي الحديث : « إن الغيبة أشد من الزنا » قيل : كيف ذلك ؟ قال : « لأن الرجل يزني فيتوب ، فيتوب الله عليه ، وصاحب الغيبة لا يغفر له حتى يغفر له صاحبه » ، وفي الحديث المرفوع : أن امرأتين صامتا على عهد النبي صلى الله عليه وسلم وجعلتا تغتابان الناس فأخبر النبي بذلك فقال : صامتا عما أحلّ لهما وأفطرتا على ما حرم الله عليهما . واغتاب رجل رجلاً عند قتيبة بن مسلم فقال قتيبة : أمسك أيها الرجل ، فوالله لقد تلبّظت بمضغة طالما لفظها الكرام .

وقال علي بن الحسين رضي الله عنه : إياك والغيبة فإنها إدام كلاب النار وهذا تمثيل جميل ، وقال الشاعر :

لا تَهْتِكَنَّ مِنْ مَسَاوِي النَّاسِ مَاسْتَرُوا فِيهِتِكَ اللَّهُ سِتْرًا مِنْ مَسَاوِيكَ
وَإِذْ كَرُّنَّ حَاسِنًا مَا فِيهِمْ إِذَا ذُكِرُوا وَلَا تَعِبْ أَحَدًا مِنْهُمْ بِمَا فِيكَ

وقالوا : الغيبة مَرعى اللثام وجهد العاجز .

وقال تعالى « هَمَّازٍ مَشَاءٍ بِنِيمٍ »

وقال سيدنا رسول الله : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يرَفَعَنَّ إلينا عورة أخيه المؤمن ... وقال صلى الله عليه وسلم : لا يَرُاحُ القَتَاتِ رَاحَةَ الجنة . والقَتَاتِ : النَّمَامُ ،

من سمحت نفسه بأن يكون في حلِّ

ومن لا تسمح نفسه

كان أبو الدرداء رضى الله عنه إذا خرج يقول : اللهم إني قد تصدقتُ
بِعِرْضِي عَلَى عِبَادِكَ .

وقال كُثَيْرُ عَزَّةَ :

هَيْتَا مَرِيئًا غَيْرَ دَاءٍ مُخَايِرٍ لِعَزَّةَ مِنْ أَعْرَاضِنَا مَا اسْتَحَلَّتْ
« خَايِرُهُ الدَّاءُ : خَالِطَ جَوْفَهُ ،

وقيل لرجل : فلانُ شَتَمَكَ وَاغْتَابَكَ ، فقال : هو في حلِّ . فقيل : أتَحِلُّ
مِنْ اغْتَابِكَ وَبِهِ يَثْقُلُ مِيزَانُكَ ؟ فقال : لَا أَحِبُّ أَنْ أَثْقَلَ مِيزَانِي
بِأَوْزَارِ إِخْوَانِي .

وقال رجلٌ لابن سيرين : قَدْ نَاتُ دِنَكَ فَاجْعَلْنِي فِي حِلِّ ، فقال : لِأَحِلِّ
مَاحَرَمَ اللَّهِ عَلَيْكَ . أَمَا مَا كَانَ إِلَى فَهْوٍ لَكَ .

من قلت مبالاته بمن اغتابه

قيل للحكيم : فلانٌ يَشْتِمُكَ بِالْغَيْبِ ، فقال : لو ضربني بالسِّبِّ فِي
الْغَيْبِ لَمْ أَبَالِ بِهِ .

وقال شاعر قديم وأنشده هذا الشعر لسيدنا رسول الله العلاء بن الحضرمي :

حَتَّى ذَوَى الْأَضْغَانِ نَسِبِ قُلُوبِهِمْ تَحِيَّتِكَ الْقُرْبَى فَقَدْ تُرْفَعُ النَّعْلُ

وإن دَحَسُوا بِالشَّرِّ فَأَعْفُ تَكْرَمًا وإن خَلَسُوا عَنْكَ الْحَدِيثَ فَلَا تَسَلْ

فإن الذي يُؤذِيكَ مِنْهُ سَمَاعُهُ وإن الذي قالوا وَرَأَاكَ لَمْ يُقَلْ

«دحس بين القوم : أفسد بينهم ، وخذسوا : أخفروا ، يريد : إن فعلوا الشر من حيث لا تعلمه ، وقد تقدمت هذه الآيات
وقال المتوكلُ الخليفة العباسي لأبي العيناء : ما بقىَ أحدٌ إلا آغتابك ا
فقال :

إِذَا رَضَيْتَ عَنِّي كِرَامُ عَشِيرَتِي فَلَا زَالَ غَضَبَانَا عَلَيَّ لِثَأْمِهَا
وقيل لرجلٍ : فلانٌ يغتابك : فقال : دَعْنِي يَسْتَرْفَعْنِي اللَّهُ بِذَلِكَ ، فَمَنْ
أَكْثَرَتِ النَّاسُ فِيهِ الْوَقِيعَةَ رَفَعَهُ اللَّهُ ، وَإِنْ بَنَى أُمَّةً مَا زَالُوا يَشْتُمُونَ عَلَيَّ
ابن أبي طالب ستمين سنة فلم يزدُه اللهُ إلا رِفْعَةً . وقيل لآخر ذلك فقال :
* وَلَمْ يَمُحُ مِنْ نُورِ النَّبِيِّ أَبُو جَهْلٍ *
وقيل لآخر مثله فقال : لا ضيرَ ، إنه أراد أن يمتحنَ وُدِّي ...

ذم ناقص يغتاب فاضلا

قال المتنبي :

وَإِذَا أَتَيْتَكَ مَدْمَيْتِي مِنْ نَاقِصٍ فَهِيَ الشَّهَادَةُ لِي بِأَنِّي كَامِلٌ
وقبله يقول أبو تمام :
لقد آسف الأعداءَ فضلُ ابنِ يوسُفَ
وذو النَّقِصِ فِي الدُّنْيَا بِذِي الْفَضْلِ مُوَلِّعُ
وقبل أبي تمام يقول مروانُ بن أبي حفصة :
مَا ضَرَّنِي حَسَدُ اللَّئِيمِ وَلَمْ يَزَلْ ذُو الْفَضْلِ يَحْسُدُهُ ذَرُّو النَّقِصِ
وأصل هذا المعنى من قول الطَّرْمَاحِ بنِ حَكِيمٍ :
لقد زادني حبًّا لنفسِي أني بغيضٌ إلى كُلِّ امرئٍ غيرِ طَائِلٍ

وَأَنْتَى شَقِيٌّ بِاللَّثَامِ وَلَا تَرَى شَقِيًّا بِهِمْ إِلَّا كَرِيمَ الشَّمَائِلِ
وقد تقدم .

وقالوا : كفى بالمرء شراً أن لا يكون صالحاً وهو يقع في الصالحين .
وبلغ الأحنف بن قيس أن رجلاً يغتابه فقال : عُثَيْثَةٌ تَقْرِضُ جِلْدًا
أَمْلَسًا ... « عثيثة تصغير عثة وهي دوية تلحس الثياب والصوف وأكثر
ما تكون في الصوف ، وهذا مثل قد يضرب للرجل يجتهد أن يؤثر في
الشيء فلا يقدر عليه »

وما يتصل بهذا قولهم :

✽ وما زالت الأشراف تهجى وتمدح ✽

✽ وإنما الغيبة تلقح الشرف ✽ وقولهم :

من رمى غيره بعيه

من هذا قولهم : رَمَيْتَنِي بِدَائِيهَا وَأَنْتَلَّتْ^(١)

وقولهم : عَيْرٌ بُجَيْرٌ بُجْرَةٌ وَنَيْسَى بُجَيْرٌ خَبْرَةٌ . ، قال المفضل الضبي :
بُجَيْرٌ وَبُجْرَةٌ كَانَا أَخَوَيْنِ فِي الدَّهْرِ الْقَدِيمِ وَلَهَا قِصَّةٌ ذَكَرَهَا ، وقال الأزهري
بُجَيْرٌ تَصْغِيرُ الأَبْجَرِ وَهُوَ النَّاتِي السُّرَّةُ وَالْمَصْدَرُ : البُجْرُ فالمعنى : أن ذا
بُجَيْرَةٍ فِي سُرَّتِهِ عَيْرٌ غَيْرُهُ بِمَا فِيهِ « وقول السيد المسيح ما معناه : أُتْبِصِرُ
الْقَدَاةَ فِي عَيْنِ أَخِيكَ وَتَدَعُ الْجِدْعَ الْمُعْتَرِضَ فِي حَلْقِكَ ا

اغتياب المرء غيره يدل على عيبه

قولوا : مَنْ وَجَدْتُمُوهُ عَيَابًا وَجَدْتُمُوهُ مَعِيًّا ، لَأَنَّهُ يَعْيبُ النَّاسَ

(١) إذا أردت الوقوف على أصل هذا المثل فإلى أمثال الميداني

بفضل عَيْبِهِ . وفي هذا المعنى يقول الشاعر :
 وَيَأْخُذُ عَيْبَ النَّاسِ مِنْ عَيْبِ نَفْسِهِ مُرَادُ لَعْمَرَى مَا أَرَادَ قَرِيبُ
 وَقَالُوا : أَعْرَفَ النَّاسِ بَعْوَارِ النَّسَائِ الْمُعْوِرِ . « الْعُورِ : الْعَيْبِ ،
 وَالْمُعْوِرِ : ذُو الْعَيْبِ الْقَبِيحِ السَّرِيرَةِ »

واعتابَ رجل آخر عند بعض الأشراف ، فقال له : يا هذا ، أَوْحَشْتَنَا
 مِنْ نَفْسِكَ ، وَأَيَسْنَا مِنْ مَوَدَّتِكَ ؛ وَدَلَلْنَا عَلَى كَثْرَةِ عُيُوبِكَ بِمَا تَذَكَّرُ مِنْ
 عُيُوبِ النَّاسِ ، لِأَنَّ الطَّالِبَ لِلْعُيُوبِ إِنَّمَا يَطْلُبُهَا بِقَدْرِ مَا فِيهِ مِنْهَا
 وَقَالَ شَاعِرٌ :

وَأَجْرًا مِنْ رَأَيْتُ بَظْهَرَ عَيْبٍ عَلَى عَيْبِ الرَّجَالِ ذُورِ الْعُيُوبِ
 يَقُولُ : أَجْرًا النَّاسِ عَلَى عَيْبِ النَّاسِ بَظْهَرَ الْعَيْبِ هُمْ ذُورُ الْعُيُوبِ ،
 وَالظَّهْرُ : مَا غَابَ عَنْكَ ،

ومما يذكر هنا قول بعض الحكماء : الأشرارُ يَتَّبِعُونَ مَسَاوِيئِ النَّاسِ
 وَيَتْرَكُونَ مَحَاسِنَهُمْ ، كَالذُّبَابِ يَتَّبِعُ الْمَوَاضِعَ الْفَاسِدَةَ مِنَ الْجَسَدِ وَيَتْرَكُ
 الصَّحِيحَةَ .

تشهية الغيبة واستطابتها

قالوا في ذلك : الْغَيْبَةُ فَكْهَةٌ النَّسَاكِ وَالْقُرَاءِ ...
 وَقَصَدَ رَجُلٌ إِلَى ابْنِ عَمِّهِ مُسْتَرْفِدًا ، فَأَحْسَنَ إِلَيْهِ ، فَلَمَّا رَجَعَ سُئِلَ ،
 فَقَالَ : مَتَعَنِي التَّلَذُّذُ بِالْغَيْبَةِ وَالشُّكُورَى .

وقال رجلٌ لبيته : إِذَا اجْتَمَعْتُمْ فَعَلَيْكُمْ حَدِيثَ أَنْفُسِكُمْ وَدَعُوا
 الْإِغْيَابَ ، فَقَالَ أَحَدُهُمْ : نَحْنُ نَحْتَاجُ فِي هَذِهِ السَّنَةِ إِلَى كَذَا وَكَذَا ، وَنَفْعَلُ
 وَنُصْنَعُ كَذَا وَكَذَا ، فَقَدْ فَرَعْنَا مِنْ حَدِيثِنَا ، فِيمَاذَا نَشْتَغِلُ !

من اغتاب فاعتيب

قيل : مَنْ رَحَى النَّاسَ بِمَا فِيهِمْ رَمَوْهُ بِمَا لَيْسَ فِيهِ
 وقيل : بِمَحْثُكَ عَنِ عِيُوبِ النَّاسِ يَدْعُو إِلَى بِحْثِهِمْ عَنِ عِيُوبِكَ .
 وَمَنْ دَعَا النَّاسَ إِلَى ذَمِّهِ ذَمُّهُ بِالْحَنَنِ وَالْبَاطِلِ
 وقال شاعر ظريف :

نَحَلَّكَ بِالسَّبِّ لَمَّا رَأَيْتَ أَدِيمَكَ صَحَّ وَمَنْ سَبَّ سُبَّ
 فَإِنْ لَمْ تَجِدْ فِيكَ مِنْ مَعَمَّرٍ سَلَكْنَا إِلَيْكَ طَرِيقَ السِّكِّدِيبِ

نهيهم عن الإصغاء إلى المغتاب

قالوا : إِذَا رَأَيْتَ مَنْ يَغْتَابُ النَّاسَ فَاجْهَدْ جُهْدَكَ أَنْ لَا يَمْرِكَ ، فَأَشَقَّ
 النَّاسَ بِهِ مَعَارِفَهُ .

وقال عمرو بن عُيَيْدٍ لِرَجُلٍ يَسْتَمِعُ إِلَى آخِرِ يَغْتَابِ : وَيَلْكَ ، نَزَّهُ أُذُنَكَ
 عَنِ اسْتِمَاعِ الْخَنَانَا كَمَا تَنْزُهُ لِسَانَكَ عَنِ التُّنْطُقِ بِهِ .
 وقالوا : * وَالسَّامِعُ الدَّائِمُ شَرِيكَ لَهُ *

وقال بعضُ الْمُتَنَوِّقَةِ : الرَّجُلُ يَقُولُ : سُبْحَانَ اللَّهِ ، وَأَخْشَى عَلَيْهِ بِذَلِكَ
 النَّارَ ، وَهُوَ الَّذِي يَسْتَمِدُّ بِذَلِكَ الْغَيْبَةَ إِذَا سَمِعَهَا ...

الممدوح بصيانة مجلسه عن الغيبة

مَدَحَ بَعْضُهُمْ رَجُلًا فَقَالَ : يَنْزُهُ مَجَالِسَهُ عَنِ الْغَيْبَةِ وَمَسَامِعَهُ عَنِ النِّيمَةِ .
 وقال الشاعر :

إِذَا مَا تَرَاهُ الرِّجَالُ تَحْفَظُوا فَلَمْ تُنْطَقِ التَّوْرَاءُ وَهُوَ قَرِيبُ

« العوراء: الكلمة الفيحة »

حشهم على التثبت فيما يسمع من السعاية

وُشِيَ بِرَجُلٍ إِلَى بِلَالِ بْنِ أَبِي بُرْدَةَ ، فَلَمَّا أُتِيَ بِهِ قَالَ : قَدْ أَنَاكَ كِتَابٌ
 مِنَ اللَّهِ فِي أَمْرِنَا ، فَاعْمَلْ بِهِ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : « إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا
 أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْحَبُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ » ، وَقَالَ : صَدَقَتْ .
 وَأُبْلَغَ أَحَدُ الْمُلُوكِ عَنْ رَجُلٍ مِنْكَرًا ، فَأَمَرَ بِقَتْلِهِ ، فَقَالَ : إِنْ قَتَلْتَنِي
 وَمَنْ سَعَى بِي كَاذِبٌ يَعْظُمُ وِزْرُكَ ، وَإِنْ تَرَكْتَنِي وَهُوَ صَادِقٌ قَلَّ وِزْرُكَ
 وَأَنْتَ مِنْ وَرَاءِ مَا تَرِيدُ ، وَالْعَجَلَةُ مُوَكَّلٌ بِهَا الزَّلَلُ ، فَأَمَرَ بِإِبْقَائِهِ .
 وَقَالَ كَثِيرٌ عَزَّةً :

وإن جاءك الواشونَ عنى بكذبةٍ فَرَوْهَا ولم يأتوا لها بحويل (١)
 فلا تَعْجَلِي يَاعِزَّةً أَنْ تَتَفَهَّمِي بِنُصْحِ أَنْيِ الْوَاشُونَ أَمْ بِحُبُولِ (٢)

وقال عبدة بن الطبيب من أبيات يعظ فيها بنيه :

وَأَعْصُوا الَّذِي يُزِجِي النَّمَائِمَ بَيْنَكُمْ مُتَّصِحًا وَهُوَ السَّهْمُ الْمُنْقَعُ (٣)
 يُزِجِي عِقَارِيهِ لِتَبِيعَتَ بَيْنَكُمْ حَرْبًا كَمَا بَعَثَ الْعُرُوقَ الْأَخْدَعُ (٤)
 حِرَانٌ لَا يَشْفِي غَلِيلَ فُؤَادِهِ عَسَلٌ بِمَاءٍ فِي الْإِنَاءِ مُشْعَشِعُ (٥)

(١) فروها من الفرية ، والحويل : المحاولة

(٢) الحبول : الدواهي

(٣) يزجي : يسوق ، والسهم : السم ، والمنقع : المرابي

(٤) الأخدع : عرق في العنق في موضع الحجامة

(٥) مشعشع : ممزوج

لا تأمنوا قوماً يشبُّ صديهم بين القبائل بالعداوة يُلشعُ (١)
 إن الذين تروؤنهم إخوانكم يشفي غليل صدورهم أن تُصدعوا (٢)
 فضلت عداوتهم على أحلامهم وأبت ضباب صدورهم لا تُنزع (٣)
 قوم إذا دمس الظلام عليهم هَدجوا قنأفد بالنميمة تمزع (٤)

وسعى رجل بالإمام الليث بن سعد إلى والى مصر ، فأحضره ، فقال
 الإمام : إن رأيت أن تسأله : أسراً أتممتته عليه خفاته ، أم كذب افتراه ؟
 والخائن والكاذب لا يُقبل قولها ...

ووثى واث إلى بعض الأمراء وقال : إن فلاناً هجأك ، فأحضره
 وأعلمه ، فقال الرجل : كلا ، فقال : أخبرني بذلك الثقة ، فقال : الثقة
 لا يكون تماماً .

وكان الفضل بن سهل الوزير يُبغض السعاة ، فإذا أتاه ساعٍ يقول :
 إن كنت صادقاً لم ينفعك ذلك عندنا ، وإن كنت كاذباً عاقبناك ، وإن
 شئت أفلناك .

(١) ينشع من نشع فلان بكذا : أولع به

(٢) هذا البيت من شواهد المستد إليه في علم المعاني والشاهد فيه تنبيه المخاطب
 على الخطأ في ظنه ، إذ في قوله : إن الذين من التنبيه على الخطأ ما ليس في قولك
 إن القوم الفلانيين ، وتروئهم : تظنونهم

(٣) الضباب جمع ضب ، والمراد به : الغل الممعن في الصدر إمعان الضب
 في جحره

(٤) دمس الظلام : اشتدت ظلمته ، وهدجوا : مشوا مشية الشيوخ الراجفة
 المتقاربة الخطى ، وهو الهدجان برواية المفضليات : هدجوا اقال شارحها هدجوا :
 رحلوا : أراد : أنهم يسهرون بالنميمة والاحتيال في الشر كما يسهر القنفذ لأنه يسير
 ولا ينام ليله أجمع ، وتمزع ، تسرع

وسأل رجل عبد الملك بن مروان الخَلْوَةَ ؛ فقال لأصحابه : إذا شتمتم^(١)
فلماً تهبأ الرجل للكلام قال له : إياك وأن تمدحني ، فإنني أعرفُ بنفسى منك
أو تكذبتني فإنه لا رأى ليكذوب ، أو تسعَى بأحدٍ إلي ، وإن شئت
أن أقيلك أقبلتكَ ، قال : أظني :

وَوَسَى إِلَى عَبْدِ الْمَلِكِ وَاشٍ فِي أَحَدِ الْكُتَّابِ ، فَوَقَعَ :

أَقِيلُوا عَلَيْهِمْ لَا أَبَا لِأَيِّكُمْ

مِنَ اللَّوْمِ أَوْ سُدُّوا الْمَكَانَ الَّذِي سَدُّوا^(٢)

وقال الواثق لأحمد بن أبي دواد القاضي : مازال القوم في ثلبك إلى
الساعة ، فقال : يا أمير المؤمنين ، لكل امرئٍ منهم ما اكتسب من الإثم ،
والله وليُّ جزائه ، وعقابك من ورائه ، فما الذي قلتَ لهم ؟ قال :
قلت :

وَسَعَى إِلَى بَصْرَمَ عَزَّةَ نِسْوَةً جَعَلَ الْمَلِيكَ يُحْدِثُ دَهْنَ نَعَالَهَا^(٣)

صعوبة التخلص من اغتياب الناس

سأل بعض الأنبياء ربَّه عز وجل أن يدفع عنه ألسنة الناس فلا
يغتابوه ، فقال عز وجل : هذه خصلةٌ لم أجعلها لنفسى فكيف
أجعلها لك !

وقالوا : ليس إلى السلامة من ألسنة الناس سبيل . فانظر إلى ما فيه
صلاحك فالزمه .

(١) تلك كانت عادته إذا أراد انصراف أصحابه يقول : إذا شتمتم

(٢) للحطبة

(٣) لكنير عزة

وقال شاعر :

إذا كنت مَلْحِيًّا مَسِينًا وَمُحْسِنًا فَغَشِيَانُ مَا تَهْوَى مِنَ الْأَمْرِ أَكْبَسُ
« مَلْحِيًّا : لومًا ، ومَسِينًا ومَحْسِنًا : حالان ،

ذم ناقلِ الغيبة

قالوا : من بَلَّغَكَ فقد شتمك . وفي هذا المعنى يقول شاعر :
لِعَمْرِكَ مَا سَبَّ الْأَمِيرَ عَدُوَّهُ وَلَكِنَّمَا سَبَّ الْأَمِيرَ الْمُبَلِّغُ
وقيل لحكيم : فلان عابك بكذا ، فقال : لقد رأيتك تَفَحَّحْتَنِي بما
اسْتَحَى الرَّجُلُ مِنْ اسْتِقْبَالِي بِهِ .

الموصوف بالنيمة

قال سبحانه : (وَلَا تَطْعُمْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ هَمَّازٍ شَاءَ بَنِيمٍ)
وقال بعضهم لآخر : فلان نَمَّ بك ، فقال : إن فلاناً لو كان بينك
وبين الله واسطة لَسَعَى بك إليه .

وقال السري الرفاه :

أَنَّمْ بِمَا اسْتَوْدَعْتُهُ مِنْ زُجَاجَةٍ تَرَى الشَّيْءَ فِيهَا ظَاهِرًا وَهُوَ بَاطِنُ
وقال العباس بن الأحنف :

أَنَاسٌ أَمِنَّا فَنَمُّوا حَدِيثَنَا فَلَمَّا كَتَمْنَا السِّرَ عَنْهُمْ تَقَوَّلُوا

من اغتاب غيره فرآه

اغتاب أعرابي رجلا ، فالتفت فرآه ، فقال لو كان خيراً ما حضرته .

من لا يحرم اغتيابه

قال الحسن البصرى : لا غيبة في ثلاثة : فاسقٍ مجاهر ، وإمامٍ جائر ،
وصاحب بدعة .

حتمهم على التحرز

بما يقتضى الغيبة

قال الحسن البصرى : من دخل مداخلَ التُّهْمَةِ لم يكن له أجرُ الغيبة .
وقالوا : من عرَّضَ نفسه للتُّهْمَةِ فلا يلومنَّ مَنْ أساءَ به الظنَّ
واغتابه .

الباب السادس

في التواضع والكبر

وما إليهما

ولما كان التواضعُ مجلبةً للدودة ، والكبرُ مَذْرَجَةً العداء ، حتى قال بعضهم — وقد قيل له : ما التواضع ؟ فقال : اكتساب المودّة ، فقيل : ما الكبر ؟ فقال : اكتساب البغض — لما كان ذلك كذلك ألْحَقْنَا عبقرياتهم فيهما بباب الحلم وما إليه .

حدّ التواضع والكبر

التواضع فضيلة بين الضّعة والكبر ، قال الراغب : التواضع مُشْتَقٌّ من الضّعة وهو : رضا الإنسان بمنزلةٍ دون ما يستحقه فَضْلُهُ ومنزِلَتُهُ ، وهو فضيلة لا تكاد تظهر في أفناء الناس ، لانحطاطِ درجاتهم ، وإنما يتّبينُ ذلك في الملوّك وأجلاء الناس وعلماهم . وهو من باب التفضّل ، لانه يتركُ بعض حقّه ، قال : وهو بين الكبر والضّعة : فالضّعة : وضعُ الإنسان نفسه بمحلّ يُزري به ، والكبر : وضعُ نفسه فوق قدره ، أو هو : ظنُّ الإنسان أنه أكبر من غيره ، والتكبر : إظهار ذلك . وهذه صفةٌ لا يستحقّها إلا الله عز وجل ، ومن ادعاها من المخلوقين فهو فيها كاذب ، وكذلك صارَ مدحاً في البارئ تعالى ، وذمّاً في البشر ، وإنما شرفُ المخلوق في إظهار العبودية كما قال تعالى : لن يُسْتَنْكِفَ المسيحُ أن يكون عبداً لله

ولا الملائكة المقربون ، تنسبها على أن ذلك لهم رفعة لا ضعة : قال : والتكبر يتولد من الإعجاب ، والإعجاب من الجهل بحقيقة المحاسن ، والجهل رأس الانسلاخ من الإنسانية ، ومن الكبر الامتناع عن قبول الحق ، وأقبح كبر ما كان معه بُخل ، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام : **تخصّتان لا يجتمعان في مؤمن : الكبر والبخل ، واستحسِن قول الشاعر :**

جَمَعْتَ أَمْرَيْنِ ضَاعَ الْحَزْمُ بَيْنَهُمَا نَفْسُ الْمَلُوكِ وَأَخْلَاقُ الْمَمَالِكِ

ومن تكبر لرياسة نالها دل على دناءة عنصريه ، ومن تكبر لثنيته جهل أن ذلك ظل زائل وعارية مُستردّة ، ومن تفكّر في ذاته فعرف مبدأه ومُنتهاه وأواسطه عرف نفسه وروض كبره ، وقد نبّه الله على ذلك بقوله : (**فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ، خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ يُخْرَجُ مِنْ بَيْنِ الثَّنَائِبِ وَالتَّرَائِبِ**) (١) ، وقال : (**قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ، مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ**) ، وقال : (**إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ**) (٢) ، ثم قال : **وَأَمَّا الْعِزَّةُ فَهِيَ : التَّرْفَعُ بِالنَّفْسِ عَمَّا يَاجِدُهُ مِنْهُ غَضَاضَةً ، وَالْعِزَّةُ مَنْزِلَةٌ شَرِيفَةٌ ، وَهِيَ نَتِيجَةُ مَعْرِفَةِ الْإِنْسَانِ بِقَدْرِ نَفْسِهِ وَإِكْرَامِهَا عَنِ الضَّرَاعَةِ لِلْأَعْرَاضِ الدِّنيَوِيَّةِ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : (وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَالمُؤْمِنِينَ) ، وَفِي الْحَدِيثِ : « لَا يَفْبَغِي المُؤْمِنُ أَنْ يُذِكَ نَفْسَهُ »** ولذا قالوا : **التكبر على الأغنياء تواضع ، تنبها على أن هذا التكبر عزّة**

(١) الترائب موضع الفلادة من الصدر ، وقيل : الترائب : أربع أضلاع من يمين الصدر وأربع من يسره وقال الفراء : يعني صلب الرجل - العظم من لدن الكاهل إلى العجب - وترائب المرأة

(٢) الأمشاج : الأخلط : ماء الرجل وماء المرأة أو النطفة

نفس ، وقال ابن مسعود : من خضع لغني فوضع نفسه عنده طمعاً فيه ذهب ثلثا دينه وشطرُ مِرْوَةٍ . أقول ولهذا باب سيمر عليك .

حشهم على التواضع

قال سيدنا رسول الله : « طُوبَى لمن تواضع في غير مُنْقَصَةٍ ، وذلٌّ في نفسه في غير مسكنة . » في غير منقصة : بأن لا يضع نفسه بمكان يُزرى به ، ويُودى إلى تضييع حقِّ الحق — الله سبحانه — أو الخلق ، فإن القصد بالتواضع خفضُ الجناح للثومين مع بقاء عزة الدين . روى أن رجلاً مر على عمر وقد تخشع وتذلَّل وبائع في ذلك ، فقال عمر : ألسنتَ مُسْلِماً ؟ قال بلى ، قال : فارْفَعْ رأسك وامتدِّ عنقك فإن الإسلام عزيز منيع ؛ أما كلمة طوبى فللعلماء فيها كلام كثير فمن ذلك قول بعضهم : طوبى : اسم الجنة بالهندية ، قال الصاغاني : فعلى هذا يكون أصلها توبى ، بالتاء ، فإنه ليس في كلام العرب طاء ، وقال قتادة : طوبى كلمة عربية تقول العرب : طوبى لك إن فعلت كذا وكذا ؛ قالوا : ومعنى طوبى لفلان : الحسنى والخير له . وكان رسول الله صلى عليه وسلم مثلاً أعلى للتواضع ، قال أبو أمامة رضى الله عنه : خرج علينا رسول الله مُتَّكئاً على عصا ، فقمنا له ، فقال : لا تقوموا كما تقوم الأعاجم يُعَظَّمُ بعضهم بعضاً ، وقال : إنما أنا عبدٌ آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد^(١) وكان صلوات الله عليه يركب الحمار ويُردف خلفه ،

(١) اختلف العلماء في القيام للتعظيم المعتاد ، فقيل : مكروه استدلالاً بهذا الحديث ونظائره ، وذهب بعضهم إلى حرمة وقال بعض الأئمة : إنه مستحب لأهل العلم والصلاح

ويعود المساكين ، ويجالس الفقراء ، ويجيب دعوة العبد ، ويجلس بين أصحابه مختلطاً بهم ، حينما انتهى به المجلسُ جلس... ومن حديث عمر عنه صلى الله عليه وسلم : لا تُظْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ ^(١) ، إنما أنا عبدٌ ، فقولوا : عبدُ الله ورسوله .

وعن عائشة رضى الله عنها : أنه صلوات الله عليه كان في مَهْنَةِ أهله - خدمتهم - يَفْقَى ثوبه ، وَيَحْبِبُ شاتِه ، وَيَرْقَعُ ثوبه ، وَيَخِصِفُ نعلَه ؛ وَيُقِمُّ البيت - يَكْنِسُه وَيَزِيلُ قمامته - وَيَخْدُمُ نفسه ، ويعقل البعير - يربطه من رجله بالعقال - ويملف ناصحه - الجمل الذي يُسْتَقَى عليه الماء - ويأكل مع الخادم ، وَيَعِجُنُ معها ، ويحمل بضاعته في السوق . وأخباره في تواضعه صلوات الله عليه كثيرة متوافرة تراها في كتب الشائيل والحديث .

وفي المثل : تَوَاضَعُ الرَّجُلُ فِي مَرْتَبَتِهِ ذَبًّا لِلشَّامَةِ عِنْدَ سَقَطَتِهِ .

وقال عروة بن الزبير : التواضع أحد مصائد الشرف ، وفي لفظ :

«سَلَّمَ الشرف»

وقال عبد الله بن المعتز : مُتَوَاضِعُ الْعُلَمَاءِ أَكْثَرُهُمْ عِلْمًا ، كَمَا أَنَّ الْمَكَانَ

المنخفض أكثر الأماكن ماءً .

وللحكام العدول ، بل قد يجب إذا خشى من تركه ضرر كجباة الملوك ، ويستحب لمن قدم من سفر ولذوى الأرحام تكريماً لهم وبراً بهم ، والمنهى عنه إنما هو ما كان على سبيل الرياء والتكبر ، وإنما ناهم صلوات الله عليه لئلا يظنوه سنة

(١) الاطراء : مجاوزة الحد في المدح والكذب فيه وبذلك فسر الحديث وفي

معنى الحديث قال ابو بصيرى :

دَعَّ مَا دَعَّتْهُ النَّصَارَى فِي نَبِيِّهِمْ وَأَحْكَمُ بِمَا شَدَّتْ مَدْحًا فِيهِ وَأَحْتَكِمُ

وقالوا: من وضع نفسه دون قدره رفعه الناس فوق قدره، ومن رفعها عن حده وضعه الناس دون قدره.

وقال جعفر بن محمد: رأس الخير التواضع، فقيل له: وما التواضع؟ فقال أن ترضى من المجلس بدون شرفك، وأن تُسَلِّمَ على من لقيت، وأن تترك المراءَ وإن كنت مُحِقًّا، وأن تكره الرياءَ والسُّمعةَ.

وقالوا: التواضع نعمة لا يَفِظُنُ لها الحامد.

وقالوا: التواضع كالوهداة يجتمع فيها قطرُها وقطرُ غيرها.

وقال عمر: أريد رجلا إذا كان في القوم وهو أميرهم كان كبعضهم، فإذا لم يكن أميراً فكان أنه أميرهم.

وقال رضى الله عنه حين نظر إلى بض السراة مُبتدِلاً لأصحابه: هذا رجلٌ يَفِرُّ من الشرف والشرف يتبعه.

وقد مدح الشعراء المتواضعين فن ذلك قول أبي تمام:

مُتَبَدِّلٌ فِي الْقَوْمِ وَهُوَ مُبَجَّلٌ مُتَوَاضِعٌ فِي الْحَيِّ وَهُوَ مُعْظَمٌ

وقال آخر:

مُتَوَاضِعٌ وَالنُّبْلُ يَحْرُسُ قَدْرَهُ وَأَخُو النَّبَادَةِ بِالنَّبَاهَةِ يَنْبُلُ

وقال البحرى:

دَنَوْتَ تَوَاضِعًا وَعَلَوْتَ بَجْدًا فَشَأْنَاكَ انْحِدَارٌ وَارْتِفَاعٌ
كَذَلِكَ الشَّمْسُ تَبْعُدُ أَنْ تُسَامَى وَيَدْنُو الضَّوُّ مِنْهَا وَالشُّعَاعُ

وقال أبو محمد التيمي:

تَوَاضِعٌ لِمَا زَادَهُ اللَّهُ رِفْعَةً وَكُلُّ رَفِيعٍ قَدْرُهُ مُتَوَاضِعٌ

وقال أبو بكر الخوارزمي :
عَجِبْتُ لَهُ لَمْ يَلْبَسِ الْكِبَرَ حُلَّةً وَفِينَا إِذَا جُرْنَا عَلَى بَابِهِ كِبَرُ

ذمهم التكبر

قال الله تعالى : إنه لا يُحِبُّ الْمُتَكَبِّرِينَ . وقال سبحانه : كَذَلِكَ نَطْبَعُ
عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مَتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ . وقال : فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها
فإنسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ . وقال : سأصريف عن آياتي الذين يتكبرون في
الأرض بغير الحق .

ودخل الفضل بن يحيى ذات يوم على أبيه وهو يتبخر في مشيته ، فقال له
يحيى : يا أبا عبد الله ، إن البخل والجهل مع التواضع ، أزين بالرجل من
الكبر مع السخاء والعلم ، فيالها من حسنة غطت على عيين عظيمين ، ويالها
من سيئة غطت على حسنتين كبيرتين ، ثم أوما إليه بالجلوس وقال : احفظه
يا أبا عبد الله فإنه أدب كبير أخذناه عن العلماء ...

وهذا كما قال حكيم : وَجَدْنَا التَّوَّاضِعَ مَعَ السَّخَاةِ وَالبُخْلَ أَحْمَدَ عِنْدَ الْعُقَلَاءِ
مِنَ الْكِبَرِ مَعَ الْإِدْبِ وَالسَّخَاةِ ، فَأَنْبِلُ بِحَسَنَةِ غَطَّتْ سَيِّئَتَيْنِ ، وَأَقْبِحُ
بَسِيئَةَ غَطَّتْ عَلَى حَسَنَتَيْنِ !

وقال علي بن أبي طالب : عَجِبْتُ لِلتَّكْبَرِ الَّذِي كَانَ بِالْأَمْسِ نَظْفَةً
وهو غداً جيفة . وقال بعض الشعراء :

يَأْمُظْهَرُ الْكِبَرُ إِعْجَابًا بِصَوْرَتِهِ أَنْظُرْ خَلَاءَكَ إِنْ النَّتْنِ تَشْرِيبُ
لَوْ فَكَّرَ النَّاسُ فِيمَا فِي بُطُونِهِمْ مَا اسْتَشْفَرَ الْكِبَرُ شُبَّانًا وَلَا شَيْبُ
هَلْ فِي ابْنِ آدَمَ غَيْرَ الرَّأْسِ مَكْرَمَةٌ وَهُوَ بِخَمْسٍ مِنَ الْأَذْيَانِ تَشْرِيبُ

أَنْفٌ يَسِيلُ وَأُذُنٌ رِيحُهَا سَهْلٌ وَالْعَيْنُ مُرْدَصَةٌ وَالشَّعْرُ مَلْعُوبٌ
 يَابِنُ الشَّرَابِ وَمَا كَوْلُ التَّرَابِ غَدًا أَقْصِرُ بِإِنَّكَ مَا كَوْلُ وَمَشْرُوبٌ
 وَقَالُوا : دَعِ التَّكْبُرَ ، فَتَى كُنْتَ مِنْ أَهْلِ النَّبْلِ لَمْ يَبْضُرَكَ التَّبْدُلُ ، وَمَتَى
 لَمْ تَكُنْ مِنْ أَهْلِهِ لَمْ يَنْفَعَكَ النَّبْلُ .

بعض دواعي التكبر

قال المأمون : ما تكبر أحدٌ إلا لِنَقْصِ وَجَدِهِ فِي نَفْسِهِ .
 وقال حكيم : ما تعاطم أحدٌ على مَنْ دونه إلا تصاغر لمن فوقه
 وقالوا : مائة إلا وضيع ، ولا فآخر إلا سقيط ، ولا تعظم إلا
 لقيط . « السقيط : الأحمق الناقص العقل ، واللقيط : الطفل الذي يوجد
 مرمياً على الطرق لا يعرف أبوه ولا أمه ،

وقال يحيى بن خالد بن برمك : كنت ترى أحداً تكبر في إمارته
 إلا وهو يعلم أن الذي نال هو فوق قدره ، ولست ترى أحداً يضع
 نفسه في إمارة إلا وهو في نفسه أكثر مما نال .

وقيل لبعضهم : فلان غيّرته الإمارة فقال : إذا ولي الرجل
 ولاية فرأها أكثر منه تغير ، وإذا ولي ولاية يرى أنه أكثر منها
 لم يتغير .

وقالوا : من نال منزلة فأبطرته دل على رداة أصله وعنصره .
 وقال بعض المتصوفة : اللثام إذا تمّولوا استظالوا ، وإذا افتقروا تواضعوا
 والكرام إذا تمّولوا تواضعوا ، وإذا افتقروا استظالوا .
 وقال الجاحظ من كلمة له : والكبر في الأجناس الذليلة أرسخ ، ولكن

القِلَّةَ والذلةَ مانعتان من ظهور كِبَرِهِمْ ، وَمَنْ قَدَرَ مِنَ الوَضْعَاءِ أَدْنَى قَدْرَةَ
ظَهَرَ مِنْ كِبَرِهِ مَا لَا خِفَاءَ بِهِ ، وَلَمْ أَرَ ذَا كِبَرٍ قَطُّ عِلًّا مَنْ دُونَهُ إِلَّا وَهُوَ
يَبْذُلُ لِمَنْ فَوْقَهُ بِمَقْدَارِ ذَلِكَ وَوِزْنِهِ ...

متكبر ذنى أو فقير

قالوا: أبغض الناس ذو عُسْرِ يَخْطُرُ فِي رِءَاءِ كِبَرٍ .
ومن قولهم في ذلك: أَنْفٌ فِي السَّمَاءِ وَأَسْتُ فِي الْمَاءِ

مدحهم معرفة الرجل قدر نفسه

وذمهم الصلف

وبعض نوادر المزهوين

قال علي بن أبي طالب: لَنْ يَهْلِكَ أَمْرٌ عَرَفَ قَدْرَهُ .
وقال المتنبي:

وَمَنْ جَهِلَتْ نَفْسُهُ قَدْرَهُ رَأَى غَيْرَهُ مِنْهُ مَا لَا يَرَى
وقال سيدنا رسول الله: ثَلَاثٌ مَهْلِكَاتٌ: شُحٌّ مُطَاعٌ، وَهَوَى مُتَّبَعٌ،
وإِعْجَابُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ .

وقالوا: عَجِبُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ أَحَدُ حُسَادِ عَقْلِهِ .

وقال أعرابي لرجل مهجَّبٍ بنفسه: يَسْرُنِي أَنْ أَكُونَ عِنْدَ النَّاسِ مِثْلَكَ
فِي نَفْسِكَ ، وَعِنْدَ نَفْسِي مِثْلَكَ عِنْدَ النَّاسِ ...

وكان رجل يسمى أبا ثَوَابَةَ أَقْبَحَ النَّاسِ كِبَرًا ، بِمَعْنَى فِي الصَّلْفِ ،
رَوَى أَنَّهُ قَالَ لِغُلَامِهِ: آسَقِنِي مَاءً ، فَقَالَ: نَعَمْ ، قَالَ: إِنَّمَا يَقُولُ «نَعَمْ»

من يقدر على أن يقول «لا»، وأمر بضربه... ودعا أكاراً فكلمه ، فلما فرغ دعا بماء وتمضمض ، استنذاراً لمخاطبته ...

ومن المعجبين بأنفسهم المغالين في العزة وإن كان إلى ذلك من الشخصيات الضخمة الكريمة النبيلة المحترمة عمارة بن حمزة^(١)، روى: أنه دخل على المهدي الخليفة العباسي ، فلما استقر به الجلوس ، قام رجلٌ كان المهدي قد أعد له لتهيئتهم به ، فقال : مظلومٌ يا أمير المؤمنين قال : من ظلمك ؟ قال : عُمارة غَصَبَتِي ضَيْعَتِي ، وذكر ضيعةً من أحسن ضياع عُمارة وأكبرها خراجاً ، فقال المهدي لعُمارة : قُمْ فَاجْلِسْ مع خَصْمِكَ ، فقال : يا أمير المؤمنين ، ما هو لي بخَصْمٍ ، إن كانت الضيعةُ له ، فلستُ أنازعه فيها ، وإن كانت لي فقد وهبتها له ، ولا أقوم من مجلسٍ شرفني به أمير المؤمنين ، فلما انصرف المجلس سأل عُمارة عن صفة الرجل ، وما كان لبأسه ، وأين كان موضعُ جلوسه ... وكان من تبهه أنه إذا أخطأ يمر على خطئه ، تكبراً عن الرجوع ويقول : نقض وإبرام في ساعة واحدة ! الخطأ أهون من ذلك ...

ومن المفرطين في التكبر رجل يسمى عبيد الله بن زياد بن ظبيان ، قال له رجل من قومه وقد رأى منه ما أعجبه : كَثُرَ اللهُ فِينَا مِثْلَكَ ، فقال : لقد كلفتمُ اللهُ شَطَطًا ...

وهناك من نوادر المتكبرين المستطرفة ما لا يتسع له معجمنا هذا .

(١) ترجم له ياقوت في معجم الادباء ترجمة وافية

معتذر لعجبه وعزته

قيل لإياس بن معاوية^(١) : ما فيك عيب غير أنك مُعَجَّبٌ ، فقال :
 « يُعْجِبُكُمْ مَا أَقُولُ ؟ قَالُوا : نَعَمْ ، فَقَالَ : فَأَنَا أَحَقُّ أَنْ أُعْجَبَ بِهِ ... »
 وقال بعض المعجبين :

يقولون : ذُو كِبَرٍ وَلَوْ خُصَّ بَعْضُهُمْ بِيَعْضِ خِصَالِي مَا اسْتَفَاقَ مِنَ الْكِبَرِ
 وقال رجل لبعض المزهوين : مَا أَعْظَمَكَ فِي نَفْسِكَ ! فَقَالَ : لَسْتُ
 بِعَظِيمٍ ؛ وَلَكِنِّي عَزِيزٌ ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى : وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ . وَفِي
 هَذَا الْمَعْنَى يَقُولُ بَعْضُهُمْ :

وَمَا أَنَا مَزْهُوٌّ وَلَكِنِّي فَتَى أَبَتْ لِي نَفْسٌ حُرَّةٌ أَنْ أُذِيَلَهَا
 « أَذِيَلَهَا : أَهِنَهَا » وَهَذَا مِنْ قَبِيلِ قَوْلِ الْقَائِلِ :
 وَأَكْرَمُ نَفْسِي أَنِّي إِنْ أَهَنْتَهَا وَحَقَّقْتُ لَمْ تَكْرُمْ عَلَيَّ أَحَدٍ بَعْدِي
 ولمثل هذا المعنى باب سائتوعب عقرياتهم فيه .

التكبر على ذوى الكبر

سئل الحسن البصرى عن التواضع ، فقال : هو التكبر على الأغنياء
 « يريد : الترفع وعدم التذلل لهم طمعاً في مالهم أو جاههم »
 وأنشد المبرد :

إِذَا تَاهَ الصَّدِيقُ عَلَيْكَ كَبْرًا فَتَنَّهُ كِبْرًا عَلَى ذَاكَ الصَّدِيقِ

(١) الذى يضرب به المثل فى الذكاء والفتنة ، ولاه عمر بن عبد العزيز قضاء
 البصرة ، ترجم له ابن خلكان .

فإنجابُ الحقوقِ إغيرِ راعٍ حُقُوقَكَ رأسُ تضييعِ الحقوقِ
وقال الأصمعي : قال رجل : ما رأيت ذا كبرٍ قط إلا تحول داؤه
في . « يريد : أنى أتكبر عليه » ، وقال آخر : ما تاه أحدٌ قط على مرتين
« يريد : أنه إذا تاه مرة لم أعاوده وتركته وأعرضت عنه »
وقال عدى بن أرطاة وهو أمير لو كيع بن الأسود : سوَّ على ثيابي ،
فقال : * ذكُرْتُني الطعنَ وكنْتُ ناسياً ^(١) في خَفِي ضَيْقِ فُلَيْمِدَةَ الأَمِيرِ حَتَّى
أَنْزِعَهُ ، فقال له عدى : إن الجليسَ لَيَبِي من جليسه أكثر من هذا ، فقال
يا عدى ، إذا عُرِلتَ عَنَّا فَكَلِّفْنَا أَكْثَرَ من هذا ، أمَّا وأنت ترى لك علينا
بسطة فلا ...

ذمهم الإفراط في التواضع

قالوا : مِنَ التَّوَّاضِعِ مَا يَضَعُ
وقال عبد الله بن المقفع : الإفراط في التواضع يوجب المذلة ، والإفراط في
المؤانسة يوجب المهانة .

حمد تعظيم الكبار

قَدِمَ قَيْسُ بْنُ عَاصِمِ الْمِنْقَرِيِّ سَيِّدَ أَهْلِ الْوَبْرِ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

(١) قال الميداني - وأورده في أمثاله - : أصله أن رجلاً حمل على رجل ليقته ،
وكان في يد المحمول عليه رمح : فأنساه الدهش والجزع ما في يده ، فقال له الحامل :
ألقى الرمح ، فقال الآخر . وأن معنى رمحا لا أشعر به ؟ ذكرتني الطعن ... المثل وحمل
على صاحبه فطعنه حتى قتله . يضرب في تذكرو الشيء بغيره .

وسلم ، فبسط له رداءه ، ثم قال : إذا أناكم كريم قوم فأكرموه .
وروى أن مجوسياً دخل على رسول الله . فأخرج صلوات الله عليه
من تحته وسادة حشوها ليف ، وطرحها له ، وأقبل عليه يحدثه ، فلما نهض
قال عمر : إنه مجوسى فقال عليه الصلاة والسلام : قد علمت ، واكن
جبريل يا منى أن أكرم كل كريم قوم إذا أتى ، وهذا سيد قومه .
وركب زيد بن ثابت رضى الله عنه ^(١) ، فدنا منه عبد الله بن عباس
بأخذ بركابه ، فقال : مات فعل يا ابن عم رسول الله ؟ فقال . هكذا أمرنا
ن فعل بأمرائنا ^(٢) ، فقال زيد : أرني يدك ، فأخذها وقبلها ، وقال : هكذا
رنا أن نفعل بأهل بيت نبينا .

(١) هو الصحابي العالم الجليل ، كاتب الوحي ، وجامع القرآن في عهد أبي بكر
وقال فيه أبو بكر : إنك شاب عاقل لا تهتك ، وكان أحد فقهاء الصحابة الجلة
الفراض - علماء المواريث - مات في عهد مروان بن الحكم
(٢) ورد أن النبي صلوات الله عليه ، سلم زيد بن ثابت الراية في إحدى الغزوات
وأمره على الجيس فيها

الباب السابع

في الشجاعة وعبقرياتهم فيها

وفي الصبر في القتال

وسائر ما يتصل بالحرب

ودونك ما وقع عليه الاختيارُ من عبقرياتهم في الشجاعة والصبر في الحروب، وسائر ما ينعطف على هذه المعاني وينشعب به القول فيما وأنت فقد علمت مما أسلفنا عليك في باب الصبر أن الشجاعة لون من ألوانه . ومن ثم أردفنا القول على الأبواب السابقة — وهي جميعاً من ألوان الصبر — بالقول على الشجاعة وما إليها .

حقيقة الشجاعة

قالوا : الشجاعة : فضيلةٌ بين التهور والجبن .

وفي الأثر : الشجاعة غريزة يضعها الله فيمن يشاء من عباده .

وسُئِلَ بعضهم عن الشجاعة فقال : جِسْلَةُ نَفْسٍ أَيْبَةٍ .

وقيل لبعضهم : ما الشجاعة ؟ فقال : صبر ساعة .

وقال بعض المجرّبين : الرجال ثلاثة : فارس ، وشجاع ، وبطل ؛ فالفارس

الذي يَشُدُّ إِذَا شَدُّوا ، والشجاع : الداعي إلى البرّاز والمُجِيبُ داعِيَهُ ،

والبطل : الحامى يُظهور القوم إذا ولّوا ...

ويروى أن زياد بن أبيه كتب إلى ابن عباس : أن صِف لي الشجاعة والجهن والجود والبُخل ، فكتب إليه : كتبت تسألني عن طبائع رُكبت في الإنسان تركيب الجوارح ، اعلم أن الشجاع يقاتلُ عمن لا يعرفه ، والجهن يفرُّ عن عرسه — زوجه — وأن الجواد يُعطى من لا يلزمه وأن البخيل يُمسك عن نفسه .

الأسباب المشجعة

قال الجاحظ : الأسباب المشجعة قد تكون عن الغضب ، والشراب^(١) والهوج^(٢) ، والغيرة ، والحمية ، وقد تكون مرقوة النفج^(٣) وحبُّ الأحدثوة ؛ وربما كان طبعاً ، كطبع الرحيم ، والسخي ، والبخيل ، والجزوع والصبور ؛ وربما كان للدين ، ولكن لا يبأع الرجل للدين ما لم يشيعه بعض ما تقدم ، لأن الدين يجتلب مكتسب ، ولا يكاد يباغ الطبيعة .
وقالوا : لا يصدق القتال إلا ثلاثة : مُتدين ، وغيران ، ومتمعض من ذل .

(١) المراد : الخمر

(٢) الهوج : الطيش والحق والتسرع

(٣) النفج : افتخار المرء بما ليس فيه .

حُثُّهُمْ عَلَى الثَّبَاتِ وَالْإِقْدَامِ

وَنَهَيْهِمْ عَنِ الْإِحْجَامِ وَالْفَسْكَرِ فِي الْعَوَاقِبِ

قال الله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا
فَلَا تُؤَاوِمُوا الْآدِبَارَ) ... « زَحَفًا حَالٌ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ، وَالزَّحْفُ :
الْجَيْشُ الْكَثِيرُ الَّذِي يُرَى لِكَثْرَتِهِ كَأَنَّهُ يَزْحَفُ ، : أَي يَدِبُ دَيْبِيًّا ،
مِنْ زَحَفَ الصَّبِيِّ : إِذَا دَبَّ عَلَى آسْتِهِ قَلِيلًا قَلِيلًا ؛ سُمِّيَ بِالمَصْدَرِ ، وَالْجَمْعُ :
زُحُوفٌ ، وَالْمَعْنَى : إِذَا لَقِيتُمُوهُمْ لِلْقِتَالِ وَهُمْ كَثِيرٌ مُتَوَافِرُونَ وَأَنْتُمْ قَلِيلٌ
فَلَا تَفِرُّوا ، فَضْلًا أَنْ تُتَدَاوِمُوا فِي الْعَدَدِ ، أَوْ تُسَاوِمُوهُمْ ... وَقَالَ سُبْحَانَهُ :
(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِتْنَةً فَانْتَبِتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ
تُفَاجِحُونَ ، وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ
وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ) ... « إِذَا لَقِيتُمْ فِتْنَةً : إِذَا حَارَبْتُمْ جَمَاعَةً ،
فَانْتَبِتُوا : لَا تَفِرُّوا ، وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا : إِذْ كَرِهَ سُبْحَانَهُ فِي مَوَاطِنِ
الْحَرْبِ ، مُسْتَظْهِرِينَ بِذِكْرِهِ مُتَرَقِّبِينَ لِنُصْرِهِ ، وَفِي هَذَا إِشْعَارٌ بِأَنَّ عَلَى
الْإِنْسَانِ أَنْ لَا يَفْتُرَ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ أَشْغَلَ مَا يَكُونُ قَلْبًا وَأَكْثَرَ مَا يَكُونُ
هَمًّا ، وَأَنْ تَكُونَ نَفْسُهُ مُجْتَمِعَةً لِذَلِكَ وَإِنْ كَانَتْ مُتَوَزَّعَةً عَنْ غَيْرِهِ ، وَفِشَلُ
يَفْشَلُ : ضَعْفٌ وَجَبُنٌ وَذَهَبَتْ قُوَاهُ ؛ يَقُولُ سُبْحَانَهُ : إِذَا اخْتَلَقْتُمْ
ضَعُفْتُمْ وَإِذَا اتَّفَقْتُمْ كُتِمَ أَقْوِيَاءُ ، وَالرِّيحُ : الدَّوْلَةُ ، سُبِّهَتْ فِي نَفُوذِ أَمْرِهَا
وَتَمَثُّلِيهِ بِالرِّيحِ وَهَبُوبِهَا ، وَمَنْ ذَا يَقَالُ : هَبَّتْ رِيحُ فُلَانٍ : إِذَا دَالَتْ لَهُ
الدَّوْلَةُ وَنَفَذَ أَمْرَهُ »

وقال أبو بكر الصديق لخالد بن الوليد حين وجهه لقتال أهل الردة :

أَحْرِصْ عَلَى الْمَوْتِ تُوَهِّبْ لَكَ الْحَيَاةَ .

وقالوا : من فَكَّرَ فِي الْعَوَاقِبِ لَمْ يَشْجَعْ .

وقالوا : السَّلَامَةُ فِي الْإِقْدَامِ ، وَالْحَمَامُ فِي الْإِحْجَامِ .

وتقول العرب : الشَّجَاعُ مَوْتِي . وَأَيُّ تَنْهَيْبِهِ الْأَقْرَانُ فَيَتَحَامَوْنَهُ

فَيَكُونُ ذَلِكَ وَفَايَةَ لَهُ «

وَأَسْتَشِيرَ أَكْثَمُ بْنُ صَيْفِيٍّ فِي حَرْبٍ أَرَادُوهَا فَمَقَالَ : أَقِلُّوا الْخِلَافَ

لَا مَرَاتِنَكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ كَثْرَةَ الصَّيَاحِ مِنَ الْفُشْلِ ، وَالْمَرَّةُ يَعْجِزُ لِاحْوَالِهِ (١)

وَأَدْرِعُوا اللَّيْلَ فَإِنَّهُ أَخْفَى لِلرَّيْلِ .

وقال هانئ بن مسعود الشيباني يرمي ذي قار يُحَذِّرُ قَوْمَهُ : إِنْ الْحَذَرَ

لَا يُنْجِي مِنَ الْقَدْرِ ، وَالصَّبْرُ مِنْ أَسْبَابِ الظُّفْرِ ، وَالْمَنِيَّةُ وَاللَّدِينِيَّةُ ، وَاسْتِقْبَالَ الْمَوْتِ خَيْرٌ مِنْ اسْتِدْبَارِهِ ، وَالطَّعْنَ فِي نُفُورِ النَّحُورِ أَكْرَمُ مِنْهُ فِي الْأَعْجَازِ وَالظُّهُورِ ، وَهَالِكٌ مُعْذَرٌ خَيْرٌ مِنْ نَاجٍ فَرُورٌ ...

وقال أبو مسلم الخراساني لبعض قواده : إِذَا عَرَضَ لَكَ أَمْرٌ نَازِعٌ

فِيهِ مَنَازِعَانِ ، أَحَدُهُمَا يَبْعَثُ عَلَى الْإِقْدَامِ وَالْآخَرُ عَلَى الْإِحْجَامِ ، فَاقْدُمْ ، فَإِنَّهُ أَدْرَكَ لِلنَّارِ ، وَأَنْفَى لِلْعَارِ .

وقالت الخنساء :

نُهِنَ النُّفُوسَ وَهَوَّنَ النَّفُوسَ فِي يَوْمِ الْكَرْبَةِ أَوْقَى لَهَا

وقيل للمهلب بن أبي صفرة : إِنَّكَ كَتَلْتَنِي نَفْسَكَ فِي الْمَهَالِكِ ، فَقَالَ :

إِنْ لَمْ آتِ الْمَوْتَ مُسْتَرِيلاً ، أَتَانِي مُسْتَعْجِلاً ، إِنْ لَسْتُ آتِيَ الْمَوْتَ مِنْ

(١) مثل معناه : لَا تَضِيقِ الْحَيْلَ وَمَخَارِجَ الْأُمُورِ إِلَّا عَلَى الْعَاجِزِ ، وَالْحَالَةِ :

حُبِّهِ وَإِنَّمَا آتِيهِ مِنْ بُغْضِهِ ، ثُمَّ تَمَثَّلَ بِقَوْلِ الْحَصِينِ بْنِ الْحَمَامِ الْمُرِّيِّ (١) :
تَأَخَّرْتُ أَسْتَبْقِي الْحَيَاةَ فَلَمْ أُجِدْ لِنَفْسِي حَيَاةً مِثْلَ أَنْ أَتَقَدَّمَ
« وَهِيَ آيَاتٌ مَشْهُورَةٌ يَقُولُ فِيهَا :

فَلَسْنَا عَلَى الْأَعْقَابِ تَدْمَى كَلُومُنَا وَلَكِنْ عَلَى أَقْدَامِنَا تَقْطُرُ الدَّمَا

نُفْلَقُ هَامًا مِنْ رِجَالِ أَعِزَّةٍ عَلَيْنَا وَهُمْ كَانُوا أَعَقَى وَأَظْلَمَا

« وَمَعْنَى تَأَخَّرْتُ ... أَلْبَيْتِ : لَمَّا تَأَخَّرْتُ طَمَعْتُ فِي الْعَدُوِّ ، وَظَنَنْتِي

جَبَانًا فَاجْتَرَأْتُ عَلَيَّ ، لِأَنَّ كُلَّ أَحَدٍ يَطْمَعُ فِي الْجَبَانِ ، وَمَنْ ثُمَّ كَانَ الْقَتْلَ

إِلَى الْجَبَانِ أَسْرَعَ ، فَتَقَدَّمْتُ ، فَكَانَ التَّقَدُّمُ أُنْجَى لِي ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ

الْمَعْنَى : أَحْبَبْتُ مُسْتَبْقِيًا لِحَيَاتِي ، فَلَمْ أُجِدْ لِنَفْسِي حَيَاةً كَمَا يَكُونُ فِي الْإِقْدَامِ

وَذَلِكَ أَنَّ الْأُحْدُوثَةَ الْجَمِيلَةَ إِنَّمَا تَكُونُ بِالتَّقَدُّمِ لَا بِالتَّأَخُّرِ . وَمَعْنَى فَلَسْنَا

عَلَى الْأَعْقَابِ ... أَلْبَيْتِ : نَحْنُ لَا نُؤَلِّي فَنُجْرَحَ فِي ظَهْرِنَا فَتَقْطُرَ دِمَاؤُنَا

عَلَى أَعْقَابِنَا ، وَلَسْنَا نَسْتَقْبِلُ السِّيفَ بِوُجُوهِنَا ، فَإِنَّ أَصَابَتَنَا جِرَاحٌ

تَقْطُرُ دِمَاؤُنَا عَلَى أَقْدَامِنَا ، وَقَوْلُهُ نَفْلَقُ هَامًا ... أَلْبَيْتِ فَالْهَامُ جَمْعُ هَامَةٍ ،

وَهِيَ : الرَّأْسُ يَقُولُ : نُشَقُّقُ هَامَاتٍ مِنْ رِجَالِ يَكْرُمُونَ عَلَيْنَا ، لِأَنَّهُمْ مَنَا

وَهُمْ كَانُوا أَسْبَقَ إِلَى الْعُقُوقِ : وَيُقَالُ : عَقَّ الرَّحْمُ كَمَا يَقَالُ : قَطَعَهَا .

وَقَالَ الْكَلْبَجِيُّ الْيَرْبُوعِيُّ — شَاعِرٌ جَاهِلِيٌّ — :

إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَغْشِ الْكِرْبِيَّةَ أَوْشَكَتْ جِبَالُ الْهُوَينِي بِالْفَتَى أَنْ تَقْطَعَنَا

« الْغَشْيَانُ : الْإِتْيَانُ ، وَالْكِربِيَّةُ . الْحَرْبُ ، وَقِيلَ : شَدَّهَا ، وَقِيلَ

النَّازِلَةُ وَأَوْشَكَتْ : قَارَبَتْ وَدَنَتْ ، وَالْجِبَالُ جَمْعُ جَبَلٍ ، بِمَعْنَى : السَّبَبِ ،

اسْتَعِيرَ لِكُلِّ شَيْءٍ يُتَوَصَّلُ بِهِ إِلَى أَمْرِ مِنَ الْأُمُورِ ، وَالْهُوَينِي : الْخَفِضُ وَالرَّاحَةُ

(١) شاعر فارس جاهلي كان يقال له : مانع الضمير

والباء في بالفتى : للمصاحبة فيكون حالا ، أو بمعنى عن فيتعلمن بها بعدما
 وجاز لأنه ظرف ، وتقطعا بحذف إحدى التاءين والفاعل ضمير جبال ،
 وقوله : بالفتى فقد كان يجب أن يقول بدل الفتى : به ، أو : بالمرء واسكنه
 عدل عن المضمر والمظهر إلى انظ آخر لأنه أشبه المضمّر ، وقال ابن
 رشيقي : قوله بالفتى حشو وكان الواجب أن يقول : به لأنّ ذكر المرء قد
 تقدم ، إلا أن يريد بالفتى معنى الزراية والأطنوزة — السُّخْرِيَّة — فإنه
 محتمل . وهذا تحيّلٌ دقيق من ابن رشيقي ،

المبادر إلى الحرب غير مبال بها

قال البُحْتَرِيُّ :

تسرّع حتى قال مَنْ شَهِدَ الْوَعْيَ لِقَاءَ أَعَادِ أُمَّ لِقَاءَ حَبَائِبِ

وقالوا : أشجعُ بيتِ قالته العرب قول العباس بن مرداس :

أشدُّ على الكَتِيبَةِ لأبالي أحتنني كان فيها أم سِواها

ووصف أعرابيٌّ قوماً فقال : ما سألوا قطُّ كم القومُ ؟ وإنما يسألون :

أين هم ؟

وسأل رجلٌ يزيد بنَ المهَلَّبِ فقال : صف لي نفسك ، فقال : ما بارزت

أحداً إلا ظننتُ أن رُوْحَهُ في يدي ...

ولما بلغ قَتَيْبَةُ بنُ مُسلمٍ حدود الصين قيل له : قد أوغلت في بلاد

الترُّك ، والحوادثُ بين أجنحة الدهر تُقبِلُ وتُدبِرُ ، فقال : بثقتي بنصر

الله أوغلتُ ، وإذا انقضت المدة لم تنفع العُدَّة ، فقال الرجل : أسألك حيث

شدت ، فهذا عزمٌ لا يفُسلُهُ إلا الله ...

حث من دعى إلى المبارزة على الإجابة

قال علي بن أبي طالب لبعض بنيه : لا تدعون أحداً إلى المبارزة ،
ولا يدعونك أحدٌ إلا أجبتَه ، فالداعى باغ ، والباغى مصروع .

وقال طرفة بن العبد :

إذا القومُ قالوا : مَنْ فتي ؟ خلت أني

عني فلم أكسل ولم أتبلد^(١)

وقال بشامة بن حزن النهشلي - شاعر إسلامي - :

إننا لمن معشر أفتى أوائلهم قول الحكمة : ألا ابن المَحامونا ؟

لو كان في الألف منّا واحدٌ فدعوا من فارس خالهم إياه يعنونا

المنازل وقت المنازلة

قال زهير بن أبي سُلي من قصيدة يمدح هريماً :

ليثٌ بِبِشْرٍ يَصْطَادُ اللَّيْثَ إِذَا

ما اللَّيْثُ كَذَّبَ عَنْ أَقْرَانِهِ صَدَقًا

يَطْفَعُهُمْ ما ارتَمَوْا حَتَّى إِذَا أَطْمَعُنُوا

ضارِبَ حَتَّى إِذَا ما ضارَبُوا أَعْتَنَقًا

« عَمَّرَ : ، وضع باليمن ، وقيل : مأسدة بناحية تبالة . وقوله : كذب ،

أى لم يصدق الجملة ، يقال : كذب الرجلُ عن كذا : إذا رجع عنه ،

(١) من تعلقاته ، يقول : إذا القوم قالوا : من فتي يكفي مهما أوي دفع شراً ؟ خلت

أنى المراد بقولهم ، فلم أكسل في كفاية المهم ودفع الشر ، ولم أتبلد فيهما

يقول : إذا رجح الشجاع عن قرنه ولم يصدق الحملة عليه فهذا الممدوح يصدقها . واعتق : التزم قرنه ، يقول : إذ ارتمى الناس في الحرب بالنبل دخل هو تحت الرمي فحمل يطاعنهم ، فإذا تطاعنوا ضارب بالسيف ، فإذا تضاربوا بالسيوف اعتقن قرنه والتزمه ، أى أنه يزيد عليهم فى كل حال من أحوال الحرب »

صدر من عبقرياتهم فى الصبر

من أحسن ما قيل فى الصبر يوم اللقاء قول نهمشل بن حرى بن ضمرة (١) :

ويوم كأن المصطلين بحره - وإن لم تكن نار - قيام على الجمر
صبرنا له حتى يبوخ وإنما تفرج أيام الكريمة بالصبر
« باخت الحرب والنار تبوخ بوخا وبووخا وبوخا : سكنت وقرت
وكذلك الحر والغضب والحوى »
وقال من لا أذكر اسمه :

بكى صاحبي لما رأى الموت فوقنا مُطلاً كإطلال السحاب إذا اكفهر
فقلت له : لا تبك عينك إنما يكون غداً حُسنُ الشاء لمن صبر
فا آخر الإحجام يوماً ممجلاً ولا تجل الإقدام ما آخر القدر

(١) شاعر شريف مشهور من المخضرمين بقى إلى أيام معاوية وكان مع على فى حروبه ، وأبوه شاعر شريف وجده ضمرة ضخم الشرف وكان من خير بني دارم ، دخل على النعمان بن المنذر فقال له : من أنت ؟ قال : أنا حمزة ، قال النعمان : تسمع بالمعدي لا أن تراه فقال : أبيت اللعن ، إنما المرء بأصغريه : قلبه ولسانه ، إن نطق نطق ببيان وإن قاتل قاتل بجنان الخ .

فَأَسَى عَلَى حَالٍ يَقِلُّ بِهَا الْأَسَى
وَكَرَّ حِفَاطًا خَشِيَّةَ الْعَارِ بَعْدَمَا
وَقَالَ قَطْرِيُّ بْنُ الْفَجَاءَةِ: (١)

أَقُولُ لَهَا وَقَدْ طَارَتْ شِعَاعًا
فِيَّانَكَ لَوْ سَأَلْتَ بَقَاءَ يَوْمٍ
فَصَبْرًا فِي مَجَالِ الْمَوْتِ صَبْرًا
وَلَا ثَوْبُ الْبَقَاءِ بِثَوْبِ عِزٍّ
سَبِيلُ الْمَوْتِ غَايَةُ كُلِّ حَيٍّ
وَمَنْ لَا يُعْتَبِطُ بِسَأْمٍ وَيَهْرَمُ
وَمَا لِلْمَرْءِ خَيْرٌ فِي حَيَاةٍ

« أقول لها ، أى للنفس ، والشعاع : المتفرق ، وهذا مثل ، ومعناه المبالغة
في الفزع ، ولن تراعى من الروح ، وهو : الفزع . يذُكَّرُ تشبيعه نفسه
وتعريفه إياها — بعد ما استشعرت الفزع — أن الأجل مُقَدَّرٌ وأن الزيادة
لا تلحقه كما بين ذلك في البيت التالي . وأخو الخنع : الذليل ، والخنوع :
الذلة ، ولا يكاد الخنوع يُسْتَعْمَلُ إلا في ذلة في غير موضعها ، واليراع :
القصة التي لا جوف لها ، والرجل الجبان لا قلب له ؛ فكأنه لا جوف له ،
فوضع اليراع مكان الجبان ، لأنه بمعناه . والاعتباط : الموت من غير علة
يقول : مَنْ لَمْ يَمُتْ شَابًّا مَاتَ هَرَمًا ، وبسأم : أى بسأم ما يعتره من تكاليف

(١) فارس شاعر مشهور ، وشخصية ضخمة في الإسلام ، كان رأساً من رؤس
الخوارج ، وسلم عليه بالخلافة ثلاث عشرة سنة .

الحياة ولا بُدَّ أن تُسَلِّمَهُ المَوتُ يوماً إلى الانقطاع، أي لا بد في النهاية من الموت،

وقال عمرو بن الإطنابة - شاعر جاهلي، والإطنابة: أمه - :

أَبَتْ لِي عِفِّي وَأَبِي بِلَاقِي وَأَخَذِي الحَدَّ بِالشَّمَنِ الرِّيحِ (١)
 وإِقْدَامِي عَلَى المَكْرُوهِ نَفْسِي وَضَرَبِي هَامَةَ البَطْلِ المَشِيحِ (٢)
 وَقَوْلِي كَلِمَا جَشَّاتُ وَجَاشَتْ مَكَانَكَ تُحَمِّدِي أَوْ تُسْتَرِيحِي (٣)
 لِأَدْفَعُ عَن مَآزِرِ صَالِحَاتٍ وَأُحْيِي بَعْدُ عَن عَرِضِ صَحِيحِ.

يروى أن معاوية قال: اجتمعوا الشعرَ أكبرَ همِّكم وأكثرَ آدابكم فإن فيه مآزٍ أسلافكم ومواضعٍ لإرشادكم، فلقد رأيتني ليلة الحرير وقد عزمتُ على الفرار فمأزوني لإقول ابن الإطنابة، وأنشد الأبيات.

وقيل لبعض بني المهلب: بهم نلتُم ما نلتُم؟ قال: بصبر ساعة

(١) بلائِي: بأسِي في الحروب، واستعار الثمن لما يبذله في المكارم على طريق التصريح، والريح الزائد منه

(٢) وإِقْدَامِي يروى: وإِجْشَامِي، ويروى بدل هذا السطر

• وإِعْطَانِي عَلَى الإِعْدَامِ مَالِي •

والهامية: الرأس، والمشيح: المبادر المنكش الجاد في القتال،

(٣) وَقَوْلِي كَلِمَا جَشَّاتُ وَجَاشَتْ يروى • وَقَوْلِي كَلِمَا جَشَّاتُ لِنَفْسِي •

وهي رواية جيدة ومعنى: جَشَّاتُ وَجَاشَتْ: كلما تطلعت ونهضت جزعا وفرعا وعن بعضهم: جَاشَتْ نَفْسُهُ: غَشَّتْ أَوْ دَارَتْ لِلغَيْثَانِ: فإن أردت أنها ارتفعت من حزن أو فرح قلت جَشَّاتُ. ومكانك اسم فعل أي: الزمي يانفس مكانك يحمدك الناس أن ظفرت أو تستريحى إن مت

الخُدعة والحيلة والتحرز في الحرب

قال سيدنا رسول الله : (الحرب خدعة) « خَدَعَةٌ وَخُدَعَةٌ ، والغفتح أفصح ، وَخُدَعَةٌ مثل هُمَزَةٍ ، قال علماءنا : ورُويت عن النبي صلى الله عليه وسلم : خَدَعَةٌ ، ومعناها : من خُدِعَ فيها خَدَعَةٌ فَزَأَتْ قَدَمَهُ وَعَطِبَ فليس لها إقالة ؛ قال ابن الأثير : وَخَدَعَةٌ . أفصح الروايات وأصحها ، ومن قال خُدَعَةٌ أراد . هِيَ تُخَدَعُ ، كما يقال : رجلٌ لَعُنَةٌ : يُلَعَنُ كثيراً ، وإذا خَدَعَ أَحَدُ الْفَرِيقَيْنِ صَاحِبَهُ فِي الْحَرْبِ فَكَأَنَّمَا خُدِعَتْ : ومن قال : خُدَعَةٌ أراد أنها تُخَدَعُ أهلها ، كما قال عمرو بن مَعْدِيكَرِبَ ^(١)

الْحَرْبُ أَوْلَ مَا تَكُونُ فَتِيَّةٌ تَسْعَى بِرَبِّتِهَا لِكُلِّ جَهْلٍ
حَتَّى إِذَا اسْتَعْرَتْ وَشَبَّ ضِرَامُهَا

عادت عجوزا غير ذات خليل

شِطَاءَ جَزَتْ رَأْسَهَا وَتَسَكَّرَتْ مَكْرُومَةً لِلشَّمِّ وَالتَّقْبِيلِ
وقالوا : إذا لم تغِبْ فأخْلُبْ « أى إذا أعياك الأمرُ يُغَالِبُهُ فاطْلُبْهُ
تُخَادَعَةُ » .

وقال بعضهم : كُنْ بِحِيلَتِكَ أَوْثَقَ مِنْكَ بِشِدَّتِكَ ، وبحدرك أفرح
منك بِتَجَدَّتِكَ ، فإن الحرب حربٌ لِلْمَتَهَوِّرِ وَغَنِيمةٌ لِلْمَتَحَذِّرِ
وقالوا : حازمٌ فِي الْحَرْبِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ فَارِسٍ ، لأن الفارسَ يَقْتُلُ
عشرة وعشرين ، والحازم قد يقتلُ جيشاً بِحَرْبِهِ وَتَدْبِيرِهِ .

(١) هو الفارس المشهور صاحب الغارات والوفائع في الجاهلية والإسلام وهو

صاحد . رضى الله عنه .

وقالوا : القائد العظيم ينبغي أن تكون فيه خصالٌ من أخلاق الحيوان :
شجاعة الديك ، وتحنن الدجاجة ، وقلب الأسد ، وحملة الخنزير ، وروغان
الثعلب ، وتختل الذئب ، وجمع الذرة ، وبكور الغراب .

وقال المهلب بن أبي صفرة لبيده : عليكم في الحرب بالمكيدة فإنها
أبلغ من النجدة ... وسئل بعض أهل التمرس بالحروب : أى المكاييد
فيها أحزم ؟ فقال : إذكاء العيون ، — بث الجواسيس — وإفشاء الغلبة
واستطلاع الاخبار ، وإظهار السرور ، وإماتة الفرق — الخوف —
والاحتراس من البطانة ، من غير إقصاء المستنصح ولا استنصاح
لمستغش ، وإشغال الناس عما هم فيه من الحروب بغيره .

وكان مالك بن عبد الله الحنمى وهو على الصافية — الجماعة تُقام
وتُصَف للحرب — يقوم في الناس — إذا أراد أن يرحل — فيحمد الله
ويثنى عليه ، ثم يقول : لئن دأرت بالعداة درب كذا ؛ فيتفرق الجواسيس
عنه بذلك ، فإذا أصبح سلك بالناس طريقاً غيرها ، فكانت الروم تُسميه :
الثعلب ...

وقال حكيم : اللطف في الحيلة ، أجدى للوسيلة .

وقالوا : من لم يتأمل الامر بعين عقله لم يقع سيف حياته إلا على مقاتله
والثبث يُسهل طريق الرأي إلى الإصابة ، والعجلة تضمن العثرة .

«وبعد» فإن هذا الباب متسع جداً ، ومن أحب التوسع فيه والوقوف
على أخبارهم في المكاييد ، وأساليبهم العجيبة فيها فعلية بالموسوعات — مثل
نهاية الأرب للنويرى ، وعيون الأخبار لابن قتيبة ، وبكتب التاريخ ،
فتلك مجالاتها .

ما ينبغي أن يتصف به

أمرأء الجيوش

من أجود ما قيل فيما ينبغي أن يتصف به أمرأء الجيوش قول لقيط ابن يعمر الإيادي - وهو شاعر جاهلي قديم مُقَلِّدٌ - كان كاتباً في ديوان كسرى سابور بن هرمز الملقب بندي الأكتاف - وكانت إياد غلبوا على سواد العراق ، وقتلوا من كان به من الفرس ، فلما بلغ خبرهم سابور أجمع على غزو إياد فكتب إليهم لقيط قصيدة ينذر قومه غزو سابور إيام ، فوقع الكتاب بيد كسرى فقطع لسان لقيط وغزا إيادا وهي قصيدة جيدة جداً يقول فيها :

أبلغ إياداً وخللٌ في سراتهم
 إنو أرى الرأي إن لم أعص قد نصعاً^(١)
 يالهُفَ نفسي إن كانت أموركم
 شتى وأحكيم أمر الناس فاجتمعا
 إنى أراكم وأرضاً تُعجبون بها
 مثل السفينة تغشى الوعث والطبما^(٢)
 ألا تخافون قوماً لا أبالكم
 أمسوا إليكم كأمثال الدبا سِرعاً^(٣)

(١) خلل في سراتهم : خصص يقال : خلل في دعائه ، أى خصص ، قال :

كانك لم تسمع ولم تك شاهداً غداة دعى الداعي فعم وخللا
 والسراة جمع سرى ، وقيل : اسم جمع والجمع سرواء وأسرياء . وهم الأشراف أولوا
 المروءة ، ونصعا : وضع من نصع اللون نصوعاً ونصاعة : اشتد يياضه

(٢) الوعث من الرمل : ما غابت فيه قوائم الدواب . والطبع في الأصل : ما يغشى
 السيف من الصدا ، استعاره لما يعلو الماء من الغناء والزبد ، شبه سرورهم وهم
 بأرضهم غير مفكرين فيما يحوطها وفيما يحفظها من العدو بالسفينة تغشى - وهي سائرة -
 ما يمنع حركتها ويصد جريتها

(٣) الدبي : الجراد قبل أن يطير : وسرعاً : مصدر سماعي لسرع سراعاً وسرعة :

أبناء قوم تآيؤكم على حنق لا يشعرون أضل الله أم نفعا^(١)
أحرار فارس أبناء الملوك لهم من الجوع جموع تزدهي القلعا^(٢)
إلى أن يقول :

خزر عيونهم كأن لاحظهم حريق غاب ترى منه السنأ قطعاً^(٣)
لا الحرث يشغلهم بل لا يرون لهم من دون ييضتكم ريباً ولا شبعاً^(٤)
وأتم تحرثون الأرض عن سفه في كل معتمل تبغون مزرعا^(٥)
وتلبسون ثياب الأمن ضاحية لا تفزعون وهذا الليث قد جمعا^(٦)

إذا عجل ، يريد : أمنوا مسرعين

(١) تآيؤكم : تعمدوكم وقصدوكم ، يقال : تآيته بوزن تفاعلته ، وتآيته - بالتشديد - إذا تعمدت آيته ، وآيته : شخصه .

(٢) تزدهي : تستخف ، وقد زهاه زهواً وازدهاه : استخفه وتهاون به . والقلع جمع قلعة - بالتحريك - : صخرة عظيمة صعبة المرتقى تتقلع عن الجبل

(٣) خزر عيونهم من الخزر - بالتحريك - وهو : ضيق الجفون لتحديد النظر ، والغاب جمع غابة وهي . أجمة القصب أو ذات الشجر المتكاثف ، سميت بذلك لأنها تغيب من فيها ، والسنأ : ضوء النار ولمعان البرق

(٤) ييضتكم : مجتمعكم وموضع عزمكم ، على المثل بيضة الدجاجة إذا سلمت سلم ما فيها من طعام أو فرخ ، وفي الحديث : ولا تسلط عليهم عدواً فيستبيح ييضتهم ، يريد : موضع سلطانهم ومستقر عزمهم ، واستباحتها : استنصاحها

(٥) معتمل : موضع اعتمال ، وهو أن يعمل الرجل لنفسه كاختدم إذا خدم نفسه وأنشدوا :

إن الكريم وأبيك يعتمل إن لم يجد يوماً على من يتكل
و أراد من يتكل عليه لحذف عليه هذه وزاد على متقدمة أي أنه يعتمل إن لم يجد من يتكل عليه

(٦) ضاحية : علانية

مالي أراكم نيباءً في بلهنيةٍ وقد ترون شهابَ الحربِ قد سَطَمًا (١)
 فاشفُوا غليلي برأيٍ منكم حصيدٍ يُصيحُ نَوَادِي له رِيَانٌ قد نَقَمًا (٢)
 ولا تكونوا كمن قد باتَ مُكْتَنِمًا إذا يُقالُ له : افرُجْ نَعْمَةً كُنَمًا (٣)
 يسعى ويحسبُ أنَّ المالَ مُخْلِدُهُ إذا استفادَ طريقاً زادَه طَمَعًا (٤)
 فاقنوا جِيادكمُ واحموا ذِمَاركمُ

واستشعروا الصبرَ لا تستشعروا الجزعا (٥)

إلى أن قال :

لا تُلهِمكم لَيْلٌ لَيْسَتْ لَكُمْ لَيْلٌ إِنْ العَدُوَّ بَعِظُمٍ مِنْكُمْ قَرَعَا (٦)
 لا تُشْمِرُوا المَالَ الأَعْدَاءِ لَنِهِمْ إِنْ يَظْهَرُوا يَحْتَوِوْكُمْ وَالبِلَادَ مَعَا

(١) بلهنية : رخاء وسعة عيش وغفلة من حوادث الدهر

(٢) الغليل في الاصل : شدة العطش وحرارته ، أراد : شدة الحزن وحرارته

وحصيد - بكسر الصاد - : محكم ، من الحصيد - بالتحريك - وهو في الاصل : اشتداد
 قتل الحبال واستحكام الصناعة في الاوتار والدروع ، وكذلك رأى حصيد ومستحصد ،
 ونقع الماء العطش : أذهب وسكنه ، محثهم على توحيد الرأي لا تختلف بهم الالهواء
 (٣) . مكنتما : منقبضاً مجتهداً ، وكنع الرجل : قبض واجتمع ، وقال ابن الاثير :
 جبن وهرب .

(٤) الطريف من المال : ما استطرفته واستحدثته كالطارف ، خلاف التليد

والتلاد والتالذ ، وهو : ما ورثته عن الآباء قديما

(٥) فاقنوا جِيادكم : الزمواها ، والذمار : ما يلزم حفظه وحمايته من مال وأهل

وعسيرة ، واستشعروا الصبر : مستعار من استشعر الثوب : لبسه على شعر جسده ،
 وهو الشعار دون الدثار ، يقول : وطنوا أنفسكم على الصبر ولا تضمروا الجزع
 في أنفسكم

(٦) إن العدو الخ يريد : إن قرع العدو عظمكم ، والقرع : الضرب ، كنى

بذلك عن إذلالهم وإهانتهم

والله ما انفكت الأموال منذ أبدٍ لأهلها إن أصيبوا مرةً تبعاً
يا قوم إن لكم من إرث أوليكم مجداً قد أشققت أن يفنى وينقطعاً
ماذا يرث عليكم عز أوليكم إن ضاع آخره أو ذل واتصما
يا قوم لا تأمنوا إن كنتم غيراً على نسائكم كسرى وما جمعا^(١)
يا قوم بيضتكم لا تفجعن بها إني أخاف عليها الأزلم الجدعا^(٢)
هو الجلاء الذي يجتث أصلكم فمن رأى مثل ذا رأياً ومن سمعا^(٣)
قوموا قياماً على أمشاط أرجلكم ثم افزعوا قد ينال الأمن من فزعا^(٤)

ثم قال يصف أمير الجيش - وهو شاهدنا - :

وقلِّدوا أمركم لله درُّكم رجب الذراع بأمر الحرب، مضطلعا^(٥)

(١) غير - بضمين - جمع غيور، من الغيرة وهي: الحمية والألفة
(٢) تقدم معنى البيضة آنفاً، والأزلم الجذع في الأصل: الوعل، وهو تيس
الجليل، وذلك أن له زلتين. وهما هتان معلقتان في حلقة، وهو مادام حياً جذع
لا تسقط له سن. استعير ذلك للدهر الشديد، وذلك أن البلياً منوطة به تابعة له
وأنه باق على حاله لا يتغير على طول إناه كأنه قتي لم تسقط له سن، ومن كلاهم:
أودى به الأزلم الجذع يريدون: أهلكه الدهر

(٣) يجتث أصلكم: يقتلعه ويستأصله، ومعنى اجتث في اللغة: أخذت جثته
(٤) أمشاط جمع مشط - بضم الميم - وهي: سلاميات ظهر القدم، وهي
العظام الرقاق المفترشة فوق القدم دون الأصابع، وقوله: ثم افزعوا يريد: هبوا
وانتهبوا كما يفزع النائم، وكأنه من الفزع - الخوف - لأن الذي يهب ويتب له لا يخلو
من فزع ما

(٥) رجب الذراع كناية عن إطاقته وسعة قوته، ومضطلع مفتعل من الضلعة
وهي قوة الأضلاع، وقد اضطلع بحمله: قوى عليه ونهض به

لا مُتْرَفًا إِنْ رَخَاءُ الْعَيْشِ سَاعَدَهُ ولا إِذَا عَضَّ مَكْرُوهٌ بِهِ خَشَعًا ^(١)
 لا يَطْعَمُ النَّوْمَ إِلَّا رَيْثَ يَبْعَثُهُ هَمٌّ يَكَادُ شَبَاهُ يَفْصِمُ الضَّلْعَا ^(٢)
 مُسَهَّدُ النَّوْمِ تَعْنِيهِ أُمُورُكُمْ يرومُ منها إلى الأعداءِ مُطَّلَعَا
 ما زال يَجْلِبُ هذا الدهرَ أَشْطَرُهُ يكونُ مُتَّبِعًا طوراً ومُتَّبِعًا ^(٣)
 حتى اسْتَمَرَّتْ على شَرْزٍ مَرِيرَتُهُ مُسْتَحْكِمِ الرَّأْيِ لا قَهْمًا ولا ضَرَعًا ^(٤)
 وليس يَشْغَلُهُ مالٌ يُشْمَرُهُ عنكم ولا ولَدٌ يَبْنِي له الرَّفْعَا

إلى أن قال :

(١) المترف : المتنعم المتوسع في ملاذ شهواته

(٢) ريث يبعثه : مقدار ما يبعثه ، يقول : لا يطعم النوم إلا يسيراً حتى يبعثه الهم الماضي ، والشبا جمع شباة وهي حد كل شيء وطرفه كحد السيف والسنان ، تخيل أن لهما حداً ، ويفصم من الفصم - بالفاء - وهو أن يصدع الشيء من غير أن يبين خلاف القصم - بالقاف - وهو كسر الشيء الشديد حتى يبين ، والضلع والضلع لغتان وهي : مخنية الجنب

(٣) يجلب هذا الدهر أشطره يريد : خبر ضروبه ، يعني أنه مر به خيره وشره وشدته ورخاؤه : تشبيهاً بجلب جميع أخلاف الناقة ما كان فيها حفلاً وغير حفل وداراً وغير دار ، وأصله من أشطر الناقة ، ولها خلفان قادمان وآخران كأنه حلب القادمين وهما الخير والآخرين وهما الشر ، وكل خلفين شطر ، وجعل الأشطر موضع - الشطرين كما تجعل الحواجب موضع الحاجبين ، وقوله : يكون متبعا طوراً ومتبعا ، أي قد اتبع الناس فعلم ما يصلح به أمر الناس ، واتبع فعلم ما يصلح الرئيس ، كما قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : قد لنا وإبل علينا ، أى : سسنا وسيس علينا فأصلحنا أمور الناس وأصلحت أمورنا ، وكل ذلك كناية عن جودة الرأي وإحكام الأمر

(٤) المريرة من الحبل : ما طال واشتد فتله واجمع المرائر ، واستمرت : استحكمت والشزر : الفتل ، ضرب ذلك مثلاً لاستجماع قوته واستحكام عزيمته ، والقهم : الكبير المنسن ، والضرع هنا : الصغير السن الضعيف

لقد بَدَلْتُ لَكُمْ نُصِيحِي بِلا دَخَلٍ فَاسْتَيْقِظُوا إِن خَيْرَ الْعِلْمِ مَا نَفَعَا
 هَذَا كِتَابِي إِلَيْكُمْ وَالنَّذِيرُ لَكُمْ لِمَنْ رَأَى رَأْيَهُ مِنْكُمْ وَبَيْنَ سَمْعَا
 وَلِما أَوْفَدَ الْمُهَلَّبُ بْنُ أَبِي صُفْرَةَ كَعْبَ بْنَ مَعْدَانَ الْأَشْقَرِيَّ حِينَ
 هَزَمَ عَبْدَ رَبِيهِ الْأَصْغَرَ وَأَجَلِيَّ قَطْرِيَّ بْنَ الْفُجَاءَةِ حَتَّى أَخْرَجَهُ مِنْ كَرِمَانَ
 نَحْوِ أَرْضِ خِرَاسَانَ إِلَى الْحِجَاكِ بْنِ يَوْسَفَ ، قَالَ لَهُ الْحِجَاكِ : كَيْفَ كَانَتْ
 مُحَارَبَةُ الْمُهَلَّبِ لِلْقَوْمِ ؟ قَالَ : كَانَ إِذَا وَجَدَ الْفُرْصَةَ سَارَ كَمَا يُسُورُ اللَّيْثَ ، ^(١)
 وَإِذَا دَهَمَتْهُ الطَّخْمَةُ ^(٢) رَاغَ كَمَا يَرُوعُ الثَّلَبُ ، وَإِذَا مَادَهُ الْقَوْمُ صَبَرَ صَبْرَ
 الدَّهْرِ . قَالَ : وَكَيْفَ كَانَ فِيكُمْ ؟ قَالَ : كَانَ لَنَا مِنْهُ إِشْفَاقُ الْوَالِدِ الْحَرِيبِ
 وَلَهُ مَنَاطَعَةُ الْوَالِدِ الْبَرِّ . قَالَ : وَكَيْفَ أَفْلَتَكُمْ قَطْرِيَّ ؟ قَالَ : كَادَنَا يَبْعُضُ
 مَا كَدَنَاهُ بِهِ ، وَالْأَجَلَ أَحْصَنُ جُنَّةً وَأَنْفَذُ عُدَّةً . قَالَ : فَكَيْفَ اتَّبَعْتُمْ
 عَبْدَ رَبِيهِ وَتَرَكْتُمُوهُ ؟ قَالَ آثَرْنَا الْحَدَّ عَلَى الْفَلِّ ^(٣) ، وَكَانَتْ سَلَامَةُ الْجُنْدِ
 أَحَبَّ إِلَيْنَا مِنْ شَجَبِ الْعَدُوِّ ^(٤) . فَقَالَ لَهُ الْحِجَاكِ : أَكُنْتُ أَعَدَدْتُ هَذَا
 الْجَوَابَ قَبْلَ لِقَائِي ؟ قَالَ : لَا يَعْلَمُ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ...

حُثِّمُوا عَلَى التَّفْكِيرِ قَبْلَ التَّقَدُّمِ

قالوا : من قاتل بغيرِ نِجْدَةٍ ، وَخَاصَمَ بغيرِ حُجَّةٍ ، وَصَارَعَ بغيرِ قُوَّةٍ
 فَقَدْ أَعْظَمَ الْخَطَرَ ، وَأَكْبَرَ الْفَرَرِ ... « الْفَرَرُ : الْخَطَرُ ،

(١) سار : وثب وثار

(٢) الطخمة : جماعة الناس ، يريد جند العدو

(٣) الفل : القوم المنهزمون

(٤) الشجب : الهلاك

وقالوا :

إذا ما أردت الأمر فاذرعه كله ورسه قياس الثوب قبل التقدّم
لعلك تنجو سالماً من ندامة فلا خير في أمر أتى بالتندم

من يؤثر الموت في العز على الحياة في الذل

قال المنبهي :

عش عزيزاً أومت وأنت كريمٌ بين طعنِ الفنا وخفقِ البنودِ
فروُسُ الرّماحِ أذهبُ للغيةِ عِظْ وأشفي لِعِلِّ صَدْرِ الحَمودِ
لا كما قد حيت غير حميدٍ وإذا مُتَّ مُتَّ غير فقيدِ
فاطلبِ العِزَّ في لَظَى وذَرِ الذِّ لَّ ولو كان في جِنانِ الخلودِ

وقال أبو تمام :

يَرَى العَلَمَ المَادُومَ بالعِزِّ أَرِيَّةَ يَمَانِيَّةَ والأرِيَّ بالضِّمِّ عُلَمًا^(١)
ونظر عبد الله بن علي العباسي إلى قتي عليه أبهة الشرف وهو يقاتل
مُسْتَبْسِلًا^(٢) ، فناداهُ : يا قتي ، لك الأمانُ ولو كنتَ مَرَوَّانَ بن محمد - آخر
الدولة الأموية - فقال : إلا أكنه ، فليستُ بِدُونِهِ ، قال : فلكَ الأمانُ
مَنْ كنتَ ؛ فأطرق ثم قال :

(١) المادوم: المخلوط ، والأرية: واحدا لأري ، وهو: العسل ، وقلبا تستعمل
واحدة ، ووصفها باليمانية لأن النحل تعسل في جبال الشراة وهي باليمن
(٢) المستبسِل الذي يطرح نفسه في الحرب : يريد أن يقتل أو يقتل لا محالة

أُدِّلَ الحَيَاةِ وَكَرُّةِ المَاتِ وَكَلَّا أَرَاهُ طَعَامًا وَبَيْلًا
فَإِنْ لَمْ يَكُنْ غَيْرُ إِحْدَاهُمَا فَسِيرًا إِلَى المَوْتِ سِيرًا جَمِيلًا
ثُمَّ قَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ ؛ قَالَ : فَإِذَا هُوَ ابْنُ أَمْسَلَةَ بْنِ عَبْدِ المَلِكِ بْنِ
مِرْوَانَ .

نهيهم عن مخافة القتل

وحثهم على تصور الموت

وتمدحهم بذلك

قيل لعلی بن أبی طالب : أُنْقَاتِلْ أَهْلَ الشَّامِ بِالغَدَاةِ وَتَظْهَرُ بِالْعِشِيِّ
فِي ثُوبٍ وَرَدَاءٍ ؟ فَقَالَ : أَبِالمَوْتِ أَخْوَفُ وَاللَّهِ ، مَا أَبَالِي أَسْقَطْتُ عَلَى
المَوْتِ أَمْ سَقَطَ المَوْتُ عَلَى أَوْ كَثِيرًا مَا كَانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يَتَمَثَّلُ :
أَيُّ يَوْمِي مِنَ المَوْتِ أَفْزَرُ يَوْمَ لَمْ يُقَدَّرْ أَمْ يَوْمَ قُدِّرْ (١)

(١) هذا البيت من أبيات نسبها السيوطي في شواهد المغني لشاعر اسمه الحارث
ابن منذر الجرمي ونسبها ابن سيده - اللسان مادة عفر - لشاعر آخر اسمه ضباب بن
واقد الطهوي وقد أورد السيوطي بعده هذه الآيات :

إِنَّ أَخْوَالِي جَمِيعًا مِنْ شَقِيرٍ لَبِسُوا لِي عَمَسًا جِلْدَ النَّمْرِ
تَحْتَوُوا أَنْ لَتْنَا بَغِيًّا وَلَمْ يَرْهَبُوا غَبَّ الوَبَالِ المُسْتَعْرِ
فَلَيْنَ طَأْطَأْتُ فِي قَتْلِهِمْ لَتَهَاضَنَّ عِظَامِي عَنْ عَفْرِ
وَلَيْنَ غَادَرْتُهُمْ فِي وَرْطَةٍ لِأَصِيرَنَّ نَهْرَةَ الذُّبِّ القَفْرِ
وَلَيْنَ أَعْرَضْتُ عَنْهُمْ بَعْدَمَا أَوْهَنْتَنِي لِتِصْبِي بِقُرِّ

: أورد ابن هشام وغيره هذا البيت هكذا :

يَوْمَ لَمْ يُقَدَّرَ لَا أَرْهَبُهُ وَمِنَ الْمَقْدُورِ لَا يُنْجِي الْخَذَرُ
وقال المتنبي :

إِذَا غَامَزَتْ فِي شَرَفٍ مَرُومٍ فَلَا تَقْنَعُ بِمَا دُونَ النُّجُومِ
فَطَعَمَ الْمَوْتِ فِي أَمْرٍ صَغِيرٍ كَطَعَمِ الْمَوْتِ فِي أَمْرٍ عَظِيمِ
« يقول : إذا حاولت الشرف وخاطرت بنفسك في سبيل الحصول
عليه فلا تقنع بما دون أعلاه ، ولا ترض باليسير منه ، فإن طعم
الموت في الأمر الهين كطعمه في الأمر الصعب ، وإذن فلا سبيل للغمام
إلا أن يقصد إلى أسمى الأمور »
وقال :

يَرَى الْجُبْنَاءُ أَنَّ الْعَجْزَ عَقْلٌ وَتِلْكَ خَدِيعَةُ الطَّبَعِ اللَّثِيمِ

في أي يومى من الموت أفر أَيَوْمَ لَمْ يُقَدَّرَ أَمْ يَوْمَ قُدِرَ
فتح راه يقدر شاهدا على أن لم قد ينصب بها المضارع في لغة وأورد ابن هشام كلاماً لأئمة
النحاة في تخريج البيت على نصب يقدر « راجعه في المغنى في الكلام على لم ، وفي اللسان
مادة قدر ، والآن لنشرح هذه الآيات الجميلة فنقول : قوله : لبسوا الى عمساً جلد
النمر ، فالعمس : الشدة يقول : أبطنوا الى العداوة ، وأثلة كل شيء : أصله ، ويقال :
فلان ينحت أثلتنا : إذا قال في حبه قبيحاً ، وطأطأ في قتلهم : أسرع واشتد ، وقوله
* لتهاضن عظامى عن عفر *

أى : عن بعد من أخوالى لانهم وإن كانوا أقرباء فليسوا في الترب مثل الاعمام ، والورطة
الامر تقع فيه من هلكه وغيرها أو هي الهلكة ، ونهزة : أى صيد وفي الاصل :
اسم للشئ الذى هو لك معروض كالغنيمة ، والفرصة تجدها من صاحبك ويقال :
نهزة المحتلس أى : هو صيد لكل أحد ، والذئب القفر : المنسرب الى القفر - المغازة
لانبات بها ولا ماء - وقوله : لتصينى بقر فإنه يقال للشدة إذا نزلت : صارت بقر
أى : صارت الشدة في قرارها ، وقال أبو عبيد : إنما هو مثل ، وربما قالوا : وقعت
بقر . وقال ثعلب معناه : وقعت في الموضع الذى ينبغى

وقال : من قطعة جيدة نوردما كُلَّها لبراعتها :

صَحِبَ النَّاسُ قَبْلَنَا ذَا الزَّمانِ وَعَنَّاهُمْ مِنْ شَأْنِهِ ماعانانا
وَتَوَلَّوْا بُغْضَةَ كُلِّهِمْ مِنْهُ وَإِنْ سَرَّ بَعْضَهُمْ أَحْيَانَا
رَبِّمًا تُحْسِنُ الصَّنِيعَ لِيَالِيهِ - وَلَكِنْ تُكَدِّرُ الْإِحْسَانَ
وَكأنالْم يَرْضَ فَيَنْبَرِيبُ الدَّهْرَ رَحَى أَعَانِهِ مِنْ أَعَانَا (١)
كَلِمًا أَنْبَتَ الزَّمانُ قَنَاطَةَ رَكَبَ الْمَرْءِ فِي الْقَنَاطَةِ سِنَانَا (٢)
وَمُرَادُ النَّفْوِيسِ أَصْغَرُ مِنْ أَنْ تَتَعَادَى فِيهِ وَأَنْ تَتَفَانَا
غَيْرَ أَنْ الْفَتَى يَلَاقِي الْمَنِيَا كَالْحِجَاتِ وَلَا يُلَاقِي الْهُوَانَا (٣)
وَلَوْ أَنَّ الْحَيَاةَ تَبَقَى لِحَيِّ لَعَدَدْنَا أَضْلَانَا الشُّجْعَانَا (٤)
وَإِذَا لَمْ يَكُنْ مِنَ الْمَوْتِ بُدًّا فَمِنَ الْعَجْزِ أَنْ تَكُونَ جَبَانَا (٥)

(١) في « يرض » ضمير هو فاعل يرض يفسره « من أعانا » وأضمره قبل الذكر على شريطة التفسير ، أو تقول : إن « من أعانا » فاعل يرض وأعانه على التنازع ، يقول : هذا الذي أعان على الدهر كأنه لم يرض بما يصيبني من محنة حتى أعانه على كما قال الآخر :

أَعَانَ عَلَى الدَّهْرِ إِذْ حَكَ بَرَكَهُ كَفَى الدَّهْرُ لَوْ وَكَلَّمْتُهُ بِي كَافِيَا
و البرك : كل كل البعير و صدره الذي يدوك به الشيء تحته ،

(٢) القناة : عود الرمح ، والسنان : زجه الذي يطعن به يقول : إذا انتدب الزمان للإسائة بما جبل عليه صارت عداوة المعادي مدداً لقصده نحوك ، فجعل القناة مثلاً لما في طبع الزمان وجعل السنان مثلاً للعداوة
(٣) كالحجرات : عابسات .

(٤) يقول : لو كانت الحياة باقية لكان الشجاع الذي يتعرض للقتل أضل الناس ، يعني أن الحياة فانية وإن جبن الإنسان ولزم عقر داره وحرص على البقاء ثم أكد هذا بالبيت التالي يقول : إذا كان الموت لا يحيص عنه ولا ينجو منه شجاع ولا جبان فإن الجبن يكون من ضعف الهمة وعجزها .

كلُّ مالم يكن من الصَّعب في الأثْف

س سهلٌ فيها إذا هو كانا ^(١)

وبعثتُ بنو حنيفةَ بالفندِ الزَّمانِ ^(٢) حين طلبتُ بكرُ بنُ وائلٍ إليهم
يستنصِرُونهم، وقالوا - بنو حنيفة - : قد بعثنا إليكم ألف فارس - وكان
يقال له : عديد الألف - فلما ورد قالوا له : أين الألف ؟ قال : أنا ، فلما
كان الغدُ وبرزوا حمل على ألف فارس مُردِّفٍ فانتظَمَهُمْ ...

(١) كل : مبتدأ ومن الصعب خبرها وسهل خبره ثان ويكن تامة وكذا وكانا ،
يقول : إنما يصعب الأمر على النفس قبل وقوعه فإذا وقع سهل وهان كما قال
البحري :

لَعَمْرُكَ ما المَكْرُوهُ إلا ارتقابهُ وأُبرِحُ مِمَّا حَلَّ ما يُتَوَقَّعُ

(٢) الفند الزمانى - واسمه شهل بن شيبان بن ربيعة ... بن بكر بن وائل - شاعر
جاهلى قديم ، وفارس من فرسان ربيعة المشهورين المعدودين ، شهد حرب بكر وتغلب
وهو صاحب هذه الأبيات الحماسية المشهورة ، قالها في حرب البسوس وأنا لنوردها
هنا على شهرتها :

صَفَحْنَا عَنْ بَنِي ذُهَلِ	وَقَلْنَا : الْقَوْمُ إِخْوَانُ
عَسَى الْآيَامُ أَنْ يَرْجِعَ	بِنَ قَوْمًا كَالَّذِي كَانُوا
فَلَمَّا صَرَخَ الشَّرُّ	فَأَمْسَى وَهُوَ عُرْيَانُ
وَلَمْ يَبْقَ سِوَى الْعُدْوَا	بِ دِنَاهُمْ كَمَا دَانُوا
مَشِيئًا مَشِيئَةَ اللَّيْثِ	عَدَا وَاللَّيْثُ غَضْبَانُ
بِضْرِبٍ فِيهِ تَوْهِينُ	وَتَخْضِيعُ وَإِقْرَانُ
وَطَعْنٍ كَفَمِ الرِّقِّ	غَدَا وَالرِّقُّ مِلَانُ
وَبَعْضُ الْجِلْمِ عِنْدَ الْجَهِّ	لِ لِلذَّلَّةِ إِذْعَانُ

.....

وفي الشر نجاةٌ ح بين لا يُنجيك إحسانٌ

و الصفع : العفو ، ويقال : أعرضت عن هذا الأمر صفحا : إذا تركته ، ويقال : أصفحت عنه كما يقال : أضربت عنه ، ويقال : أبدى لي صفحته : إذا أمكنك من نفسه يقول : صفحنا عنهم فلم نؤاخذهم بما كان منهم لأنهم إخواننا عطفنا عليهم الرحم . ويرجعن : يرددن ، يقال رجع فلان ورجعت فلانا يقول : صفحنا عنهم للرحم فعسى أن تردم الأيام إلى ما كانوا عليه من قبل من التوادم . وصرح الشر : انكشف ويقال صرح الشيء : إذا كشفه وصرح هو ، كما تقول : بين الشيء وبين هو : أى تبين وقيل : صرح : خلص ، شبه باللبن الصريح وهو الذى قد ذهب رغوته وإذا ذهب الرغوة فاللبن عريان ، وقوله : فأمسى وهو عريان : أى منكشف لا ستردونه ، ويروى : فأضحى ، بدل فأمسى ، وهو أحسن وإن كان أصبح وأمسى وأضحى وظل يراد بها فى مثل هذا الموضع معنى صار . وقوله : دناهم كما دانوا : جواب لما فى قوله : فلما صرح الشر : أى فعلناهم مثل فعلهم بنا . يقول : صفحنا عنهم وقعدنا عن ضربهم وذكرنا الرحم والقراية بيننا وظننا أن حالهم ترجع إلى الحسنى فلما أبوا إلا الشر ركبناه معهم وقوله : مشينا مشية الليث يروى :

• شددنا شدة الليث • وعلى هذه الرواية يكون عدا بدل غدا وتوهين تفعيل من الوهن وهو الضعف ، ونخضيع تفعيل من الخضوع وهو الذل والاقران : اللين والاسترخاء ، والباء فى بضرب تتعلق بمشينا أى مشينا بضرب فى ذلك الضرب تضعيف للضروب وتذليل ، قال بعض النقاد . والأجود أن يقول ما معناه : بضرب يفلق الهام ويبتز العظم مثلا فأما أن يقول : ضرب يوهى ويرخى فإن أدنى الضرب يوجب هذا ، وإذن فمن الجائز أن يكون المعنى : فيه توهين وصوت فى القطع وكسر العظام ويكون معنى إقران : غلبة أو مواصلة لا فتور فيها ويكون تخضيع من الخضة وهو اختلاط الصوت فى الحرب ، ويروى البيت :

بِضْرِبٍ فِيهِ تَفْجِيعٌ وَتَأْيِيمٌ وَإِرْنَانٌ

أى يفتح الأخر بالأخر والولد بالوالد ، والتأيم قتل الأزواج ، والإرنان : من الرنين وهو رفع الصوت بالبكاء . وغذا بالذال المعجمة : سأل وصف الطعن بالسعة وذكر أن الدم يسيل من موضع الطعنة كما يسيل الماء من فم القربة .

الجود بالنفس

وحب الموت في الوغى
وأنفتَهُمْ من الموت على الفراش

قال أبو تمام :

يَسْتَعْدِبُونَ مَنَائِمَهُمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَأْسُونَ مِنَ الدُّنْيَا إِذَا قَتَلُوا

وقال :

وَحَنَّ لِلْمَوْتِ حَتَّى ظَنَّ مُبْصِرُهُ كَأَنَّهُ حَنَّ مُشْتاقًا إِلَى وَطَنِ
لَوْ لَمْ يَمُتْ تَحْتَ أَسْيَافِ الْعِدَا كَرَمًا
لَمَاتَ إِذْ لَمْ يَمُتْ مِنْ شِدَّةِ الْحَزَنِ

وقال :

قَوْمٌ إِذَا لَبَسُوا الْحَدِيدَ حَسِبْتَهُمْ لَمْ يَحْسِبُوا أَنَّ الْمَنِيَّةَ تُنْحَاقُ
أَنْظَرُ بِمِثِّ تَرَمِي السِّيُوفِ لَوَامِعًا أَبَدًا وَفَوْقَ رُؤْسِهِمْ تَنَاقُ
وقال بشامة بن حزن النهشلي :

إِنَّا لَنُرْخِصُ يَوْمَ الرُّوعِ أَنْفُسَنَا وَلَوْ نُسَامُ بِهَا فِي الْأَمَنِ أُغْلِينَا (١)

(١) يقول : إذا كان يوم الروع تقدمنا للقاه ، فإن ذهبنا أنفسنا ذهب رخيصة لانا بذلتناها بالاندام ولم نمنعها بالإحجام ، واركها يوم الامن غالية ، والالف في أغلينا : للاطلاق ، والزون ضمير النفس ، ومعنى أغلين وجدت غالية وليس يريد أنهم مع الغلاء يمكنون منها بل المراد قطع المقدرة عنها كما قال القائل :

تُعْرَضُ لِلسِّيُوفِ إِذَا التَّقِينَا نَفُوسًا لَا تُعْرَضُ لِلسَّبَابِ
وكما قال الاجدع والدمسروق للفتية .

وقال عبد الله بن محمد بن أبي عيينة بن المهلب بن أبي صفرة :
 وإني من قوم كأن أنفسهم بها أتف أن تسكن اللحم والدماء
 وقال عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي — شاعر إسلامي — :^(١)
 ومامات منا سيد حنف أنفه ولا طل يوماً حيث كان قتيل^(٢)

لقد عيلت نسوان همدان أذ:

لهن غداة الروع غير بدول

وأبذل في الهيجاء وجهي وإني له في سوى الهيجاء غير بدول

(١) تروى هذه الآيات للسموأل بن عادي اليهودي الجاهلي ، قال الخطيب
 التبريزي : وإذا كانت هذه الآيات جاهلية - أي للسموأل - فتروى :

• وما مات منا سيد في فراشه •

أي بدل • وما مات منا سيد حنف أنفه • أي لأن النبي صلى الله عليه
 وسلم هو أول من قال : مات حنف أنفه

(٢) قلنا : إن أول من قال : حنف أنفه هو سيدنا رسول الله ، قال ابن الأثير :
 هو أن يموت على فراشه ، كأنه سقط لانه فمات ، والحنف : الهلاك ، قال : كانوا
 يتخيلون أن روح المريض تخرج من أنفه ، فإن جرح خرجت من جراحته ؛ وعبارة
 غير ابن الأثير كما في اللسان : إنما قيل للذي يموت على فراشه : مات حنف أنفه
 — ويقال : مات حنف أنفه — لأن نفسه تخرج بنفسه من فيه وأنفه ، قال : ويقال
 أيضاً : مات حنف فيه ، ومن قال : حنف أنفه أراد سمي أنفه وهما : منخراه ، ويحتمل
 أن يراد : أنفه وفمه ، فغلب أحد الاسمين على الآخر ، وعبارة الخطيب التبريزي :
 والمعنى : كان حنفة - أي هلاكه - بأنفه ، أي بالانفاس التي خرجت من أنفه عند
 نزوع الروح ، لا دفعة واحدة ، قال : ويقال : خص الأنف بذلك لأنه من جهته
 يتقضى الرمق وقوله :

• ولا طل يوماً حيث كان قتيل •

فانه يقال : طل دمه : إذا بطل ولم يطلب به يقول : لا يبطل دم قتيل منا وحاصل

تَسِيلُ عَلَى حَدِّ الظُّبَاتِ نَفُوسَنَا وَلَيْسَتْ عَلَى غَيْرِ الظُّبَاتِ تَسِيلٌ ^(١)
وقال عنتره :

بَكَرَتْ تُتَخَوِّفُنِي الْحُتُوفَ كَأَنِّي أَصْبَحْتُ عَنْ عَرَضِ الْحُتُوفِ بِمَعزِلِ
فَأَجِبْتُهَا : إِنْ الْمَنِيَّةَ مَنَهَلُ لَا بُدَّ أَنْ أُسْقَى بِكَأْسِ الْمَنَهَلِ
فَأَنْتِي حَيَاءُكَ لَا أَبَالِكِ وَأَعْلَمِي أَنِّي أَمْرٌ سَأَمُوتُ إِنْ لَمْ أُقْتَلِ
إِنْ الْمَنِيَّةَ لَوْ تُعْتَلُّ مُثَلَّتْ مِثْلِي إِذَا نَزَلُوا بِضَنِّكَ الْمَنْزِلِ
« الختوف : المكاره والمثائف ، و « عن عرض » أى ما يعرض منها
وبمعزل ، أى فى ناحية منعزلة عن ذلك ، و : منهل : مورد ، وقوله :
فأنتى حياءك ، أى احفظيه ولا تضيعيه ، والضنك : الضيق يقول : إن
المنية لو حُلِقَتْ مثالا لكانت فى مِثْلِ صورتي ...

وقال خالد بن الوليد وهو فى مرض الموت : لقد كَفَيْتُ كَذَا وَكَذَا
رَحْفًا ، وما فى جسدى موضعُ شِبْرِ إِلَّا وَفِيهِ طَعْمَةٌ أَوْ ضَرْبَةٌ أَوْ رَمِيَةٌ ،
ثم دا أنا ذا أموت على فراشى حتف أنى ! فلا نامت أعينُ الجبناء ...
« وقد تقدم ذلك »

وقال الْمُفَضَّلُ بْنُ الْمُهَلَّبِ بْنِ أَبِي صُفْرَةَ :

معنى البيت : نحن لانموت ولكن نقتل ، ودم القتل منا لا يبطل
(١) نفوسنا : أرواحنا أو دماؤنا ، والظبات جمع ظبة : وهى حد السيف وفى
إضافة الحد إلى الظبات إما أن يكون المراد بالظبات السيوف كلها ثم أضاف الحد
إليها وأما أن تكون إضافة الحد إلى الظبات من إضافة البعض إلى الكل ويكون
التقدير : يسيل على الحد من الظبات وتكون الظبات مضارب السيوف ، والمصراع
الأول يدل على الشجاعة والثانى على العز والمنعة

هَلِ الْجُودُ إِلَّا أَنْ تَجُودَ بِأَنْفُسِ عَلَى كُلِّ مَاضِي الشَّفَرِ تَيْنِ قَضِيبِ
 وَمَنْ هَرَّ أَطْرَافَ الْقَنَاخِشِيَّةِ الرَّدَى فَلَيْسَ يَلْتَجِدُ صَالِحٍ بِكَسُوبِ
 وَمَاهِي إِلَّا رَقْدَةٌ تُورِثُ الْعُلَى لِرَهْطِكَ مَا حَنَّتْ رَوَائِمُ نَيْبِ
 « هر أطراف القنا يقال : هر الشيء يهر - بالكسر والضم - هراً
 وهريراً : كرهه يقال : هر فلان الكأس والحرب هريراً : أي كرهها قال
 عنبرة :

حَلَفْنَا لَهُمْ وَالْحَيْلُ تُرَدِّي بِنَامِعًا نُزَايِلِكُمْ حَتَّى تَهْرُوا الْعَوَالِيَا ^(١)
 عَوَالِي زَرْقًا مِنْ رِمَاحِ رُدَيْنَةَ هَرِيرِ الْكِلَابِ يَتَقِينُ الْأَفَاعِيَا
 وقوله : وماهي إلا رقدة ... أليت قال المبرد : مأخوذ من قول
 أخيه يزيد بن المهلب ، وذلك أنه قال في يوم العقر ، وهو اليوم الذي
 قُتِلَ فِيهِ - : قَاتَلَ اللَّهُ ابْنَ الْأَشْعَثِ - عبد الرحمن بن الأشعث -
 مَا كَانَ عَلَيْهِ لَوْ غَمَصَ عَيْنَيْهِ سَاعَةً لِلْبُوتِ وَلَمْ يَكُنْ قَتِيلَ نَفْسِهِ ... وَذَلِكَ
 أَنَّ ابْنَ الْأَشْعَثِ قَامَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ فِي سَطْحِ اللَّبُولِ ، فزَعَمُوا أَنَّهُ رَدَى
 نَفْسَهُ ، وَغَيْرُ أَهْلِ هَذَا الْقَوْلِ يَقُولُونَ : بَلْ سَقَطَ مِنْهُ بِسَنَةِ النَّوْمِ . وَقَوْلُهُ
 تُورِثُ الْعُلَى لِرَهْطِكَ ، فَاَلْمَعْنَى : تُوْرِثُ الْعُلَى رَهْطَكَ ؛ وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى :
 (إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْبَا تَعْبُرُونَ) وَالنَّيْبُ جَمْعُ نَابٍ وَهِيَ : الْمُسْتَمَّةُ مِنَ الْإِبِلِ
 سَمَّوْهَا بِذَلِكَ حِينَ طَالَ نَابُهَا وَعَظْمٌ ، وَالرَّوَائِمُ : الْعَاطِفَاتُ عَلَى أَوْلَادِهَا «

(١) الرديان : ضرب من السير وهو أن يرحم الفرس الأرض رجماً بحوافره
 من شدة العدو ، وقوله : نزايلكم دو جواب القسم أي لانزايلكم كخذف لا على
 حد قولهم نالله أبرح قاعداً : أي لا أبرح ، ونزايلكم : نبارحك يقال : ما زيلته : أي
 ما بارحته ، والعوالي جمع عالية : الريح وهي مادون السنان بقدر ذراع

من يخوض الحرب

لا بد أن يُوطن نفسه على الموت

قالت الخنساء :

ومن ظنَّ من يُلاقى الحروب بأن لا يصابَ فقد ظنَّ عجزاً

وقالوا : * إن الشجاعة مقرون بها العطبُ * (١)

وقال تأبط شراً من أبيات اختارها أبو تمام في حماسه :

ومن يُغزَّ بالاعداءِ لا بدُّ أنه سيأتي بهم من مضرع الموت مضرعاً

في القتل حياة

قال المهلب بن أبي صفرة : ليس شيء أنتمى من سيف ! ولقد صدق

فما نال السيف أنتمى عدداً وأكرم ولداً من ولد المهلب ... وقال الحجاج

لامرأة من الخوارج : والله لأحصدنكم حصداً ، فقالت : أنت تحصد

والله يزرع ، فانظر أين قدرة المخلوق مع قدرة الخالق !

ومما يصح أن يورد هنا وإن كان من وادٍ آخر قوله تعالى : « ولكم

(١) من أبيات لشاعر جبان يكنى أبا الغمر :

أضحت تُشجّعني هندٌ وقد علمت أن الشجاعة مقرون بها العطبُ

لا والذي ممع الأبصار رؤيته ما يشتهي الموت عندي من له أربُ

للحرب قوم أضل الله سعيهم إذا دعاهم إلى نيرانها وثبوا

ولست منهم ولا أبني فعالمهم لا القتل يُعجبنى منها ولا السلبُ

في القصاص حياةٌ يا أولى الألباب ،^(١)

تأثير الخوف والخوف منه

والموفى على الجماعة

قيل لعلي بن أبي طالب : بهم غلبت الاقران ؟ قال : بتمسكن هيبتي في قلوبهم ... وبعث أميراً في طلب قوم رجلاً ، فما لبث أن جاءه برجل أطول ما يكون ، فقال : كيف تمكنت منه ؟ فقال : وقع في قلبي أن آخذه ، ووقع في قلبي أنه مأخوذ ، فنصرني عليه خوفه وجرأتى ... ونظر رجل إلى علي بن أبي طالب وقد شتت العسكر ، فقال : قد علبت أن ملك الموت في الجانب الذي فيه علي .

ومن المأثور عن المصطفى صلوات الله عليه قوله : « نُصرت بالرعب مسيرة شهر » ... قال ابن الأثير : كان أعداء النبي صلى الله عليه وسلم قد أرقع الله في قلوبهم الخوف منه ، فإذا كان بينه وبينهم مسيرة شهر هابوه وفزعوا منه .

(١) قال الزمخشري : كلام فصيح لما فيه من الغرابة ، وهو أن القصاص قتل وتفويت للحياة وقد جعل مكانا وظرفا للحياة ، ومن إصابة محز البلاغة بتعريف القصاص وتسكير الحياة لأن المعنى : ولكم في هذا الجنس من الحكم الذي هو القصاص حياة عظيمة ، وذلك أنهم كانوا يقتلون بالواحد الجماعة ، وهم قتل مهلهل بأخيه كليب حتى كاد يفنى بكر بن وائل وكن يقتل بالمقتول غير قاتله فتشور الفتنة ويقع بينهم التناحر ، فلما جاء الإسلام شرع القصاص كانت فيه حياة أي حياة ، أو نوع من الحياة وهي الحياة الحاصلة بالارتداع عن القتل لوقوع العلم بالاعتصام من القاتل ، لأنه إذا هم بالقتل فعلم أنه يقتص منه فارتدع سلم صاحبه من القتل وسلم هو من القود فكان القصاص سبب حياة نفسهن ...

وقال المتنبي : * وَيُسْتَعْظُمُونَ الْمَوْتَ وَالْمَوْتَ خَادِمُهُ *
 وقال سلم الخاسر : * كَانِ الْمَنَايَا جَارِيَاتُ بَأْمَرِهِ *
 وقال الفرزدق :

تَلَطَّطَ السَّيْفُ مِنْ شَوْقٍ إِلَى أَنْسٍ

فَالْمَوْتُ يَلْحَظُ وَالْإِقْدَارُ تَلْتَضِرُ

أظله منك خنفٌ قد تجللهُ حتى يُؤامِرَ فيه رأيتك القدرُ (١)

وقيل الأسكندر : إن في عسكر دارا ألف مقاتل ، فقال : إن القصاب

الحاذق وإن كان واحداً لا يهولهُ كثرة الغنم ... وقال شاعر :

فَوَاحِدُهُمْ كَالْأَلْفِ بِأَسَا وَنَجْدَةٌ وَالْفَهْمُ لِلْعُجْمِ وَالْعُرْبِ قَاهِرُ

وقال أبو تمام يمدح أبا سعيد الطائي ويذكر ما صنع بالخرميّة :

أَقِيمْتَهُمُ وَالْمَنَايَا غَيْرُ دَافِعَةٍ لِمَا أَمَرْتَ بِهِ وَالْمُلْتَقَى كَبَدُ (٢)

في موقفٍ وَقَفَ الْمَوْتُ الزُّوَامُ بِهِ

فالمجدُ يوجِدُ والأرواحُ تُفْتَقِدُ (٣)

مُسْتَصْحَبَانِيَّةٌ قَدْ طَالَمَا ضَمِنْتُ لَكَ الْخُطُوبَ فَأَوْفَتْ بِالذِي تَعُدُّ

وَرُحْبَ صَدْرٍ لَوْ أَنَّ الْأَرْضَ وَاسِعَةٌ

كَوَسْعِهِ لَمْ يَصْنُقْ عَنْ أَهْلِهِ بَلَدُ (٤)

صَدَعَتْ جَرِيَتَهُمْ فِي عُصْبَةِ قُلُلٍ

قَدْ صَرَّحَ الْمَاءُ عَنْهَا وَأَنْجَلَى الزُّبْدُ

(١) يؤامره : يشاوره فيأتمر وينفذ رأيه ويروي بدل رأيتك : ربه

(٢) الكبد : الشدة والمشقة

(٣) الزوام : الكريه أو السريع

(٤) رحب صدر : سعة صدر

مِنْ كُلِّ أَرْوَعٍ تَرْتَمَاعُ الْمُنُونُ لَهُ

إذا تجرد، لا يَنْكَسُ ولا يَجِدُ (١)

يَكَادُ حِينَ يُبْلَقُ الْقِرْنَ مِنْ حَتَقِ

قَبْلَ السَّنَانِ عَلَى حَوَائِهِ يَرُدُّ (٢)

قَمَلُوا وَلَكِنَّهُمْ طَابُوا فَأَنْجَدَهُمْ

جَيْشٌ مِنَ الصَّبْرِ لَا يُحْصَى لَهُ عَدَدُ

المتبرم بالحرب والسخرية منه

قال سعد بن مالك أحد سادات بكر بن وائل في الجاهلية وقرسانها (٣)

يَا بُوَسَّ لِلْحَرْبِ الَّتِي وَضَعْتَ أَرَاهِطَ فَاسْتَرَا حِوَا

وهو من أبيات جيدة اختارها أبو تمام في حماسته وبعده :

(١) النكس : الضعيف ، والجحد : القليل الخير

(٢) الحوابة : النفس والجمع حوباوات

(٣) قال سعد هذه الأبيات في حرب البسوس حين هاجت الحرب بين بكر

وتغلب لقتل كليب واعتزل الحارث بن عباد وقال هذا أمر لاناقة لي فيه ولا جمل

فعرّض سعد في هذا الشعر بعود الحارث . وهذا الحارث بن عباد كان من حكام

ربيعة وقرسانها المعدودين ، وكان قد اعتزل حرب ابني وائل ثم حدثت أمور

أفضت به إلى خوضه هذه الحرب ، وهو القائل من أبيات :

قَرَّبْنَا مَرَبِطَ النَّعَامَةِ مِنِّي لَقِحَتْ حَرْبُ وَائِلٍ عَنِ حِيَالِ

لَمْ أَكُنْ مِنْ جُنَاتِهَا عِلْمَ اللَّهِ وَإِنِّي بَحَرَهَا الْيَوْمَ صَالِي

ولما فعل ما فعل قال لسعد بن مالك : أتراني ممن وضعته ا - يشير إلى قول

سعد : التي وضعت أراهط - قال سعد : لا ، ولكن لا محبا لعطر بعد عروس ،

ومعناه : إن لم تنصر قومك الآن فلن تدخر نصرك ...

والحربُ لا يَبْقَى لِحِمَا جِمِهَا التَّخْيِيلُ والمِرَاحُ
إِلَّا الْفَتَى الصَّبَّارُ فِي النَّجَّدَاتِ وَالْفَرَسُ الْوَقَّاحُ
مَنْ صَدَّ عَنْ نِيرَانِهَا فَأَنَا ابْنُ قَيْسِ لَابْرَاحِ
الْمَوْتُ غَايَتُنَا فَلَا نُقْصِرُ وَلَا عَنْهُ جِحَاحُ
وَكَاثِمًا وِرْدُ الْمَنِيَةِ عِنْدَنَا مَاءٌ وَرَاحُ

« قوله يا بُؤْسَ للحرب ، أصله : يا بُؤْسَ الحرب ، فَأُقْحِمَت اللام
بين المتضايقين ، يدعو على الحرب وَيَذْمُ نكباتها سخريةً ؛ ومعنى وضعت
أراهط : حَطَّطَهُمْ وَأَسَقَطَهُمْ فلم يكن لهم ذكر ولا شرف في هذه الحرب
فاستراحوا من مكابدها كالنساء ، قال بعض الأعراب لرجل : إنه قد وضع
المكارم فاستراح ، وقال رجل للأحنف : لا أبالي أهجيت أم مُدِحت ،
فقال : استرحت من حيث تَعَبَ الكرام ، وأراهط إما جمع أَرُهَط جمع
رهط وإما جمع رهدط على خلاف القياس ، والرهدط : النفر من ثلاثة إلى
عشرة ، والجاحم : المكان الشديد الحر ، من جَحَمَت النار فهي جاحمة :
إذا اضطربت ، ومنه الجحيم ، والتخييل : التكبر ، من الخيلاء . يقول :
لِنِيسَا لَا تُبْقَى عَلَى نَحْوَةِ الْمُنْحَوِّ ، وذلك أن أولي الغناء يتكرمون عن
الخيلاء . ويختال المغرور فإذا جُرِبَ فلم يُحَمَّدَ أَفْتَضَحَ وسقط ، أو تقول
مَنْ كَانَ ذَا خَيْلَاءٍ وَمَرِحَ ثُمَّ بُلِيَ بِالْحَرْبِ شَغَلَتْهُ عَنْ خَيْلَائِهِ وَمَرِحَ .
والمراح بكسر الميم : النشاط ، أى أنها تكف حدة البطر النشيط ، وهذا
تعريض بالحارث بن عباد بأنه صاحب خيلاء ومرح . والصبار مبالغة صابر
والنجدة : الشدة والبأس في الحرب ، والوقاح : الفرس الذى حافره صلب
شديد ، ومنه الوقاحة .

وقوله : فأنا ابنُ قيسٍ لا بَراح ، أَى : أنا المشهور في النجدة كما سَمِعْتِ .
وأضاف نفسه إلى جدّه الأعلى لشهرته به ، وجملة لا بَراح حال مؤكدة
لقوله : أنا ابن قيس كأنه قال : أنا ابن قيس ثابتاً في الحرب ، والبراح
مصدر بَرِح الشيء بَراحاً : إذا زال من مكانه . وقوله : فلا أَصْرُ هناك
ولا جماح فالقصر . الحبس ، والجماح مصدر جَمَحَ : إذا انفلت وهرب يريد :
لا يمكن حَبْسُ نفس عن الموت ولا مهربَ عنه . والورد : الورد وهو دخول
الماء ، وقيل : حُضوره وإن لم تَدْخُلْه .

وقال شاعر :

ماذا قَ هَمًّا كالشجاع ولا خلا بِمَسْرَةٍ كالعاجِزِ المَتَوَانِي

الممدوح بقوة نفسه دون جسمه

قال أبو تمام :

والصَّبْرُ بالأرواح يُعْرَفُ أَضْلُهُ صَبْرُ الملوِكِ وليسَ بالأجسامِ

وقال شاعر :

وإني لِلقَوِيِّ على المعالي وما أنا بالقوى على الصِّراعِ

وقال معاوية رضى الله عنه : ما كان في الشَّبانِ شيء إلا وكان في منه

مُسْتَمْتَعٌ ، إلا أنى لم أكن نُكَّحَةً ولا صُرَعَةً . « رَجُلٌ نُكَّحَةٌ : كثير

النِّكاحِ — الوطء — ورجلٌ صُرَعَةٌ : يصرع الناس ،

وأورد أبو تمام في حماسته لبعض الشعراء :

لا قُوَّتِي قُوَّةُ الراعي فَلَائِصُهُ يَاوِي فَيَاوِي إليه الكلب والرَّبِيعُ

مِنَّا الإناةُ وبمضُ القومِ يحسبنا أتا بَطَاءُ وفي إبطائنا سَرَعُ

« يقول : ليس غنائى فى المَهَمَّاتِ غَناءَ الرِعاءِ الذين سعيهم مقصور على ضم القلاص وحفظها فى مراعيها فإذا أوى إلى موضع أوى إليه كلبه الذى يحرسه ورُبَعه ، وهو ما تُتِجَ فى الربيع ، والسرع : السُرعة »

القصء إلى العءى مجاهرة

قال السرى الرفاء : من أبات يمدح بها سيفَ الدولة بن حمدان :
 وَيَجْعَلُ بِشْرَهُ نُذْرَ الْأَعَادِي قَبِيْعَتُهُ جَنْوَبًا أَوْ شِمَالًا
 وَلَمْ يُنْذِرْهُمْ مِقَّةً وَلَسْكَنَ تَرَفَعَ أَنْ يُصِيبَهُمْ اغْتِيالًا (١)
 وأشار على الإسكندر المقدونى أصحابه أن يُبَيِّتَ الفُرسَ (٢) ، فقال :
 ليس من الإنصاف أن أجعل غَلَبَتى سِرَّةً ...

المقاتل عن حرمة

لِيمِ الإسكندرُ على مُباشَرَتِهِ الحروبِ بِنَفْسِهِ ، فقال : ليس من الإنصاف
 أَنْ يَقْتُلَ قَوْمِي عَنِّي وَأَتْرِكَ الْقِتَالَ عَنْهُمْ وَعَنْ أَهْلِ وَتَفْسَى ...
 وقيل للحسن البصرى : يا أبا سعيد ، إنا نكون فى هذه البعوث
 والسرايا فنُصِيبُ المرأةَ من العدو ، وهى ذاتُ زوج ، أَفَتَحِلُّ لَنَا مِنْ قَبْلِ
 أَنْ يُطَاقَها زَوْجُها ؟ وكان الفرزدق حاضرًا ، فقال الفرزدق : قد قلت أنا

(١) المقة : المحبة

(٢) تببيت العدو : أن يقصد فى الليل من غير أن يعلم فىؤخذ بغتة ، والاسم :
 البيات ، وأما قولهم : بيت الامر فعناه : دبره بليل قال تعالى : إذ يبيتون ما لا يرضى
 من القول ، قال الزجاج : كل ما فكر فيه أو خيض فيه بليل فقد بيت ، يقال : هذا
 أمر دبر بليل وبيت بليل ، بمعنى واحد .

في مِثْلِ هذا شِعْرًا ، وأنشد :

وَذَاتِ حَلِيلٍ أَنْكَحَتْهَا رِمَا حُنَا حَلَالًا لِمَنْ يَبْنِي بِهَا وَلَمْ تُطَلِّقْ (١)

فقال الحسن : أصبت ، كنتُ أرى أَنَّكَ أَشْعَرُ مِنِّي فَإِذَا أَنْتِ أَفْقَهُ

قال ابن رشيقي في العمدة : وما أُعْظِنُ الْفِرْزَدَقَ إِلَّا أَرَادَ مَذْهَبَ الْجَاهِلِيَّةِ فِي السَّبَايَا ...

وقال زيادُ الأعمى من كلمته التي يرثي بها المغيرةَ بنَ المهديِّ بن

أبي صُفْرَةَ :

صَمَّانٍ مَخْلُوفَانِ حِينَ تَهْلَا قِيَا أَبَا بُوْجِهٍ مُطَلِّقِي أَوْ نَكِيحِ

المستنكف من السلب

قال أبو تمام من بانيته المشهورة التي يبنى فيها المعتصم بفتح عمورية :

إِنَّ الْأُسُودَ أُسُودَ الْغَابِ هِمَّتْهَا يَوْمَ الْكُرْبَةِ فِي الْمَسْلُوبِ لَا السَّابِ

وَقَتَلَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رَجُلًا فَأَرَادَ قَبْرُهُ أَنْ يَأْخُذَ سَلْبَهُ ،

فقال : يا غلام ، لا تُعَرِّ فِرَائِي ... وقال عنتر في معلقته :

هَلَّا سَأَلْتَ الْحَيْلَ يَا ابْنَةَ مَالِكٍ إِنَّ كُنْتَ جَاهِلَةً بِمَا لَمْ تَعْلَمِي (٢)

يُخْبِرُكَ مِنْ شَهْدِ الْوَقِيعَةِ أَنِّي أَعَشَى الْوَعَى وَأَعْفَى عِ الْغَنَمِ

ه جهاراً بأيدينا ولما تطلق

(١) يروي العجز هكذا :

(٢) الحيل يريد : الفرسان

الشبان والكهول في الحرب

قال رجلٌ لآخر : لاغزوتك بمرْدٍ على جُردٍ^(١) ، فقال له : لألقينك
بكهول على فحول .

وقال المتنبي :

سأطلبُ حقِّي بالقنا ومشايخٍ كأنهمُ من طولِ ما التَّشَمُّوا مُردُ^(٢)

نُقالٍ إذا لا قوا خِفافٍ إذا دُعوا

كثيرٍ إذا شدوا قليلٍ إذا عدوا^(٣)

وطَئِنِ كَأَنَّ الطَّعْنَ لا طَعْنَ عِنْدَهُ

وَضَرَبٍ كَأَنَّ النارِ مِنْ حَرِّهِ بَرْدُ^(٤)

(١) الجرد جمع أجرد والاجرد من الخيل : السابق .

(٢) يقول : سأطلب حقى بالرماح وبصحب لى لا يفارقون الحروب فلا يفارقهم اللثام ولا ترى لحام فكأنهم مرد ، واللثام فى الحرب عادة العرب لئلا تسقط عمامتهم وقال الواحدى : كنى بالقنا عن نفسه وبالمشايخ عن أصحابه يعنى : أنه يطلب حقه بنفسه وبغيره ، وأراد : أنهم محسكون مجربون ولذلك جعلهم مشايخ

(٣) مراده بكوتهم نقالا : شدة وطأتهم على العدو أو ثباتهم لدى اللقاء ، وكنى بالحقفة عن سرعة الإجابة إذا دعوا للنجدة ، وبالكثرة عن سد الواحد مسد الجماعة أى أنهم على قاتهم فى العدد يغنون غناء السواد الأعظم

(٤) وطعن : عطف على القنا والضمير فى عنده يعود إلى الطعن الأول يقول : وأطلب حقى بطعن شديد كأن كل طعن غيره بالقياس إليه لا شىء ، وبضرب حاز كأن حر النار بالإضافة إليه برد

إِذَا شِئْتُ حَفَّتْ بِي عَلَى كُلِّ سَابِجٍ

رِجَالُ كَأَنَّ الْمَوْتَ فِي فَمِهَا شَهِدٌ^(١)

وهم يفضلون الثُّبَان على الكهول في الحروب ، وقد أورد الراجب في محاضراته أبياتاً عزاه إلى طاهر بن الحسين ، في هذا المعنى^(٢) ، والأبيات وإن كانت في معناها قد أصابت مقطع الحق والسداد بيد أن مضاهها ليس من الجمال في شيء ومن ثم استحسننا أن ننشرها ونوردها عليك مشورةً ألباطنا مع المحافظة على المعنى ، وهاكها : مِنْ صَائِبِ الرَّأْيِ أَنْ تَسْتَظْهِرَ فِي تَدْبِيرِ حَرْبِكَ بِالشُّيُخِ الْمُحَنِّكِينَ الَّذِي تَمَرَّسُوا بِالأَيَّامِ حُلُومِهَا وَمُرَّهَا ، وَالَّذِينَ تُغْنِي آرَائِهِمْ غَنَاءَ الْعَمَلِ ، وَإِيَّاكَ أَنْ تُغْشَى الْوَعْدَى إِلَّا بِحَدِيثِ السَّنِّ مُقْتَبِلِ الشَّبَابِ ، فَإِنَّ الكَهُولَ الَّذِينَ تَنْقَسُ بِهِمُ الْعُمُرُ وَاقْتَرَبُوا مِنْ مَنَاهِلِ الْمَوْتِ تَرَاهُمْ يَتَمَثَّلُونَ الْمَوْتَ أَوَّلًا بَيْنَ أَعْيُنِهِمْ خَوْفًا وَجَزَعًا ، وَمِنْ جَرَاءِ ذَلِكَ يَجُوبُونَ ، أَمَا حَدِيثُ السَّنِّ فَإِنَّ لَهُ شَأْرًا بَعِيدًا يُرِغُهُ ، وَأَمَّا لَ عِرَاضًا يَحَاوِلُ تَحْقِيقَهَا ، وَمِنْ هُنَا كَانَ جَرِيئًا طَمُوحًا بَعِيدًا مُرْتَقَى الْهَمَّةِ فَهُوَ لَا يَبَالِي أَسْقَطَ عَلَى الْمَوْتِ أَمْ سَقَطَ الْمَوْتُ عَلَيْهِ ، لِأَنَّ الْمَوْتَ لَيْسَ مِنْهُ عَلَى بَالٍ ...

(١) في فهمها أراد : في أفواهها فأوقع الواحد موقع الجماعة ، والسابج : الفرس

السريع الجرى كأنه يسبح

(٢) هو والد عبد الله بن طاهر ، وكان من أكبر أعوان المأمون وهو الذي

تولى محاربة الأمين حتى قتله وهو وإن كان أديباً يحب الشعر إلا أنه لم يرد له شعر

فلعل هناك تحريفاً في المحاضرات ولعل الأبيات لابن عبد الله بن طاهر الذي كان له

شعر مليح .

العاجز أعاديه عن إصلاح ما أفسده وعكس ذلك

قال علي بن جبلة المعروف بالعكوك من أبيات يمدح بها أبا غانم
حميد بن عبد الحميد الطوسي :

يَرْتُقُ مَا يَفْتُقُ أَعْدَاؤُهُ وليس بأسو فتنقه آسى (١)
فالناس جسمٌ وإمام الهدى رأسٌ وأنت العينُ في الرايس
وقال الكُمَيْت :

لا يَهْدِمُ النَّاسُ مَا تَبْنِي أَكْفُهُمْ مِنَ الْفَعَالِ وَلَا يَبْنُونَ مَا هَدَمُوا (٢)
وقال أشجع السُّلَمِي من قصيدة يمدح بها جعفر بن يحيى البرمكي وزير
الرشيد :

وَلَا يَرْفَعُ النَّاسُ مَن حَطَّهُ وَلَا يَضْمُونُ الَّذِي يَرْفَعُ
وابعده :

تَرِيدُ الْمَلُوكَ مَدَى جَعْفَرٍ وَلَا يَضْنَعُونَ كَمَا يَضْنَعُ
وليس بأوسعهم في الغنى ولكنَّ معروفه أوسع

وهذا البيت الثالث من قول ابن زياد الأعرابي :

وَلَمْ يَكْ أَكْثَرَ الْفَتِيَانِ مَالًا وَلَسْكَنَ كَانَ أَرْحَبَهُمْ ذِرَاعًا

(١) ارتق ضد الفتق وهو : لام الفتق وإصلاحه ، وبأسو فتنقه مجاز من أسا
الجرح بأسوه : داواه . والآسى : الطيب المداوى
(٢) الفعال : الفعل الحسن

وقال المتنبي :

لا يجبرُّ النَّاسُ عَظْمًا أَنْتَ كَاسِرُهُ ولا يهَيِّضونَ عَظْمًا أَنْتَ جَاوِرُهُ (١)

من تصحبه الطيور والسباع في القتال

أول من وَصَفَ المحارِبَ تَصَحَّبَهُ الطيورُ والسباعُ رِقَّةً بانتصارِهِ ،
وبالشَّبَعِ من فرائسِهِ : النابغة الذبياني إذ يقول في قصيدة له يمدح بها عمرو
ابن الحارث الأصغر من ملوك غَسَّان بالشام :

عصائبُ طَيْرٍ تَهْتَدِي بِعَصَائِبِ	إذا ما غزوا بالجيشِ حلقَ فوقهم
من الضارياتِ بالدماءِ الدَّوَارِبِ	يُصَاحِبَتُهُمْ حَتَّى يُغْرَنَ مَغَارَهُمْ
جلوسَ الشيوخِ في ثيابِ المرائِبِ	تراهنَّ خلفَ القومِ خُزراً عيونها
إذا ما التَقَى الجمعانِ أولُ غالبِ	جوانِحَ قد أيقنَّ أن قيسلَهُ
إذا عرَّضَ الحُطَّى فوق السكواثِبِ	لهنَّ عليهم عادةٌ قد عرفنَها

« العصائب : الجماعات . وقوله : يصاحبنهم يقول : تسير جماعاتُ
الطير معهم كأنما تغير ياغارتهم على الأعداء ، وهذه الطيور من المتدربات
الضاريات المولعات بدماء القتلى . والخزر جمع أخزر وخزراء أى : ضيقة
العيون خلقة ؛ أو أنها تتخازر ، أى تقبض أجفانها ، لتحدِّدَ النظر ، وقوله
جلوس الشيوخ ، أى أنها لدى اشتداد القتال تقعُّ على أعالي الأرض والهضاب
كأنها في ريشها ووقوفها وتحديد النظر ترقبُ القتلى جالسةٌ جلوس
الشيوخ إذا التفوا بأكسيَّة المرائب يحدِّدون النظر إلى شيء بعيد ، والمرايب

(١) هاض العظم : كسره بعد الجبور

جمع مَرَبَّانِي ، وهو الثوب المبطن بفراء الأرناب . وجوانح : مائلات
للوقوع . والخطي : أى القنا المنسوبة إلى الخط - بلد بالبحرين - والكواثب
- بالثاء المثانة - جمع كائبة ، وهى من جسم الفرس ماتحت الكاهل . إلى
الظهر بحيث إذا نُصِبَ عليه السرجُ كانت أمام القَرَبُوسِ يوضع الفارس
عليها رُفْحُه مُسْتَعْرِضًا ، يقول : اعتادت الطير أن الرماح إذا عُرِضت على
الكواثب كان ذلك لِرِزْقِ بُسَاقِ إِلَيْهَا .

وقال أبو تمام :

وقد ظَلَلَتْ عِقْبَانُ أَعْلَامِهِ ضُحَى بَعْقَبَانِ طَيْرٍ فِي الدَّمَاءِ نَوَاهِلِ (١)
أَقَامَتْ مَعَ الرَّايَاتِ حَتَّى كَانَهَا مِنْ الْجَيْشِ إِلَّا أَنَّهُمْ تَفَارَتِلِ
وَقَالَتْ جَنُوبُ آخَتْ عَمْرٍو ذِي السَّكْبِ تَرْتِيهِ :

تَمَشَّى الدُّورُ إِلَيْهِ وَهِيَ لَاهِيَةٌ مَشَى العَدَارَى عَلَيْهِنَّ الجَلَابِبُ

« الجلاببُ : ثوبٌ أَوْسَعُ مِنَ الخِمارِ دونِ الرِّداءِ تُغَطِّي بِهِ المِراةُ رَأْسَهَا
وقيل : المِلاةُ التى تَشْتَمِلُ بِهَا ، ومعنى قوله وهى لاهية : أن النُّسور
آمنةٌ منه لا تَفَرِّقُهُ لكونه مَيْتًا فهى تمشى إليه مَشَى العَدَارَى ، وأول هذه
المِريَّةُ :

كُلُّ امْرِئٍ يَطْوَالِ العَيْشِ مَكْدَرُبُ
وَكُلُّ مَنْ غَالَبَ الأَيَّامَ مَغْلُوبُ

وقال المتنبي :

(١) العقبان الأولى جمع عقاب : الراية الضخمة ، والثانية جمع عقاب أيضاً :
سباع الطير .

تَرَكْتَ جَمَاجِمَهُمْ فِي النَّقَا . وَمَا يَتَخَلَّصْنَ لِلنَّاخِلِ (١)
فَأَنْبَتَ مِنْهُمْ رَيْبَعَ السَّبَاعِ فَأَنْتَ يَا حَسَانِكَ الشَّامِلِ

وقال :

سحابٌ مِنَ الْعِقْبَانِ يَزْحَفُ تَحْتَهَا سحابٌ إِذَا اسْتَسْقَتْ سَقَّتْهَا صَوَارِمُهُ

وقال في صفة جيش وقد ألمَّ بهذا المعنى :

وَذِي لَجَبٍ لَا ذُو الْجَنَاحِ أَمَامَهُ بِنَاجٍ وَلَا الْوَحْشُ الْمُنَارُ بِسَالِمِ (٢)
تَمْرٌ عَلَيْهِ الشَّمْسُ وَهِيَ ضَعِيفَةٌ تُطَالَعُهُ مِنْ بَيْنِ رَيْشِ الْقَشَاعِمِ (٣)
إِذَا ضَوْؤُهَا لَاقَى مِنَ الطَّيْرِ فُرْجَةً

تَدَوَّرَ فَوْقَ الْبَيْضِ مِثْلَ الدَّرَاهِمِ (٤)

وقال :

يُطَمَعُ الطَّيْرَ فِيهِمْ طَوْلُ أَكْلِهِمْ حَتَّى تَكَادَ عَلَى أَحْيَائِهِمْ تَقَعُ

(١) النقا : الكتيب من الرمل يقول : دست رؤسهم بحوافر الخيل فطحنها وامتزجت بالرمل حتى لو نخل الرمل لم يتخلص من رؤسهم شيء ، ثم قال في البيت التالي : تركتهم جزراً للسباع فأخصبت بكثرة القتلى فكأنك أنبت لها ريبعاً فلو قدرت السباع لأنبت عليك بما شملتها من إحسانك

(٢) اللجب : اختلاط الأصوات ، والمثار : الذي أثاره الخوف من مكنه يقول إذا طار ذو الجناح وسايره فليس بناج لكثرة الرماة في الجيش ، وإن نار وحش أخذ

(٣) القشاعم : النور يقول : تمر الشمس على هذا الجيش وهي ضعيفة من كثرة عقبانها التي تخيم عليه وتبعه ولا ينفذ ضوءها إليه إلا في خلال النور كما ذكر في البيت التالي

(٤) البيض جمع بيضة وهي : الخوذة ، شبه ما يتساقط من الضوء في فرج أجنحة الطير فوقع بالدرهم يقول لكثرة اشتباك الطير لا يصل إليه ضوء الشمس إلا من منافذ ضيقة فوقع مستديراً

وقال أبو نواس :

تَأْيَأُ الطَّيْرِ عُذْرَتُهُ ثِقَةً بِالشَّبْعِ مِنْ جَزْرِهِ
« تأيأ الشيء : قصد آيته ، أى شخصه . والجزر : قِطْع اللحم »

عذر من يلبس الدروع

ونحوها في الحرب والمستغنى بشجاعته وبقينه عنها

قال أبو تمام في المستغنى بجلادته عن الدروع :

إِذَا رَأَوْا لِلنَّبَايَا عَارِضًا لِبُسَا مِنْ اليَقِينِ دَرُوعًا مَا لَهَا زَرَدُ
وَسُسَيْلَ بَعْضِ الْإِبْطَالِ : فِي أَى الْجُنَيْنِ يُحِبُّ أَنْ تَلْقَى عَدُوَّكَ ؟
قال : فِي أَجَلٍ مُسْتَأْخِرٍ ... وَقِيلَ لِآخِرِ : لَوْ احْتَرَسْتَ فَقَالَ : كَفَى
بِالْأَجَلِ حَارِسًا ...

وما يؤثر في كثرة لبس الدروع والاستعداد للحرب أبداً قول مسلم بن
الوليد من قصيدته التي يمدح بها يزيد بن يزيد الشيباني وهو ابن أخى معن
ابن زائدة :

تَرَاهُ فِي الْأَمْرِ فِي دِرْعٍ مُضَاعَفَةٍ
لَا يَأْمَنُ الدَّهْرَ أَنْ يُدْعَى عَلَى عَجَلٍ

وبعده :

لَا يَعْجَبُ الطَّيْبُ حُدَيْهِ وَفَرَقَهُ وَلَا يُسَّحُّ عَيْلِيهِ مِنَ الْكَحْلِ
يُرْوَى أَنَّ عَمَّهُ مَعْنُ بْنُ زَائِدَةَ كَانَ يُقَدِّمُهُ عَلَى أَوْلَادِهِ فَعَاتَبَتْهُ امْرَأَتُهُ
فِي ذَلِكَ ، فَقَالَ لَهَا : فَأَرِيكَ مَا تَبْسُطِينَ بِهِ عَذْرَى ، يَا غَلَامَ ، إِذْ هَبْ فَادْعُ
حَسَّاسًا وَزَائِدَةَ وَعَبْدَ اللَّهِ وَفُلَانًا وَفُلَانًا حَتَّى أَتَى عَلَى جَمِيعِ أَوْلَادِهِ لِمَا لَسُوا

أن جاؤا في الغلائل الْمُطَيَّبَةِ والنَّعَالِ السَّنْدِيَّةِ ، وذلك بعد هُدَاةٍ من الليل ، فسَلَّوْا وجلسوا ، ثم قال مَعْن ، يا غلام ، ادع يزيدَ ، فلم يلبث أن دخلَ عَجَلًا وعليه سلاحُه ، فوضع رُوحَه بياب المجلس ، ثم دخلَ ، فقال مَعْنُ له : ما هذه الهيئة يا أبا الزبير ، فقال : جاءني رسولُ الأمير فسبق وَهَمِي إلى أنه يُريدني لِمِهِمْ فَلَبِسْتُ سلاحِي وقلت : إن كان الأمر كذلك مَضَيْتُ ولم أُعْرَجْ وإن كان غيرُ ذلك فَنَزَعُ هذه الآلة عني من أيسر الأشياء ، فقال مَعْن : انصرفوا في حفظ الله ، فلما خَرَجوا قالت زوجته قد تَبَيَّنَ لي عُدْرُكَ ، فَأُنشِدُ مَثَمَلًا :

نَفْسُ عِصَامٍ سَوَدَتْ عِصَامًا وَعَلِمَتْهُ الْعُكْرُ وَالْإِفْدَامَا
وَصَيَّرَتْهُ مَلِكًا هُمَامَا

وإلى ذلك أشار مسلم بالبيتين المذكورين : ويُروى : أن مُسَلِّمًا لما انتهى في إنشاد هذه القصيدة إلى البيت الأول قال له يزيد المددوح : هَلَا قَلَّتْ كما قال أعشى بكر بن وائل في مدحه قيس بن معد يكرب ^(١) وإذا تجيءُ كَتِيبَةٌ مَلُومَةٌ شَهَبَاءُ تَجْتَلِبُ الكَمَاءُ نِزَالَهَا ^(٢) كنتُ المَقْدَمَ غيرَ لابسِ جُنَّةٍ بالسيفِ أَضْرِبُ مَعْلِبًا أَبْطَالَهَا ^(٣)

(١) هذا قيس هو والد الأشعث بن قيس الكندي الصحابي

(٢) السكتبية : القطعة العظيمة من الجيش ، وكتيبة ملومة : مجتمعة مضموم بعضها الى بعض ، وشهباء : لما فيها من بياض السلاح والحديد في حال السواد ، والكماء : الأبطال مدججين بالسلاح

(٣) رحل معلم : يعلم مكانه في الحرب بعلامة جعلها لنفسه وهو شأن الشجعان وأبطالها مفعول تضرب .

فقال مسلم : قولى أحسن من قوله لأنه وَصَفَهُ بِالْحُرْقِ وَأَنَا وَصَفْتَهُ
بِالْحَزْمِ . وَيُرْوَى مِثْلَ هَذَا لِعَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ مَعَ كَثِيرٍ عَزَاةً ...

تحریم الملاهی علی المحارب

قال معاوية رضى الله عنه : مَاذُوتُ أَيَّامَ صِفِّينَ ^(١) لِحِمَاً وَلَا حَلْوَاءَ
بَلْ أَتَصَرْتُ عَلَى الْخَبْزِ حَتَّى فَرَعْتُ .

وَكَتَبَ عَامِلُ الْبَيْتِ إِلَى عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ فِي وَقْتِ مُحَارَبَتِهِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ
ابْنَ الْأَشْعَثِ : إِنِّي قَدْ وَجَّهْتُ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ بِجَارِيَةٍ اشْتَرَيْتُهَا بِمَالٍ عَظِيمٍ ،
وَلَمْ يُرَ مِنْهَا قُطْرٌ ، فَلَمَّا دَخَلَ بِهَا عَلَيْهِ رَأَى وَجْهَهَا جَمِيلًا وَخَلْقًا نَدِيمًا ،
فَأَتَى إِلَيْهَا أَتِيبًا كَانَ فِي يَدِهِ فَتَكَسَّتْ لِتَأْخُذَهُ ، فَرَأَى جِسْمًا قَدْ بَهَرَهُ ،
فَلَمَّا هَمَّ بِهَا أَعْلَمَهُ الْأَذِنُ أَنَّ رَسُولَ الْحِجَابِ بِالْبَابِ فَأَذِنَ لَهُ ، وَنَحَى
الْجَارِيَةَ ، فَأَعْطَاهُ كِتَابًا مِنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ عَبْدُ الْمَلِكِ كِتَابًا ، ثُمَّ
بَاتَ يُقَلِّبُ كَفَّ الْحَارِيَةَ وَيَقُولُ : مَا أَفَدْتُ فَائِدَةً أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْكَ ، فَتَقُولُ :
فَمَا بِالَّذِي يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَمَا يَمْتَعُكَ ؟ فَقَالَ : يَمْنَعُنِي مَا قَالَهُ الْأَخْطَلُ ، لِأَنِّي
إِنْ خَرَجْتُ مِنْهُ كُنْتُ أَلَأَمَّ الْعَرَبِ :

قَوْمٌ إِذَا حَارَبُوا شَدُّوا مَا زَرَمَ دُونَ النِّسَاءِ وَلَوْ بَاتَتْ بِأَطْهَارٍ
فَمَا إِلَيْكَ سَبِيلٌ أَوْ يَحْكُمُ اللَّهُ بَيْنِي وَبَيْنَ عَدُوِّ الرَّحْمَنِ بْنِ الْأَشْعَثِ ،
فَلَمْ يَقْرَبْهَا حَتَّى قَتَلَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ قَوْلَ الْأَخْطَلِ وَلَوْ بَاتَتْ بِأَطْهَارٍ ،

(١) صِفِّينَ : مَوْضِعٌ بِقَرْبِ الرَّقَّةِ عَلَى شَاطِئِ الْفُرَاتِ مِنَ الْجَانِبِ الْقَرْبِيِّ وَأَيَّامٌ
صِفِّينَ : أَيَّامُ الْحَرْبِ بَيْنَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ وَبَيْنَ مَعَاوِيَةَ وَكَانَتْ مَدَّتْهَا مِائَةٌ يَوْمٍ وَعِشْرَةٌ
أَيَّامًا وَكَانَتْ وَقَائِعُهَا تَسْعِينَ وَقَعَةً وَكَانَتْ فِي سَنَةِ ٣٧ هـ .

يعنى : أنه يَجْتَبِيهَا فِي طُهْرِهَا وَهُوَ الْوَقْتُ الَّذِي يَسْتَقِيمُ لَهُ غَشْيَانُهَا فِيهِ
 وَفِي هَذَا الْمَعْنَى يَقُولُ الْأَعَشِيُّ مِنْ كَلِمَةٍ لَهُ يَمْدَحُ بِهَا هُوَذَةَ بْنَ عَلِيِّ بْنِ الْحَنَفِيِّ :
 وَفِي كُلِّ عَامٍ أَنْتَ جَاشِمٌ غَزْوَةٌ تَشُدُّ لِأَقْصَاهَا عَزِيمٌ عَزَائِكَ
 مُورَثَةٌ مَالًا وَفِي الْحَيِّ رِفْعَةٌ لِمَا ضَاعَ فِيهَا مِنْ قُرُوءِ نِسَائِكَ
 « جاشم اسم فاعل جَشِمَ الْأَمْرَ - بالكسر - تَكَلَّفَهُ عَلَى مَشَقَّةٍ ،
 وَالْعَزِيمُ كَالْعَزِيمَةِ مَصْدَرُ عَزَمَ عَلَى الْأَمْرِ : جَدَّ فِي عَمَلِهِ ، وَالْعَزَاءُ : الصَّبْرُ
 يَقُولُ الْأَعَشِيُّ : أَنْتَ فِي كُلِّ عَامٍ تُكَلِّفُ نَفْسَكَ الْغَزْوَ وَاقْتِحَامَ مَكَارِهِهَا
 تَشُدُّ وَتُوَثِّقُ عَزِيمَةَ صَبْرِكَ لِأَقْصَاهَا ، أَيْ أَبْعَدِهَا وَأَعْلَاهَا ، أَوْ غَايَتَهَا
 وَمُنْتَهَاهَا ، وَهَذِهِ الْغَزَوَاتُ تُورَثُكَ مَا لَا كَثِيرًا بِنِجْمَانِهَا ، وَرِفْعَةٌ لَكَ فِي
 الْحَيِّ . وَالْقُرُوءُ جَمْعُ قَرْءٍ وَهُوَ : الطُّهْرُ هُنَا ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : وَالْمُطَلَّقَاتُ
 يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فَقَالَ الْحِجَازِيُّونَ الْقُرُوءُ :
 الْأَطْهَارُ ، وَقَالَ أَهْلُ الْعِرَاقِ الْحَيْضُ ، أَمَا فِي قَوْلِ الْأَعَشِيِّ فَالْقُرُوءُ : الْأَطْهَارُ
 لِأَلْحَيْضِ لِأَنَّ الدَّمَّ إِذَا يُؤْتَيْنِ فِي أَطْهَارِهِنَّ لِأَنَّهُ حَيْضُهُنَّ فَإِنَّمَا ضَاعَ
 بِغَزْوِهِ وَغَلْبَتِهِ عَنْهُنَّ أَطْهَارُهُنَّ . هَذَا وَاللَّامُ فِي قَوْلِهِ : لِمَا ضَاعَ فِيهَا لِأَنَّ
 الْعَاقِبَةَ مِثْلَهَا مِثْلُ اللَّامِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا
 لِيَعْبُدُونِ ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا . هَذَا وَقَوْلُهُ تَعَالَى ثَلَاثَةَ
 قُرُوءٍ قَالَ الْأَصْمَعِيُّ : جَاءَ هَذَا عَلَى غَيْرِ الْقِيَاسِ وَالْقِيَاسُ : ثَلَاثَةُ أَقْرَاءٍ وَلَا
 يَجُوزُ أَنْ يَقَالَ : ثَلَاثَةُ فُلُوسٍ ، إِنَّمَا يَقَالَ : ثَلَاثَةُ أَنْفُسٍ إِذَا أَكْثُرَتْ فَهِيَ
 الْفُلُوسُ ، وَلَا يَقَالَ : ثَلَاثَةُ رِجَالٍ إِنَّمَا هِيَ ثَلَاثَةُ رَجُلَةٍ ، وَلَا يَقَالَ ثَلَاثَةَ
 كِلَابٍ إِنَّمَا هِيَ ثَلَاثَةُ أَكْلَبٍ . وَقَالَ النَّحْوِيُّونَ : فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ
 أَرَادَ : ثَلَاثَةَ مِنَ الْقُرُوءِ ،

طائفة من عبقرياتهم في الصلح

والتحذير من الحرب

قال عز وجل : « وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا . » (السلم : الصلح ، بفتح السين وكسرها ، وتذكر وتؤنث ، وقال : « وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْآخَرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ . » (نزلت هذه الآية الكريمة في قتال حدث بين الأوس والخزرج في عهده عليه الصلاة والسلام بالسعف والنعال ، والجمع في اقتتلوا باعتبار المعنى فإن كل طائفة جمع ، وبغت : تعدت ، وتفيء : ترجع ، وأقسطوا : أعدلوا »

ومن كلامهم : الحرب صعبة مرة ، والصلح آمن ومسرّة
ومنه : إياك والمعادة ، فإنك لن تعدم مكر حلیم ، أو مفاجأة لئيم .
ومنه : لا تستثيروا السباع من مرائبها فتندموا ، وداروا الناس
في جميع الأحوال

ومنه : الفتنه نائمة ، فن أيقظها فهو طعامها « الفتنه هنا : ما يقع بين الناس من القتال والحروب . »

وقال زهير بن أبي سلمى في معلقته :

وما الحرب إلا ما علبتم وذقتم وما هو عنها بالحديث المرجم
متى تبعثوها تبعثوها ذميمة وتضر إذا ضرئتموها فتضرم
فتعركم عرك الرحي بفالها وتلتح كشافاً ثم تلتج فتسجم

فَتُلْتَجِّحُ لَكُمْ غِلْمَانَ أَشْأَمَ كَأُحْمِهِمْ كَأُحْمِ عَادٍ ، ثُمَّ تُرَضِعُ فَنَقِطُ .
فَتُغْلِلُ لَكُمْ مَا لَا تُعِلُّ لِأَهْلِهَا قَرَى بِالْعِرَاقِ مِنْ قَفِيزٍ وَدِرْهَمٍ .

إِن أَنْ قَالَ :

وَمَنْ يَعِصِ أَطْرَافَ الرَّحَاجِ فَإِنَّهُ يُطِيعُ الْعَوَالِي رُكِبَتْ كُلُّ لَهْدَمٍ
« المرجم من الحديث : المقولُ بطريق الظنِّ لا عن تحقيق ، يقول :
وما حديثي عن الحرب وتخويفكم أهوالها بالحديث المُفْسَري ، وإنما أنتم قد
علمتم وبلاتِ الحرب وذقتموها فلا تقرُّبوها ؛ وَضَرِي يَضْرِي : اشتدَّ حرُّه
والضرية : الحمل على الضراوة . وَضَرِمَتِ النَّارُ تَضْرِمُ : التَّهَبَتْ يقول :
مَتَى تَهَيَّجُوا الْحَرْبَ تَهَيَّجُوهَا مَذْمُومَةٌ ، أَي تُذَمُّونَ عَلَى إِثَارَتِهَا ، وَيَشْتَدُّ
حَرُّهَا إِذَا حَمَلْتُمُوهَا عَلَى شِدَّةِ الْحَرِّ فَيَشْتَدُّ حَرُّهَا وَتَلْتَبُ نَارُهَا ، يُحْتَبُّهُمْ
عَلَى التَّمَسُّكِ بِالضَّمْحِ وَيَنْدَرُهُمْ بِسُوءِ عَاقِبَةِ إِيقَادِ نَارِ الْحَرْبِ . وَقَوْلُهُ : فَتَعْرَكُكُمْ
أَلَيْتَ ، فَالْعَرَكُ : الدَّلْكُ ، وَالثَّقَالُ : الْجِلْدُ أَوْ الْحِرْزَةُ تُوضَعُ تَحْتَ الرَّحَى
لِيَقَعَ عَلَيْهَا الطَّحِينَ ، وَالبَاءُ فِي « بِثِقَالِهَا » بِمَعْنَى مَعَ ، وَالْفَاحُ : حَمَلُ الْوَلَدِ
يُقَالُ : لَقِحَتْ النَّاقَةُ تَلْقَحُ : إِذَا حَمَلَتْ ، وَتَلْقَحُ كِشَافًا : أَي تَلْقَحُ لِفَاحًا
كِشَافًا ، بَأَنَّ تَحْمِيلَ فِي عَامَيْنِ مُتَوَالِيَيْنِ ، وَتُنْتِمُّ : أَي تَأْتِي فِي كُلِّ مَرَّةٍ
بِتَوَّءَيْنِ ، يَقُولُ : إِذَا هَجَمَ الْحَرْبَ طَخَنَتْكُمْ طَحْنُ الرَّحَى الْحَبِّ مَعَ ثِقَالِهَا
وَتَطُولُ شِدَّتُهَا وَوَيَلَاتُهَا وَتَتَوَلَّدُ مِنْ جَرَائِمِ صَنُوفٍ وَضُرُوبٍ مِنَ الْأَهْوَالِ
وَالشُّرُورِ ، وَمَثَلُهَا فِي ذَلِكَ مَثَلُ النَّاقَةِ تَحْمَلُ حَمَلَيْنِ فِي عَامَيْنِ مُتَوَالِيَيْنِ ثُمَّ
لَا تَلِدُ إِلَّا تَوَّءَيْنِ ، جَعَلَ إِفْنَاءَ الْحَرْبِ إِيَابَهُمْ بِمَنْزِلَةِ طَحْنِ الرَّحَى الْحَبِّ
وَجَعَلَ صَنُوفَ الشَّرِّ تَتَوَلَّدُ مِنَ الْحَرْبِ بِمَنْزِلَةِ الْوِلَادِ النَّاشِئَةِ مِنَ الْأَمْهَاتِ
وَبَالِغٍ فِي وَصْفِهَا بِاسْتِبْعَابِ الشَّرِّ شَيْئِينَ : أَحَدُهُمَا جَعَلَهُ إِيَابًا لِاقْتِحَةِ كِشَافًا ،

والآخر إنآمها . وأشام مصدر من الشؤم ، على وزن أفعل ، أو صفة
 لمخزوف ، واحمر عاد : لقب لعاقرة ناقة صالح عليه السلام نبي ثمود وأسمه
 قَدَار ، وكان عقره لهذه الناقة شؤماً على قومه ، ويريد بعاد ثمود إما توئها
 وخطأ وإما لأن ثمود من عاد ، يقول : إن هذه الحرب تطول ويلاتها
 وشُرورها وتلدج لكم غلمان شؤم أو غلمان أب أشام شؤم قِدار
 عاقرة الناقة ، ثم تعيش هذه الغلمان فتترضهم الحرب وتفطمهم ، وكل
 ذلك كناية عن طول ويلات الحرب وطول شرورها . وقوله : فتغلل
 لكم ... أليت يقول : فتغلل لكم هذه الحرب ضرورياً من الغلات ليست
 كغلات قري العراق من الحلب الذي يكال بالقفيز ، أو من ثمن الغلة وهي
 الدراهم ، يعنى : أن المضار المتولدة من هذه الحرب تُربى على المنافع المتولدة
 من هذه القري ، وكل هذا حدث منه لهم على الاعتصام بعري الصلح وزجر
 عن إيقاد نار الحرب التي تلك أفاعيلها وأعوالها . وقوله : ومن يعص ...
 أليت فالزجاج جمع زجاج وهو الحديد المركب في أسفل الرمح ، واللهزم : السنان
 الطويل يقول : من يعص أطراف الزجاج أطاع عوالي الرماح التي ركبت فيها
 الأسنة الطوال الحادة والمعنى : من أبي الصلح ذللته الحرب ولينته ، وكانت
 العرب إذا التقت رمتان منهم سدّت كل طائفة منهما نحو صاحبها زجاج
 الرماح وسعى الساعون في الصلح ، فإن أبنا إلا التامدى في القتال قلبت كل
 واحدة منهما الرماح واقتلتنا بالآيئة . ، وقال كثير :

رَمَيْتَ بِأَطْرَافِ الزَّجَاجِ فَلَمْ يُفِيقْ مِنْ الْجَهْلِ حَتَّى كَلَّمْتَهُ نِصَالِهَا
 وَخَطَبَ بَعْضُهُمْ خُطْبَةً طَوِيلَةً لِصُلْحِ أُمَّةٍ ، يُقَالُ لَهُ رَجُلٌ : أَنْتَ مُدْ
 الْيَوْمِ تَرَعَى فِي غَيْرِ مَرَعَاكَ ... أَفَلَا أَدُلُّكَ عَلَى الْمَقَالِ ؟ فَقَالَ : نَعَمْ ، فَقَالَ :

«أما بعد» فإن الأصحاب بقاء الآجال، وحفظ الأموال، والسلام. فليأتم القوم ذلك تعانقوا وتواهبوا الديات.

وكتب سَلْمُ بْنُ قَتَيْبَةَ بن مسلم إلى سعيد المَهَلَبِيِّ لما تحاربا بالبصرة:
خُذُوا حَظَّكُمْ مِنْ سَلِينَا إِنْ حَزَبْنَا

إذا زبلته الحربُ : نارهٌ تَسَعَّرُ (١)

وإني وإيّاكم على ما يسوءكم لِمِثْلَانِ أَوْ أَنْتُمْ إِلَى الصِّلْحِ أَفْقَرُ
وقال حكيم : دارِغْ بِالْحَرْبِ مَا أَمَكْنَ ، فَإِنَّ النَّفْقَةَ فِي كُلِّ شَيْءٍ مِنَ
الْأَمْوَالِ ، إِلَّا الْحَرْبِ ، فَإِنَّ النَّفْقَةَ فِيهَا مِنَ الْأَرْوَاحِ ، عِلَاوَةَ عَلَى
الْأَمْوَالِ .

وقال النابغة الجعدي :

وَتَسْتَلِبُ الْمَالَ الَّذِي كَانَ رَبِّهَا ضَيْبِنًا بِهِ وَالْحَرْبُ فِيهَا الْحِرَابُ
وقد تبعه أبو تمام فقال :

❖ وَالْحَرْبُ مُشْتَقَّةٌ الْمَعْنَى مِنَ الْحَرْبِ ❖

«الْحَرْبُ : أَنْ يُسَلَبَ الرَّجُلُ مَالَهُ»

وقال شاعر يُسَمَّى حَلْحَلَةَ بن قيس الكِنَانِي (٢)

دَعَانِي أَشْبُ الْحَرْبَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ فَقُلْتُ : لَا ، بَلْ هَلُمَّ إِلَى السِّلْمِ
ومهلا عن الحرب التي لا أديمها صَحِيحٌ وَمَا تَنَفَّكَ تَأْتِي عَلَى سُقْمِ
فإن يظفر الحِزْبُ الَّذِي أَنْتَ مِنْهُمْ وَأَبُوا بِدُهُمٍ مِنْ سِبَاءٍ وَمَنْ غُضْمِ

(١) زبلته : دفعته وصدمته ، وحرب زبون : شديدة يدفع بعضها بعضاً من الكثرة .
(٢) هذه الآليات تراها كاملة في حسانة البحرى .

فَلا بُدَّ من قَتَلَى لَعَلَّكَ فِيهِمْ وإِلا فَجَرَحُ لَيْسَ يَكْفِي عَنِ العَظْمِ^(١)
 فَلَمَّا أبى أُرْسِلْتُ فَضَلَّةَ ثَوْبِهِ إِلَيْهِ فَلَم يَرْجِعْ بَعِزْمٍ وَلا حِزْمٍ
 فَلَمَّا رَمَانِيهَا رَمَيْتُ سِوَادَهُ وَلا بُدَّ أَنْ تَرِمِي سِوَادَ الَّذِي يَرِمِي
 فَمِيتْنَا عَلَى لَحْمٍ مِنَ القَوْمِ غَوِذِرَتْ أَسِنَتُنَا فِيهِ وَبَاتُوا عَلَى لَحْمٍ-
 وَكَانَ صَرِيحَ الجَهْلِ أَوَّلَ وَهَلَّةِ فَبُعْدًا لَهُ مِخْتَارَ جَهْلِ عَلَى عِلْمٍ-

الحرب تصيب جانبيها وغير جانبيها

العرب تقول : الحرب غشومٌ ، لأنها قد تنال غير جانبيها .
 وتقول : * وليس يَصْلَى بنارِ الحربِ جانبيها *
 * وأصبحَ مَنْ لم يَجْنِ فيها كَذَى الذَّنْبِ * .

وقال الحارث بن عَبَّاد :

قَرَّبَا مَرَبِطَ النِّعَامَةِ - مِنى لَقِيتُ حَرْبَ وائِلٍ عَنِ حِيَالِ
 لَمْ أَكُنْ مِنْ جُنَاتِهَا عَليمَ اللهُ وَإِنى يَحْرُها اليَوْمَ صَالِ
 قَرَّبَاها بَانَ كَفَى رَهْنُ أَرْتَزولُ الجِبالُ قِبلَ الرِجالِ
 « النِّعَامَةُ : فَرَسُهُ ، وَلَقِيتُ : حَمَلْتُ ، وَحَرْبُ لَانِحٌ ؛ مِثْلُ بِالْأَثَى الحَامِلِ ،
 وَعَنْ حِيَالٍ : بَعْدَ حِيَالٍ ، أَى بَعْدَ أَنْ لَمْ تَحْمِلِ ، وَصلى بِالنَّارِ : قَاتَى حَرْها
 أَوْ احْتَرَقَ بِها »

وقال ابن الرومى :

رَأيتُ جُناةَ الحَرْبِ غَيرَ كُفَاتِها إِذا اخْتَلَفَتْ فِيها الرِماحُ الشِواجِرُ

(١) ليس يكفي عن العظم لعله يريد : إن جروح الحرب ليست من الجروح المعروفة ولكنها جروح تصمى وتقتل

كذلك زناد النار عنها بنجوة ولكننا يصلي صلاحها المساعِرُ
 المساعر : جمع مسعر ، وهو : ما تحرك به النار من خشب ونحوه ، ومُسَعَّرُ
 الحرب : وقدها ،

الممتنع من الصلح

قال أبو زيد الطائي — شاعر مخضرم ، كان في الجاهلية مقبياً في أخواله
 بنى تغلب بالجزيرة ، وفي الإسلام منقطعاً إلى الوليد بن عتبة بن أبي معيط
 في ولاية الجزيرة وولاية الكوفة ، ولم يزل به الوليد حتى أسلم ، وقد كان
 نصرانياً ، والأكثر على أنه مات على نصرانيته — :

بعثوا حربنا إليهم وكانوا في مقام لو أبصروا ورخاء
 ثم لما تشذرت وأنافت وتصلوا منها كرية الصلاة
 طلبوا صلحنا ولات أوان فاجبنا أن ليس حين بقاء
 فلحنا الله طالب الصلح منا ما أطفأ العيش بالله مناء

« لو أبصروا فلو للتمنى ، ورخاء : عطف على مقام ، وتشذرت يقال :
 تشذرت فلان إذا تها للقتال ، وتشذرت القوم في الحرب : أى تطاولوا
 واشربوا ، وأنافت : زادت ، وتصلوا : من صلى النار صلاً ، من باب
 تعب : قاسى حرها ، والصلاء ككتاب : حر النار ، وطلبوا صلحنا :
 جواب لما ، وقوله : ولات أوان فللنحويين في تخريجها كلام كثير
 وأوجهها أن أصلها : ولات أوان صلح ، أخذت الجملة وبني أوان
 على الكسر ، وليس حين بقاء : أى ليس الحين حين بقاء ، والبقاء :
 اسم من قولهم أبيت على فلان إبقاء : إذا رحمته وتلطفت به ، والمشهور

أن الاسم منه ؛ البقياء والبقوى ، ولما الله : أى قبَّحَ الله ، وما أطاف :
 فما مُصدَرة ظرفية ، وأطاف وطاف : بمعنى دارَ على الشيء ، والمُبسُّ
 حادى الإبل ، وهو فى الأصل اسم فاعل من أبسستُ الإبل : إذا زَجرتُها
 والدهناء : موضع فى بلاد بنى تميم «

وقال الزبيرقان :

فَلَنْ أَصَالِحُهُمْ مَا دُمْتُ ذَا فَرْسٍ وَأَشْتَدَّ قَبْضًا عَلَى الْأَسْيَافِ إِبْهَامِي

ضارع يطلب الصلح

قال المتنبي :

مِنْ أَطَاقِ التَّمَّاسِ شَيْءٌ غَلَابًا وَاغْتِصَابًا لَمْ يَلْتَمِسْهُ سُؤَالًا

التحذير من صغير يفضى إلى كبير

قال الفرزدق :

تَصَرَّمْ عَنِّي وَدُّ بَكْرٍ بِنِ وَاثِلٍ وَمَا كَادَ عَنِّي وَدُّمٌ يَتَصَرَّمُ
 قَوَارِصُ تَأْتِينِي وَتَحْتَقِرُونَهَا وَقَدْ بَلَأَ الْقَطْرُ الْإِنَاءَ فَيُفَعَّمُ

« يفعم : يمتلئ ، والقوارص جمع قارصة : الكلمة المؤذية »

وقال آخر :

ذُرُوا الْأَمْرَ الصَّغِيرَ وَزَمَّلُوهُ فَتَلْقِيحُ الْجَلِيلِ مِنَ الدَّقِيقِ

« زملوه : أخفوه »

وقال آخر :

قَدْ يَحْفَرُ الْمَرْءُ مَا يَهْوَى فَيَرُكِبُهُ حَتَّى يَكُونَ إِلَى تَوْرِيظِهِ سَبِيًا

وقال آخر:

إِنَّ الْأُمُورَ دَقِيقَهَا بِمَا يَهْبِجُ بِهِ الْعَظِيمُ

ومن كلامهم: مِنَ الْحَبِيَّةِ تَنْبَتُ الشَّجَرَةُ الْعَمِيمَةُ؛ وَمِنَ الْجُرَّةِ تَكُونُ
النَّارُ الْعَظِيمَةُ. وَالتَّمْرَةُ إِلَى التَّمْرَةِ تَمْرٌ، وَالذُّوْدُ إِلَى الذُّوْدِ إِبِلٌ.

و * أَوَّلُ الْغَيْثِ قَطْرٌ ثُمَّ يَنْسَكِبُ *

و * كَمْ بِذِي الْأَثَلِ دَوْحَةٌ مِنْ قَضِيبٍ *

طائفة من عبقرياتهم في التهديد والوعيد

قلة غناء الوعيد

من أمثالهم: الصَّدَقُ يُبْنِي عَنْكَ لِالْوَعِيدِ، أَيْ: إِنَّمَا يُبْنِي عُدُوكَ

عَنْكَ أَنْ تَصُدَّقَ فِي الْقِتَالِ، لَا أَنْ تُوعِدَهُ وَلَا تُنْفَذَ مَا تُوَعِدُهُ بِهِ «

وقالوا: مِنْ عِلَامَاتِ الْعَاقِلِ تَرْكُ التَّهْدِيدِ قَبْلَ إِمْكَانِ الْفُرْصِ، وَعِنْدَ

إِمْكَانِهَا الْوُثُوبُ مَعَ الشُّقَّةِ بِالظَّفْرِ.

وقالوا: * إِنَّ الْوَعِيدَ سِلَاحُ الْعَاجِزِ الْحَمِيْنِ *

« الْحَقُّ: الْأَحْمَقُ »

وقالوا: * إِنَّ الْكُتَابِيبَ لَا يُهْزَمُونَ بِالْكَتُبِ *

من يتهدد بظهور الغيب ولا يغني غناءً

قال عنتره في معلقته:

وَلَقَدْ خَشِيتُ أَنْ أَمُوتَ وَلَمْ تَكُنْ

لِلْحَرْبِ دَائِرَةٌ عَلَى ابْنِي صَمُصَمِ

الشامى عَرَضِي ولم أَشْتَهُمَا والناذِرِينَ إِذَا لَمْ أَلْقَهُمَا دى
« الدائرة : اسم للحادثة ، سميت بها لأنها تدور من خير إلى شر ومن
شر إلى خير ، ثم استعملت في المكرومة دون المحبوبة ، والدائرة : الهزيمة
والشوء يقال : عليهم دائرة السوء ، وفي الحديث : فيجعل الدائرة عليهم ،
أى الدولة بالغبلة والنصر ، وقوله سبحانه : ويتربصُ بكم الدوائر . قيل :
الموت أو القتل ، وقوله : والناذرين يقول : والموجبان على أنفسهما سفك
دى إذا لم ألقهما ، يريد : أنهما يتوعدانه حال غيبته أما في حال حضوره
فلا يتجاسران على ذلك »

وقال القَرْمَطِيُّ :

تَمَمَّانِي إِذَا لَمْ تَرِنِي فَإِذَا جِئْتُ قَطَعْتَ الْقَنْطَرَةَ
يَابْنِي الْعَبَّاسِي مَنْ يَنْصُرْكُمْ أَصْبِي أُمَّ خَصِي أُمَّ مَرَّة

وقال آخر :

كَأَصْدَى يُسْمَعُ مِنْهُ صَوْتُهُ فَإِذَا طَالَبْتَهُ لَمْ يَسْتَبِينَ
« الصدا : ما يُجِيبُكَ مِنْ صَوْتِ الْجَبَلِ وَنَحْوِهِ بِمَثَلِ صَوْتِكَ »

من لا يبالي بتهديده

قال جرير :

زَعِمَ الْفَرَزْدَقُ أَنْ سَيَقْتُلُ مِرْبَعًا

أَبَشِرْ بِطُولِ سِلَاحِهِ بِأَمْرِعُ

وقال مقاتل بن مِسْمَعٍ لِعَبَّادِ بْنِ الْحَصِينِ : لَوْلَا شَيْءٌ لَأَخَذْتُ رَأْسَكَ

فقال : أَجَلٌ ، ذَلِكَ الشَّيْءُ سَيْفِي ...

وقال ابن أبي عيينة :

فَدَعَ الوَعِيدَ فَمَا وَعَيْدَكَ ضَارِي أَطِينُ أُجْنِحَةِ الذَّبَابِ يَضِيرُ

وقال الفرزدق :

مَا ضَرَّ تَغْلِبَ وَابِلِ أَهْجَوْتَهَا أَمْ بُلَّتْ حَيْثُ تَنَاطَحَ البَّحْرَانِ

وَأَبْرَقَ رَجُلٌ لآخر وَأُرْعِدَ فَلَمَّا زَادَ أَنشُدَ :

قَدِ هَبَّتِ الرِّيحُ طَوَالَ الدَّهْرِ وَاخْتَلَفَتْ عَلَى الجِبَالِ فَمَا نَالَتْ رِوَاسِيهَا

طائفة من عبقرياتهم

في الهزيمة والخوف وأن الفرار لا يبقى من الموت

قال جل شأنه : قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوْ الْقَتْلِ وَإِذَنْ لَا تُنْتَمِعُونَ إِلَّا قَلِيلًا . « يقول سبحانه : لن ينفع الناس الفرار فإنه لا بد لكل شخص من ختف أنف أو قتل في وقت معين سبق به القضاء وجرى عليه القلم ، ثم قال جل شأنه : وَإِنْ نَفَعَكُمْ الْفِرَارُ مِثْلًا فَمُتَّعْتُمْ بِالتَّأخِيرِ لم يكن ذلك التمتع إلا تمتعاً وزماناً قليلاً . وقال سبحانه : أينما تكونوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ . « البروج : الحصون ، والمشيّدة المرتفعة . »

وقال عليُّ يوم الجمل : إن الموت طالبٌ حثيث ، لا يُعْجِزُهُ الْمُتَمِيمُ وَلَا يَفْوَتْهُ الْهَارِبُ ، وَإِنْ لَمْ تُقْتَلُوا تَمُوتُوا ، وَإِنْ أَثْرَفَ الْمَوْتِ الْقَتْلُ .
ومن أمثال العرب : فلانٌ أجراً من فارسٍ خصاف . وخصافٍ كقطايمِ قرسٍ قال السابون : كان مالكُ بن عمرو الغساني يُقال له : فارس خصاف ، وكان من أجبنِ الناس ، فغزا يوماً ، فأقبلَ سَهْمٌ حَتَّى وَقَعَ

عند حافرٍ فريسه فانغرزَ في الأرض وجعل يهتزّ حيناً فقال : إن لهذا السهم سبباً ينجّته — يُحرّكه — فاخفى عنه ، فإذا هو قد وقع على نفق يربوع فأصاب رأسه ، فتحرك اليربوع ساعةً ثم مات ، فقال : هذا في جوفِ جُحرٍ جاءه سهمٌ فقتله ، وأنا ظاهرٌ على فرسٍ ما المرءُ في شيء ولا اليربوعُ ، ولا أقتلُ إلا بأجلى ، ثم شدّ عليهم فأنكى في القوم ، فكان بعد ذلك من أشجعِ الناس ... وكان معاوية يتمثل بهذين البيتين كثيراً :

أكانَ الجبانُ يرى أنه سيقْتَلُ قبلَ انقضاءِ الأجلِ
فقد تُدرِكُ الحادِثاتُ الجبانَ ويسلّمُ منها الشجاعُ البطلُ

تفضيل القتل على الهرب

قال سُقراط لرجل هرب من الحرب : الهرب من الحرب فضيحة ! فقال الرجل : شر من الفضيحة الموت ، فقال سُقراط : الحياة إذا كانت صالحة فمسلمٌ ، وإذا كانت رديئةً فالموت أفضلُ منها .
ولما قتل الاسكندرُ المقدونيُّ ملكَ الهند قال لحكّامه : لمَ ممّعتُمُ الملكَ من الطاعة ؟ قالوا : ليموتَ كريماً ولا يعيشَ تحت الذلِّ .

الممتنع من الفرار

قالت امرأة من عبد القيس :

أبوا أن يفرّوا والقناني نحورهم ولم يبتغوا من خشيّة الموتِ سُلمًا
ولو أنهم فرّوا لكانوا أعزّةً ولكن رأوا صبراً على الموتِ أكرماً
(ولم يبتغوا يروى : ولم يرتقوا ،

المعير بانهزامة

من كلام الحجاج : وَآيِسْتُمْ كَالْإِبِلِ الشَّوَارِدِ إِلَى أوطانها ، النوازِعِ إِلَى أَعْطَانِها ، لا يَلْوِي الشَّيْخُ عَلَى بَنِيهِ ، ولا يَسْأَلُ المرءَ عَنْ أَخِيهِ ... وقال أبو تمام من قصيدته البائية التي يمدح بها المعتصم ويذكر فتح عمورية : وانهزام ملك الروم :

وَلَى وَقَدْ أَلْجَمَ الْخَطِيئَةَ مَنْطِقَهُ بِسَكْتَةٍ تَحْتَهَا الْأَحْشَاءُ فِي صَخَبِ (١)
أَحَدَى قَرَابِيئَهُ صَرْفَ الرَّدى وَمَضَى يَحْتَكُ أَنْجَى مَطَايَاهُ مِنَ الْهَرَبِ (٢)
مَوْكَلًا بِيَفْسَاعِ الْأَرْضِ يُشْرِفُهُ مِنْ خِيفَةِ الْخَرْفِ لِأَمِنْ خِيفَةِ الطَّرَبِ (٣)

وقال البحرى من أبيات يمدح بها أحمد بن طولون :

تَخَطَّى حُزُونَ الْأَرْضِ رَاكِبًا وَجْهَهُ لِيَمْتَعَ مِنْهُ الْبُعْدُ مَا يَبْدُلُ الْقُرْبُ
وَلَوْ كَانَ حُرًّا النَّفْسِ وَالْعَيْشُ مُدْبِرٌ لِمَاتِ وَطَأَمُ الْمَوْتِ فِي فَوْهِ عَذْبُ
وقال أبو جعفر المنصور لبعض الخوارج : عَرَفْنِي : مَنْ أَشَدُّ أَصْحَابِي

إِقْدَامًا ؟ فقال : لا أعرفهم بوجوههم ، فإنى لم أرَ إلا ألقاهم ...

وقال ابن الرومى فى سليمان بن عبد الله بن طاهر :

قَرْنُ سُلَيْمَانَ قَدْ أَضْرَبَ بِهِ شَوْقُ إِلَى وَجْهِهِ سَيْدِنْفَهُ
لا يَعْرِفُ الْقِرْنَ وَوَجْهَهُ وَيَرَى قَفَاهُ مِنْ فَرَسِهِ فَيَغْبِرُفَهُ

وقال المتنبى لما أوقع سيف الدولة بينى عقيل وقشير وبني العجلان

(١) ولى : أى ملك الروم ، وألجم الخطى منطقة : أخرسه السيف

(٢) أحدى : أعطى ، وقرايينه : المقربون له جمع قربان وهو جليس الملك

الخاص يقول : أن ملك الروم قدم المقربين إليه هدية الموت وفر على أحسن مطاياها وأنجمها . (٣) اليفاع ما ارتفع من الأرض ، ويشرفه : يعلوه .

وبني كلاب ويذكر إجماعهم من بين يديه :

فَلَزَهُمُ الطَّرَادُ إِلَى قِتَالٍ أَحَدٌ سِلَاحِهِمْ فِيهِ الْفِرَارُ
مَضَوْا مُتَسَابِقِ الْأَعْضَاءِ فِيهِ لِأَرْؤُسِهِمْ بَارُجُلِهِمْ عِشَارُ

• لَزَهُ إِلَى الشَّىءِ : أَلْجَأَهُ إِلَيْهِ وَأَدْنَاهُ مِنْهُ يَقُولُ : أَحْوَجُهُمْ طَرَادُكَ
إِيَّاهُمْ إِلَى قِتَالٍ شَدِيدٍ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ سِلَاحٌ يَدْفَعُهُ عَنْهُمْ غَيْرَ الْفِرَارِ ، ثُمَّ قَالَ
فِي الْبَيْتِ الثَّانِي : لِإِسْرَاعِهِمْ فِي الْهَرَبِ وَالْهَزِيمَةِ خَوْفًا مِنَ الْقِتَالِ كَانَتْ
أَعْضَاؤُهُمْ كَأَنَّمَا يَسَابِقُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، الْأَرْجُلُ تَسَابِقُ الرَّؤُوسَ وَالرُّؤُوسُ
تَسَابِقُ الْأَرْجُلَ ، وَكَأَنَّ الرَّؤُوسَ تَتَعَثَّرُ بِالْأَرْجُلِ حِينَ تَرِيدُ الرَّؤُوسُ
الْإِسْرَاعَ فَتَقْتَمِنُهَا الْأَرْجُلُ ، .

وقال زيد بن علي بن الحسين حين خرج من عند هشام مُغْضَبًا :
مَا أَحَبَّ أَحَدُ الْحَيَاةِ إِلَّا ذَلَّ ، وَتَمَثَّلَ :

شَرَّدَهُ الْخَوْفُ فَأَزْرَى بِهِ كَذَاكَ مَنْ يَكْرَهُ حَرَ الْجِلَادِ
قَدْ كَانَ فِي الْمَوْتِ لَهُ رَاحَةٌ وَالْمَوْتُ حَتْمٌ فِي رِقَابِ الْعِبَادِ

• شَرَّدَهُ : جَعَلَهُ شَرِيدًا طَرِيدًا وَيُقَالُ : شَرَّدَهُ : إِذَا سَمِعَ بِهِ ، وَأَزْرَى بِهِ :
قَصَّرَهُ وَحَقَّرَهُ وَهَوَّنَهُ ، وَحَرَ الْجِلَادَ : شَدَّتَهُ ، وَالْجِلَادُ : الْقِتَالُ بِالسُّيُوفِ ،

ترك اتباع المنهزم

قيل لعلي بن أبي طالب : أنت رجل محروبٌ وتركبُ بذلة ، فلو اتخذت
الحيل ا فقال : أنا لا أفر من كرت ولا أكر على من قر . • محروبٌ
شديد الحزب شجاع ، وكر على العدو يكر : عطف ،
وأوصى الإسكندر صاحب جيش له فقال : حبب إلى أعدائك الحرب .

قال : كيف أصنع ؟ قال : إذا ثبتوا جِدًّا في قتالهم وإذا انهزموا لا تتبّعهم .
وعاتبَ الحجاج المهلبَ بن أبي صُفرة في تركه اتباعَ الخوارج لما
انهزموا ، فكتب إليه : أما عَلِمْتَ أن الكلب إذا أجمر عقر ...
« أجمر : دخل الجحر » ،

الفازّ وقت الفرار والثابت وقت الثبات

قالوا : الهربُ في وقته خير من الصبر في غير وقته .
وقالوا : من هرب من معركة فعرف مصيره إلى مستقره فهو شجاع .
وقال معاوية يوماً : لقد عَلِمَ الناسُ أن الخيل لا تجرى بمثلي ، فكيف
قال النجاشي : (١)

ونجى ابنَ حربٍ سابقٍ ذو علالةٍ أجشٌ هزيمٌ والرماحُ دواني (٢)
فقال عمرو بنُ العاص له : لقد أعياني أن أعلمَ أجبانُ أنت أم
شجاع ؟ فقال :

شجاعٌ إذا ما أمكنتني فُرصةٌ وإلا تكن لي فرصةٌ فخبانُ
وقال المهلبُ بن أبي صُفرة : الإقدامُ على الهلكةِ أضيعٌ ، كما أن

(١) هو قيس بن عمرو بن مالك ... أحد بني الحارث بن كعب ، نسب إلى أمه
وكانت من الحبشة ، وكان من أشرف العرب ، إلا أنه كان فاسقاً ، وهو الذي أتى
به على رضى الله عنه وهو سكران في شهر رمضان ، نضربه ثمانين وزاد عشرين ،
فقال : ماهذه العلاوة يا أبا حسن ؟ قال : لجرأتك على الله وشربك في رمضان ، ولأن
ولدانا صيام وأنت مفطر . وبيته هذا من أبيات تراها في مجموعة المعاني طبع الجوائب
(٢) يقال لأول جرى الفرس : بداهته وللذى يكون بعده : علالته وفرس
أجش : غليظ صهيل وهو مما يحمّد في الخيل ، والمهزيم من الخيل : الشديد الصوت

الإحجام عن الفرصة عجز .

وقال المتوكل الخليفة العباسي لأبي العيناء : إني لَأَفَرِّقُ من لسانك ا
فقال : يا أمير المؤمنين ، الكريم ذو فَرَقٍ وإحجام ، واللثيم ذو وقاحة وإقدم .
وقال الشاعر :

أُقَاتِلُ حتى لا أرى لى مُقَاتِلا وأنجو إذا غمَّ الجبانُ من الكَرْبِ

المتفادى من حضور الحرب

والمحتج لانهزايه بالخوف من القتل

قيل لأعرابي : ألا تغزو فإن الله قد أندرك ؟ فقال : والله إني لا أبغض
الموتَ على فراشي فكيف أضي إليه ركضاً ا

ورأى المعتصم الخليفة العباسي في بعض مُتَمَرِّضَاتِهِ أسداً ، فنظر إلى
رجل أعجبه زينه وقوامه وسلاحه فقال له : أفيك خير ؟ فعلم الرجل
مُرَادَهُ ، فقال : لا ، فقال : لا قَبِّحَ اللهُ سِوَاكَ .

واجتازَ كِسْرَى في بعض حُرُوبِهِ بِرَجُلٍ قد استَظَلَّ بشجرة وألقى
سلاحه وربط دابَّته فقال له : يانذل ، نحن في الحرب وأنت بهذه الحالة ا
فقال : أيها الملك ، إنما بلغت هذه السنَّ بالتوقى ، فقال : زه ،
وأعضاه مالا...

وقيل لرجل : إنك انهزمت اقال : فخصبُ الأميرِ على وأنا حتى خيرُ من
أن يرضى وأنا مَيِّت .

وقال أبو دلامة :

قالوا : تقدّم قلتُ : لستُ بفَاعِلٍ أخافُ على فَنَخَارَتِي أن تحطّما

فلو كان لي رأسان أتلفتُ واحداً ولكنه رأسٌ إذا زال أعقما
ولو كان مبتاعاً لدى السوقِ مثله فقلتُ ولم أحفيل بأن أتقدماً
وقال :

يقول لي الأميرُ بغير نُصحٍ : تقدم حين جد بنا المراس
ومالي إن أطعتك من حياةٍ ومالي بعد هذا الراس رأس
وقيل لجان : لم لا تُقاتل؟ فقال : عند النطاح يُغلب الكبش الأجم
« الأجم » : الذي لا قرن له ، وهذا مثل يُضرب لمن غلبه صاحبه بما أعد له ،
وقالوا : الشجاع ملقى والجبان موفى ، وقال البديع الهمداني :
ماذا قَهما كالشجاع ولا خلا بمسرة كالعاجز المتواني
وهرب سليمان بن عبد الملك من الطاعون ف قيل له : قل لن ينفعكم
الفرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذا لا تتمعون إلا قليلا . فقال
ذلك القليل تُريد .

هارب يعتذر عن هربه

بأنه نبوة أو قدر

قال زُفر بن الحارث وقد فر يوم مَرَجِ رَاهِطٍ عن رَفِيقِهِ :
أيندُهبُ يومٌ واحدٌ إن أسأتهُ بصالحِ أيامي وحُسنِ بلائيا
فلم تُرني زلَّةٌ قبل هذه فرارى وتركي صالحِي وراثيا
وقديماً قال عمرو بن معديكرب — وكان قد فر من بني عَبَس :
وليس يُعابُ المرءُ من جُبْنِ يومِهِ إذا عُرِفَتْ منه الشجاعة بالأمس
وقد تقدم قول الشاعر الجبان :

قَامَتْ تُشَجِّعُنِي هِنْدٌ قَتَلْتُ لَهَا : إِنَّ الشَّجَاعَةَ مَقْرُونٌ بِهَا الْعَطْبُ
 لَا وَالَّذِي مَنَعَ الْأَبْصَارَ رُؤْيَيْهِ مَا يَشْتَهَى الْمَوْتَ عِنْدِي مَنْ لَهُ أَرْبُ
 لِلْحَرْبِ قَوْمٍ أَضَلَّ اللَّهُ سَعْيَهُمْ إِذَا دَعَّوهُمْ إِلَى نِيرَانِهَا وَتَبَّوْا
 وَلَسْتُ مِنْهُمْ وَلَا أَهْوَى فِعَالَهُمْ لَا الْقَتْلُ يُعْجِبُنِي مِنْهَا وَلَا السَّلْبُ
 وَجَاءَ فِي كَلِيلَةِ دِمْنَةَ : إِنْ الْحَازِمَ يَكْرَهُ الْقِتَالَ مَا وَجَدَ بُدًّا مِنْهُ ،
 لِأَنَّ النَّفْقَةَ فِيهِ مِنَ الْأَنْفُسِ وَالنَّفَقَةَ فِي غَيْرِهِ مِنَ الْمَالِ . وَفِي هَذَا الْمَعْنَى
 يَقُولُ أَبُو تَمَّامٍ :

كَمْ بَيْنَ قَوْمٍ إِنَّمَا نَفَقَاتُهُمْ مَالٌ وَقَوْمٍ يُنْفِقُونَ نَفْسًا

المتخلف عن قومه

قَالُوا : الشُّجَاعُ يُقَاتِلُ مَنْ لَا يَعْرِفُهُ ، وَالْجَبَانُ يَقْرُءُ مِنْ عَرْسِهِ ، وَالْجَوَادُ
 يُعْطَى مَنْ لَا يَسْأَلُهُ ، وَالْبَخِيلُ يَمْنَعُ مِنْ نَفْسِهِ . وَقَالَ الشَّاعِرُ :
 يَقْرُءُ جَبَانَ الْقَوْمِ عَنْ أُمَّ نَفْسِهِ وَيَحْمِي شُجَاعَ الْقَوْمِ مَنْ لَا يُنَاسِبُهُ
 وَيُرْزَقُ مَعْرُوفَ الْجَوَادِ عَدُوَّهُ وَيُجْرَمُ مَعْرُوفَ الْبَخِيلِ أَقَارِبُهُ
 وَقَالَ حَسَنُ بْنُ ثَابِتٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُعَيِّرُ الْحَارِثَ بْنَ هِشَامٍ حِينَ
 قَرَى يَوْمَ بَدْرٍ :

إِنْ كُنْتَ كَاذِبَةً الَّتِي حَدَّثْتَنِي فَتَجُوتِ مَنْجَى الْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ
 تَرَكَ الْأَحْبَةَ أَنْ يُقَاتِلَ دُونَهُمْ وَنَجَا بِرَأْسِ طِمْرَةٍ وَجِلَامٍ
 مَلَأَتْ بِهِ الْفَرْجَيْنِ فَارْمَدَتْ بِهِ وَتَوَى أَحْبَبَهُ بِشَرِّ مَقَامٍ
 « الطَّمْرَةُ : الْفَرَسُ الْكَثِيرُ الْجَرَى ، وَالْفَرْجَانُ : مَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَرِجْلَيْهَا
 وَمَلَأْنَاهَا : مَلَأْنَاهَا جَرِيًا . وَارْمَدَتْ : أَسْرَعَتْ ، وَتَوَى : أَقَامَ »

وقال أبو تمام من تصيدة يمدح بها المعتصم ويذكر هزيمة بابك
الخرمي :

ونجا ابنُ خاتنةِ البُعولةِ لو نجا بمُهفَهفِ الكَشْحينِ والآطالِ
تركِ الأحبَّةِ ساليًا لا ناسيًّا عُذْرُ النَّسيِّ خِلافُ عُذْرِ السَّالِي

« خاتنة البعولة : كناية عن الزانية ، والكشحن : جانبنا البطن من
ظاهر وباطن ، والمهفف : الضامر الدقيق ، والآطال جمع إطل وإطل كإبل
ولأبل : الخاصرة ، والنسي : الناسي ،

من نجا وقد استولى عليه الخوف

قال أبو تمام من قصيدة يمدح بها أبا دُلفَ ويذكر هزيمة بابك
الخرمي كذلك :

ظَلَّ القَا يَسْتَقِي من صَفِّهِ مُهَجًّا إِمَّا ثِمَادًا وإِما ثَرَّةً خُسُفًا
مِن مُشْرِقِ دَمِهِ فِي وَجْهِهِ بَطْلٌ وَوَاهِلِ دَمِهِ لِلرَّعْبِ قَدْ نَزَفًا
فَذَاكَ قَدْ سَقَيْتَ مِنْهُ القَنَا جُرْعًا وَذَاكَ قَدْ سَقَيْتَ مِنْهُ القَنَا نُظْفًا

« من صفه : من صف بابك ، والمهج جمع بهجة : دم القلب ، والثماد :
الماء القليل ، والثرة : من قوطم : عين ثرة : كثيرة الماء ، والخسف
جمع خسيف وخسوف : البئر لا ينقطع ماؤها ، والواهل : الخائف جداً ،
ونزف : ذهب دمه ، وبطل إما قرأته بالرفع على أن دمه مبتدأ وبطل خبر
ولك أن تقرأه بالخفض على أنه مردود إلى مشرق ويكون دمه فاعل مشرق
وقوله : فذاك ... أليت أراد أبو تمام أن يقول : البطل الذي دمه في
وجهه سقيت الرماح منه جرعا ، أى كثيراً ، والجبان الذي طار دمه من

الفرع سقيت منه نطفاً أى قليلاً، وقد يدبر عن الكثير بالنطفة فيكون :
الأولُ مراداً به الجبان والثاني مراداً به البطل ،

وقيل لرجل تعرّض له الأسد فأفلت منه : كيف حالك ؟ قال
سَلِمْتُ غير أن الأسد خراً في سراويلي ...
وقالت امرأةٌ من بنى المهلب :

فإن نبتوا فعمرهم قصيرٌ وإن هربوا قويلهم طويلٌ

تسليّة المنهزم

قال المتنبي يعتذر عن سيف الدولة في هزيمة وقعت لجماعة من جيشه
قلّ للدمستق إنَّ المسلمِينَ لكم خانوا الأميرَ جَازَاهُمْ بما صنعوا
وجدتموهم نياماً في دِمَائِكُمْ كأنّ قتلاكم إياهم فَجَعُوا
لا تحسبوا من أسرتهم كان ذا رَمَقٍ

فليس يأكل إلا الميتَ الضبُعُ

وإنما عرض الله الجُودَ بكمُ لئكي يكونوا بلافسلٍ إذا رجعوا
فكلُّ غزو إليكم بعدَ ذا فله وكلُّ غازٍ لسيفِ الدولةِ التَّبَعُ

د الدمستق : قائد جيش الروم ؛ و : المسلمین - بفتح اللام - :

الذين أسلّهم سيف الدولة للعدو لتخاذلهم عنه، وقوله : وجدتموهم ... ألبيت

هو بيان لما صنعوا، وقوله : في دمائكم : أى في دماء قتلاكم وذلك أنهم

تخلّدوا قتلى الروم ففطخوا بدمائهم ، وألقوا أنفسهم بينهم تشبها بهم خوفاً

من الروم ، ثم قال : كأنهم كانوا مفعولين بقتلاكم فهم فيما بينهم يتوجعون

لهم . وقوله : لا تحسبوا من أسرتهم ... ألبيت ، يقول : ليس لكم أن تفخروا

بهؤلاء الذين أسرتهم ولا تظنّوهم كان فيهم رَمَقٌ - بقية حياة - وإنما هم أموات، من الجبن والخوف، وأنتم إِيخَسْتِكُمْ ودناءة نفوسكم لا تقدرون إلا على أمثالهم، كما أن الضبُع لا تفترس إلا الجثث الميتة. وقوله: وإنما عَرَّضَ اللهُ... ألبت يقول: إنما خذك الله هؤلاء الجنود وجعلهم لكم عرضة ليظهر الله عسكر سيف الدولة من أمثالهم فيعود إليكم بجنود أبطال ليس فيهم فَنَسْلٌ ولا نذل. وقوله: فكل غزو إليكم... ألبت يقول فكل غزوة إليكم بعد اليوم تكون له لا عليه لأن الأدياء من جنوده قد أسروا ولم يبق إلا المختارون من الأخيار، وكل غاز تبع له لأنه سَيِّدُ الغزاة..

ولما انهزم بعض القواد دخلَ عليه بعض الأفاضل فقال: الحمد لله الذي نظر لنا عليك ولم ينظر لك علينا، فقد تقدّمت للشهادة بجهدك ولكن عليم الله حاجتنا إليك فأبقاك لنا.

صدر من عبقرياتهم في الجبن

قال سبحانه وتعالى: يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعُدُو...
وقالت عائشة رضي الله عنها: إن الله خلقاً قلوبهم كقلوب الطير،
كلما خَفَقَتِ الرِّيحُ خَفَقَتْ معها، نَأْفِ لِلْجَبْنَاءِ، أْفِ لِلْجَبْنَاءِ.
وبما قيل في الجبن من الشعر القديم قول القائل:
ولو أنها عصفورةٌ لحسبتُها مُسَوِّمَةٌ تدعو عبيداً وأرثماً
يقول لورأيت عصفورةً لحسبتُها من جُبْنِك خيلاً مُسَوِّمَةٌ؛ وعبيد
وأرثم: قبيلتان،

ومثله قول عروة بن الورد :

وأشجعُ قد أدركتهم فوجدتهم
يخافونَ خطفَ الطير من كلِّ جانبٍ

وقال الآخر :

ملزاتٍ تحسبُ كلَّ شيءٍ بعدهمُ
خيلاً تكثرُ عليهم ورجالا

وقال ابنُ الرومي :

وفاريسُ أجبنُ من صِفردٍ
يحولُ أو يغورُ من صَفرةِ

لو صاح في الليلِ به صاحُ
لكانت الأرضُ له طافراً

يرحمهُ الرحمنُ من جبينهِ
فيرزُقُ الجندَ به النُصراً

« الصَّفردُ : طائرُ جبانٍ يقال له : أبو المليح ،

وقال أبو تمام :

حيرانُ يحسبُ يحسفُ النقعَ من دَهِشِ

طوداً يُحاذِرُ أن ينقضَ أو جُرُفاً

« السجف : الستر ، والنقع : غبار الحرب ، والطود : الجبل ، والجرف :

جانب الجبل الأملس ،

وقال دِعبل :

كانَ نَفْسَهُ مِنْ طُولِ حَيْرَتِهَا
مِنها على نَفْسِهِ يَوْمَ الوَعْيِ رَصَدُ

وأنى الحجاجُ برجلٍ من أصحابِ ابنِ الأشعثِ ، فقال للحجاج : أسألكُ

أنا تَقْتَلَنِي وتُخَلِّصَنِي ، فقال له الحجاج : لِمَ ؟ فقال : إني أرى كلَّ ليلةٍ

في المنام أنك تَقْتَلَنِي ، وقِتْلَةٌ واحدةٌ خيرٌ ، فَضِحِكَ وَخَلَى سَبِيلَهُ .

من يظهر الشجاعة خارج الحرب

ويجبن فيها

قالوا : فلان يتشعب في الهيجاء ويتنمر في الرخاء .

وقال دِعْبِل :

أسود إذا ما كان يوم كرهية ولكنهم يوم اللقاء ثعالب

وقال :

غير رأى أمد العرين فراعهُ حتى إذا وتى تولى ينهتُ

وقال آخر :

يغيرُ بحيثُ تختلفُ العرالي وإن يأتنُ فذو كبرٍ وتيرُ

عقريات شتى

في الشجاعة والحرب

قالوا : أحسن ما قيل في وصف الحرب والمتحاربين قول الأول :

كان الأفق محفورٌ بنارٍ وتحت النارِ أسادٌ زيرٌ^(١)

ومما يتصل بذلك ما قيل في ليالي صفين :

الليلُ داجٍ والكباشُ تلتطِطحُ نطاحَ أسدٍ ما أراها تَصْطَلِطحُ

فمن يُقاتِلُ في وعاها مانجا ومن نجا برأسه فقد ربيح^(٢)

(١) تصيح غضباً. وأصله مهموز من زار الأسد يزير وبزار : صاح وغضب

(٢) في أمثال الميداني : قال أبو عبيد : وهذا الشعر أراه قيل في ليالي صفين ثم

وكان يزيد بن عمر بن هبيرة والى العراقين من قبل بنى أمية لا يُعِدُّ نصر بن سيار والى خراسان من قبيله بالرجال ، ولا يرفع ما يرد عليه من أخبار خراسان إلى مروان بن محمد آخر الدولة الأموية ، فلما كثر ذلك على نصر كتب إليه كتاباً وفيه هذه الآيات :

أرى خَلَالَ الرَّمَادِ وميضَ جَمْرٍ ويوشِكُ أن يكونَ له ضِرَامٌ ^(١)
 فإنَّ النَّارَ بالعودينِ تُذَكِّي وإنَّ الحربَ أولها الكلامُ ^(٢)
 فإن لم يُطفئها عِقْلَاءُ قومٍ يكونَ وبودها جُبْثٌ وهامٌ
 فقلتُ مِنَ التَّمَجِّبِ ليتَ شعري أأيقاظُ أميَّةٍ أم نيامٌ
 قوله : وإنَّ الحربَ أولها الكلامُ نحوه قول بعضهم : إنَّ الفِتْنَةَ تُلقَحُ
 بالنَّجْوَى وتُنتِجُ بالشكوى ...

ومما قيل في كثرة الجيش من قديم الشعر قول الأَخْلَسِ بن شهاب التَّغْلِبِيِّ وهو ممن حضر حرب البسوس :

بِجَاوَاءٍ يَنْفِي وَرُدُّهَا سَرَعَانَهَا كأنَّ وميضَ البرقِ فيها كواكِبُ
 « الجَاوَاءُ : السَّكِينَةُ يضربُ لونها إلى السَّكَلْفَةِ — اللونُ السَّكِرُ —
 وذلك من صدأ الحديد ، والسَّرْعَانُ : الأوائِلُ ، يقول : إن الميأة لا تسهمهم
 والأماكن تضيق بهم فكلما نزلت فرقة منهم رحل من تقدتهم ،
 وقولُ أويس بن حجر :

قال : وقوله هـ ومن نجا برأسه فقد ربح هـ
 هو مثل يضرب في إبطاء الحاجة وتعذرها حتى يرضى صاحبها بالسلامة منها .

(١) خلل الرماد : خلاه

(٢) تذكى : تلهب وتضرم

ترى الأرض منا بالفضاء مَرِيضَةً

مُعْضَلَةٌ مِنَّا بِجَمْعِ عَرْمَرِمٍ

« عَضَلَتِ الْأَرْضُ بِأَهْلِهَا : إِذَا ضَاقت بِهِمْ لِكَثْرَتِهِمْ ، وَعَضَلَتِ الْمَرَاةُ بَوْلِهَا تَعْضِيلًا : إِذَا نَشِبَ الْوَالِدُ فُجْرَ بَعْضِهِ وَلَمْ يَخْرُجْ بَعْضُ فَبَقِيَ مُعْتَرِضًا ، وَقَالَ أَبُو نُؤَاسٍ :

أَمَامَ تَحْمِيْسٍ أَدْجُوَانٍ كَأَنَّهُ قِيصٌ مَحْكُوكٌ مِنْ قَتْنَا وَجِيَادٍ

« الْأَدْجُوَانُ : الْأَسْوَدُ ، وَاشْتِقَاقُهُ مِنَ الدُّجَى ، وَبُرُوى : أَرْجُوَانٍ ،

وَهُوَ : الْأَحْمَرُ . .

وَقَالَ ابْنُ الرَّومِيِّ :

لَوْ حَصَبْتَهُمْ بِالْفَضَاءِ سَحَابَةٌ لَظَلَّ عَلَيْهِمْ حَصْبُهَا يَتَدَحَّرُجُ

وَهُوَ مِنْ قَوْلِ قَيْسِ بْنِ الْخَطِيمِ :

لَوْ أَنَاكَ تُتَلَقَى حَنْظَلًا فَوْقَ بَيْضِنَا تَدَحَّرُجُ عَنِ ذِي سَامِهِ الْمُتَقَارِبِ

« الْبَيْضُ جَمْعُ بَيْضَةٍ : الْخُوذَةُ ، سَمِيَتْ بِذَلِكَ لِأَنَّهَا عَلَى شَكْلِ بَيْضَةِ

النَّعَامِ ، وَالْحَنْظَلُ ثَمَرٌ يَشْبَهُ الْبَطِيخَ لَكِنَّهُ أَصْفَرُ مِنْهُ جَدًّا وَيَضْرِبُ الْمِثْلَ

بِمَرَاتِهِ ، وَقَوْلُهُ : عَنِ ذِي سَامِهِ ، أَيْ عَلَى ذِي سَامِهِ ، فَمِنْ فِيهِ بِمَعْنَى عَلَى وَالْهَاءِ

فِي سَامِهِ يَرْجِعُ إِلَى الْبَيْضِ الْمَمَّوهِ بِهِ ، أَيْ الْبَيْضِ الْمَمَّوهِ بِالسَّامِ ، وَالسَّامُ :

عُرُوقُ الذَّهَبِ وَالنُّضَّةِ ، وَهُوَ هُنَا الطَّرَائِقُ الْمُدْهَبَةُ فِي الْبَيْضِ ، قَالَ الْإِمَامُ

ثَعْلَبُ : مَعْنَاهُ : أَنَّهُمْ تَرَاثَرُوا فِي الْحَرْبِ حَتَّى لَوْ وَقَعَ حَنْظَلٌ عَلَى رُؤْسِهِمْ

عَلَى إِمْلَاسِهِ وَاسْتَوَاءِ أَجْزَائِهِ لَمْ يَنْزِلْ إِلَى الْأَرْضِ ،

وَقَالَ أَبُو عَمْرٍو بْنُ الْعَمَلَاءِ : أَحْسَنُ مَا قِيلَ فِي صِفَةِ الْجَيْشِ قَوْلُ النَّابِغَةِ :

إِنِّي لِأَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ يَكُونَ لَكُمْ مِنْ أَجْلِ بَفْضَائِكُمْ يَوْمٌ كَأَيَّامِ

أَوْ تَزْجُرُوا مُكْفَهَرًا لَا كِفَاءَ لَهُ كَاللَّيْلِ يَخْاطُ أَصْرَامًا بِأَصْرَامٍ
تَبْدُو كَوَاكِبُهُ وَالشَّمْسُ طَالِعَةٌ نُورًا بِنُورٍ وَإِظْلَامًا بِإِظْلَامٍ
« أَوْ تَزْجُرُوا عَطْفَ عَلَى مَا قَبْلَهُ ، وَالْمُكْفَهَرُ : الْجَيْشُ الْعَظِيمُ ، وَلَا
كِفَاءَ لَهُ : لِأَنْظِيرِهِ لَهُ ، وَيَخاطُ أَصْرَامًا بِأَصْرَامٍ إِمَّا جَعَلْتَهُ صِفَةً لِلَّيْلِ وَالْأَصْرَامُ
جَمْعُ صَرِيمٍ وَهُوَ اللَّيْلُ الْمَظْلَمُ فَيَكُونُ الْمَعْنَى يَخاطُ دُظْلًا بِدُظْلٍ ، وَإِمَّا جَعَلْتَهُ
صِفَةً لِلْجَيْشِ فَيَكُونُ الْمَعْنَى : يَخاطُ كُلَّ حَيْثُ بِقَبِيئَتِهِ خَوْفًا مِنَ الْإِغَارَةِ عَلَيْهِ ،
وَقَوْلُهُ : تَبْدُو كَوَاكِبُهُ ... الْبَيْتُ يَرِيدُ : شِدَّةَ الْهَوْلِ وَالْكَرْبِ ، وَهَذَا كَمَا
تَقُولُ الْعَامَّةُ : أَرَيْتَهُ النُّجُومَ وَسَطَ النَّهَارِ .

قال الفرزدق : * أربك نجوم الليل والشمس حية *

وقال طرفة : * وتربك النجم يجرى بالظهور *

وفي هذا المعنى يقول جرير :

والشمس طالعة ليست بكاسفة تبسكي عليك نجوم الليل والقمر

يقول : إن الشمس طالعة وليست بكاسفة نجوم الليل ، لشدة الغم

والكرب الذي فيه الناس ، فنجرم مفعول كاسفة ،

قالوا : وأحسن من قول النابغة قول زيد الخيل :

بني عامر دل تعرفون إذا غدا أبو مكثف قد شد عقد الدوابر

بجيش تضل البلقي في حجراته ترى الأكم منه سجداً للجوافر

وجمع كمثل الليل من تجس الوغى كثير تواليه سريع البوابر

« قوله : قد شد عقد الدوابر أراد : شد دوابر البيضة — أي

مآخيزها — بالدرع لثلا تسقط إذا ركض الفارس : وقوله : تضل البلقي

في حجراته فخجراته : فواحيه جمع حجرة يقول لكثرة لا يرى به الألبق

والأبلى مشهور المنظر لاختلاف لونه — السواد والبياض — وكان رؤساء العرب لا يركبون البلق في الحرب لئلا تنيم عليهم فيقتصدوا بشرّ، وقوله : ترى الآم منه سجداً للحواضر يقول : لكثرة الجيش يطحن الآم حتى يلبصقها بالأرض : * يدع الآم كأنهن صحارى *
 وقوله : كمثل الليل يريد : ظلمة يكاد سواده لكثرتيه يسد الأفق ،
 والوغى : الأصوات ، والارتجاس : صوت الشيء المختلط العظيم كالجيش والرعد ، والتوالى : اللواحق ،

ومن بارع ما قيل في الكيد في الحرب قول أبي تمام :
 هَزَزْتَ لَهُ سَيْفًا مِنَ الْكَيْدِ إِنَّمَا تُجَدُّ بِهِ الْأَعْنَاقُ مَا لَمْ يُجَرِّدِ
 يَسْرُ الَّذِي يَسْطُو بِهِ وَهُوَ مُعَمَّدٌ وَيَفْضُحُ مِنْ يَسْطُو بِهِ غَيْرَ مُعَمَّدِ
 « يقول : إن أخفيت الكيد ظفرت وسررت ، وإن أظهرته اففضحت وخبت ،
 وقال يصف أفاعيل رُمح الممدوح في أعدائه :

أَنْهَيْتَ أَرْوَاحَ الْأَرْوَاحِ إِذْ سَرِعَتْ فَمَا تُرَدُّ لَرَيْبِ الدَّهْرِ عَنْهُ يَدُ (١)
 كَأَنَّهَا وَهِيَ فِي الْأَوْدَاجِ وَالْعِنَّةِ وَفِي السُّكَلَى تَجِدُ الْغَيْظَ الَّذِي تَجِدُ
 مِنْ كُلِّ أَرْزَقٍ نَظَارَ بِلَا نَظَرٍ إِلَى الْمَقَاتِلِ مَا فِي مَتْنِهِ أَوْدُ (٢)
 كَأَنَّهُ كَانَ خِدْنُ الْحُبِّ مَذْزَمِينَ فَلَيْسَ يُعْجِزُهُ فَلْبٌ وَلَا كَيْدُ

(١) أرواحه : أرواح بابك الخرمى ومن معه ، وقوله فما ترد البيت يقول : إن الخرمى يعد هذه الوقعة وما نزل به من أفاعيلك ستوالى عليه نوب الدهر فلا ترد يد لريب الدهر عنه (٢) أود : اعوجاج

ماغزى قوم قط في عقر دارهم

إلا ذلوا

ومن حُطبة لعلى بن أبي طالب رضى الله عنه وقد انتهى إليه : (١)
 أن خيلا لمعاوية (٢) وردت الأنبار فقتلوا عاملا له يُسمى حسان بن
 حسان ، فخرج مُغضباً يُجر ثوبه حتى أتى الأُخيلة (٣) ، وأتبعه الناس فرقى رُبارة من
 الأرض (٤) فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ثم
 قال : «أما بعد ، فإن الجها بابٌ من أبواب الجنة ، فمن تركه رَغْبَةً عنه أَلْبَسَهُ
 اللهُ الذلَّ ، ورسيمَ الخسف ، ودَيْثَ الصغار ، وقد دعوتكم إلى حربٍ
 هؤلاء القوم ليلا ونهاراً وسراً وإعلاناً وقلتُ لكم : أغزوم من قبل أن
 يغزوكم فولدنى نفسى بيده : ماغزى قوم قط في عقر دارهم إلا ذلوا ، فتخاذلتم
 وتراكلتم وثقلَ عليكم قولى واتخذتموه وراءكم ظهيراً ، حتى سُدتْ عليكم
 الغارات ، هذا أخو غامد قد وردت خياله الأنبار وقتلوا حسان بن
 حسان ورجالا منهم كثيرا ونساء ، والذى نفسى بيده : لقد بلغنى أنه كان
 يُدْخِلُ على المرأة المسلمة والمعاهدة (٥) فتتزعج أحجألهما ورعُهما ثم أنصرفوا

(١) أنهماء إليه عالج من الأنبار ، وكان على يومئذ بالكوفة وقد تفرقت أصحابه
 عنه بعد حرب صفين وحكومة الحكيم (٢) بروى أنه وجه سفيان بن عوف
 ابن المغفل الغامدى فى ستة آلاف وأمره أن يتجدر إلى دهيت ، ثم إلى الأنبار ،
 فيوقع بأهلها فقتل من أصحاب على حسان عامله عليها وثلاثين رجلا واحتمل ما فيها
 من الأموال ؛ وهيت - بكسر الهاء - بلد على شاطئ الفرات ، والأنبار : مدينة
 بالعراق كذلك على شاطئ الفرات غربى بغداد بينهما عشرة فراسخ

(٣) اسم موضع خارج الكوفة (٤) اسم لكل مرتفع من الأرض كالرُبوة
 (٥) المرأة الذمية ذات العهد

مؤثورين لم يُكَلِّمَ منهم أحدَ كَلِّمًا ، فلو أن امرأً مُسَلِّمًا مات من دون هذا أسفًا ما كان فيه مَلُومًا بل كان به عندي جديرًا . يا عجباً كلَّ العجب ، عَجِبُ يُمِيتُ القَلْبَ وَيَشْغَلُ الفَهْمَ وَيُكْسِرُ الأَحْزَانَ ، من تَضَافِرِ هؤُلاءِ القومِ على بَاطِلِهِمْ وَفَسَلِيكِمِ عن حَقِّكِمِ حتى صَبَحْتُمْ غَرَضًا تَرْتَوِنَ وَلَا تَرْمُونَ ، وَبُعَارُ عَلَيْكُمْ وَلَا تُغَيِّرُونَ ، وَيُعَصِي اللهُ عزَّ وجلَّ فيكُمْ وَلَا تَرْضَوْنَ ، إِذَا قُلْتُ لَكُمْ : اغزَوْهم في الشتاء قاتم : هذا أو أن قُرُوضِرَ ، وإن قات لکم : اغزَوْهم في الصيف قاتم : هذه سَمَارَةُ القَيْظِ أَنْظِرْنَا يَنْصِرِمُ الحَرُّ عَنَا ، فَإِذَا كُنْتُمْ مِنَ الحَرِّ وَالبَرْدِ تَفَرِّوْنَ فَأَنْتُمْ وَاللهُ مِنَ السَّيْفِ أَفْرُ : يَا أَشْبَاهَةَ الرِّجَالِ وَلَا رِجَالًا ، وَيَا طِفْءَ الأَحْلَامِ ، وَيَا عُقُولَ رَبَاتِ الحِجَالِ ، وَاللهُ لَقَدْ أَفْسَدْتُمْ عَلَيَّ رَأْيِي بِالعِصْيَانِ ، وَلَقَدْ مَلَأْتُمْ جَوْفِي غَيْظًا ، حتى قالت قريش : ابنُ أبي طالبِ رجلٌ شُجاعٌ وَاكِنٌ لا رَأْيَ لَهُ في الحَرْبِ اللهُ دَرْتُهُمْ ، وَمَنْ ذَا يَكُونُ أَعْلَمَ بِهَا مِنِّي أَوْ أَشَدَّ لَهَا مِرَاسًا ! فوالله لقد تَهَضَّتْ فِيهَا وَمَا بَلَغَتْ العِشْرِينَ . وَلَقَدْ نَيْفَتْ اليَوْمَ على السَّتينِ وَلَكِنِ لا رَأْيَ لِمَنْ لا يُطَاعُ ... « وإليك شرح بعض ألفاظ هذه الخطبة الخالدة ، قوله : وَسِيمَ الخَسْفِ معناه : كَلَّفَ وَأَلْزَمَ وَجُشِمَ قال تعالى : يَسُومُونَكُم سُوءَ العَذَابِ . أَي يُجَشِّمُونَكُم أَشَدَّ العَذَابِ ، فَسِيمَ : كَلَّفَ وَأَلْزَمَ ، وَالخَسْفُ : الذِّلُّ وَالهَوَانُ ، وَأَصْلُهُ أَنْ تُحْبَسَ الدَّابَّةُ على غير عَلفٍ ثم استعير فوضع موضعَ الهوانِ : وَدِيثٌ : دُلَّلَ . وَمِنْهُ اشْتِقَاقُ الدَّيْوِثِ وَهُوَ : الرَّجُلُ الَّذِي لا غَيْرَةَ لَهُ . وَقَوْلُهُ : فِي عُقْرِ دارِهِمْ : أَي فِي أَصْلِ دارِهِمْ ، وَالعُقْرُ : أَصْلُ كُلِّ شَيْءٍ ، وَمِنْ ثَمَّ قِيلَ . لِفُلانٍ عَقَارٌ : أَي أَصْلُ مالٍ يَعْتَمِدُ عَلَيْهِ مِنْ مَنْزِلٍ وَضَيْعَةٍ وَنَخِيلٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ . وَقَوْلُهُ : وَتَوَاكَلْتُمْ بِقَالَ : وَكَلَّتْ

الامر إليك وركنته أنت إلى : أى لم يتوَلَّهُ واحد منا دون صاحبه
 ولكن أحالَ به كلُّ واحد منا على الآخر : وقوله : واتخذتموه وراءكم
 ظهرياً : أى رَمَيْتُمْ به وراء ظهوركم ، أى لم تلتفتوا إليه ، ويقال فى المثل :
 لا تجعل حاجتى منك يظهر : أى لا تطرحها غيرَ ناظرٍ إليها ، وقوله : حتى
 سُدتَّ عليكم الغارات : أى صَبَّتْ وُبَّتْ عليهم من كلِّ وجه . وقوله :
 فتتزعج أحبالهما يعنى : الخلاخيل واحدهما حِجْل . والرُعْتُ : جمع رعات
 جمع رَعْمَةٍ والرَعْمَةُ : الشَّنْفُ أى القُرْطُ الذى يوضع فى الأذن ؛ وقوله :
 وانصرفوا موفورين أى : لم يُرْزَوْا ، أى لم يُصابوا ولم يُتَلَّ أحدٌ منهم
 فى بدنه ولا ماله . ولم يُكَلِّمْ أحدٌ منهم أى لم يُخَدِّش أحدٌ منهم خدشاً .
 وكلُّ جُرحٍ صُغَرَ أو كَبُرَ فهو كَلِمٌ . وقوله : مات من دون هذا أسفاً يريد :
 تحسراً . وقوله : من تضافر هؤلاء القوم على باطلهم أى : من تعاونهم
 وتظاهروهم . ويقال : نَشِلَ فلان عن كذا : إذا هابَهُ جُبْنًا وفزعاً فأحجمَ
 عنه وامتنع من المضىِّ فيه . والقَرَّ — بضم القاف — البرد أما القَرَّ
 — بالفتح — فهو اليوم البارد . والقَرَّ — بكسر الصاد — شدة البرد
 قال تعالى : كمثل ريجٍ فيها صِرٌّ . والقيظ : الصيف ، وحمارته : اشتداد حره
 واحتدائه . والطعام : من لا عقل له ولا معرفة عنده . وقوله : وباعقول
 ربَّاتِ الحجال : فالحجال جمع الحجلة وهى كالعقبة ويديت للعروس يُرَبَّن بالثياب
 والشُتور ، يُنْسَبُهُمْ إلى ضعفِ النساء .



ومن رائق الشعر القديم فى باب الحثِّ على الإقدام والذود عن الذمَّار
 ووصفِ الأبطال والمتخاذلين المتباطئين قول شاعر من بنى العنبر اسمه

قُرَيْطُ بْنُ أُنَيْفٍ — شاعر إسلامي — وكان ناس من بني شيبان قد أغاروا عليه فأخذوا له ثلاثين بعيراً فاستنجد قومه فلم يُنجدوه فأتى مازن تميم فركب معه نفرٌ فأطردوا لبني شيبان مائة بعير فدفعوها إليه فقال هذه الأبيات التي افتتح بها أبو تمام حماسته :

لو كنتُ من مازنٍ لم تستبجِ إبلي	بنو الشقيقة من ذهلٍ بن شيبانا
إذا أقامَ بنصري معشرٍ خشنٌ	عند الحفيظة إن ذو لؤثة لانا
قومٌ إذا الشرُّ أبدى ناجذيه لهم	طاروا إليه زرافاتٍ ووحدانا
لا يسألون أخاهم حين يندبهم	في الثابتِ على ما قال برهاننا
لكن قومي وإن كانوا ذوى عددٍ	ليسوا من الشرِّ في شيءٍ وإن هانا
يجزون من ظلمِ أهلِ الظلمِ مغفرةً	ومن إساءةِ أهلِ السوءِ إحسانا
كان ربك لم يخأقْ لحشيتيه	سواهم من جميع الناس إنسانا
فأيت لي بهم قوما إذا ركبوا	شنوا الإغارة فرسانا وركبانا

« بنو الشقيقة هي الرواية الصحيحة وإن كانت رواية شراح الحماسة : بنو اللقيطة ، والشقيقة : امرأة من بني ذهل بن شيبان ، وبنوها كانوا سيارة مرّدة ليس يأتون على شيء إلا أفسدوه ، وأما اللقيطة فهي امرأة من فزارة ، هكذا زعم أبو محمد الأعرابي . والاستباحة : في معنى الإباحة وهي شبه النهي ، استباحه : انتهبه حتى لكانه مباحٌ لا تبعه عليه فيه ، وخشن جمع أخشن وهو من صفات الرجال مثل يُراد به امتناع الجانب وإباء الضيم . ورجل ذو لؤثة : بطيء متمكك ذو ضعف واسترخاء ، يقول : لولم أكن من بني العنبر وكنت من بني مازن ثم نالني من بني الشقيقة مانالني من استباحتهم إبلي لكان لي منهم من ينصرتني عليهم ويأخذ بحقّي أفتساراً منهم .

إذا لَانَ ذُو الضَّعْفِ وَالْوَهْنِ فَلَمْ يَدْفَعْ ضِيَا وَلَمْ يَجْمَحْ حَقِيقَةً ، وَمُرَادُ الشَّاعِرِ تَسْيِجُ قَوْمِهِ عَلَى الْإِتْقَامِ لَهُ مِنْ أَعْدَائِهِ لِأَنَّ ذَمَّهُمْ ، وَالْحَفِيزَةَ : الْغَضَبَ وَالْحِمَاةَ وَالْمَنْعَ لِلشَّيْءِ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يُحَافِظَ عَلَيْهِ . وَقَوْلُهُ : قَوْمٌ إِذَا الشَّرَّ أَبْدَى نَاجِذِيهِ لَهُمْ فَيَبْدَأُ الشَّرَّ نَوَاجِذَهُ مِثْلُ لَشِدَّتِهِ وَصَوْلَتِهِ ، وَذَلِكَ أَنَّ السُّبْحَ إِذَا صَالَ أَوْ شَدَّ كَشَرَ عَنْ أَنْيَابِهِ ، فَشَبَّهَ الشَّرَّ بِهِ فِي حَالِ شِدَّتِهِ ، وَطَارَوْا إِلَيْهِ يَرِيدُ : أَسْرَعُوا إِلَيْهِ ، وَوُحْدَانًا جَمَعَ وَاحِدَ كِرَاكِبٍ وَرُكْبَانٍ ، وَالزَّرَافَاتُ : الْجَمَاعَاتُ ، يَقُولُ فِي هَذَا الْبَيْتِ . لَأَنَّهُمْ لِحَرِصِهِمْ عَلَى الْقِتَالِ وَحُبِّهِمْ إِيَّاهُ لَا يَلْتَمِظُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، لِأَنَّ كَلَامًا مِنْهُمْ يَعْتَقِدُ أَنَّ الْإِجَابَةَ تَعَيَّنَتْ عَلَيْهِ ، فَإِذَا سَمِعُوا بِذِكْرِ الْحَرْبِ أَسْرَعُوا إِلَيْهَا مُجْتَمِعِينَ وَمُتَفَرِّقِينَ ؛ وَمِثْلُهُ قَوْلُ حُمَيْدِ بْنِ ثَوْرِ الْهَلَالِيِّ الصَّحَابِيِّ :

قَوْمٌ إِذَا هَتَفَ الصَّرِيخُ رَأَيْتَهُمْ مَا بَيْنَ مُلْحِمٍ مُهْرِهِ أَوْ سَافِعٍ^(١)
 وَقَوْلُهُ : لَا يَسْأَلُونَ أَحَاهُمْ... أَلَيْتُ يَقُولُ : إِذَا دُعُوا إِلَى الْحَرْبِ أَسْرَعُوا
 إِلَيْهَا غَيْرَ سَائِلِينَ مَن دَعَاهُمْ لَهَا ، وَلَا بَاحِثِينَ عَنْ سَبَبِهَا ، لِأَنَّ الْجَبَانَ رُبَّمَا
 تَعَلَّ بِذَلِكَ فِتْبَاطًا عَنِ الْحَرْبِ . وَنَحْوُهُ قَوْلُ سَلَامَةَ بْنِ جَنْدَلٍ :
 إِنَّا إِذَا مَا أَنَا صَارِحٌ فَرِحُ كَانَ الصَّرَاخُ لَهُ قَرَعُ الظَّنَائِبِ
 « يَقُولُ سَلَامَةُ : إِذَا دَعَانَا إِلَى إِعَاتَتِهِ أَجْبَنَاهُ إِلَيْهَا مُجِدِّدِينَ ، وَالظَّنْبُوبُ :
 عَظْمُ السَّاقِ ، يَقَالُ : قَرَعُ لِهَذَا الْأَمْرِ ظُنْبُوبُهُ : إِذَا جَدَّ فِيهِ »

(١) هتف : صاح وپروی تقع : أى ارتفع والصريح : الصياح أو بمعنى الصارخ وپروی إذا سمعوا الصريح . وسافع : آخذ بناصية فرسه ، من قوله تعالى : لنسفعاً بالناصية ، يقول : هم قوم إذا ارتفع الصياح للحرب أسرعوا إليه فترام دائرين بين ملحم مهرة وقابض بناصية مهرة يجذبه إليه بسرعة .

وقوله : لَكِنَّ قَوْمِي وَإِنْ كَانُوا ذَرِيَّ عَدَدٍ ... أَلَيْتَ وَصَفَ قَوْمَهُ
بأنهم يُؤثِرُونَ السَّلَامَةَ وَالتَّعْفُوَ عَنِ الْجُنَاةِ مَا وَجَدُوا إِلَى ذَلِكَ سَبِيلًا ، وَلَوْ
أَرَادُوا الْإِنْتِقَامَ لَقَدَّرُوا بَعْدَهُمْ وَعُدَّوْهُمْ . هَذَا إِذَا كَانَ الشَّاعِرُ لَا يَرِيدُ كَمَا
قُلْنَا هِجَاءَ قَوْمِهِ وَإِنَّمَا يُرِيدُ حَتِّهِمْ عَلَى الْإِنْتِقَامِ ، أَمَا إِذَا كَانَ يَرِيدُ ذَمَّهُمْ
فَإِنَّهُ يَهْجُوهُمْ وَيُعَيِّرُهُمْ بِالْجُبْنِ فِي هَذَا الْبَيْتِ . وَقَوْلُهُ : كَأَنَّ رَبَّكَ ... الْبَيْتِ
تَهْكُمُ مِنْهُ وَسُخْرِيَّةٌ . وَمَعْنَى قَوْلِهِ : فُرْسَانًا وَرُكْبَانًا : أَنَّهُمْ كَانُوا يُقَاتِلُونَ
عَلَى الْخَيْلِ وَالْإِبِلِ ، وَمِنْ ذَا قَوْلِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ لِسَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ
فِي حَرْبِ الْقَادِسِيَّةِ : أَخْبِرْنِي : أَيُّ فَارِسٍ كَانَ أَشْجَعًا ؟ وَأَيُّ رَاكِبٍ كَانَ
أَشَدَّ غَنَاءً ؟ وَأَيُّ رَاكِبٍ كَانَ أَصْبَرَ ؟ فَذَكَرَهُمْ لَهُ وَمَيَّزَهُمْ .



وَمِنْ طَرِيفِ آيَاتِ الْحَمَاسَةِ الَّتِي أوردَهَا أَبُو تَمَامٍ فِي حَمَاسَتِهِ وَالْمَبْرَدُ فِي
الْكَامِلِ آيَاتُ قَالَ الْمَبْرَدُ : إِنَّهَا لِأَعْرَابِيٍّ مِنْ بَنِي سَعْدِ ^(١) وَنَسَبَهَا أَبُو تَمَامٍ
إِلَى الْهَذُلُولِ بْنِ كَعْبِ الْعَنْبَرِيِّ - وَكِلَاهُمَا شَاعِرٌ جَاهِلِيٌّ - وَكَانَ هَذَا
الْقَائِلُ مُنْمَاكًا - أَيُّ عَقِدَ لَهُ عَلَى امْرَأَةٍ وَلَمْ يَبْتَنِ بِهَا - فَنَزَلَ بِهِ أَضْيَافٌ
فَقَامَ إِلَى الرَّحَى فَطَحَنَ لَهُمْ ، فَمَرَّتْ بِهِ زَوْجَتُهُ فِي نِسْوَةٍ ، فَقَالَتْ لَهِنَّ :
أَهَذَا بَعْلِي ؟ فَأُعْلِمَ بِذَلِكَ فَقَالَ :

تَقُولُ : وَصَكَّتْ نَحْرَهَا بِيَمِينِهَا : أُبْعَلِي هَذَا بِالرَّحَى الْمُتَقَاعِسُ ؟
فَقُلْتُ لَهَا : لَا تَعْجَلِي وَتَبَيَّنِي فَعَالِي إِذَا التَّفَّتْ عَلَى الْقَوَارِسُ
أَلَسْتُ أَرُدُّ الْقِرْنَ بِرُكْبٍ رَدَّعُهُ

وَفِيهِ سِنَانٌ ذُو غِرَارَيْنِ نَائِسُ

(١) قَالَ ابْنُ بَرِيٍّ : هُوَ نَعِيمُ بْنُ الْحَارِثِ بْنِ يَزِيدِ السَّعْدِيِّ

وَأَحْتَمَلُ الْأَوْقَ الثَّقِيلَ وَأَمْتَرِي
 حُلُوفَ الْمَنَابِي حِينَ فَرَّ الْمُغَامِسُ
 وَأَقْرِي الْهُمُومَ الطَّارِقَاتِ حَزَاءَةً
 إِذَا كَثُرَتْ لِلطَّارِقَاتِ الْوَسَاوِسُ
 إِذَا حَامَ أَقْوَامٌ تَقَحَّحْتُ غَمْرَةً
 يَهَابُ حُمَيْهَا الْإَكْثُ الْمُدَاعِسُ
 لَعَمْرُ أَيِّكَ الْخَيْرِ إِنْ لَخَادِمُ
 لِضَيْفِي وَإِنِّي إِنْ رَكِبْتُ لِفَارِسُ
 وَإِنِّي لِأَشْرَى الْجَمْدِ أَبْغِي رَبَاحَهُ
 وَأَتْرُكُ قَرْنِي وَهُوَ خَزْيَانُ نَاعِسُ

« الْقَعَسُ : دخول الظهر وخروج الصدر ، وهو نقيض الحدب ،
 وقول المرأة : أبغى هذا ؟ إشارة تحقير ، تعجب مما رأت ، وقوله : بالرحى
 المتقاعس فإن « بالرحى » تبيين ومعنى ذلك أن كلمة « المتقاعس » تدل على
 أن هناك تقاعساً ولما قال بالرحى دل ذلك على أن التقاعس حدث
 بالرحى ، ولم يرد أن يعمل المتقاعس في قوله بالرحى لأن ذلك على
 ما قال النحاة ممنوع ، لأن أل في المتقاعس اسم موصول كالذي وبالرحى
 صلة ولا يجوز أن تتقدم الصلة على الموصول . وقوله : ألسنت أرد القرن
 يركب رذعه ، فالقرن : من يقاوهك في قتال ، وقوله : يركب رذعه ،
 قيل : الرذع ههنا : الدم على سبيل التشبيه برذع الزعفران ، ومعنى ركوبه
 دمه : أنه جرح فسأل دمه فسقط فوقه متشجاً به ، وقيل : الرذع : العنق
 أي سقط على رأسه فاندقت عنقه ، وقيل معناه : صرع منكوساً رأسه

أَسْفَلَهُ ، مِنْ أَرْتَدَعَ السَّهْمُ : إِذَا رَجَعَ النَّصْلُ مُتَأَخَّرًا فِي السَّنَخِ .
 وَذُو غَرَارَيْنِ : ذُو حَدِيدَيْنِ ، وَنَائِئُسٌ : مُضْطَرَبٌ ، مِنْ نَاسٍ يَنْوَسُ : إِذَا
 تَحَرَّكَ وَاضْطَرَبَ ، وَتُرْوَى : يَابَسُ وَمَعْنَاهُ : صُلْبٌ ذَكَرُ لَا تَأْنِيثَ فِيهِ .
 وَالْأَوْقُ : الثَّقَلُ وَقَدْ آقَى عَلَيْهِ يَوْقُ : مَالٌ بِثِقَلِهِ ، وَوَصَفَهُ بِالثَّقِيلِ مَبَالِغَةً .
 وَالْخُلُوفُ جَمْعُ خَلْفٍ — بِالْكَسْرِ — وَهُوَ فِي الْأَصْلِ : ضَرْعُ النَّاقَةِ ،
 وَأَمْتِرَاوَهُ : اسْتِخْرَاجُ مَا فِيهِ مِنَ اللَّبَنِ . يَرِيدُ : أَنَّهُ يَسْتَخْرِجُ خَبِيثَاتِ الْمَنِيَا
 بِأَفَاعِيلِهِ الْمُدْهِشَةِ وَقَدْ جَدَّ الْخُطْبُ وَاشْتَدَّتْ الْحَرْبُ ، وَالْمُغَامَسُ : الَّذِي
 يَنْغَمَسُ فِي لُجَّةِ الْحَرْبِ لَا يَبَالِي أَصَابَ أَمْ أُصِيبَ ، وَقَوْلُهُ : وَأَقْرَى الْهَمُومِ
 الطَّارِقَاتِ حَزَامَةً ... أَلَيْتَ يَقُولُ : أَحْزَمُ عِنْدَهَا إِذَا اشْتَدَّتْ وَكَثُرَتْ
 أَحَادِيثُ النَّفْسِ بِهَا . وَخَامٌ : جَبِينٌ وَنَكَصَ يَقَالُ : خَامَ عَنِ الْقِتَالِ يَنْجِمُ
 خَيْمًا وَخَيْمَانًا : جَبِينٌ . وَالْحَمِيَا : صَدْمَةُ الشَّرِّ ، وَالْأَلْدُ فِي الْأَصْلِ : الشَّدِيدُ
 الْخِصُومَةِ الَّذِي يَحِيدُ عَنِ الْحَقِّ ، وَالْمَرَادُ هُنَا الَّذِي لَا يَبْتَنِي عَنِ الْحَرْبِ .
 وَالْمَدَاعِسُ : الْمَطَاعِنُ بِقَالَ : دَعَسَهُ بِالرَّيْحِ : إِذَا طَعَنَهُ . وَالرَّبَّاحُ مَصْدَرٌ كَالرَّبْحِ
 وَقَوْلُهُ : وَأَتْرَكَ قِرْنِي الْخِ يَقُولُ : أَهَيْئُهُ فَأَكْسِرُهُ حَتَّى يَبْقَى مَطْرَقًا مُتَنَدِّمًا
 كَمَنْ غَلَبَهُ النَّعَاسُ ، وَقِيلَ مَعْنَى نَاعَسَ : مُشْرِفٌ عَلَى الْمَوْتِ يَقَالُ طَعَنْتُ
 صَاحِبِي فَأَنْتَمْتُهُ : أَي قَتَلْتُهُ . »



وقالت ليلي الأَخْيَلِيَّةُ وَهِيَ مِنْ أَيْبَاتِ الْحَمَاسَةِ :

لَا تَفْزُونَ الدَّهْرَ آلَ مُطْرَفٍ لَا ظَالِمًا أَبَدًا وَلَا مَظْلُومًا
 قَوْمٌ رِبَاطُ الْخَيْلِ وَسَطَ يَوْمِهِمْ وَأَسِنَّةُ زُرُقٍ تُخَالِ نَجُومًا
 وَخُرُوقٌ عَنْهُ الْقَمِيصُ تَخَالُهُ وَسَطَ الْيُبُوتِ مِنَ الْحَيَاءِ سَقِيمًا

حتى إذا رُفِعَ اللّوَاءُ رَأَيْتَهُ تَحْتَ اللّوَاءِ عَلَى الْخَيْسِ زَعِيمًا
 « قولها : لا تَغزُونَ بِرُؤْيٍ لَا تَقْرَبَنَّ وَقَوْلُهَا : لَا ظَالِمًا أَبْدًا وَلَا مَظْلُومًا
 تَرِيدُ : لَا يُبْتَدِئًا لَهُمْ بِالْحَرْبِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَحَارِبُوكَ وَلَا مُنْتَقِمًا مِنْهُمْ إِنْ
 حَارِبُوكَ ، لِأَنَّهُمْ أَوْلُوا بِأَسْ شَدِيدٍ لَا يَطَّافُونَ عَلَى أَنْ حَالًا ، وَيُرْوَى :
 « لَا ظَالِمًا فِيهِمْ وَلَا مَظْلُومًا »

قال البكري شارح الأملی : وهذه الرواية هي بيّنة لوجهين أحدهما :
 أنها أفادت معنى حسناً ، لأنه قد يكون ظالماً أو مظلوماً من غيرهم فيستجبر
 بهم الردُّ ظلامته ، أو لا يستدفع مكروه عقوبته فلا بدّ لهم من إجارته ،
 والوجه الثاني أن قوله : لا تَقْرَبَنَّ الدهر قد أغنى عن قوله : أبدأ ، فصار
 حشواً لا يُفيد معنى ، وقولها : قومٌ رِبَاطُ الخيل ... البيت تقول : إنهم
 أصحابُ خيلٍ ورماحٍ مستعدون أبدأً لدفع الأعداء والذود عن حياضهم ،
 وأسنة زُرُق : صافيةٌ لا مِعةٌ كأنها نجوم في الصفاء واللّعان ، وقولها :
 وَخَرَّقَ عَنْهُ القميص فيه قولان : أحدهما : أن ذلك إشارةٌ إلى جذب
 العفاة له ، والثاني : أنه يُؤثِرُ بجيد ثيابه فيكسوها ويكتفي بمعاوزها
 — أي الثياب البالية منها لأنها ثياب المعوزين — وقولها : تخاله من الحياء
 سقيماً تريد أنه لإمعانه في الكرم والسخاء تظنه سقيماً من الحياء تخشية أن
 لا يكون قد بلغ من إكرام الضيف ما ينبغي ، تمدحه بالجوّد كما تمدحه
 بالشجاعة . والخيس : الجيش ، والزعيم : الكفيل والرئيس .

وقال بعضُ بني مازن :

وقد علموا بأن الحرب ليست لأصحابِ المِجَامِرِ وَالْحَلُوقِ
 ضَرَبْنَاكُمْ عَلَى الْإِسْلَامِ حَتَّى أَقْنَاكُمْ عَلَى وَصَحِ الطَّرِيقِ

« المجامر : المباخر ، أى التى توضع فيها النار والبُحُور لِتَبَخَّرَ بها
وَيُطَيَّبَ : والخلوق : طيبٌ معروفٌ يُتخذ من ألوانِ شتى من الطيب ،
وقيل : الزعفران »

وقال أبو تمام فى مرثيته المشهورة لمحمد بن حميد الطوسى التى أولها :
كذا فَلْيَجِلَّ الخَطْبُ وَلْيَقْدَحِ الأُمْرُ
فليس لِعَيْنٍ لم يَفِضْ ماؤُها عُدْر

قال :

فَوَيْ ماتَ بينَ الطغينِ والضُّربِ مِيتَةً
تقوم مقامِ النَّصْرِ إِذْ فَانَهُ النَّصْرُ
وما مات حتى ماتَ مَضْرِبُ سَيْفِهِ
من الضربِ ، واعتَلَّتْ عليه القنا الشُّعْرُ
وقد كان فوتُ الموتِ سهلاً فرَدَهُ
إليه الحِفاظُ المرُّ والخلُقُ الوَعْرُ
ونفسٌ تعافى العارَ حتى كَأَنَّما
هُوَ الكُفْرُ يومَ الرَّوعِ أو دُونَهُ الكُفْرُ
فأثْبَتَ فى مُسْتَنْقَعِ الموتِ رِجْلَهُ
وقال لها : من تحت أنْخِصِكَ الحِشْرُ

غدا عُدْوَةٌ والحمدُ نَسْجُ رِدايهِ فلم يَنْصَرِفْ إِلا وأَكفانُهُ الأَجْرُ
تَرَدَّى ثيابَ الموتِ حُرّاً فادْجَا لها الليلُ إِلا وهى من سُنْدُسِ حُضْرُ
« قوله : تقوم مقامِ الصر : لأنه قُتلَ قِتْلَةً بطلِ شجاع ، إِذْ لم يُقْتَلْ
حتى تَشَلَّمَ حَدَّ سَيْفِهِ مِنْ شِدَّةِ ما ضَرَبَ بِهِ وحتى أَقْصَفَتِ الرماحُ فى يديه

كما قال في البيت التالي ، قال نَقْدَة الشعر : إن أبا تمامَ نظر في هذا المعنى إلى قول عُرْوَة بن الورد :

ومن بكِ مثلي ذا عيالٍ ومُقْتِرًا من المالِ يطرَحُ نفسه كلَّ مَطْرَحِ
لِيَبْلُغَ عُذْرًا أو يَنَالَ رَغِيْبَةً ومُبْلِغُ نَفْسِ عُذْرَها مثلُ مُنْجِحِ

قالوا : إن عُرْوَة جعل اجتهاده في طلب الرزق عُذْرًا يقوم مقام النجاح وأبو تمام جعل الموت في الحرب الذي هو أفضى اجتهاد المجتهد في إلقاء الأعداء قائمًا مقام النصر . هذا ، ومضربُ السيف : حُدّه ، وقوله : واعتلت عليه القنا السُمُرُ فعنى اعتلال القنا أن العلة أصابها فلم تستطع العمل معه وتحقيق مطالبِ همته من الصُّمُود للأعداء ، أو تقول : معنى اعتلالها : أنها تجتنت عليه الذنوب واتخذت ذلك ذريعة إلى العصيان والخلاف عليه ، وما ذنبه عندها إلا كثرة تكاليفها الطعن لا يُريحها من ذلك ، والحفاظ : الحِمِيَّة والغَضْبُ محافظة على الحُرمة وكل ما يجب على المرء حمايته ، والخلق الوعر : الشديد الأنفة ، ولا يُمدح به إلا في العداوة . قال المازني :

تُعَاتِبُنِي فِيمَا تَرَى مِنْ شِرَاسِي وَشِدَّةِ نَفْسِي أُمُّ سَعْدٍ وَمَا تَدْرِي
فَقَلْتُ لَهَا : إِنَّ الْكَرِيمَ وَإِنْ حَلَا لِيُوجَدُ أَحْيَانًا أَمْرًا مِنَ الصَّبْرِ

« الروع هنا : الحربُ وفي الأصل : الخوف . وقوله : فأثبت في مُسْتَنْقِعِ الْمَوْتِ رِجْلَهُ ... أَلْبَيْتِ . جعلَ للوْتِ مُسْتَنْقِعًا كَمُسْتَنْقِعِ الْمَاءِ ، وهو : مُجْتَمِعُهُ فِي بَطْنِ الْوَادِي ، وَأَنْحِصُ الْقَدَمِ : مَا لَا يُصِيبُ الْأَرْضَ مِنْ بَاطِنِهَا يَقُولُ : إِنَّهُ لَشِجَاعَتُهُ قَدْ صَمَّدَ لِلوْتِ فَلَا تَتَحَوَّلُ رِجْلُهُ إِلَى أَنْ يَمُوتَ حَتَّى كَأَنَّ الْحِشْرَ - يَوْمَ يُحْشَرُ النَّاسَ إِلَى رَبِّهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ - مِنْ

تحت أخصه . وقوله : غدا غدوة ... ألبيت يقول : إنه عاش محموداً مشكوراً
ومات مشوباً مأجوراً . وقوله : تردى ثياب الموت ... ألبيت يقول : إنه
ارتدى الثياب المأطخة بالدم فلم ينقض يوم قتله ولم يدخل في ليلته إلا
وقد صارت الثياب حُضراً من سُندس الجنة . قال علماء البيان : في هذا
البيت الطباق المسمى بالتدبيح ، وهو أن يذكر الشاعر أو الناثر في معنى من
المدح أو غيره ألواناً لفصيد الكناية أو التورية ، ويسمى تدبيح الكناية
أيضاً ، فإنه هنا ذكر لون الحمرة والخضرة والمراد من الأول الكناية عن
القتل ومن الثاني الكناية عن دخول الجنة ،

وقال البُحْتُريُّ :

مَعَشَرُ أَسَاكِتِ حُلُوهُمْ الْأَرْضَ ضَا وَكَادَتْ لَوْلَاهُمْ أَنْ تَمِيدَا
فَإِذَا الْجَدْبُ جَاءَ كَانُوا غَيْرِنَا وَإِذَا التَّفْعُ نَارَ ثَارُوا أُسُودَا
وَكَأَنَّ الْإِلَهَ قَالَ لَهُمْ فِي الْ حَرْبِ كَرُونَا حِجَارَةً أَوْ حديدَا

وقال مُسلم بن الوليد :

لَوْ أَنَّ قَوْمًا يَخْلُقُونَ مَنِيَّةً مِنْ أَبِيهِمْ كَانُوا بَنِي جِبْرِيَلَا
قَوْمٌ إِذَا حَمَى الْوَطَيْسُ لَدَيْهِمْ جَعَلُوا الْجَاهِمَ لِلشُّيُوفِ مَقِيلَا

وقيل للهلب بن أبي صُفْرَةَ : إنك لتلقى نفسك في المهالك ا قتال :
إن لم آت الموت مُسترسلاً ، أتاني مُستعجلاً ، إنى لست آتى الموت من
حبه ، وإنما آتته من بُغضه ، وتمثل بقول الحُصَيْن بن الحمام :

تَأَخَّرْتُ أَسْتَقْبِي الْحَيَاةَ فَلَمْ أُجِدْ لِنَفْسِي حَيَاةً مِثْلَ أَنْ تَقْدَمَا

وقد تقدم

وقال المتنبي :

شجاعٌ كأنَّ الحربَ عاشِقَةٌ له إذا زارها فدَّتُهُ بالخيلِ والرَّجْلِ
« المراد بالخيل : الفرسان ، والرجل جمع راجل يقول : هو شجاع يُقتل
ولا يُقتل فكأن الحرب تعشقه فإذا زار الحرب استبقتته وأفت من سواه
من الفرسان والرجال ، فكأنما جعلتهم فداء له . »

وقال :

وكم رجالٌ بلا أرضٍ لكثرتهم تَرَكَتْ جَمَعَهُمُ أرضاً بلا رَجُلٍ
ما زال طَرُوقُكَ يجرى في دِمَائِهِمْ حتى مَشَى بك مَشَى الشَّارِبِ الثَّمِيلِ

« قوله : وكم رجال ... ألبيت يقول : كم جمع الأعداء لك جموعاً
تَغيبُ الأرضُ من كثرتهم وتخفى على الابصار حتى كأنهم رجالٌ بلا أرضٍ
فقتلتهم وأنيبتهم حتى خَلَيْتْ أرضهم فبقيت ولا رجل فيها ، وفي هذا البيت
نظر من ناحية كثرة الجيش إلى قول أبي تمام في صفة جيش :

مَلَأَ المَلَأَ عَصَباً فكاد بأن يُرَى لا خَلْفَ فِيهِ ولا لَهُ قُدَامُ

وقوله : ما زال طرفك ... ألبيت ، فالطرف : الفرس الكريم ، والثميل
السكران ، يقول ما زلت تخوض دماءهم بفرسك حتى تعثر بالقتلى وأمالته
دماؤهم عن سنن جزيه وأزلقته حتى مشى بك مشى السكران ،

وقال الشابُّ الظريفُ من قصيدة له يمدح بها ابن عبد الظاهر :

ومعشِرٍ لم تزل للحربِ بيضُهُمُ

حُمُرُ الخُدودِ وما من شأنها الخجلُ^(١)

(١) البيض : السيوف ، وجعلها حمر الخدود لما يسيل فوقها من دماء الأعداء.

إذا انتَضَرُها بُروقًا صُيِّرَتْ سُجْبًا

يسيلُ من جانِبَيْها عارضُ قَطِلُ^(١)

يُثْنِي حديثُ الرَّغَى أَعْطَفَهُمْ طَرِبًا

كأنَّ ذِكْرَ المنايا بينهم عَزَلُ^(٢)

كم نارٍ حربٍ بهم شُبَّتْ وهم سُجْبُ

وأرض قومٍ بهم فاضت وهم شُعْلُ^(٣)

وقال الشاعر أبو الفرج البَغَاءُ شاعر اليتيمة :

يسعى إلى الموتِ والقنا قَصْدُ وخيلُهُ بالرؤسِ تَنْتَمِلُ

كأنَّهُ واثقٌ بأنَّ له عُمرًا مُقيماً ومالهُ أَجَلُ

« والقنا قَصْدُ : أى قَطْعُ ، والمفرد : تَصَدَّةٌ وهى : القِطْمة من الشئ

إذا انكسر ،

وقال آخر :

كأنَّ سيفوفهُ صيغَتُ عقوداً تجولُ على الترائِبِ والنُجُورِ

وسُمِرَ رماحِهِ جُعِلَتْ هُمُوماً فما يَحْظُرَنَّ إلا فى صَمِيرِ

ومن كلامِ على بن أبى طالب : رُبَّ حياةٍ سَبَّيْها التَّعْرُضُ للدَّوتِ ،

ورُبَّ مَنيَّةٍ سَبَّيْها طَلَبُ الحِياةِ .

وربما ، فإن عقربياتهم فى الشجاعة والتمدح بها لا تكاد تُحصى كثرةً ،

وإن الناظِرَ فى الأدب العربى ولا سيما المنظوم منه يتحقَقُ من أن الشجاعة

(١) انتضى السيف : استله من غمده ، والعارض السحاب والمراد هنا الدماء

(٢) الأعطاف جمع عطف وهو الجانب

(٣) وهم سحِبُ أى فى الكرم ، وهم شعلُ أى كالنار فى استئصال أعدائهم .

والإشادة بها تكاد تكون أحدَ شَطْرَي ما يتمدحون به ويتوهون بفضله ،
أما الشطر الآخر فهو الجود والكرم ، وبحبك بهاتين الخلتين ، وإنهما
دعامتا سائر الفضائل ، ولنجزئ بهذا المقدار وإن كان قَظراً من بحر ،

صدر من عبقرياتهم في وصف آلات الحرب

قال البُحْتَرِيُّ يَصِفُ السَيْفَ :

يَتَنَاوَلُ الرُّوحَ البَعِيدَ مَنَالَهُ عَفْواً ، وَيَفْتَحُ فِي القَضَاءِ المَقْفَلَ
مَاضٍ وَإِنْ لَمْ تُمَضِّهِ يَدُ فَارِسٍ بَطْلٍ ، وَمَضْقُولٌ وَإِنْ لَمْ يُصْقَلِ
يَغْشَى الوَعَى فَالْتَرُسُ لَيْسَ بِجُنَّةٍ مِنْ حَدِّهِ وَالدَّرْعُ لَيْسَ بِمَعْقِلِ
مُضْعٍ إِلَى حُكْمِ الرَّدَى ، فَإِذَا مَضَى

لَمْ يَلْتَفِتْ ، وَإِذَا قَضَى لَمْ يَعْدِلِ

مُنَاقِلٌ يَفْرِي بِأَوَّلِ ضَرْبَةٍ مَا أَدْرَكَتْ وَلَوْ أَنَهَا فِي يَدِ بِلِ
وَإِذَا أَصَابَ فَكُلُّ شَيْءٍ مَقْتَلٌ وَإِذَا أُصِيبَ فَمَالَهُ مِنْ مَقْتَلِ

وَقَالَ عبدُ اللَّهِ بنُ المَعْتَزِ يَصِفُهُ :

وَلِي صَارِمٌ فِيهِ المَنَايَا كَوَامِنٌ فَمَا يُبْتَضَى إِلَّا لِسَفْكِ دِمَاءِ
تَرَى فَوْقَ مَتَلِيهِ الفِرْنِدَ كَأَنَّهُ بَقِيَّةُ غَيْمٍ رَقَّ دُونَ سَمَاءِ^(١)
وَقَالَ ابنُ الرُّومِيِّ :

خَيْرٌ مَا اسْتَعَصَمَتْ بِهِ الكَفَّ عَضْبُ دَكَرٍ هَزَهُ أُنَيْثُ المَهْزِ^(٢)

(١) فرند الشيف : وشية

(٢) الذكر من السيوف : الشديد الجيد الصارم ، وهزه أنيث المهز يريد : أنه

لين منقاد مطواع مع شدته

مَا تَأَمَّلْتَهُ بَعَيْنِكَ إِلَّا أُرْعِدَتْ صَفْحَتَاهُ مِنْ غَيْرِ هَرٍّ
 مِثْلَهُ أَفْرَعِ الشُّجَاعِ إِلَى الدَّرِّ عَ فَعَالَيَ بِهَا عَلَى كُلِّ بَرٍّ (١)
 مَا يُبَالِي أَصَمَّتْ شَفْرَتَاهُ فِي مَحْزِ أُمِّ حَادَاتَا عَنْ مَحْزِ
 وَلَمَا صَارَ الصَّمَامَةُ سَيْفُ عَمْرُو بْنِ مَعْدِيكَرِبَ إِلَى مُوسَى الْهَادِي
 أَدِنَ لِلشُّعْرَاءِ أَنْ يَصْفُوهُ ، فَبَدَأَهُمُ ابْنُ يَامِينَ فَقَالَ :

حَازَ صَمَامَةَ الزُّبَيْدِيِّ مِنْ دُونِ جَمِيعِ الْإِنَامِ مُوسَى الْآمِينَ
 سَيْفَ عَمْرُو وَكَانَ فِيهَا سَمِيمًا خَيْرَ مَا أُعْجِدَتْ عَلَيْهِ الْجُفُونُ
 أَخْضَرَ الْمُنَى بَيْنَ حَدِيدِيهِ نُورٌ مِنْ فِرْنِدٍ تَمْتَدُّ فِيهِ الْعُيُونُ
 أَوْقَدَتْ فَوْقَهُ الصَّوَاعِقُ نَارًا ثُمَّ شَابَتْ بِهِ الذُّعَافُ الْقُيُونُ (٢)
 فَإِذَا مَا سَلَسَتْهُ بَرَزَ الشَّمْسَ رِضْيَاءً فَلَمْ تَكُنْ تَسْتَمِينُ
 يَسْتَطِيرُ الْأَبْصَارَ كَالْقَبَسِ الْمُشْعَلِ مَا تَسْتَقِرُّ فِيهِ الْعُيُونُ
 وَكَانَ الْفِرْنِدُ وَالرُّوْنِقُ الْجَا رَى فِي صَفْحَتَيْهِ مَاءٌ مَعِينُ
 وَكَانَ الْمُنَى نِيْطَتْ إِلَيْهِ فَهُوَ مِنْ كُلِّ جَانِبِيهِ مَنُونُ
 مَا يُبَالِي مَنْ اتَّضَأَهُ لَضَرْبِ أَشْمَالٍ سَطَطَتْ بِهِ أُمُّ يَمِينُ
 قَالَ أَبُو هَلَالٍ الْعَسْكَرِيُّ : وَقَدْ أُخِذَ عَلَيْهِ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ تَشْبِيهُهُ
 السَّيْفَ بِالشَّمْسِ ثُمَّ بِالْقَبَسِ ، لِأَنَّهُ قَدْ حَطَّهُ دَرَجَاتٍ ... (٣) ،

ولمناسبة عمرو بن معديكرب وصمصامته يروى أن عمر بن الخطاب
 بعث إلى عمرو أن يبعث إليه بسيفه الصمصامة دنا ، فبعث إليه به ، فلما

(١) يقول : إن هذا السيف بلعجى الشجاع إلى أن يتقيه بأجود الدروع ، والبز :
 السلاح يدخل فيه الدرع والمغفر والسيوف (٢) الذعاف : السم الذي يقتل من
 ساعته ، والقيون جمع قين وهو الحداد وكل صانع (٣) القبس : الجذوة من النار

ضرب به وجده دون ما بلغه عنه ، فكتب إليه في ذلك ، فأجابه يقول :
 إنما بعثتُ إلى أمير المؤمنين بالسيف ولم أبعث له بالساعد الذي يضربُ به .
 وسأله عمر يوماً عن السلاح فقال : ما تقول في الرُّمح ؟ قال : أخوك
 ورُبَّما خانَكَ فأنقَصْ ؛ قال : فما تقول في السُّترس ؟ قال : هو الجُنْ
 وعليه تدور الدوائر ، قال : فالنَّبل ؟ قال : منايا تُخَطِّطُ وتُصَيَّبُ ، قال :
 فما تقول في الدرع ؟ قال : مَثَقَلَةٌ للراجل مَشْغَلَةٌ للراكب ، وإنها لِحِصْنُ
 حصين ؛ قال : فما تقول في السيف ؟ قال : هُنا لك قارَعَتَكَ أُمك عن
 الثُّكْلِ ^(١) ؛ قال : بَلْ أُمك اقال : بَلْ أُمك يا أمير المؤمنين ! فعلاه أمير المؤمنين
 بالدِّرة ، وقيل : بَلْ قال له — لما قال عمر بل أُمك — قال : أُمِّي
 يا أمير المؤمنين « الحمى أضرعتني لك » أراد : أن الإسلام قَيَدَتْنِي ، ولو
 كنت في الجاهلية لم تُكلمني بهذا الكلام ، وهو مثلُ تَضْرِبُهُ العَرَب إذا
 اضْطَرَّت للخضوع .

ومثل ذلك قول الأغر النهشلي لابنه لما بعثه لحضور ما وقع بين
 قومه فقال : يا بُنَيَّ ، كُنْ يَدًا لِأَصْحَابِكَ على مَنْ قاتلهم ، وإياك والسيف
 فإنه ظلُّ الموت ، واتبَّ الرُّمح فإنه رِشَاءُ المَنِيَّةِ ، ولا تَقْرَبِ النَّهْمَ فإنها
 رُسُلٌ تَعَصِي وَتُطِيعُ ، قال : فِيمَ أَقَاتِلُ ؟ قال : بما قال الشاعر :

جَلَامِيدُ أَمْلاءُ الأَكْمَفِ كأنها رُؤُسُ رجالٍ حُلِقَتْ في المَواهِمِ

(١) الشكل : الفقد ، وامله يريد : أن يصف السيف بأنه أفنك أنواع الأسلحة
 وأروعها فسلك إلى ذلك - بعبارة الكناية فعبارة بجملة لازمها يدل على ما يريد أبلغ دلالة
 إذ يقول : هُنا لك — أي إذا ذكر السيف أو تقارعت السيوف ، قارعته أُمك ودافعته
 عن الشكل والهلاك إشفاقاً عليه ، فإن الإشفاق أعظم ما يكون على المنازل إذا كان
 السلاح السيف ، لأن ضرباته صائبة قاتلة

فعليك بها وأصقها بالأعقابِ والشوق . « قوله : جلاميد أملاء
الأكف ... البيت هو أحد أبيات أوردّها المبرد وهي :

تُغَطِّي نُمَيْرٌ بِالْعِمَامِ لَوْهَا وكيف يُغَطِّي اللُّؤْمَ طَىُّ الْعِمَامِ -
فإنْ أَضْرِبُونَا بِالسَّيَاطِ فَإِنَّا ضَرَبْنَاكُمْ بِالْمُرَهَفَاتِ الصَّوَارِمِ -
وإنْ تَحْلِقُوا مِنَّا الرُّؤْسَ فَإِنَّا حَلَقْنَا رُؤْسًا بِاللَّهْمَا وَالغَلَاصِمِ -
وإنْ تَمْنَعُوا مِنَّا السَّلَاحَ فَعِنْدَنَا سِلَاحٌ لَنَا لَا يُشْتَرَى بِالدَّرَاهِمِ -
جَلَامِيدُ أَمْلاءُ الْأَكْفِ كَأَنَّهَا رُؤْسُ رِجَالٍ حُلِقَتْ بِالْمَوَاسِمِ -

« قوله : حلقنا رؤسا : يريد أزلناها بالسيوف ، واللها بفتح اللام
جمع لهاة وهي لحمة مشرقة على عكدة اللسان ، والغلاصم جمع الغلصمة وهي
لحمة بين الرأس والعنق ، والجلاميد جمع جلمود وهو الحجر تأخذه بيدك
وهو بيان لقوله سلاح لنا لا يشتري بالدرهم ،

وقال المعري :

كَانَ أَرَاقِمًا نَفَثَتْ سِمَامًا عَلَيْهِ فَعَادَ مُبَيِّضًا نَجِيمًا
وَمَنْ تَعَلَّقَ بِهِ حُمَةُ الْأَفَاعِي يَعِشُ — إِنَّ فَاتَهُ أَجَلٌ — عَلِيًّا
كَانَ فِرِنْدُهُ وَالْيَوْمُ حَمْتُ أَفَاضَ بَصْفِجِهِ تَجِيمًا
تَرَدَّدَ مَآوَهُ عُلُوقًا وَسُفْلًا وَهَمَّ فَمَا تَمَكَّنَ أَنْ يَسِيلًا
يَسْكَادُ سَنَاهُ يُجْرِقُ مَنْ فَرَاهُ وَيُغْرِقُ مَنْ نَجَا مِنْهُ كُلُّوًّا

« كَانَ أَرَاقِمًا ... البيت يقول : كَانَ الْحَيَاتِ نَفَثَتْ السَّمُومَ عَلَى هَذَا

السيف فصار أبيض ناحلا ، وذلك أن السم موصوف بالبياض ، ومن
نكزته الحية ونفثت فيه سمها تحل جسمه ، فجعل البياض في السيف لونا
للمم والنحافة فعلة ، وقوله : ومن تعلق به : البيت لما وصف السيف

بالتحول لما نفثت الأراقمُ عليه سماءها حَقَّقَ وَجَهَ نَحْوَهُ ، وهو أن مَنْ خالطهُ سُمُّ الأفاعي هلك في غايِبِ الأمرِ ، وإنْ فاتَهُ الهلاكُ عاش عَيْسِيلاً ، والعليلُ نَحِيلُ الجسمِ لا نَحَالَةٌ ؛ وقوله : كَأَنَّ فِرْدَنَدَه ... البيتُ فالفِرْدَنَدُ : جَوْهَرُ السيفِ وماؤُهُ ، ويومُ حَمْتُ : شديدُ الحَرِّ ، والسَّجَلُ : الدَّلْوُ ، إذا كانَ فيها ماءٌ ، ولا يُقالُ لها وهي فارغةٌ : سَجَلٌ ولا ذَنُوبٌ ، والسَّجِيلُ : الضَّخْمُ العَظِيمُ ، يَصْفُ بِياضِ السيفِ وبريقه ، أي كانَ جَوْهَرَ السيفِ وقد صُتِبَ بوجهه دَلْوٌ من الماءِ في يومٍ شديدِ الحَرِّ ، فهو أبيضٌ براقٌ كأنه ماءٌ ، وإنما ذَكَرَ شِدَّةَ الحَرِّ لأنه إذا كانَ اليومُ شديدَ الحَرِّ كانت الحاجةُ إلى الماءِ أَشَدَّ ، أو لأنَّ الماءَ مع إشراقِ الشمسِ أَشَدُّ بريقاً ولمعاناً . وقوله : تَرَدَّدَ ماؤُهُ ... البيتُ لما شَبَّهَ فِرْدَنَدَ السيفِ بالماءِ وَصَفَهُ بأنَّ الماءَ كأنه يترددُ فيه من أعلاه إلى أسفلِهِ ومن أسفلِهِ إلى أعلاه ، وَيَهْمُ الماءُ أن يَسِيلَ من صَفْحَتِهِ فلا يَتِمَكَّنُ من السيلانِ ، لأنه محصورٌ في أجزائه ، وقوله : يَكَادُ سَناءُ ... البيتُ فالسَّناءُ : الضَّوْءُ ، وَقَرَّاهُ : قَطَعَهُ ، وَكَلَّ السيفِ والرَّحَّ يَبِكَلُ كالأولِ : إذا تَبَّأَ عن العملِ ، يقولُ : إن هذا السيفَ جَمَعَ بين النارِ والماءِ فهو يُحَرِّقُ من قَطَعِهِ وَيُغْرِقُ بِمِائِهِ مَنْ كَلَّ السيفُ عنه قَنَجا منه .

وقال إسحاق بن خَلْفٍ :

أَهْضَى مِنَ الأَجْلِ المُنَاحِ أَلْقَى بِجَانِبِ حَاصِرِهِ
وَكَأَنَّمَا ذَرُّ الهَبَا عَلَيْهِ أَنْفَاسُ الرِّياحِ

وقال النابغة :

تَطِيرُ بِضَاضاً بَيْنَهُمْ كُلِّ قَوْنَسٍ وَيَتَّبِعُهَا دَنَهُمْ فَرَأْسُ الحَواجِبِ

تَقْدُ السَّلْوِقِيُّ الْمُضَاعَفَ نَسْجُهُ وَتُوْقِدُ بِالضَّفْحِ نَارَ الْحَبَابِ
 « بَضُضْتُ الشَّيْءَ أَضْضُهُ فَضًّا فَهُوَ مَفْضُوضٌ وَفِضِيضٌ : كَسَرْتُهُ وَفَرَقْتُهُ ،
 وَفَضَّضْتُهُ وَفِضَّضْتُهُ : مَا تَنَكَّسَ مِنْهُ وَتَفَرَّقَ ، وَالْقَوْنِسُ : مُقَدِّمُ الرَّأْسِ ،
 وَقَوْنِسُ الْبَيْضَةِ مِنَ السَّلَاحِ : أَعْلَاهَا ، وَالْفِرَاشُ : عَظْمُ الْحَاجِبِ ، أَوْ وَشْرَةُ
 تَسْكُونُ عَلَى الْعِظَامِ دُونَ اللَّحْمِ ، وَيُقَالُ : ضَرَبْتُهُ فَأَطَارَ فِرَاشَ رَأْسِهِ وَذَلِكَ
 إِذَا طَارَتِ الْعِظَامُ رِقَاقًا مِنْ رَأْسِهِ ، وَالسَّلْوِقِيُّ : الدَّرْعُ الْمُنْسُوبَةُ إِلَى سَلْوِقٍ ،
 وَهِيَ قَرِيبَةٌ بِالْيَمَنِ تُعْرَفُ بِسَائِقِيَّةٍ وَإِلَيْهَا تَنْسَبُ أَيْضًا السِّكْلَابُ السَّلْوِقِيَّةُ ،
 وَالضَّفْحُ جَمْعُ ضَفْحَةٍ وَهِيَ : كُلُّ عَرِيضٍ مِنَ الْحِجَارَةِ وَنَحْوِهَا ، وَالْحَبَابُ :
 الشَّرَرُ الَّذِي يَسْقُطُ مِنَ الزَّنَادِ يَقُولُ فِي الْبَيْتِ الثَّانِي : إِنَّ هَذِهِ السِّيُوفُ
 تَقْدُ — تَقْطَعُ — الدَّرْعَ الَّتِي ضَوْعَفَ نَسْجُهَا وَالْفَارِسُ وَالْفَرَسُ وَتَصِلُ
 إِلَى الْأَرْضِ فَتَقْدَحُ النَّارَ بِالضَّفْحِ » .

وقال البُحْتَرِيُّ يصف الدرع :

يَمْشُونَ فِي زَرْدٍ كَانَ مُتَوْنَهَا فِي كُلِّ مُعْتَرِكٍ مُتُونٌ زَهَاءِ
 بَيْضٌ تَسِيلُ عَلَى السِّكَاةِ فَضُوْهَا سَيْلَ السَّرَابِ بِقَفْرَةٍ بِيْدَاءِ
 وَإِذَا الْأَيْسَّةُ خَالَطَتْهَا خِلَّتْهَا فِيهَا خَيْالَ كَوَاكِبٍ فِي مَاءِ
 « زَهَاءُ جَمْعُ زَهَى ، وَالنَّهْيُ : الْغَدِيرُ »

وقال عبدُ الله بنُ المعتزِّ .

كَمْ بَطَلٍ بَارَزَنِي فِي الْوَعْيِ عَلَيْهِ دِرْعٌ خِلَّتْهَا تَطَرِدُ
 كَأَنَّهَا مَاءٌ عَلَيْهِ جَرَى حَتَّى إِذَا مَاغَابَ فِيهِ جَمَدٌ

وقال المتنبي :

تَرُدُّ عَنْهُ قَنَا الْفُرْسَانِ سَابِقَةً صَوْبُ الْأَيْسَّةِ فِي اثْنَانِهَا دِيمٌ

تَحُطُّ فِيهَا الْعَوَالِي لَيْسَ تَنْفُذُهَا كَأَنَّ كُلَّ سِنَانٍ فَوْقَهَا قَلَمٌ
 « يقول في البيت الأول : تمنع الرياح من النفوذ في عدو الممدوح
 درعُ سَابِغَةٍ قَدْ تَلَطَّخَتْ بِالِدَّمَاءِ الَّتِي تَسِيلُ مِنَ الْأَسِنَّةِ عَلَيْهَا ، أَوْ أَنْ وَقَعَ
 الْأَسِنَّةُ فِي هَذِهِ الدَّرْعِ كَدِيمَةِ الْمَطَرِ تَتَابَعًا . ويقول في البيت الثاني : إن
 الرِّيحَ تَوَثَّرَ فِي دَرْعِهِ ، أَيْ نَجَّرَحُهَا ، وَلَا تَنْفُذُهَا إِلَى جِسْمِهِ ، حَتَّى كَأَنَّ
 أَسِنَّتَهَا أَقْلَامَ تَحُطُّ فِي الْقِرطَاسِ وَلَا تَخْرُقُهُ » . وقال المعري :

إِذَا طُوِيَتْ فَالْقَعْبُ يَجْمَعُ شِمْلَهَا وَإِنْ نُثِلَتْ سَالَتْ مَسِيلَ مِمَادٍ
 وَمَا هِيَ إِلَّا رَوْضَةٌ سَدِكٌ بِهَا ذُبَابُ حُسَامٍ فِي السَّوَابِغِ شَادٍ
 عَلَى أَنَّهَا أُمُّ الْوَعْيَى وَابْنَةُ اللَّظِي وَأَخْتُ الظُّبَى فِي كُلِّ يَوْمٍ جِلَادٍ

« الْقَعْبُ : الْقَدْحُ الصَّغِيرُ ، وَنَثَلَ الدَّرْعَ يَنْثَلُهَا : إِذَا أَلْقَاهَا عَلَى نَفْسِهِ
 وَصَبَّهَا عَلَيْهِ ، وَالثَّمَادُ جَمْعُ ثَمَدٍ وَهُوَ : الْمَاءُ الْقَلِيلُ . يقول : إِذَا طُوِيَتْ
 صَغُرَ حَجْمُهَا بِالطِّيِّ حَتَّى يَسَعَهَا الْقَعْبُ . وَإِنْ لُبِسَتْ سَالَتْ عَلَى الْبَدَنِ
 كَالْمَاءِ . وَقَوْلُهُ : وَمَا هِيَ إِلَّا رَوْضَةٌ ... الْبَيْتُ ، فَسَدِكٌ بِالشَّيْءِ : لَزِمَهُ ، وَشَادٍ
 يَشْدُو فَهُوَ شَادٍ : إِذَا رَفَعَ صَوْتَهُ بِالْغِنَاءِ ، شَبَّهَ هَذِهِ الدَّرْعَ بِالرَّوْضَةِ ،
 وَالذُّبَابُ يَجْتَمِعُ فِي الرِّيَاضِ وَيُصَوِّتُ فِيهَا ، يَقُولُ : إِنَّ هَذِهِ الدَّرْعَ رَوْضَةٌ
 قَدْ أَوْلَعَ بِهَا ذُبَابُ السَّيْفِ ، وَهُوَ : حَدُّهُ الَّذِي يَتَعَنَّى فِي الدَّرْعِ ، أَيْ أَنَّهَا
 دِرْعٌ لَا تَزَالُ عَلَى بَطْلِ مُحَارِبٍ تَرُدُّهَا سُيُوفَ الْأَقْرَانِ وَتَقَارِعُهَا فَيَسْمَعُ
 صَوْتًا وَقَعِيهَا . وَقَوْلُهُ : عَلَى أَنَّهَا ... الْبَيْتُ فَالْجِلَادُ : الضَّرَابُ بِالسَّيْفِ ،
 وَجَعَلَ الدَّرْعَ أُمَّ الْوَعْيَى — أَيْ الْحَرْبِ — إِذْ أَنَّهَا تَجْرِي تَجْرِي الْأَصْلَ
 وَالْمَلْجَأُ الَّذِي يُلْجَأُ إِلَيْهِ ، وَجَعَلَهَا ابْنَةَ اللَّظِي — أَيْ النَّارِ — لِأَنَّهَا لِأَنَّهَا
 مَحْمَلَةٌ بِالنَّارِ ، وَأَخْتُ الظُّبَى — جَمْعُ ظُبَّةٍ وَهِيَ حَدُّ السَّيْفِ — إِذْ لَا تَزَالُ

تَرِدُهَا ظُبَاتُ السِّوْفِ وَتَقَارِبُهَا وَلَا تَوَثُرُ فِيهَا ، وَصَفَّهَا بِهَذِهِ الْأَسْمَاءِ الْمُنْبِتَةِ
عَنِ الْقَرَابَاتِ مُرِيدًا بِهَا مَا يَنْسَبُهَا مِنَ الْمَعْنَى .

وَلَأَبَى الْعِلَاءِ الْمَعْرَى فِي الدَّرُوعِ مَقْطُوعَاتٌ كَثِيرَةٌ ، لَقَدْ آفَتِنَ فِيهَا افْتِنَانَا ،
وَأَبْدَعَ مَا شَاءَتْ عِبْقَرِيته تَرَاهَا فِي سَقَطِ الزَّوْدِ .

وَإِذَا أُرِدْتَ التَّوَسُّعَ فِي وَصْفِ آلَاتِ الْقِتَالِ مِنَ السِّوْفِ وَالدَّرُوعِ
وَالرَّمَاكِ وَالْقَسِيِّ وَالنَّبَالِ وَمَا إِلَى ذَلِكَ فَارْجِعْ إِلَى الْمَوْسُوعَاتِ الْعَرَبِيَّةِ وَدَوَابِّ
الشُّعْرَاءِ فَسَوْفَ تَرَى فِيهَا الطَّمَّ وَالرَّمَّ ، مِمَّا لَعَلَّ يَنْقَعُ عُلَّتَكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

تمَّ الجزء الثاني ويليه الجزء الثالث إن شاء الله



استدراكات وتصويبات أخرى

لما وقع في المجلد الأول من الأخطاء

جاء في صفحة ٤٢ من المجلد الأول من الذخائر هذا البيت هكذا :

إذا ظلم المولى فزعتَ لِظُلْمِهِ فحركَ أحشائي وهرتِ كلابيا

وقد نهنا في تصويبات المجلد الأول : إلى أن فزعت صوابها فَرِغْتُ
وهنا نحاول أن نشرح هذا البيت شرحا آخر علاوة على الذي أوردناه هناك في

شرحه فنقول : قال التبريزي : فحركَ أحشائي يروى « وحركَ أحشائي »

وهذا كما يقال : هذا أمرٌ قد حرك مِنِّي : إذا اضطربت له ، وقوله :

حركَ أحشائي يجوز أن يكون تحركت أحشاؤه لِوَجِيبِ قَلْبِهِ وخفقانه ،

ونبعت كلابه لِتهيئته للانتقام وتدججه في السلاح وتجمع أصحابه ، والكلب

يُنْكِرُ أصحابه إذا رآهم بهذه الحال ، وأنشد الأصمعي في مثله :

أناؤس إذا ما أنكرَ الكلبُ أهلهُ

حَمَوْا جَارَهُمْ مِنْ كُلِّ شَنْعَاءٍ مُظْلِمٍ

ووجه آخر ، وهو أن يكون تحركت أحشاؤه لإعداد ما يُعده .

والمتسرع يُلحِقُهُ ذلك

وجاء في صفحة ٦٠ : ورأى عُمرُ بنُ الخطاب رجلاً يقول : أنا ابن

بطحاء مَكَّة ... الخ وصحة هذه الجملة كما جاء في الأغاني ج ٤ ص ٣١٨

طبعة دار الكتب هكذا : وسمع عُمرُ بنُ الخطاب رضى الله عنه رجلاً يقول

لآخر يفخرُ عليه : أنا ابنُ مُسَلِّطِ حِجْرِ البِطَّاحِ ، وابن كذا وكذا ، فقال له

عمر : إن كان لك عقل فلك أصلٌ ، وإن كان لك خُلُقٌ فلك شرفٌ ،
 وإن كان لك تقوى فلك كرمٌ ، وإلا فذاك الحار خيرٌ منك : أَحَبُّكُمْ إِلَيْنَا
 قَبْلَ أَنْ زَاكِمَ أَحْسَنُكُمْ سَمَنًا ، إِذَا تَكَلَّمْتُمْ فَأَبْيَسُكُمْ مَنطِقًا . فَإِذَا اخْتَبَرْنَاكُمْ
 فَأَحْسَنُكُمْ فِعْلًا .

وجاء في صفحة ٧٩ من المجلد الأول : وقال حمادٌ عَجْرَدٌ في ذلك
 من أبيات : بُثَّ النَّوَالِ وَلَا تَمْنَعَكَ قِلَّتُهُ الْحُجَّ ، وَصَوَابُهُ هَكَذَا : وقال بشار
 ابن بُرْدٍ يهجو العباس بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس ، وكان قد
 سَمَّنَحَهُ فَلَمْ يَمْنَحَهُ :

ظَلَّ الْيَسَارِ عَلَى الْعَبَاسِ مَمْدُودُ	وَقَابُهُ أَبَدًا فِي الْبُخْلِ مَعْقُودُ
إِنَّ السَّكْرِيمَ لِيُخْفِي عَنْكَ عُسْرَتَهُ	حَتَّى تَرَاهُ غَنِيًّا وَهُوَ بِجَهْدِ
وَالْبَخِيلِ عَلَى أَمْوَالِهِ عِلَلُ	زُرُقِ الْعَيُونِ عَلَيْهَا أَوْجُهُ سَوْدُ
إِذَا تَكَرَّهْتَ أَنْ تُعْطِيَ الْقَائِلِ وَلَمْ	تَقْدِرْ عَلَى سَعَةٍ لَمْ يَظْهَرَ الْجُودُ
أَوْ رِقَ بِخَيْرٍ تُرَجِّي لِلنَّوَالِ فَمَا	تُرَجِّي الثَّمَارُ إِذَا لَمْ يُورِقِ الْعُودُ
بُثَّ النَّوَالِ وَلَا تَمْنَعَكَ قِلَّتُهُ	فَكُلُّ مَا سَدَّ فَقْرًا فَهُوَ مَحْمُودُ

وجاء في صفحة ١٢١ هذا البيت هكذا :

وَمَا خُبْرُهُ إِلَّا كَعَنْقَاءِ مُغْرِبٍ تَصَوَّرُ فِي بُسْطِ الْمُلُوكِ وَفِي الْمَثَلِ
 وَصَوَابُهُ هَكَذَا :

وَمَا خُبْرُهُ إِلَّا كَعَنْقَاءِ مُغْرِبٍ تَصَوَّرُ فِي بُسْطِ الْمُلُوكِ وَفِي الْمَثَلِ

وهو أحد أبيات لآبي نواس يهجو بها إسماعيل بن سهل وقيل هذا

البيت :

على حُبِّزِ إِسْمَاعِيلَ وَأَقِيئَةَ الْبُخْلِ فَقَدْ حَلَّ فِي دَارِ الْإِمَانِ مِنَ الْأَكْلِ

وبعده :

يُحَدِّثُ عَنْهَا النَّاسُ مِنْ غَيْرِ رُؤْيَةٍ سِوَى صُورَةٍ مَا إِنْ تُمِرُّ وَلَا تُحَلِي
إِلَى آخِرِ الْآيَاتِ . وَالْمَثَلُ هِيَ الْمَثَلُ جَمْعٌ ، مِثَالٌ وَهُوَ : مَا يُفَسِّرُشُ مِنْ مَفَارِشِ
الصُّوفِ الْمُلَوَّنَةِ ، وَقَوْلُهُ : يُحَدِّثُ عَنْهَا النَّاسُ ... نَضْمِيرٌ عَنْهَا لِعِنْقَاءِ مُغْرِبِ ،
وَقَوْلُهُ : مَا إِنْ تُمِرُّ وَلَا تُحَلِي : قَمَرٌ : تَجَمُّهُ مُرًا وَتَحَلِي : تَجْعَلُهُ حُلُومًا وَالْمَعْنَى :
لَا تَأْتِي هَذِهِ الصُّورَةُ بِطَائِلٍ إِذْ أَنَّهُ لَا حَقِيقَةَ لِعِنْقَاءِ مُغْرِبٍ فِي الْوَاقِعِ وَهَذَا
عَلَى حَدِّ قَوْلِهِمْ : فَلَا أَنْتَ حُلُومٌ وَلَا أَنْتَ مُرٌ : أَي لَسْتَ هُنَاكَ »

وجاء في صفحة ١٢٤ : فهى حق أريد بها باطل ، وصوابها : فهى حق أريد

به باطل .

وجاء في صفحة ١٥٩ : ولى حمر النعم . وصوابها . ولى حمر النعم

وجاء في صفحة ٣١٥ : لم يدخله يا ذنى فأخرجته يا ذنى . وصوابها :

لم يدخله يا ذنى فأخرجته يا ذنى .

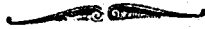
وجاء في هذه الصفحة : قال ابن عباس رضى الله عنه ، وصوابها قال ابن

عبّاش رضى الله عنه ، « وهذا ابن عياش هو أبو بكر بن عياش المُحدِّثُ

المتروكى سنة ١٩٣ هجرية وقد ترجم له ياقوت في معجم الأدباء « ج ٧ »

وقد وردت فيه حكايتنا هكذا : قال أبو بكر بن عياش : كنت إذ أنا شابُّ إذا أصابتنى مُصيبةٌ ، تصبَّرتُ ورَدَدْتُ البكاء ، فكان ذلك يوجعُنِي ويزيدنِي ألمًا ، حتى رأيت بالكناسة — محلة بالكوفة — أعرابياً واقفاً وقد اجتمع الناس حوله فأنشد :

خَلِيلِي عَوْجًا مِنْ صَدُورِ الرُّوَاهِلِ بِجَهْوَرِ حُزُونِي وَأَبْكِيَا فِي الْمَنَازِلِ
لَعَلَّ انْحِدَارَ الدَّمْعِ يُعْقِبُ رَاحَةً مِنْ الْوَجْدِ أَوْ يَشْفِي نَجِيَّ الْبَلَابِلِ
فَسَأَلْتُ عَنْهُ فَتَقِيلُ : ذُو الرِّمَّةِ ، قَالَ : فَأَصَابَتْنِي بَعْدَ ذَلِكَ صَائِبٌ فَكَنْتُ أَبْكِي
فَأَجِدُ رَاحَةً ، فَقُلْتُ فِي نَفْسِي : قَاتِلِ اللَّهُ الْأَعْرَابِيَّ ، مَا كَانَ أَبْصَرَهُ وَأَعْلَمَهُ !



أغلاط مطبعية

في هذا الجزء الثاني

صواب	خطأ	ص	سطر
وفي باب العزم	وفي باب الغرم	٧	١٢
فِيصِيرُكَ	فِيصِيرُكَ	١	٤٤
حَسَنُ الكِدْنَةِ - بكسر الكاف	حَسَنُ الكِدْنَةِ	٤	٤٦
وضمها - : أى السَّمَن			
فَكَأَنَّهُ	فَكَأَنَّهُ	٢٠	٤٨
عَلَيْتُهُ	عَلَيْتُهُ	٢٠	٦٠
عُلُوُّهُ	عُلُوُّهُ	١٢	١٠٠
فإن يكُ حُرْمٌ	فإن يكُ حُرْمٌ	١٤	١٢١
قال زُفَر بن الحارث	قال من لا أذكر اسمه	١٥	١٢٢
سطر أجنبي عنهما			
الشاعر البَيْغَاء	الشاعر البَيْغَاء	١٣	١٦٨
نهبهم عن الغضب من المرح	نهبهم عن الغضب في المرح	١١	١٨٤
أى يَوْمِيَّ	أى يَوْمِيَّ	١٠	٢٢٩
وانجلى الزُّبْدُ	وانجلى الزُّبْدُ	١٧	٢٤٠
إنِ العَدُوُّ	إنِ العَدُوُّ	٨	٢٤٤
بيد أن ميناها	بيد أن معناها	٥	٢٤٧
سحاب	سحاب	٤	٢٥١

فهرس الجزء الثاني

من الذخائر والعقريات

عقريات شتى

تندرج في الابواب السابقة

سمر أخلاق الخلفاء الراشدين ٢ طلحة بن عبيد الله ٢ حادث تلاقى فيه الكرم بالشجاعة والمروءة
والحياء والتبلى ٧ سلم وأدب وسمو خلق ٩ خير ما يرزقه العبد ١٠ لانزال العرب عربا ما حافظت
على زبها ١٠ توفير العالم والشريف والكبير ١١ عبرة ١٤ لانتك إلى غير الله ١٥ نبالة
وسرورة ١٥ دعوة الله ١٦ كلمات في السؤال ١٦ كما ويرون أن الملوك لا يستحي من مسألتهم ١٦
مثل في الرياء ١٨ الم نصف المرم ١٩ مثل الدنيا وآفتها ١٩ عمرو بن العاص يصف حاله في
احتضاره ٢٠ ماذا قال عبد الله بن الزبير حين آتاه خبر مقتل أخيه المصعب ٢١ إذا ضيقت شيئا
ضاق جداً ٢٢ لا تلهن على ما فانك ٢٢ ومن قولهم في الحث على التعزى ٢٣ لكل غد طعام ٢٤
التمام مولعون بايذاء الكرام ٢٥ آيات في الصبر والشجاعة والكرم ٢٦ آيات حكيمة ٢٧
آيات من لم يروها فلا مروءة له ٣٠ حكم ومواعظ ٣٢ في الموت ٣٥

طائفة من عقرياتهم في التعازى

اتسالية بعد وقوع المخذور ٣٧ من دواعى التسلى قرب الماحوق باليت ٣٨ من تعازى الملوك
وتسليمهم بأن الناس جميعاً مصابون ٣٨ التسلى بأنهم معزى لامعزى به ٣٩ التسلى عن معنى بمن بقى ٣٩
من تسلى بماله من الثواب وبعض تعازيهم ٤٠ من مات له كثير من أهله فصبر ٤١ ومن ادعيتهم
لدوى المصيبة ٤٢

عقرياتهم في الطب والمرضى وعبادة المرضى

معنى الطب ٤٢ وصف طبيب حاذق ٤٢ الطبيب الجمال ٤٣ مدح الحية وذمها ٤٣ شرب
الدواء ٤٤ سياسة الأبدان بما يصلحها من الطعام وغيره ٤٥ من تناول طعاما وتحقق تولدعة
منه ٤٧ الحى ٤٨ الرمد ٥٠ النفوس ٥١ عود إلى عقرياتهم في الشداوى والأدوية ٥١
شهرة المريض إلى الطعام ٥٢ شكوى العلة ٥٢ فضل الصحة والعافية ٥٣ نفع المرضى ٥٤
وصف العلة بأنها تال الأمانى ٥٤ وجوب عبادة المريض ٥٦ أدب عبادة المريض ٥٦ شكاية
من لا يعودده إخوانه ٥٧ الاعتذار عن ترك العبادة ٥٧ من علاه يرضه ٥٧ مريض عاد صحيحا ٥٨
حنهم العائد على تنفيظ المريض ٥٨ حنهم على تخوفه ليتجنب المضار ٥٨ تغير اللون ٥٨ ثبته
من برأ من المرض ٥٩ نفدية المريض ٦٠

٦١ { عبقریات شتی
فی الطب والمرض والعیادة

الباب الرابع فی کتمان السر وإفشاءه

وعبقریاتهم فی ذلك وفیما یجرى هذا المجرى

من الشوری والاستبداد بالرأى والنصح والایانة والعجلة

تمهید ٦٤ حفظ اللسان ٦٥ منع إظهار السر قبل تمامه ٦٦ حثهم على حفظ السر ٦٦ من یکره اطلاعہ على السر ٦٧ المتختر بحفظ السر ٦٨ المدوح بحفظ السر ٦٨ صموبة حفظ السر ٧٠ من لا یحفظ مره ویستحفظه غیره ٧٠ الأحوال الی یفشو فیها السر ٧١ المساررة فی المحافل ٧١ المتجج باظهار أسرار أصدقائه ٧٢ الرخصة فی إفشاء السر إلى الصدیق ١٢ عبقریات شتی فی کتمان السر ٧٣ عبقریاتهم فی المشورة والاستیذان بالرأى ٧٦ مدح المشورة ٧٦ حثهم على مشاورة الحازم اللیب ٧٧ استشارة الکبار والصغار ومن یتعمد على مشورته ورویه ٧٨ من یجب أن یجتنب استشارته ٨١ وجوب نصیحة مستشیرک ٨١ الحک على قبول النصح وإن کان مرأ ٨٣ عتاب من لم یقبل النصح ٨٣ ضیاع النصح لمن لا یقبله ٨٣ معایبة من یتنصح الناس ویستنش الناصح ٨٤ الناصح منهم ٨٥ وصف غاش فی نصحه ٨٦ الاستبداد وکراهة المشورة ٨٦ المتفادی من أن یتنذر ٨٨ مدح الاناة والرؤية وذم العجلة ٨٨ مدح العجلة وانتهاز الفرص ٩٠ عبقریات شتی فی المشورة ٩١

عبقریاتهم فی الوعظ والأمر بالمعروف والنهی عن المنکر

نهی من لم یتعظ عن الوعظ ٩٥ حثهم على الوعظ بالفعال دون المقال ٩٥ التلطف والین فی الوعظ ٩٦ الحک على الاتعاط ٩٦ وعظ من لا یتعظ ٩٦ حثهم على قبول وعظ من لیس یتعظ ٩٧ النهی عن الاقتداء بذوی الزلات ٩٧ الحک على الأمر بالمعروف والمحال الی یجوز فیها ٩٧

الباب الخامس

فی الحلم وکظم الغیظ والعفو والغضب والانتقام وما إلى هذه المعانی

تمهید ١٠٠ المدوح بالحلم وتمدحهم به ١٠٢ فضل کظم الغیظ ١٠٤ الغضب وألوانه وما یسکن به نوره ١٠٥ من اجتهد فی إغضابه فحلم ١٠٧ حثهم على ترک الغضب المؤدی إلى الاعتذار ١٠٩ حثهم على اتصام عن الفیج وتمدحهم بذلك ١١٠ حثهم على العفو مطلقاً ١١٠ التحمل عن الخدم ١١١ الرحمة ومدح ذریعها ١١٢ ما یسجن فیہ الحلم من الکبار وما یتفتح ١١٢ حثهم على در الحدود ١١٣ حث القادر على العفو ١١٣ ذم المتشی من الغیظ ١١٤ مدح من صغیح =

قدرة ١١٥ الحث على إقالة من سلم ظاهره ١١٥ العفو عن سلم باطنه ١١٦ عتب من يحفظ الذنب بعد تقادمه ١١٧ العفو عن المقر المعترف ١١٧ حسن العفو عن المص ١١٨ استعفاء من خلط لإقرارا بإنكار ١١٨ معذرة مع إنكار ١١٩ معذرة بتكذيب نفسه ١٢٠ استعفاء من زعم أن ذنبه كان خطأ ١٢١ مستعفى سأل أن يقوم ويؤدب ١٢٢ مستعفى سأل العفو لفرط خوفه ١٢٢ مستعفى اتكل على سالف حرمة ١٢٢ الاستعفاء للذنب من قوم محسنين ١٢٣ متوصل إلى العفو بمراجعة أو حجة ١٢٣ مستعفى ذكر فرط خوفه من الوعيد ١٢٣ من استعفى واستوهب معاً ١٢٤ المتوصل إلى العفو بالثبوت إلى حين التبيين ١٢٥ نسي العاقب عن التثريب ١٢٥ نسيهم عن الاعتذار وصعوبته ١٢٦ تأسف من يعاتب بغير ذنب ١٢٧ التهي عن الحلم إذا كان يسبب ذلاً أو ضراً ١٢٨ دفع الجهل بالجهل ١٢٩ من نسي عن الاعتذار بحمله ١٣٠ الحلم مغر وضار مذل ١٣٠ نسيهم عن إكرام اللتام ١٣١ الاستعانة بالجهل لدى الحاجة إليه ١٣٢ حث القادر على العقاب قبل فوته ١٣٢ التبيح بقسوة القلب وقلة الرحمة ١٣٣ أخذ البريء بذنب الجاني ١٣٤ عذر من بدر منه سخط ١٣٨ الاحتراس من غرس العداوة ١٣٨ نسيهم عن الاعتذار بالود تستيطن معه العداوة ١٣٩ نسيهم عن السكون إلى من تقدم منك إليه إساءة ١٤٢ نسيهم عن احتقار العدو ١٤٣ المتبيح باظهار اللبان وإضمار العداوة ١٤٤ العدو يكافئك إذا حضرك ١٤٥ من نظره ينجو عن عداوته ١٤٥ ثبات العداوة الذاتية ١٤٧ حمد المدعاة طبا للفرصة ١٤٧ المسرة بوقوع العداة بين أعدائك ١٤٨ ذنب يعاديك بلا سبب ١٤٨ تأسف من يعاديه لثبم أو ذنبه ١٤٨ حثهم على العداوة بالقول لا بالفعل ١٤٩

طائفة من عبقرياتهم

في الناس وما جبل عليه السواد الأعظم
من الحقد والحسد وسوء الظن والثمالة وما جرى هذا المجرى

الناس - لا يزال الناس بخير ما تابناهم ١٤٩ وجدت الناس أخبر تله ١٥١ الناس كابل مائة لا تجد نهرا رحلة ١٥١ لوتكاشتم ما تداقتم ١٥٢ تفارق في الناس وأرواهم ١٥٢ الفوغاه ١٦١ قلة الوفاء في الناس وشروع الغدر والمكر في عامتهم ١٦٣ الأندال والثام ١٦٦ الظن ١٦٨ الثمالة ١٧٠ الحقد ١٧٠ ذم الحقد ومدحه ١٧١ الحسد ١٧٤ المزاح ١٨٢ نسيهم عن المزاح ١٨٢ حدم القصد في المزح ومزاح الأمانل ١٨٣ نسيهم عن الغضب من المزح ١٨٤ المدحوخ بأن فيه الجدد والمزول ١٨٤ عذر من يضحك وهو محزون ١٨٥ نسيهم عن كثرة الضحك ١٨٥ إيراد جسد في مسلك هول ١٨٥ صدر من عبقرياتهم في الغيبة والتمية - حقيقة الغيبة ١٨٦ ذم الغيبة والتمية ١٨٦ من سمحت نفسه بأن يكون في حل ومن لا تسمع نفسه ١٨٨ من فلت مبالاته بمن اغتابه ١٨٨ ذم ناقص بغتاب فاضلا ١٨٩ من رمى غيره بعيه ١٩٠ اغتاب المرء غيره يدل على عيبه ١٩٠ تشبه الغيبة واستطابتها ١٩١ من اغتاب فاغتاب ١٩٢ نسيهم عن الاضفاء إلى الغتاب ١٩٢ المدحوخ بصيانة مجلسه عن الغيبة ١٩٢ حثهم على الثبوت فيما يسمع من السعاية ١٩٢ صعوبة التخلص من اغتاب الناس ١٩٥ ذم ناقص الغيبة ١٩٦ الموصوف بالتمية ١٩٦ من اغتاب غيره فرآه ١٩٦ من لا يوم اغتابه ١٩٧ حثهم على التحرز عما يقتضى الغيبة ١٩٧

الباب السادس

في التواضع والسكبر وما إليهما

- حدائق التواضع والسكبر ١٩٨ حثهم على التواضع ٢٠٠ ذمهم السكبر ٢٠٣ بعض دواعي السكبر ٢٠٤
متكبر ذئ أو فقير ٢٠٥ مدحهم معرفة الرجل قدر نفسه وذمهم الصلف وبعض نوادر المزهون ٢٠٥
معتذر لعجه وعزته ٢٠٧ استكبر على ذوى السكبر ٢٠٧ ذمهم الافراط في التواضع ٢٠٨ حد
تعظيم الكبار ٢٠٨

الباب السابع

في الشجاعة وعقوباتهم فيها

وفي الصبر في القتال وسائر ما يتصل بالحرب

- حقيقة الشجاعة ٢١٠ الأسباب المدججة ٢١١ حثهم على الثبات والاقدام ونهيمهم عن الاحجام
والفكر في العواقب ٢١٢ البادر إلى الحرب غير مبال بها ٢١٥ حث من دعى إلى المبارزة على
الاجابة ٢١٦ المنازل وقت المنازلة ٢١٦ صدر من عقوباتهم في الصبر ٢١٧ الحدعة والحيلة
واتحزز في الحرب ٢٢٠ ما ينبغي أن يتصف به أمراء الجيوش ٢٢٢ حثهم على التفكير قبل
التقدم ٢٢٧ من يؤثر الموت في العز على الحياة في الذل ٢٢٨ نهيمهم عن مخافة القتل وحثهم على تصور
الموت وتمدحهم بذلك ٢٢٩ الجود بالفسوح حب الموت في الوغى وأنفتهم من الموت على الفرائس ٢٣٤
من يحوض الحرب لا بد أن يوطن نفسه على الموت ٢٣٨ في القتل حياة ٢٣٨ تأثير الخوف والخوف
منه والوفى على الجماعة ٢٣٩ المدوح بقوة نفسه دون جسمه ٢٤٣ اتقصد إلى العدى بمجاهرة ٢٤٤
المقاتل عن حريمه ٢٤٤ المستنكف من السلب ٢٤٥ الشبان والكهول في الحرب ٢٤٦ العاجز
أعاده عن إصلاح ما أفسده وعكس ذلك ٢٤٨ من تصبه العاير والسباع في القتال ٢٤٩ عذر من
يلبس الدروع ونحوها في الحرب والمستغنى بشجاعته ويثنيه عنها ٢٥٢ تحريم الملاحى على المحارب ٢٥٤
طائفة من عقوباتهم في الصلح والتحذير من الحرب ٢٥٦ الحرب تصيب جانبها وغير جانبها ٢٦٠
المتع من الصلح ٢٦١ ضارع طلب الصلح ٢٦٢ المعير بانهمائه ٢٦٧ ترك اتباع المنهم ٢٦٨
الفاروق الفرار والثبات وقت الثبات ٢٦٩ المتفادى من حضور الحرب والمحتج لانهمائه بالخوف من
القتل ٢٧٠ هارب يعتذر عن هربه ٢٧١ التخلف عن قومه ٢٧٢ من نجا وقد استولى عليه
الخوف ٢٧٣ تلبية المنهم ٢٧٤ صدر من عقوباتهم في الجبن ٢٧٥ من يظهر الشجاعة خارج
الحرب ويحجن فيها ٢٧٧ عقوبات شتى في الشجاعة والحرب ٢٧٧ ماغزى قوم قط في عقر دارهم
إلا ذلوا ٢٨٢ صدر من عقوباتهم في وصف آلات الحرب ٢٩٦ استدركات أخطأ في الجزء الأول ٣٠٤
استدركات أخطأ في الجزء الثاني ٣٠٧ الفهرس ٣٠٨